

الترجمة الكاملة

وصف مصر

المجلد الثالث

المدن والأقاليم المصرية

ترجمة
زهر الشايب

تأليف
علماء المحكمة الفرنسية

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر

وصف مصر

الترجمة الكاملة

(٣)

دراسات عن

المدن والأقاليم المصرية

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
علاء أسامة الفرنجية

الطبعة الأولى

١٩٧٨

حقوق الترجمة محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا هو المجلد الثالث من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر وأقصد بالترجمة الكاملة - كما قلت من قبل في مقدمتي المجلدين الأول والثاني من هذه الترجمة - النص الكامل ، حيث لا تتعرض الدراسات التي تقدم هنا لأي تصرف من أى نوع .

وهذه هي المرة الثالثة كذلك التي أجدني ملزماً بتقديم هذا العمل إلى القارىء وأرجو المعذرة هذه المرة إن قلت إنني لم أعد استشعر حاجة إلى الحديث لأن أهمية وضرورة وصف مصر ، ولا في إعطاء القارىء فكرة عن أجزائه ومحتوياته ، ولا عن خطة الترجمة التي أتبعها وبالذات في تقديم الدراسات المتوسطة والصغيرة فقد تناولت ذلك كله في تقديمي للمجلدين السابقين : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ؛ والعرب في ريف مصر وصحراؤها .

وعلى الرغم من ذلك كله أشعر أن « المنهج » المتبع يحتاج إلى إعادة نظر بين وقت وآخر : فحين نتصفح المجلد الذي بين يدينا والذي يدور حول « مدن وأقاليم مصر » نجد أنه في الحقيقة متمم للمجلد الثاني الذي سبق أن تناول بدوره « مدن مصر وأقاليمها » أيضاً ، وإن ظلت الدراسات التي اختيرت داخل إطاره تقصر حديثها على المدن والأقاليم الصحراوية ؛ لكننا نستطيع أن نضع المجلدين ، الثاني والثالث ، داخل إطار واحد يمكن أن نطلق عليه اسم « موسوعة المدن والأقاليم المصرية » ، الجزء الأول : الأقاليم الصحراوية ، أو أطراف مصر ، والجزء الثاني : الوادي والدلتا .

(٥)

وهكذا نجدنا القارىء الكريم نفلح من عندنا أسماء وعناوين على دراسات جاءت بوصف مصر مبعثرة على مجلداته المختلفة ، وليس في هذا تحريف من أى نوع ، فلقد كان مسيراً بل مستحيلاً تقديم دراسات وصف مصر كما جاءت بنفس ترتيبها فى الأصل الفرنسى ، أى أنه كان لابد من خيط يضم هذه الحبات المتناثرة ليتكون هذا « العقد » أى أنه كان لابد من اتباع خط بعينه ، أو تلمس هذا الخط فى الحقيقة ، لئلا تتجاوز دراسات كانت متناثرة ، وتتباع دراسات كانت متلاصقة أو متجاورة ، فلم أجد مستساغاً مثلاً أن أقدم دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير وتليهما دراسة عن الضراب على الاطيان الزراعية ثم دراسة عن ميثاس النيل . . وهكذا ؛ وإذا كان الأصل الفرنسى قد جاء على هذا النحو ، فقد فعل ذلك لأنه اتخذ لنفسه إطاراً أوسع وأهم هو « وصف مصر » .

بل إن المضى فى الترجمة لأشواط أبعد قد يدفع دفعاً إلى تعديل هذا المنهج ذاته ؛ فمن المعروف أننى أقصر حتى الآن على تقديم الدراسات التى نشرتها مجلدات الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر ، أو مصر كما شاهدها علماء الحملة الفرنسية ؛ وحين نصل إلى الدولة القديمة أو الحالة القديمة لمصر سنجد دراسات تعرض لموضوعات بعينها سبق أن تناولتها مجلدات الحالة الحديثة ، وبذلك يبرز منهج جديد لماذا لا نضع الدراستين اللتين تتناولان موضوعاً واحداً : دراسة عن حالته القديمة ثم دراسة عن حالته الحديثة إلى جوار بعضهما البعض ؛ فهناك فى الحالة القديمة على سبيل المثال دراسات عن البحر الأحمر وموانيه القديمة ، وعن فروع النيل القديمة . . ويمكن أن تضاف هذه « لموسوعتنا » هذه عن مدن وأقاليم مصر ، لتكون متممة ومكاملة لها .

وسوف يلاحظ القارىء أيضاً فى المجلدين الثانى والثالث أننى لجأت إلى اختيار عناوين للدراسات أسرع من العناوين الأصلية لها وأكثر حداثة ، لقد كان ذلك ضرورياً ، فقارىء اليوم لا يمكن أن يسيغ عنواناً لدراسة يبلغ أحياناً

(هـ)

حوالى ثلاثة أو أربعة أسطر ، ومع ذلك فقد قدمت ترجمة حرفية لعنوان الدراسة ؛ وأرجو ألا يبعد البعض في ذلك تصرفا معيبا .

كذلك سوف يستشعر القارئ حاجة ماسة إلى وجود الخرائط التي أعدها علماء الجيش الفرنسى لهذه الأماكن ، وإذا كان ذلك هسيماً على هذه المرة ، فأرجو أن أتمكن من ذلك في دراسات تالية أو في طبعة تالية لنفس هذا المجلد ؛ إن وصف مصر ليس بالعمل الهين ، وتقديمه ليس بالأمر السهل من كافة النواحي ، ومع ذلك فأرجو ألا يعد الإقدام عليه رعوناً أو تهوراً أو غروراً أحق ، وعلى الله دوماً قصد السبيل .

بل إننى أشعر بمدى رغبة القارئ في أن يرى لوحات وصف مصر؛ وجزء من أسباب احتياج اللوحات حتى الآن يعود إلى أن الدراسات التي تقدم حتى الآن لا تلعب فيها اللوحات دوراً كبيراً ، بل إن غالبيتها العظمى لا تصحبها لوحات على الإطلاق ، أما الجزء الثانى فيرتبط بالمنهج : هل تقدم اللوحات مستقلة كما هو فى الأصل الفرنسى ، أم تقدم اللوحات مع الدراسات التي تتصل بها ، وكيف يمكن علاج مشكلة الحجم .. بالإضافة قطعاً إلى مشكلة الإمكانات وإن كنت أرجو أن يكون السبب الأخير قد بدأ ينتهى بعد أن شامت مكتبة الخانجي مشكورة أن تحمل أعباء طبع ونشر هذا العمل على نفقتها ، فحملت على عبثاً ثقيلاً كنت أنوه به وكان له أثره بالتأكيد فى ذلك الخطو البطيء والمتعثر الذى سار عليه العمل فبدأ معه وكأنه يجب ، ولهذا السبب لا بد لي أن أبدأ بشكر الحاج نجيب الخانجي وولده الأستاذ محمد الخانجي على العون الصادق الذى قدماه لهذا الجهد .

وحين أصل إلى تقديم الشكر ، أجدنى أواجه سؤالاً هاماً : هل يمكننا أن نصف جهداً ما بأنه جهد فردى ؟ حين يتباهى كثيرون بأنهم يقدمون عملاً من خلقهم وحدهم ، فإنهم يخافون الحقيقة فى الواقع ، فهل يمكن إغفال كل الذين عاونوا فى صنع هذا العمل ؟ وماذا سيكون هذا العمل لو لم يتوفر له من يعاون

(١)

على صنعه ، منذ كان مجرد فكرة إلى أن أصبح واقعاً ملموساً ؟ ويدرك ذلك حقيقة كل من بذل جهداً علمياً أو فكرياً . . . وأبسط سؤال في هذا المجال : ما هي قيمة عمل مهما بلغت قيمته حين لا يجد من يقدمه للناس ويوفره لهم .

ويدفعني الانصاف والوفاء أن أقدر دور كل الذين ساهموا في رأيي في تقديم هذا العمل ونشره على الناس ، وتأتي مجلة الثقافة ، ويأتى رئيس تحريرها الدكتور عبد العزيز الدسوقي في مقدمة من يستحقون الشكر ، ولست أبالغ حين أعد المجلة ورئيس تحريرها شريكين حقيقين في هذا العمل فقد احتضنته المجلة منذ كان مجرد فكرة ، وأفردت له من صفحاتها الكثير ، بما كان له أكبر الأثر في المضي قدماً بهذا المشروع ، وتستحق مجلة الإذاعة والتليفزيون الشكر هي الأخرى لنفس الغرض ويستحق رئيساً تحريرها : الأديب الكبير الأستاذ ثروت أباظة ، ثم الأستاذ أحمد بهجت شكراً جزيلاً على ترحيبهما على التوالى بلشر أجزاء كبيرة من العمل على صفحات المجلة ، كما سيظل هذا العمل مديناً للأخوة الاساتذة : ريليه خورى ، والدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، والدكتور عبد الرحمن زكى وإبراهيم المويلحى على ما قدموه من عون علمى صادق ، كما لا بد أن أوجه الشكر لكل الأعلام التي رحبت بالعمل ، ولكل الذين منحوني من تشجيعهم ما كان له الأثر في نفسى على تحمل هذا العمل الشاق ، وفي هذا الصدد لا بد أن أقدم للسيدة زوجتى شكراً خاصاً .

على أننى احتفظ بأكبر قدر من الشكر والتقدير لكل من يتفضل بالنصح والإرشاد حتى يبلغ هذا العمل القدر اللائق الذى يجعله فى الشكل الذى يليق بأن نهديه لأمتنا مصر وأهلنا المصريين .

زهير الشايب

سبتمبر ١٩٧٨

الفهرس

ج

المقدمة

- الدراسة الأولى : رحلة إلى شرق الدلتا ، تأليف مالو ١٠ - ١٢
- الدراسة الثانية : جولة في بحيرة المنزلة ، تأليف أندرو يوسى ١٣ - ٤٦
- الدراسة الثالثة : رحلة إلى غرب الدلتا : تأليف لانسكريه وشابرول ٤٧ - ٦٠
- الدراسة الرابعة : رحلة إلى أعماق الدلتا : تأليف دى بو - إيميه وجولوا ٦١ - ١١٤
- القسم الأول : لمحة عامة عن الدلتا - الرحيل من القاهرة -
الوصول إلى منوف - وصف المنوفية ٦٣ . .
- القسم الثانى : الرحيل من منوف - وصف الفرع الترموتى -
أطلال أترشيش وبيبلوس وبوزيريس - الوصول
إلى سمندود ٨٠ . .
- القسم الثالث : عن سمندود - خرائب بهيت ٨٧ . .
- القسم الرابع : عن مدينتى المحلة الكبيرة وطنظا - عن
بعض الأطلال المصرية وعن خرائب سايس ٩٣ . .
- الدراسة الخامسة : جولة بين بحيرات مصر ، تأليف جراتيان لوبيير ١١٥ - ١٤٤
- الدراسة السادسة : دراسة موجزة عن الحدود القديمة للبحر الأحمر
تأليف دى بو - إيميه ١٤٥ - ١٥٦
- الدراسة السابعة : الحدود القديمة للبحر الأحمر مرة أخرى
تأليف دى بوا - إيميه ١٥٧ - ٢٠٠
- الفصل الأول : عن حالة الأماكن ١٥٩ . .

(ح)

الفصل الثاني : شهادات تاريخية ١٧٩

الدراسة الثامنة : دراسة عن النوبة والنوبيين تأليف كوستاز ٢٠١ - ٢١٨

الدراسة التاسعة : مدينة رشيد ، تأليف : جولوا . . . ٢١٩ - ٢٦٨

الفصل الأول : المعبور من الإسكندرية إلى رشيد ٢٢١ .

الفصل الثاني : المظهر الخارجى لرشيد وضواحيها ٢٢٤ .

الفصل الثالث : الماكينات المستخدمة فى الزراعة والرى ٢٣٤

الفصل الرابع : البيوت فى رشيد ؛ عمارتها وشكلها الخارجى ٢٣٩

الفصل الخامس : الصناعات اليدوية والحرف . . ٢٥٢

الفصل السادس : عن سحرة الثعابين . . . ٢٥٧

الفصل السابع : الرحيل من رشيد إلى القاهرة . . ٢٦١

الدراسة العاشرة : دراسة موجزة عند ترعة الاسكندرية ، تأليف :

لانسكرىه وشابروول . . ٢٦٩ - ٢٩٠

الدراسة الحادية عشر : دراسة عن مدينة الاسكندرية ، تأليف :

جراتيان لوبير . . . ٢٩١ - ٣٩٥

الجزء الأول : الحالة الحديثة للمدينة تحت حكم امبراطورية

الباب العثمانى ٣٠٠

القسم الثانى : الحالة القديمة لمدينة الإسكندرية فى عهد

امبراطوريتى الإغريق والرومان ، مع مقارنة هذه

الحالة بحالتها الراهنة ٣٤٨

القسم الثالث : فحص موضح عن حالة مدينة الاسكندرية

بشكلها القديم مع مقارنتها بحالتها فى شكلها الراهن . ٣٦٤

ملخص ٣٩٤

(١)

رحلة الى شرق الدلتا "مالو"

العنوان الأصلي للدراسة : مستخلص من دراسة
عن الحالة القديمة والحديثة للأقاليم المصرية امير السفلى
السيو مالو .

تذكر كل المؤلفات القديمة التي تتحدث عن جغرافية مصر أن النيل كان يصب مياهه في البحر من طريق سبعة مصبات لكن الجغرافيين المحدثين لا يعرفون بعد سوى فرعين لهذا النهر هما فرع رشيد وفرع دمياط ، لأنهما الفرعان الوحيدان اللذان يمكن عن طريقهما اختراق الأقاليم التي يمران بها والتي لا تزال تحتفظ بظلال التحتضر وذلك بتأثير حركة التجارة .

وبالرغم من الانتقادات الهامة التي قدمها العلامة الجغرافي دانفيل d'Anville فإن أبحاثه هو نفسه عن آثار مصبات النهر السبعة لم تفض إلى شيء ، كما أن الخريطة التي قدمها بعد أبحاث عديدة تمتلئ بالأخطاء وبالمعلومات غير الدقيقة . لكن الأمر لا ينبغي أن يكون مدعاة للدهشة فهذا هو هيرودت نفسه وهو الذي جاب الجزء الأكبر من هذه البلاد يخطو في تحديد بعض فروع النيل السبعة هذه وكذلك في تحديد اسم بعض مدن مصر ، حيث كانت البلاد في الفترة التي كان يحومها فيها هذا المؤرخ خارجة للتو من حرب طويلة مما جعل الظروف غير مواتية للقيام بملاحظات جغرافية .

وعندما كانت في أشهر الحملة الأولى — ومعنى المسير فيفر M. Favre باستكشاف الدنيا والأقاليم الشرقية لمصر السفلى ، واتفق الفرصة لاجتياز تلك البلاد مع قوات كافية لحماية أبحاثي وسأكتفي هنا بالحديث عن الفرع الثاني الذي عثرت عليه وهبته بكل امتداده ، وهو أنهى فروع النيل الشرقية التي ماتزال باقية حتى اليوم .

كان يوجد بين هذا الفرع وبين خليج السويس الفرع البيلاوزي الذي كان ما يزال صالحا للملاحة في عصر الإسكندر الذي اخترق أسطوله مصر عن طريق هذا الفرع ، لكنه الآن يكاد يكون مطموساً برمال الصحراء وإن كان مصبه

على البحر لا يزال قائماً على الرغم من أنه يقع أبعد بمقدار أربع مرات عن بيلوز القديمة كما كانت في زمن سترابون^(١) فهي تقع عند طرف سهل يسميه العرب الطينة وهي الترجمة العربية للكلمة اليونانية بيلوز Pelos أى الطين .

كان ينبغي أن يكون الفرع الثانى — وهو الفرع الثانى عند البدء من جهة الشرق — أفضل حالا حيث هو أكثر بعداً عن الصحراء ولو كان هذا الفرع قد ظل موجوداً حتى اليوم لكان بمقدوره أن يصبح منفذاً جديداً للتجارة والاتصالات العسكرية .

ولكى نعثر على آثار هذا الفرع من فروع النيل ، ولكى نحدد موقعه — رحلنا من القاهرة مع كتيبة قوية محاذين فرع النيل الذى ينتهى عند دمياط . وفي اليوم الثالث من مسيرتنا وصلنا إلى مشارف ولاية قليوب التى تنتهى عند أتريب ، وقد بنيت هذه القرية الصغيرة على طرف خراب مدينة كانت تحمل نفس الاسم والتى يبدو أنها كانت تغطى بمكانة مرموقة حيث كانت عاصمة لأحد الأقاليم . ويبلغ طول خرابها ١٦٠٠ متر وعرضها ١٥٠٠ متر . وقد أرشدنا الناس إلى قصر الحاكم ، وهو يقع فى المنطقة ما بين الشارع الكبير والميدان العمومى ولم يكتشف بعد أى من أطلال القصر ، ويدعى السكان أنه يعثر على كتل من الرخام عند القيام بأية عمليات حفر .

ونستنتج نحن من ذلك أنهم قد حولوا كل ما وجدوه فى أيديهم من حجارة إلى جير وأن كل الأحجار الجيرية التى كانت توجد وسط أنقاض المدينة قد لقيت نفس المصير . وتلك هى عادة هؤلاء السكان مع كل الأحجار التى يعثرون عليها فى كل المدن القديمة ، البعيدة عن المحاجر . وقد شاهدنا كذلك فى خراب

(١) يقول سترابون إن محيط بيلوز كان يبلغ ٢٠ غلوة (١٠٢٠) قامة = ٦٨٠ ياردة) . وهذا هو طول أسوار بيلوز فى الواقع ، ويضيف سترابون أنه هذا السور كان يقع على نفس هذه المسافة من جهة البحر ، واليوم ، فإن مصب الطينة يبعد عن بيلوز (بالوظة) بـ ٨٠٠٠ ياردة .

هذه المدينة بقايا بعض أفران الجير (الجيارات) - وثمة آثار لبعض القباب الصغيرة توجد تحت الأرض وتشبه تلك التي يدفن فيها سكان القاهرة اليوم موتاهم . لقد كانت هذه على وجه التقريب مقابر ، وكان الشارع الكبير الذى مايزال ظاهراً لحد كبير يؤدي عمودياً إلى النيل الذى تبذل مياهه أطراف هذه الخرائب . وثمة شارع آخر أقل أهمية يخترق المدينة من الوسط ذاهباً إلى الشمال .

وهل بعد فرسخ من هنا توجد قرية موسى وهذا هو نفس اسم التربة كبيرة وهذه المنطقة هي جزء من إمتدادها . وكان اتساع فرع دمياط في تلك الفترة التي دخلنا فيها - أى في التاسع عشر من ديسمبر وبعد الفيضان بحوالى ثلاثة شهور ، يبلغ ٣٠٠ متر كما كان اتساع هذه التربة يبلغ ١٥٠ متراً ويجرى جزء من مياه النهر المنجبة إلى الشمال الشرق بسرعة في هذا الفرع الجديد . ويبين للوهلة الأولى أن هذه التربة لم تحفرها يد الإنسان وإنما هي فرع النيل الذى كان هل أن اكتشف مجراه ، فشواطئها مسطحة وفي مستوى السهل الذى تمر به . ولم أستطع أن أحصل من السكان على أية معلومات عن البلاد التي تعبرها هذه التربة فقد أكدوا لي جميعاً بأنها تضيق في الأراضي على بعد مسافة من منبعها وأن السهل الذى ترويه يتردد عليه العربان البدو .

وقد نزلنا لمسافة ستة فراسخ في هذه التربة دون أن نجد شيئاً لافتاً للنظر هل شواطئها ؛ فالسهل الذى تخترقه يتكون من أرض سميكة ومزروعة بشكل طيب ، وهي تلتج القمح والذرة والقطن وقصب السكر ، كما يخترقها عدد كبير من الترع التي تمتلئ وقت الفيضان والتي تجمع فيها المياه بواسطة قناطر أقيمت عند منبعها في التربة الكبيرة .

وعند مرتفع دنوها تنفرع التربة إلى فرعين ، وقد سرنا نحن في الفرع الشرق ، أما الفرع الثانى فينقسم إلى عدة جداول تنضم كلها فيما بعد إلى الفرع الذى كنا نجتازه .

وقد لمحمنا عند نقطة انفصال هذين الفرعين خرائب هائلة قال عنها الأهالى أنها تسمى تل بسطة ، فهي إذن خرائب بوباسطة القديمة ، وقد وجدناها وقد احتلها العربان ، ولقد مررنا هناك بعدة مبان يمكن لها أن تكون ذات نفع فى دراسة تاريخ العمارة المصرية . كان ثمة كتل هائلة من الجرانيت تغطيها كتابات هيرغليفية مشوهة أن قليلا أو كثيراً . وكانت هذه الكتل مكسدة بطريقة تبعث على الدهشة . ولا يكاد المرء يستطيع أن يتصور أية قوة أمكنها أن تحطم هذه الأحجار وأن تكسدها هكذا واحدة فوق الأخرى . وقد قطع عديد من هذه الأحجار لانتخاذها كأثاثات . وقد رأينا ركامات كاملة من أحجار ضخمة تركت فى مكانها وذلك بلا جدال بسبب نقص وسائل نقلها .

وقد بنيت هذه المدينة --- كمثل المدن القديمة فى مصر السفلى --- على مصاطب كبيرة من الطوب النيى . رفعها فوق منسوب مياه الفيضان ، ويبلغ طول قالب الطوب قدما واحداً كما كان عرضه وسمكه يبلغان نفس الحجم .

ولقد استخدم الإسرائيلون وقت أسرم فى إنشاء وإقامة هذه المصاطب ، وفى فترات عديدة من سفر الكتابة نراهم يشكون من أنهم قد أرغوا على القيام بهذا العمل الشاق والمخط . ويبلغ اتساع بوباسطة من كل الجهات ما بين ١٢٠٠ - ١٤٠٠ متر وثمة حوض واسع فى داخلها يقع وسط الملشآت التى رأيناها .

ويدعى هيرودت أن ديانا كانت تسمى فى اللغة المصرية بوباسطة (*) ،

(*) يقول صاحب الفاموس الجغرافى للبلدان المصرية بأنها إحدى المدن المصرية القديمة وان اسمها المصرى القديم هو Per Bastit أى مدينة الآلهة Bastit ، وكان اسمها الرومى هو Boulostis أما اسمها بالقبطية فكان Bouloast ، ووردت فى قوانين ابن مائى بسطة من أعمال الشرقية ، وقد خربت وتعرف أطلالها اليوم باسم تل بسطة ، حيث مبانيها تشغل أرض حوض التل رقم ١٢ بأراضى شوبك بسطة على بعد ٤ كيلو متر راحد جنوب شرق الزقازيق (المترجم) .

ويطلق أوفيد على هذه المدينة اسم بوباسطة المقدسة ، وقد عثرنا فيها على آثار لعبادة القمر . فقد كان ثمة حجر مرصع بالنجوم ويمثل شكل قبة على النحو الذى نراه فى المعابد وفوق أحجار السقوف . وكانت الاحتفالات بعيد ديانا تقوم فى الواقع كل عام فى هذه المدينة وكان هو العيد الرئيسى عند المصريين ، كما كانت تتجمع فيها أعداد هائلة من الأجانب يقدمهم هيرودت بـ ٧٠,٠٠٠ نسمة دون أن يدخل الأطفال فى هذا التعداد ، وكان هذا العيد فى الواقع نوعا من طقوس العريضة واللبو شبيها بأعياد باخوس عند الإغريق . ويتحدث القدماء عن كميات كبيرة من النبيذ كانت تستهلك هناك . وكانت تدفن فى هذه المدينة مومياوات القبط التى كان يقدسها المصريون بنفس القسدر الذى كانوا يقدسون به عجول أبيس ، وكما كانوا ينقلون مومياوات هذه العجول المقدسة إلى هرم بوليس فقد كانوا ينقلون مومياوات القبط المقدسة إلى بوباسطة .

وتجاه المدينة ، ثمة جزيرة كبيرة يكونها الفرع الذى تحدئنا عنه من قبل ، وكان القدماء يسمون هذه المدينة ميكفوريس وهى ولاية قائمة بذاتها كانت تسكنها قبيلة متخصصة فى صنع السلاح . وهذه المنطقة اليوم تضم سهلا طيب الزراعة به غابات كبيرة من أشجار النخيل وقرى شديدة الصغر من بينها قرية القناتيات التى منحت اسمها للفرع الغربى من الترع .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة ، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة تسمى هميا وهى محاطة بغابة كثيفة من النخيل ، وعلى الرغم من أن اسمها كان مجهولا من كل الجغرافيين ومن أنها لم تكن معروفة فى ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضرا ، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكانا كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان المحيطة بها . والجزء من غابة النخيل القريب من السكان ، يزرع فى شكل تجميسية وأربع فى زوايا المربع وواحدة فى الوسط ، وبمناية تشبه العناية التى تلقاها الحدائق الأوربية ، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو فى حالة جيدة وتعلوه أبراج

قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطواي وتعلو أبوابها الى صنعت
بشكل أسطوانى جزءاً من هذا السور . ويبدو سكان هذه المدينة أكثر تحضراً
من جيرانهم . وامتد غادرنا النهر وجدنا الناس في كل مكان يحملون السلاح ،
يسودهم روح من التمرد والضجر . وفي هذه المدينة ، وعلى الرغم من أننا
كنا - ربما - أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم ، خرج الناس في شكل جمهور
ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلح من بينهم رجلاً مسلحاً .

وإبتداء من ضواحي المدينة ، وحتى الجزء الأدنى من التربة ، لاحظنا على
الشواطئ وجود عدد كبير من الأبراج المبلية بلا أبواب ولا نوافذ والتي
تختبرها بعض الطواي ، وهذه الأبراج تستخدم كآوى للسكان عندما يهاجمهم
أو يلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلاسل من حبال .

وفيما وراء هبها ووسط سهل منخفض وملىء بالمستنقعات ترتفع خرائب
مدينة كانت تسمى قورب حسبما يذكر السكان . وقد قامت في هذا المكان
قرية هوربيط وقد عثرنا فيها على قدم وجذع لأحد التماثيل الفخمة كما وجدنا
أيضاً قطعاً من الأعمدة وشظايا من الجرانيت ، وكانت هذه المدينة فيما يبدو
ضئيلة الأهمية وكانت مساحتها تبلغ ربع مساحة بوابسة على أكثر تقدير .

وعلى بعد فرسخ من ذلك وعلى الشاطئ المقابل توجد قرية تسمى
كفر فورنيجة(*) وينظر إليها في هذه الجهات باعتبارها نهاية الأرض
المنحصرة إذ لا يمكن لقوارب الجزء الأعلى من التربة أن تجرؤ مطلقاً على أن
تتقدم لما وراء ذلك ، كما لا يمكن لقوارب الجزء الأدنى كذلك أن تصعد لأبعد
من ذلك . وخط الانفصال هذا شديد الوضوح لحد أن التربة نفسها تفقد اسمها
عنده ليصبح اسمها بعد ذلك تربة صان . وتبدو القرى التي وجدناها بعد هذه
النقطة وبها عدد كبير من الأبراج . وكل البيوت هناك مسورة بجدران متينة

(*) هكذا في الأصل ، وإن كنت لم أسعظم العثور على الاسم الصحيح لهذه القرية .
[المرجع]

وليس لهذه القرية سوى باب واحد ، ويسير فيها السكان وهم مسلحون على الدوام حتى عندما يمارسون أعمالهم في الحقول .

ولابدء من « فورنيجة » يأخذ اتساع التربة في الضيق فلا يعود يبلغ أكثر من ٦٠ متراً أما عمقها فيظل كما هو . وقريباً من بحيرة المنزل حيث تصب هذه التربة يبلغ عمقها أربعة أمتار . ولابدء من هوريط يقطع البلاد الواقعة على كلا الشطين عدد هائل من الترع والبرك والمستنقعات التي تجعل من المواصلات أمراً بالغ الصعوبة ، ويحتفظ بعض هذه التربة بمياهها لمدة ستة أو ثمانية أشهر .

وفي مواجهة قرية اللبايدة على الشاطئ الأيسر لمحنا بحيرة واسعة تتصل بالتربة عن طريق فروع عدة وتحتفظ بمياهها لمدة ثمانية أشهر في العام وهي صالحة للملاحة لجزء من هذا الوقت وتمتد حتى أبي داود ولا يفصل هذه البحيرة عن بحيرة المنزل إلا لسان من الأرض وليس ثمة أى اتصال بينهما .

وعلى بعد فرسخين من طرف التربة وقبل أن تصب في بحيرة المنزل ترتفع خراب صان أو تانيس التي أعطت اسمها من قبل لهذا الفرع من فروع النيل . وتشتهر هذه المدينة بكثرة عدد سكانها والمباني التي خلفها هناك ملوك مصر وبالمعجزات التي أتى بها موسى هناك قبل أن يغادر أرض مصر . وترى هناك أيضاً مسلات مقلوبة وقمم أعمدة تتشابه نقوشها مع النوع الكورني ، كما يرى كذلك مبنى متهدم من الجرانيت ومنقسم إلى جزئين وقد أستلجنا أنه مقبرة ، وقد عثرنا فيها على بقايا زهريات مصنوعة من طين بالغ النعومة وبعضها مدهون بطلاء لامع مازال موجوداً حتى اليوم . وقد عثرنا كذلك على طوب محروق من أنواع متعددة وعلى أجزاء من الزجاج والكريستال المصقول بشكل جيد .

وإلى الشمال من صان توجد تربة صغيرة تؤدي إلى الصالحية لكنها غير

سنة ١٠٠٠

صالحة للملاحة إلا لمدة شهر واحد . أما السهل الموجود فيها ورام هذه المدينة وفي بحيرة المنزلة فتخترقه أعداد هائلة من الترع تتقاطع في كل الاتجاهات . وعلى طرف هذا السهل تدخل التربة إلى البحيرة وتخترقها لمسافة ١٢ فرسخاً تظل خلالها محتفظة بمجراها ولا تختلط — برغم ذلك — مياههما ، حيث لا يبلغ عمق البحيرة هناك أكثر من المتر ، لذا فإننا نميز في كل مكان بحرى هذه التربة .

وهكذا وصلنا إلى أقصى التربة بعد أن تأكدنا بأنفسنا أنها صالحة للملاحة في كل أجزائها . وحسب المعلومات التي جمعناها فقد علمنا أنها لا تستخدم بالنسبة للسفن الكبيرة إلا لمدة ثمانية أشهر في العام ، وبعد هذه المدة يمكن لبعض الوقت فقط أن تستخدم فيها القوارب الصغيرة والخفيفة ولكن فقط في الجزء الأدنى منها . ولمدة تسعة أشهر من العام تجرى مياه النيل بحرية نحو بحيرة المنزلة ، وفي أثناء الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام تمتد مياه البحيرة إلى الأراضي الأدنى من مستوى التربة . ولنفادى هذه السكارثة يبني كل عام في كفر مويس سد يمسك ثلاثة أشهر . وعلى الرغم من هذه الخيبة ، فإن المياه المالحه تغطي على الأرض لمسافة تبلغ من ٧ — ٨ فراسخ . وفي أثناء الأوقات المتأخرة من الفيضانات تصبح المياه أمام اللباعدة — حيث لم يعد يوجد من مياه التربة إلا ما يبلغ عمق قدم واحد — مالحة تماماً .

تلك هي المعلومات التي استطعنا أن نتزود بها عن هذه التربة : عن طولها وعن عمقها وعن العدد العدد الهائل من الخرائب التي توجد على شواطئها ، ويكاد يكون من المؤكد أن مجراها هو نفس بحرى الفرع الثانى القديم . وإن نسوق هنا ، للبرهنة على ذلك ، نفس الملاحظات التي سقناها في مكان آخر كما أننا إن نقدم أيضاً أية ملاحظة عن مصب هذا الفرع في بحيرة المنزلة وعن الفائدة التي نستطيع أن ننجنيها من التربة الواطئة التي يمكن استخدامها للمواصلات من ديمياط ومن العدا الحية ، لسكننا نكتفى بأن نلاحظ فيما يتعلق بمواصلات القاهرة

أنه سيكون من الأسهل أن نتوجه مباشرة من صان عن طريق موسى بدلاً من أن يتم ذلك عن طريق بحيرة المنزلة ، وبذلك نتفادى إنزال البضائع في دمياط ثم نقلها أيضاً إلى البحيرة ثم تحميلها من جديد وسوف يكون هذا اقتصاداً في الوقت وفي التكاليف أما سبب قلة استخدام هذه المواصلات السهلة والمفيدة فهو السلب الدائم الذي يدور هناك ، كما أن غيبة قوة الحكومة قد أرغم الأهالي على أن يتحاشوا ذلك بقدر الإمكان : من هنا تولدت هذه الأحقاد من قرية نحو الأخرى ، ومن هنا نشأت هذه الحروب الصغيرة التي خنقت الثقة بشكل تام .

ولو أن هذه المنطقة البائسة كانت في حوزة شعب متحضر لكان مثل هذا الاتصال الجديد بين النهر والبحر وفي داخل البلاد ذا نفع هائل للتجارة ، ولكان قد ضم في وقت سريع إلى الحضارة مساحة من البلاد تبلغ حوالي ٥٠ فرسخاً لا يسكنها إلا قوم همج لاهم لهم إلا شن الحروب المستمرة ، بينما تنقصهم .. وهم يعيشون فوق هذا السهل الخصيب — الضرورات الأولى للحياة .

(٢)

جولته في بحيرة المنزلة

”أندريوسى“

العنوان الأصيل للدراسة : دراسة عن بحيرة
المنزلة ، تبعاً لنتائج دأورية الاستكشاف التى تمت
في فندمير من العام السابع (سبتمبر وأكتوبر ١٧٩٩) -
وقد اُصدرت هذه المقالة في *Décade Egyptienne*
وهى دورية كان يصدرها الجيش الفرنسى في القاهرة
كل خمسة أيام .

كانت مصر مهداً للعلوم والفنون ، لكن مبادئ هذه العلوم والفنون ظلت رهينة مدارس السكينة ، أو حبيسة داخل هذه الهيروغليفية التي لم تفك طلاسمها بعد . وكان السكينة المصريون ، المشغولون بشكل خاص في تأمل السماء ، يولون إهتماماً أقل بالظواهر الطبيعية التي تتم تحت ناظرهم ، ولذلك فقد لاحظ هيرودت عندما كان في ممفيس ، وعند حديثه مع السكينة أنهم كانوا يجهلون أسباب التغيرات التي كانت تحدث في الجزء الأسفل «الشمالي» من بلادهم ، الواقع بين بداية السهل وحتى البحر والتي يبدو أنها كانت تفاجئهم .

ومع ذلك فثمة ظروف ينبغي أن توضع في الحسبان ، ذلك أن مصر . في الفترة التي كان أبو التاريخ هذا يتجول في ربوعها ، كانت خارجة لتوها من حرب طويلة ، أهمل خلالها كل ما يتصل بالنواحي الاقتصادية العامة ، وتأثرت بذلك بطبيعة الحال تلك العناية التي تعطى للترع . وكانت هذه البلاد تئن فعلاً عن ذلك تحت وطأة حكم عسكري تشبه حكومته حكومة الماليك ، كما كانت المناطق القريبة من الصحراوات تتعرض للدمار على يد اللصوص وقطاع الطرق ، شأن ما يحدث في هذه الأيام .

إذن فلقد وجد هيرودت مصر في نفس الحالة تقريبا التي وجدها عليها الفرنسيون ، ولم يستطع أن يرى ولا أن يجمع عدداً كبيراً من الوقائع . وعلى الرغم من أن الوقائع التي ضمنها مؤلفه الهام قيمة لحديث كبير ، إلا أنه تركنا في حالة من الشك حول كثير من وقائع أخرى . ولقصد أضاف سترابون وديودور الصقلي أشياء قليلة إلى ما قدمه هيرودت . ولم يصنع أبو الفداء وهو يعرفنا بجغرافية عصره ، وكذلك لم يصنع المؤلفون الآخرون في القرن الثالث عشر بترجيحاتهم ، سوى أن زادوا من شكوكنا . وفضلاً عن ذلك فقد تحتم على مصر التي استعبدت أكثر من مرة أن تغير من لغتها ما أن يتغير

السادة المسيطرون عليها ، وهكذا ، فقد عانت مختلف تسميات الأشياء من التعديل والتحويل بل اختفى بعضها بشكل نهائى .. ولم يلبث كل هذا أن ألقي بكثير من الاضطراب حول الأفسكار ذاتها .

ولم يكن بمقدور مؤلفي اليوم إلا أن يعودوا إلى ما كتبه هؤلاء المؤلفون القدماء وأولئك الرحالة المحدثون ، ولقد نتج عن أبحاثهم ، وعلى وجه الخصوص أبحاث دانفل ، استنتاجات حاذقة ، بنى على أساسها هذا الجغرافى الشهير خرائطه لمصر القديمة والحديثة ، وهى الخرائط التفصيلية الوحيدة التى ظلت متداولة حتى مجيء الجيش الفرنسى إلى هذه البلاد . ولقد لاحظنا فى البداية ، عند استخدامنا لهذه الخرائط احتواءها على كثير من الأخطاء ، ويبدو أنه كان من العسير ، على الرغم من التمهيص الشديد الذى بذله دانفيل أن يكون الأمر على نحو مخالف .

ولقد هيات المدة التى بقىها الجيش الفرنسى فى مصر ، الوسائل لمراجعة العدد الأكبر من هذه الأخطاء ، كما أتاحت لنا أن ننزع كثيراً من الشكوك وأن نعيد تأسيس وقائع كاد يطويها الدسيان بفعل حقبات الأزمان ووقوف همجية الحكومات حائلاً ضد كل بحث .

وعندما تلقيت أوامر القائد العام بالقيام بجولة استطلاعية لبحيرة المنزلة ، فقد كانت الإرشادات المبدئية التى زودنى بها وكذلك المساعدات العلمية التى أمدنى بها البعض ، هى ما جعلنى فى وضع استطعت معه أن أعطى لعمليائى من الشمول والدقة ما يتجاوز بقليل ما تحصل عليه الاستطلاعات العسكرية عادة^(١) . وسوف أقدم بملاحظاتى ، كما سأقدم دراساتى مدعماً إياها بالبحوث

(١) ألفت بعد ذلك خريطة لهذه البحيرة بمزيد من العناية والتفاصيل ، وضعها السيدان جاكوتان ولوجنتى Jacotin & le Gentil . [انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر]

التي ظهرت ، وعندما استعنت بينما كنت أتناول بعض الوقائع الجغرافية بقرائن المؤلفين الأوائل ، فأننى لم أتبن آراهم بشكل تام ، لسكنى رجعت إلى الطبيعة ، التي هي أكثر من هؤلاء المؤلفين القدامى قدما ، كما أنها في نفس الوقت معاصرة لنا .

(١)

اكتشاف الفرع الثانيسى القديم

كان القدماء يرون أن النيل يصب مياهه في البحر عن طريق سبع فتحات^(١) ، إذن فقد كان ثمة سبعة فروع كانت تأخذ المياه منذ خروجها من الجبال لتسير بها إلى هذه الفتحات السبع .

وعلى النحو التالى ، كان النظام الذى عرف عاينه القدماء هذه الفروع السبعة ذاهبة من الشرق إلى الغرب :

١ - الفرع البيلوزى أو بوباسطة .

٢ - الفرع الثانيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة أم فرج .

٣ - الفرع المنديسى أو فرع دية .

٤ - الفرع البلمتيني وهو اليوم فرع دمياط .

(١) أطلق الشعراء على كل من هذه المصببات السبع اسم فم النيل (أورا) ، وتعود هذه التسمية إلى ما أرادوا أن ينعوه للنيل من عظمة ، ولسكننا عندما نكون إحدى الحديث عن جغرافية مصر الطبيعية سدا أخذ على طائفتنا أن نضع تمييزاً بعدد : فنسمى فروعاً ، لك الفرع التي تنجى إلى البحر المتوسط لابتداء من المنعطفة الواقعة شمال ممفيس : في حين نطلق لمة فم على فتحات هذه الفروع نفسها عند البحر . وهذا التمييز باله الأهمية ، حيث أن من الفروع التي كانت موجودة منذ الأصل ، قد اندثرت كلية أو في جزء منها ، في حين بد فتحاتها هنا وهناك ، تشكل وسيلة اتصال بين مختلف بحيرات مصر مع البحر المتوسط .

— ١٨ —

- ٥ - الفرع السبيني أو فرع البرلس .
- ٦ - الفرع البوابيتي أو فرع رشيد .
- ٧ - الفرع الكانوبي أو فرع أبي قير .

فهل بقيت حتى اليوم هذه الفروع ، بأكملها ، أو في جزء منها ، وهل يمكن العثور على آثار ما درس منها ؟ هذا ما سوف نتفحصه بخصوص الفروع الثلاثة الأولى ، وهي التي تدخل في إطار المهمة الاستطلاعية التي قننا بها .

كان الفرع البيلوزي صالحاً للملاحة عندما توغل الاسكندر في مصر إذ أنه ، أدخل من هذا الفرع أسطوله الذي استدعاه من غزة ، لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ، ولا تزال ترى حتى اليوم عند بيلوز « بالوظة » فتحته التي كانت تؤدي إلى البحر ، وهي مليئة بالطين . وقد أمكنني التيقن من أن آثار هذا الفرع لا بد وأنها موجودة اليوم ، في واقع الأمر ، في ولاية الشرقية بالقرب من قرية بسطة ، وهي مدينة خربة ، كانت تعرف فيما مضى باسم بوباسطة وهي التي نلحها على مسافة قصيرة إلى الشمال من بلبليس ونحن في طريقنا إلى سوريا . ويخيم ظلام كثيف ، لا يمكن اختراق حجبه حول الفرعين : التانيسي والمنديسي اللذين كانا يأتیان في الترتيب « من الشرق إلى الغرب » بعد الفرع البيلوزي واللذين كانا يصبان في مكان تشغله بحيرة المنزل وكان يسمى فيما مضى تنيس .

وعندما توغلت في بحيرة المنزل ، عن طريق فتحة دبية في الثاني عشر من فندمير « ٤ أكتوبر » . أدهشني كثيراً اتساع وعمق الترع التي تقع إلى اليمين بعد اجتياز الفتحة « الفم » وبدأت أتشكك أن قد تكون هي طرف الفرع المنديسي القديم ، وحاولت العثور على اتجاه مجراها باستخدام مجسات متتالية ، لكن الظروف التي دخلت فيها البحيرة لم تسمح لي على الإطلاق بأن أتم هذا العمل .

ومع ذلك فإن ما لم أستطع إنجازه بالمسبة للفرع المنديسى قد استطعت أن أتممه فيما أعتقد بالمسبة للفرع الثانيسى الذى كانت فتحته « فمه » هى نفسها فتحة « مصب » ترعة أم فرج . ويمر الممر عند ذهابه من هذه الفتحة إلى سمنة ، وهى يمينه، بجزيرتى تونة وتنيس ، ثم يتوغل فى ترعة بحر موسى . ومدخل هذه الفتحة غزير المياه ، وقاعها من الطين الأسود ، ويخوض الممر على يمين جزيرتى طينة وتنيس فى مياه يبلغ عمقها من ١٦ إلى ٢٠ ديسمتر (١٣٦ م إلى مترين) ، أما الجزء الأيسر فصالح للاستخدام القوارب الصغيرة فقط ، ولا يتجاوز خط حدود الملاحاة فى بحيرة المنزلة لأبعد من الخط الواصل بين هاتين الجزيرتين ، أما الجزيرات الصغيرة والأجزاء الضحلة التى تتقارب لحد التلاصق فى جنوب هذه الجزر فتبحث على الشك بأن ثمة قارة غارقة .

وتتوغل ترعة بحر موسى التى تروى ولاية الشرقية من بحيرة المنزلة إلى الجنوب الغربى من جزر المطرية . ويبلغ إتساع هذه التركة لإبتداء من سمنة حتى البحيرة من ٥٠ إلى ١٢٠ متراً ، ويبلغ عمقها من ٣ إلى ٤ أمتار ، وهى متصلة بالنيل وتصب فى البحيرة أثناء الفيضان كمية هائلة من المياه تندفع فيها لمسافة كبيرة دون أن تصبح مالحة العلم . وشواطئ هذه التركة مسطحة بما يلبيء أنها لا تعود مطابقاً إلى الأزمنة الحديثة كما سنرى فى القسم الخامس .

وهذه الآثار فى مجموعها هى أكثر من كافية كى تجعلنى أظن بأن بحر موسى هذا ليس سوى جزء من الفرع الثانيسى الذى كان يمتد حتى فم « مصب أو فتحة » أم فرج ، والذى توجد على شاطئه الأيمن مدينتنا : الطينة وتنيس ، ولقد تيقنت فى هذه الأثناء . . وعند عودتنا ، وفى وقت إنشائنا خريطة البحيرة تبعاً للبيانات التى حصلنا عليها من العمليات التى قمنا بها حول إتجاه ترعة موسى أن جزر الطينة وتنيس وفتحة أم فرج ليست مصطفة فى خط مستقيم . . وإنما

يتخذ الخط الواصل بينها شكل المنحنى الطبيعي الذي تصنعه مجارى المياه . كما لا بد أن أشير إلى أن آثار الفرع المنديسى وفه هو فتحة ديبة ، ينبغى البحث عنه بالاتجاه نحو ترعة أشنون .

(٢)

الوضع الحالى لبحيرة المنزلة

تقع بحيرة المنزلة بين خليجين كبيرين ، يتجزأ كل منهما إلى خليجان أخرى صغيرة ، وبين لسان طويل من الأرض المنخفضة ، ضيق الإتساع ويفصلها عن البحر . ويشكل الخليجان بإندماجهما فى بعضهما البعض شبه جزيرة المنزلة التى توجد على طرفها جزر المطرية ، وقد تكون هى الجزر الوحيدة المسكونة هناك ويبلغ أقصى إتساع للبحيرة بإتجاه غرب الشمال الغربى حوالى ٨٣٠م ٨٥٠م « ٣٠٠٠ » قامة ، وهو يمتد من دمياط إلى يبلوز « بالوظة » أما أصغر إتساع لها ، وهو إتجاه عمودى مع الإتجاه الأول بدءاً من المطرية فيبلغ ١٧٠٠م « ٨٧٢٢ » قامة .

وجزر المطرية كثيفة السكان ، وتغطى كل مساحتها الأكواخ التى تؤوى سكانها ، وهذه مبنية فى جزء منها بالطين وفى جزء آخر بالطوب . وتتناثر الأكواخ فى جزيرة ميت المطرية وتختلط بالمقابر ، وهى أشبه ما تكون بأكداس من الجحور منها إلى مساكن الأدميين . . . ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة — غير الدساء والأطفال ١١٠٠ رجل من العاميين بصيد الأسماك والطيور المائية .

ويخضع هؤلاء لنفوذ أربعين رئيساً ، يخضعون بدورهم لحسن طوبار الذى يختسركر حق الصيد فى بحيرة المنزلة نظير أتاوة يقدمها للبركات « المسالك »

.. وبخلاف ذلك فحسن طوبار هذا هو واحد من أكثر ملاك مصر ثراء . ولعله الوحيد الذى تجرأ على تكديس هذا الكم من الأملاك العقارية التى يتملكها، وعائلته من أكبر عائلات المنزلة . وهى تضم أربعة أو خمسة أجيال من الشيوخ . وسلطنة حسن طوبار جد هائلة ، وهى تقوم على نفوذه ، وثقة الناس به ، وعلى ثروته ، وأمله كثيرى العدد ، وعلى العدد الهائل من الأجراء الذين يرتبطون به ، وكذلك على دعم البدو الذين يمنحهم الأرض لزراعتها ، ويفرق شيوخهم بالهدايا ، وتستطيع هذه الجماعات من العربان الوصول إلى ترعة بحر موسى عن طريق الصالحية التى تتفرع عنها ومن هناك يلبثون البحيرة للانتمال بسكان المنزلة والمطرية . ويعد الآخرون باعتبارهم الملاك الوحيدين لحوالى ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قارب صيد تجوب البحيرة ، متحالفين مع جيران على هذا النحو « العربان » - يعدون السادة المرويين والمنحكمين فى كل البحيرة والبلاد الواقعة على شواطئها . وتقوم تجارتهم على السمك المملح والسمك الطازج والبطارخ . أما صيد أسماك البورى الذى يبيع بيهنه البطارخ فيتم بالقرب من فتحة دبية .. ولهذا السبب يسكن ٥٠ إلى ٦٠ صياداً مع عائلاتهم داخل أكواخ من الخوصير على قدم الجزر التى تجاور هذه الفتحة .

وصيادو بحيرة المنزلة ، وكذلك بدو القرى ، ناس بالغو النهم والجشع كما أنهم جاهلون جهلاً عميقاً ، فهم لا يعرفون مطلقاً تقسيم الوقت إلى ساعات ولا حتى قياس الوقت بوسيلة الظل كما يفعل عربان الصحراء . فشرق الشمس ، وغروبها ، ومن منتصف النهار هى الفترات الوحيدة التى يميزونها فى كل الأربع والعشرين ساعة ، وباستعادة هذه التقسيمات الموجودة عندهم ، ويأعطونها تقديراً للمسافات ، يستطيع المرء الحصول على بعض المعلومات حول مواقع الأماكن فى مناطقهم .

أما المنزلة ، التى منحت البحيرة اسمها ، فهى مدينة قليلة الأهمية ، خربة

في جزء منها ، وتقع على الشط الأيمن لترعة أشمون هلى بعد ثلاثة فراسخ من
المنزلة ، وستة فراسخ من دمياط ، ويبلغ تعداد سكانها حوالى الألفين ، وتوجد
فيها مصانع للأقمشة الحريرية وأقمشة القلاع التى تحتاجها المطرية ، وبها كذلك
مصايغ وبض مصانع أخرى ضئيلة الأهمية .

ويرى المرء في بحيرة المنزلة جزر كانت أهلة فيما مضى ، تغطيها الانقراض
وتشكل نتوءات بالغلة الأهمية متناثرة ومسط المياه ، مما يجعل السكان يطلقون
عليها اسم الجبال^(١) ، وسنوضح فيما بعد أن هذه الجزر كانت مبدئاً تنتمى إلى
قارة غارقة .

وتبدو جزيرتا تينيس وتونة باعتبارهما أهم الجزر ، وقد احتفظت الأولى
باسمها القديم ، أما جزيرة تونة فقد أصبح يطلق عليها اسم الشيخ عبد الله ، وهو
اسم شيخ أو ولي أقيم له ضريح في هذه الجزيرة . وتبعاً للملاحظة المسيو فولنى
فإن هذه التسميات : شيخ ، ولي ، مجنون ، ابلة .. إنما هي مترادفات . فالأولياء
هم أولئك الأشخاص الذين يثرون أثناء حياتهم دهشة الناس في آسيا بذلك
الغموض المبالغ فيه والذي يحيط بما يأتون به من فعال ، وتقام لهم بعد مماتهم
أضرحة مقدسة ، لأنها تثير حماسة المؤمنين الذين يودعون فيها بدافع من الورع
بعض الصدقات للفقراء . ومع ذلك أليست لكنائسنا الكبرى وكنائسنا الصغيرة
المنزلة في الأرياف أو في الطرق النائية بصناديق الصدقات فيها وبمصاييحها
المتوهجة ، وتلك الصور التى خطتها على الجدران ريشة الروحانيات أو الخرافة ..
أليست لها نفس الأغراض ؟

وجزر بحيرة المنزلة التى نراها في مستوى سطح الماء ، إنما هي قاحلة وغير
مزروعة ولا يجد المرء أى نتاج فيها سوى نباتات بحرية . وتوجد في البعض منها

(١) فيقولون : جبل تينيس ، جبل التونة ، جبل سمونة .

أضرحة تعلق هذا السطح المستوى ، وهى نقاط الاستدلال الوحيدة التى يمكن أن نجدها هناك لإنشاء خريطةنا .

ومياه البحيرة المنزلة أفضل مذاقاً على نحر ما من مياه البحر . وتكون صالحة أثناء الفيضان على بعد مضافة كبيرة من فتحات الترعى التى تصب فيها مياهها مثل ترعة بحر موريس . ويجد المرء المياه مالحة على نحو خفيف أو ذات مذاق ماسخ « لا مذاق له ولا لذة » ، وذلك على الشواطئ التى تحترقها المياه التى تتسرب من مزارع الأرز .

ومياه البحيرة فوسفورية ، أما هواؤها فصحية لدرجة كبيرة للغاية ، ومنذ ما يزيد على ثلاثين عاماً لم يعرف سكان المنزلة شكل الطاعون فى جزرهم . ويبلغ عمق مياه البحيرة فى عمومه المتر ، لكنه يبلغ ما بين مترين إلى خمسة أمتار تجاه الفرعين القديمين الثانيسى والمنديسى .

وقاع البحيرة من الصلصال المختلط بالرمل عند المصببات ، ومن الطين الأسود عند فتحتى ديبة وأم فرج ، ومن الطين المختلط بالقواقع فى بقية أجزائها وتغطيه الطحالب فى معظم أجزائه .

وبحيرة المنزلة ثرية فى أسماكها ، ويتردد على مدخل فتحاتها خنازير البحر ولم نشاهد الكثير من الطيور فوق البحيرة ، لكننا شاهدنا ذلك فوق البلاج بطول البحر ، فى الأماكن التى انحسرت عنها المياه منذ مدة قصيرة .

وتتم الملاحة فى البحيرة بواسطة الشراع ، وبالمجداف وبالعصى الطويلة وتضاءل الرياح العكسية من الوقت للوقت لرحلة ما ، وأحياناً تصل به لثلاثة أمثاله وذلك بحسب قوتها ويرسى الصيادون قواربهم بربطها إلى حصون طويلتين ، يغرسون أولاهما من الأمام والآخرى من الخلف بسهولة بالغلة . ولمراكب الصيد فى بحيرة المنزلة نفس الشكل على وجه التقريب الذى لمراكب الصيد فى

النيل، أى أن لها جؤجؤا « مقدمة السفينة » أكثر ارتفاعا بحوالى ٧٠ سم من كؤئها « مؤخرتها » لكن مؤخرة المراكب الأولى تنغمس فى الماء على نحو أكبر، مما يعطى سهولة كبيرة للصياد الواقف على السطح فى أن يجمع شبابه وأن يقذف بها وأن يسحبها . وصالب هذه القوارب « العارضة الرئيسية التى تمتد بطول القاع » مقعر وذلك بسبب حوادث الجنوح كثيرة الحدوث فى بحيرة قدر عليها أن تضم كثيراً من المناطق الضحلة .

وعندما يذهب أهالى المطرية إلى الصيد بمبدأ عن جزرهم، فإنهم يأخذون معهم المياه العذبة فى جرار كبيرة تربط فى قاع قواربهم، وفى كل قارب واحدة من هذه الجرار .

ويبدو أن صيادى المطرية بشكولون فئة خاصة . وحيث أنهم يحرمون الصيد فى بحيرة المنزلة على جيرانهم فانصاهم هؤلاء الجيران قليل، وحيث أنهم هلى الدوام تقريباً عراة فى الماء، منهمكون فى أعمال شاقة، فإنهم أقوياء الجسم، ضخام الهيئة، نشطون وأولو عزم . وعلى الرغم من تقاطيعهم الجيلة فإن لهم منظرأ وحشياً، وبشرة لوحتها الشمس، ولحمة سوداء خشنة تزيد مظهرهم وحشية .. وهندما يجدون أنفسهم فى حضرة أعدائهم، يطلقون آلاف الصرخات الهمجية بنغمة مرعبة، ويضربون على نوع من الدفوف وعلى سطح قواربهم، وفوق كل ما من شأنه أن يحدث ضجة، فينفخون فى الأبواق، وينشرون عن طريق أصداق القواقع هذه إلى بعيد صوت « رحهم »^(١) المشهور. يقول جنودنا الذين سمعوا مثل هذه الضجة لو أننا كنا رجال الأمن هنا لأفرغتنا هذه الضجة حتى لئلقى بأنفسنا إلى المياه . وهكذا يحتفظ جنودنا الفرنسيون بمرحهم فى كل مكان ويعرفون كيف يخفون بكلمة طيبة من الضجر الذى يحاصرهم أو الخطر الذى يحرقهم، والذى يجدون أنفسهم فى خضمه وقد دفعتم إليه الظروف

(١) أى : « روح عني يا كلب » .

ولا تتصل بحيرة المنزلة بالبحر إلا عن طريق فتحتين يمكن اجتيازهما وهما:
فتحة ديبة وفتحة أم فرج ، واللذان كانتا مصبى الفرعين التانيسى والمنديسى ،
القديمين .

وبين هاتين الفتحتين توجد فتحة ثالثة كان يمكنها أن تتصل بالبحر لولا هذا
السد الصناعى المكون من صفيين من الأوتاد ، تملأ الفراغات بينها نباتات بحرية
مكدسة ، وثمة فتحة مشابهة لسكنها تغطى الآن بالرمال ، وتقع خلف فتحة أم
فرج. وكان القدماء يعرفون هذه الفتحات ويشيرون إليها سترابون باسم الفتحات
السكاذبة .

أما لسان الأرض الذى يفصل البحر عن البحيرة والذى يمتد هند الفتحة
الفانيسية — أو فتحة مصب دمياط ، حتى الفتحة البيلوزية أى فتحة المصب
البلوزى فليس به سوى أربعة قطوع على امتداد يبلغ ٩٣٠٠٠ من الأمتار وهذا
اللسان ، الذى يتسع نوعاً ما فيما بين دمياط وديبة ، وبين أم فرج وبيروز
يضيق إلى حد كبير فيما بين ديبة وأم فرج . وهو شديد الانخفاض ،
كما أنه مزروع ، تغطيه في جزء منه ، شأنه شأن جزر البحيرة ،
نباتات بحرية ، وليس البلاج هنا ثريا في قواقعه على الإطلاق ولا يرى المرء
هناك لزاعات مستديرة ولا أية أحجار أخرى ، وإنما فقط بعض السمفات
وحجارة خفيفة نخرة توجد عند مرمى الموج ، التى يرمى بها البحر . وأشهر
القواقع هناك هى الحلزون وذات الصدفتين من النوع الصغير .

ويغلق كل فتحة من جهة البحر مرفأ مستدير في جزء منه يتصل طرفاه
بالساحل عند صخور الشاطئ . وتختلف هذه المرافئ عن تلك التى توجد عند
مصب النيل في دمياط — والتى لها فضلا عن ذلك نفس الشكل ونفس الموقع —
في أن ليس لها على الإطلاق أى بوزاز ، ولكن حيث أن الرياح ترفع المياه
في المضيق لما يقرب من ٦ ديسمترات ، وأكثر في بعض الأحيان ، فإن

بالإمكان عبور هذه المرافئ بواسطة زوارق ذات غاطس معتدل . ولستى تكون هذه المرافئ بوغازات ، ينبغي أن توجد تيارات كبيرة في هذه الفتحات ، لكن التيارات التي توجد هناك يضمها نوع من التوازن بين مياه البحر ومياه البحيرة أثناء وبعد الانقلابين كما سنوضح .

في أثناء انقلاب الصيف ، تدفع رياح الشمال الغربي مياه البحر إلى جزء من سواحل مصر ، وتبقى هناك معلقة مما يجعل مياه بحيرة المنزلة تطفو فوق الجزر الواطئة وعلى شواطئ البحيرة نفسها ، ومن جهة أخرى فان البحيرة تستقبل مياه الفيضان التي يكون فيها سطح هذا الخوض الواسع مستويا .

وعندما تتوقف رياح الشمال الغربي تنحسر مياه البحر من جديد بفعل ثقلها لتترك بلاجا مكشوفاً يبلغ عرضه حوالى المائة متر ، وفي نفس الوقت يبدأ فيضان النيل في الانخفاض ، وتندحب مياه البحيرة من فوق الجزء الذى غطته من أرض الجزر كما تهجر مياه الفيضان أرض مصر ، ويتسكون عند فتحتى دبة وأم فرج تيار من البحيرة إلى البحر تبلغ سرعته حوالى ثلاثة آلاف متر في الساعة مما يحدث بالضرورة وبعد إنقضاء فترة معينة إنخفاضاً محسوساً في مياه البحيرة .

إذن فمصر تتطلب منا أن ننظر إليها في حالتين : الأولى في الفترة التي تغطي فيها مياه الفيضان البلاد ، والثانية عندما تنصرف المياه كلية عن أرضها .

(٣)

عن الوضع الحالي للأراضي المجاورة لبحيرة المنزلة

تعد المناطق المحيطة بالمنزلة قاحلة في جزء منها ومنزرعة في جزء آخر ، كما أن السنة الأرض التي تمتد من مصب النيل حتى فتحة بيلوز بطول البحر هي

الأخرى قاحلة ، أما سهل يبلوز وحواف البحيرة بالإتجاه جنوباً نحو ولاية الشرقية فأرض صحراوية . ويخترق هذه الولاية ويروى أرضها بحر مويس وتروى هذه التربة كذلك بالإضافة إلى تربة أشمون جزءاً من منطقة المنزلة ، وتستقبل منطقة فارسكور مياه تعرف بهذا الاسم ، أما شبه جزيرة دمياط وشبه جزيرة المنزلة فتغطينهما حقول الأرض الجبلية . وتروى أراضيها ترع للرى تجاورها ترع أخرى للصرف . وقد أعطاني اقتراب تربة قصب القش من تربة روهار سلامة على بعد فرسخ إلى الجنوب من دمياط مفتاح نظام الرى المنبع في هذه المنطقة ، كما مكنتني من التعرف بسهولة ودون القيام بعمليات مسح على الفرق بين إرتفاع مياه النيل وإرتفاع مياه البحيرة .

وتأخذ التربة الأولى مياهها من النيل وتجه نحو البحيرة ، ولكنها لاتتصل بها ، إذ تسدها الانخفاض والأتربة ، وتتفرع منها عن - طريق قطوع - جداول الرى .

أما الثانية فتتصل بالبحيرة ، وهى أكثر إنخفاضاً من تربة قصب القش التى تنتهى فى مواجهتها ولا تنفصل عنها إلا بحسر قليل السمك ، وهذه التربة مخصصة لتلقى مياه الصرف من مزارع الأرض .

وبمقارنة إرتفاع المياه فى هاتين الترتين فى الجزء الجنوبي من الجسر الذى يفصل بينهما ، وجدنا أن مستوى المياه فى التربة يعلو على مستواه فى التربة الثانية فى الخامس عشر من فندمير ٣٥٠ مم ، وهو نفس ما سجله فى هذا اليوم منسوب إرتفاع النيل فى الجزء المقابل لبحيرة المنزلة حيث أن العلاقة بين هذين المنسوبين ومنسوب المياه فى التربة الأولى ومنسوبها فى التربة الثانية « ينبغى أن تتغير تبعاً للكيمات التى تنخفض إليها » أو تعلو ، كل من مياه النيل ومياه البحيرة . وتوجد إلى أسفل المنزلة ترعتان تعطيان النسبتين نفسيهما ، ولا بد أن الأمر لا يختلف عن ذلك فى خليج فارسكور ، وسوف يوضع مقياس للنيل

وأخر للمنزلة ، يوضحان في كل هذه النقاط العلاقة اليومية بين هذه التغيرات
 « في منسوب إرتفاع المياه ، .

وتقسم أراضي حقول الأرض إلى أجزاء تحدها جسور صغيرة توجد بها قطاعات
 تفتح وتغلق حسب الطلب لإدخال مياه الري أو لصرفها . وبنفس هذه الطريقة
 تعد الحقول للبذار ، وتعد كذلك مربعات استخراج الملح البحري عن طريق
 البحر ، وفي الحالة الأخيرة تتعرض المياه للبخرة الأولى بحمصها في خزان
 منفصل وعندما تركز على هذا النحو ، يقوم العمال بإدخالها إلى التسميات المشار
 إليها حيث تنتشر على السطح في عمق قليل ، أما المياه الأم فتتجه إلى خزان
 أكثر إنخفاضاً . .

وعندما يراد البذار ، تحرث الأرض حرثة أولى ثم تغمر بعد ذلك بالمياه .
 وبعد أربع وعشرين ساعة ، وبعد أن تسكون الأرض قد نالت كفايتها من
 البلل ، يدخل إليها رجال كثيرون ، يحرثون فيها حفرات بأيديهم ويسوونها
 ويلقون إلى الخارج بقطع الطين شديدة الصلابة ، وبعد انتهاء هذه العملية
 تصرف المياه وبعد وقت قصير تبذر البذور ، وبعد بضعة أيام تكسو الخضرة
 كل الحقل . وقد لاحظنا أن أكوام الردم التي تحيط بترع الري تستخدم سماداً
 فيقوم الفلاحون بوضعها أكواماً في الحقول قبل أن تخطط هذه خطوطاً ،
 ويتم ذلك بنفس الطريقة التي تجهز بها أكوام القمامة في أوروبا . ويلاحظ
 المرء في هذا النظام وجود ترعة علوية تغذى الحقول بمياه الري وترعة سفلية
 تستقبل صرف هذه المياه نفسها بعد استعمالها .

وعندما لا يصبح في الإمكان تزويد هذا المستوى العالي بالمياه ، فإن مياه
 الري هذه ترفع إليها بواسطة سواقي ذات قواديس أو سواقي ذات ثقب
 مجوفة ، ويفضل استخدام الأخيرة عندما لا تكون قناة التغذية منخفضة
 إنخفاضاً كبيراً .

تلك هي الكيفية التي تتم بها زراعة الأراضي في ضواحي دمياط والمنزلة. ويتبع المنزل بها لقرب من البحيرة وفي الجزء الواقع بين الفرعين اللذين تنقسم إليهما ترعة أشمون إلى الشمال من المدينة مستنقعان ملحيان يهيئان كمية كبيرة من الملح الذي يتم إستخلاصه - بالوسيلة التي سبقت الإشارة إليها - ناصع البياض ، متبلوراً في طبقات يبلغ سمكها ٦ - ٨ مم .

ويتجه أحد فرعى ترعة أشمون نحو العصارفة ، وتستخدم مياهها في تغذية حقول الأرز ، أثناء الفيضان في سقاية سكان جزر المطرية وسكان القرى المجاورة . ويكثر السكان هذه الفرصة المواتية ليمسكوا الخزانات العامة التي هي خزانات مياه كبيرة ذات سقف مفتوح ومبنية بمواد بناء وتسكوها من الداخل طبقة من الأسمنت بالغ النعومة ، وتخزن فيها المياه بعمق خمسة أمتار ، وعندما ينضب هذا المصدر . تفتح في الریف آبار يبلغ عمقها حوالى ثلاثة أمتار وهي شديدة الوفرة في مياهها وليس من الغريب أن تطفو المياه في هذه الخزانات الصناعية المحفورة في أرض ندية ، تغرقها المياه أربعة شهور في العام ، وتكون طبقاتها السفلية من صلصال لزج لا تنفذ من خلاله السوائل .

(٤)

تكوين بحيرة المنزل

تبعاً لما سبق أن قلناه عن الاتجاه القديم للفرعين الثانيسى والمنديسى فقد كان هذان الفرعان فيما يبدو يعبران كى يتجها إلى البحر تلك الأرض التي تغطيها اليوم بحيرة المنزل ، فهذه البحيرة إذن ليست بحيرة على الإطلاق تشابه تلك التي نراها على سواحل لانجدوق « إحدى مقاطعات فرنسا القديمة » ، وروسيون وعلى هذا فهذه البحيرة لم تكن موجودة منذ البداية . لكن ياترى ، ما هو السبب في تكوينها ؟ هذا ما نحن بصدد تفسيره .

قلت للتو أن هذه البحيرة ليست على الإطلاق بحيرة بحرية . فطبيعة قاعها الذى يوجد فى كل مكان منه طمى النيل ، وكذلك عمق المياه بها الذى لا يزيد عن متر واحد فى العادة . . بينما يفوص هذا العمق لأكثر من ذلك بكثير من الاتجاهين المفترضين للفرعين الثانيسى والمنديسى ، كل ذلك يعان بوضوح أن حوض بحيرة المنزلة هو أرض رسوبية كونتها فروع النيل ، ولم يتكون هذا الحوض ، بفعل حركة مياه البحر .

وقلت فى مكان آخر أن هذه البحيرة لا يمكن أن تكون قد تكونت إلا بفعل فقدان التوازن بين مياه البحر من جهة ومياه الفرعين الثانيسى والمنديسى من جهة أخرى .

أما الفرع الثانيسى أو فرع دمياط ، فحيث أن يد الإنسان هى التى حفرته - كما نضربنا بذلك هيرودوت - فلا بد أنه لم يكن على الأرجح فى نفس الحجم الذى نراه عليه اليوم ، ومن المحتمل أن يكون حجمة قد كبر على حساب الفروع البياوزى والثانىسى والمنديسى بحيث أن المياه عندما شحت من الفرعين الأخيرين فإنهما لم يعودا فى حالة تمسكهما من صنع التوازن اللازم مع مياه البحر ، ومن هنا اقتحمتها المياه المالحه ، ولا بد أن ذلك قد تم بقدر كبير من السهولة ، ذلك أن رياح الشمال الغربى وهى التى يستمر هبوبها شهوراً عديدة من السنة على السواحل المصرية ترفع من منسوب البحر ، وتدفع بمياهه كما سبق أن لفتنا النظر لتستقر فوق الأراضي المجاورة .

وعمل هذه الرياح أمر لافى للنظر فى ضواحي دمياط ، ولا بد أن يكون كذلك فى أماكن أخرى ، حتى أن أضخم الأشجار مثل أشجار الجيز تميل دائماً نحو الجنوب ، أما قممها ، من ناحية الشمال ، فتكون عارية من الأوراق وتكون أغصانها الجرداء ملتوية وملفوفة كما لو كانت قد قلبت بقمص . وثمة واقعان قريبتان حدثتا فى مصر تنهضان لدعم إفتراضاتنا هذه .

ففي بداية القرن الأخير « السابع عشر » طغت مياه البحر الهائجة على الساحل بين رشيد والإسكندرية وحفرت لنفسها هناك مجارى عميقة (١) ، وعندما فتحت بعد ذلك من جديد ترعة الفرعونية ، إندفعت مياه النيل في هذا المجرى الجديد ، ولكن هنا شحت المياه من فرع دمياط فتوغلت في هذا الفرع ولمسافة كبيرة مياه البحر وكان الدمار كبيراً لحد اضطّر معه أولو الأمر أن يعيدوا إغلاق مدخل هذه التربة على وجه السرعة وهى التى كانت قد أعيد فتحها دون إتخاذ أية احتياطات . « تأخذ هذه التربة مياهها من فرع دمياط وتصب في فرع رشيد ، ومن المحتمل أن تكون بحيرة البراس قد تكونت بنفس الطريقة .

أما عن نفقت الأرض الذى نتج ولا بد عن إندفاع مياه البحر وعن تحركاتها فى الحوض الذى تشغله بحيرة المنزلة ، فقد يكفى أن نسوق هنا مثلاً من نهر الموز « نهر ينبع من فرنسا فى مقاطعة المارن العليا ويروى فرنسا وبلجيكا وهولندا » . ألم يؤد انهيار سدود هذا النهر فى عام ١٤٢١ إلى تحول الأرض إلى بحيرات شاطئية ، أى بحيرات تقع بين الأرض والرصيف وتتصل بالبحر بعدد من المجارى ، بها عدد كبير من الجزر والأجزاء الضحلة ، يبحر الناس من خلالها الآن ؟ وقد غطت هذه البحيرات مساحة واسعة من البلاد كانت تضم أكثر من مائة قرية بأراضيها الزراعية . ومن المعروف أن هذا المستنقع الواسع يحمل اسم يديس - بوس أى غابة البوص .

ومن جهة أخرى فإن تضخم فرع دمياط لم يكن هو السبب الوحيد لإضمحلال الفروع : البياوزى والتانيسى والمنديسى ، فقد ساهم فى حدوث ذلك تلك الإدارة السيئة للمياه ونقص العناية بالترع ، كما أن وضع هذه المناطق وموقعها قد هيئا فرصة حدوث ذلك .

(١) انظر :

Voyage de Paul Iucas au Levant, tome II Pag. 19 et ٢٠.

وإذا ما تأملنا المضيق الذى يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض فسوف نرى أن جبلى المقطم وكاسيوس هما شناخا هذا البحر من الرمال (*) .

كما ينبىء هذا النتوء والذى يوجد بينهما ، والذى يكاد يكون غير محسوس ، وهو ما قد لا تراه العين فى مجمله ، وإن كان هذا لا يعنى عدم وجوده فى الطبيعة - ينبىء هذا النتوء عن انفصال خليج السويس عن خليج غزة ، وهكذا فإذا ما تحدثنا من وجهة نظر طبوغرافية ، فسنجد أن النيل ينتمى إلى أفريقيا أكثر من انتمائه إلى آسيا (١) .

وعلى الرغم من أن الإدارة السيئة للمياه قد ساهمت فى تدهور حالة الفروع البيلوزى والتانىسى والمنديسى . . فان مياه النيل من جانبها لم تكن قابلة الميل للذهاب عبر هذه الفروع للحد الذى يكون من المستحيل معه إعادتها إليها من جديد ، بل أن هناك ظرفا بعينه ، وهو إرتفاع قاع النيل ، و هو الذى أدى بدوره إلى زيادة إرتفاع منسوب هذه المياه ، يجعل من رأينا هذا أكثر احتمالا ، وسوف تتوصل بإعادة العمل إلى الفرعين التانىسى والمنديسى إلى تخفيف بحيرة المنزلة . ومع ذلك فان من المفيد - حتى نحكم على الوسائل التى قد نستطيع اللجوء إليها لهذا الغرض ، أن نتفحص تلك الطريقة التى قد تكون الدلتا قد تكونت بها ، فلمنذين الموضوعين - فيما بينهما - علاقة مباشرة .

(*) شناخ : أنف الجبل الخارج منه والداخل إلى البحر . (المترجم)

(١) من المعروف أن النيل فى الأزمنة القديمة كان يفصل أفريقيا عن آسيا . انظر Pline .

تجفيف بحيرة المنزلة

عندما تلتظم الجسور بجرى نهر ما ، فإن من خاصيتها أن تهمصر كمية المياه التي كانت تفيض على مساحة كبيرة في رقعة محددة ، ونتيجة لذلك أن ترفع من منسوبها . وعندما تكون هذه المياه حاملة للعكارة والأوحال ، فسوف يكون من خاصية هذه الجسور كذلك أن ترفع قاع الترع ، لأن المياه في هذه الحالة ترسب في مكان بالغ التحدد تلك العكارة التي كانت تشرها في مساحة أكبر إتساعاً .

وقبل أن تقوم جسور نهري أبو والمانشو « في إيطاليا ، لم تكن فيضانات النهر الأخير لتصل حتى مدينة مانتو^(١) ، أما الآن فهي تفيض في البحيرة الدنيا . ومنذ سنة ١٦٠٧ رفعت الفيضانات قاع النهر الذي كان يبلغ عمقه ٢٣ ديسمتراً بمقدار الثلث بفعل هيايات الترسيب^(٢) . وحيث تأتي مياه البحر كما في الفيضانات الكبرى نتيجة لإرتفاع المياه في البحيرة العليا ، وحيث يبلغ اختلاف المستوى بين البحيرتين ما يقرب من المترين فقد رأينا أنه بانحصار النهرين ، أبو والمانشو ، بين جسرين ، فإن منسوب أبو قد ارتفع إلى مستوى ٤٣ ديسمتراً ، وهو المستوى الذي لم يكن يبلغه من قبل . ويلتج عن ذلك أن سرير جرى أبو قد ظل حالياً بالنسبة لتلك السهول الخفيفة التي تتجاور مجراها لأنها لم تنل نصيباً من ترسيبات النهر كما لم تحصل على أية ترسيبات خارجية ، وأن الأراضي التي تجفف عن طريق صرف مياهها ، مهددة في كل لحظة بأن تغرق غرقاً تاماً إذا ما انقطعت جسور النهر أثناء الفيضان^(٣) .

Bertazzolo Del Sostegno di Governalo. P. 31 (١)

Ablati Mari, Montovano, Idraulica Pratica ragionata. (٢)

(٣) قدم المستر دولوميو Dolomieu آراء مشابهة في مقالته القيمة عن مصر ، والتي نشرت في عام ١٧٩٤ ، وإني لأشعر بزهو شديد ، إذ تلاقيت في هذه النقطة مع هذا العالم الطبيعي الفذ ، والذي كنت أتمنى لو أنني كنت أعلمت بمقالته تلك ، في وقت أكثر تسكيراً .

ونفس الشيء بالنسبة للأراضي التي تعبرها كل الأنهار المجسرة في إيطاليا وهولندا وزييلندا . والتلاندر البحرية . . فان هذه الدلتاوات « دلتا » التي تسكونت بفعل ترسيبات الرين والموز والاسكوت وليس بفعل ترسيبات لاحقة ، تعاني من نفس الأمر .

ونخلص في المقابل إلى أنه ، عندما يوحد سهل خفيض يحاور البحر وتخترقه نهيرات تحمل ترسيبات طينية ، وعندما يكون هذا السهل أعلى من منسوب إرتفاع مياه أقوى الفيضانات فلا بد أن يكون هذا السهل قد تسكون بفعل الترسيبات .

لنطبق الآن على النيل ما سبق أن قلناه عن نهر البو ، وبإمكاننا أن نقوم مقارنة شقيقة بين هذين النهرين ومن حيث أن لكليهما مجرى طويلا ، وأنهما يحملان رواسب طينية ، ويتمتعان بفيضانات موسمية . . كما يتجهان كلاهما ليصبوا في نفس البحر .

وقبل أن ينتظم مجرى النيل ، كانت مياهه بعد خروجها من الجبال تنتشر مثل مياه البو فوق مساحة شاسعة كانت تغرقها طيلة العام . وقد لم سيزوستريس مياه النيل في ترع إلى الشمال من ممفيس وحصرها بين جسور ، وبهذه الطريقة شكل النهر دلتاوات عدة ولو أن قدماء المصريين قد حالوا بين مياه النيل وهذه الدلتاوات ، ليس فقط بسبب طبيعة المناخ ، لحرموها من الزراعة ، ولكن تبعاً لما سبق أن عرضناه فبدلاً من أن تسكون بصدد نيل يجري بين شواطئ شاكلها لنفسه . . فقد أصبح لدينا نهر محصور داخل جسور اصطناعية يتحكم في تربة مصر .

لنتته إذن إلى هذه النتيجة وهي أن دلتاوات مصر قد تسكونت بفعل ترسيبات ساعدت على حدوثها أعمال البشر .

ولابد أن نفترض أن الدلتا التي أصبحت محصورة بشكل قاطع بين الفرعين الحاليين للنيل كانت تمتد لتحصي بين تلك الجبال النامية والمتباعدة إلى الغرب نحو

الإسكندرية وبين تلك التلال التي يذئى إليها جبل المقطم . وتنبئنا مواقع فروع النيل القديمة والتي يدل انتظامها على عمل الإنسان أن هذا هو الامتداد الطبيعي الذى حددته الطبيعة والذي كان المصريون القدماء يحددون به الدلتا .

وتبعاً لما انتهينا إليه فإن تجفيف بحيرة المنزلة يقتصر على اتخاذ الخطوات الآتية :

١ - التعرف على الاتجاه القديم للفرعين الثانيسى والمنديسى وإمادة حفرهما .

٢ - إدخال مياه النيل أثناء الفيضان إلى الدلتاوات الفرعية للحصول على الطمى ، وهذا ما يمكن حدوثه دون المخاطرة بتبديد كمية ضخمة من مياه النيل عن طريق فرع دمياط وترعة بحر موسى .

٣ - عمل قلعوف تقفلها هويسات فى مناطق من الساحل لتلك الفروع التي يراد إنشاؤها .

٤ - وأخيراً فتح هذه الهويسات عندما تنحسر مياه البحر من جنوب الساحل حتى تساعد على تصريف مياه النهر بعد أن تكون قد رسبت طمياها .

وتتطلب كل هذه العمائات ، على الرغم من إمكانية تنفيذها ، أن تتم بأكبر قدر من الحذق والحذر فى وقت معاً حتى لا تشيع المياه فجأة وبدرجة أكبر مما يلغنى فى فرع دمياط الذى قد يتطلب الأمر العمل مستقبلاً على تصنيق مجراه .

كان هيرودوت هو أول من ذكر أن الدلتا هبة النيل . . . ويجادل بعض المحدثين فى هذه الفكرة ، وكان فريريه^(١) هو الذى تصدى أكثر من غيره لدحض

هذه الفكرة مدفوعاً بما توصل إليه حول بعض الأنظمة الجيولوجية ، بل لقد ذهب إلى حد التشكك في إمكانية أن تشكل العكارات التي يحملها النيل أية ترسيبات .. ولكن كيف نفسر إذن انسداد الترع في مصر ما لم يكن السبب هو طمي النيل ؟ ولماذا ننكر على المياه التي تنتشر على السطح والتي تقل نتيجة لذلك سرعتها أن ترسب من طميها ، بينما تتمتع بهذه الميزة تلك المياه المحصورة في الترع والتي لا تقلص سرعتها لتلك الدرجة ؟

وكان هيرودوت كذلك هو أول من ألمح بذلك إلى سبب تكون مصادر المياه والذي لم يتيسر تأييده إلا في القرن الأخير « الثامن عشر » عن طريق حسابات ماريوت والتي قدم لها ديكارت تفسيراً هندسياً وإن كان أقل ترجيحاً . ولهذا فلم يعد المرء يشك في هذه الميكانيزم البديعة لدورة مياه البحر نحو الجبال .. ومن الجبال نحو البحر ، بفعل عملية البحر ، وبواسطة ذلك الفاصل الزمني الذي تستغرقه مسيرة الرياح بين البحر وبين الجبال ، ويلبغى أن نضيف : وبواسطة ميكانيزم درجات الحرارة المتعارضة ، إذ أنني أعتقد أن من الممكن التأكيد بأن السحب في السلاسل المركزية والعالية لا تتجاوز مطلقاً خط منتصف المياه وشبكة السقوط إذ يفصل هذا الخط درجتى حرارة الممرات الجبلية وهى الأجزاء سهلة المنال والتي يمكن لهذا الخط اختراقها ، ولكيلا تكون السحب على هذا الحد من الارتفاع فإنها يلبغى في نفس الوقت ألا تكون في موقع أقل منه بالنسبة لبؤرة ثورات الطقس .

ويفسر هذا المبدأ الذى تشكل مع محاولة تفهم حركة الرياح المسيطرة أثناء الانقلابين « الشتوى والصيفى » - يفسر أسباب تلك الأمطار الموسمية التي تحدث فيضان النيل ثم فيضان نهر النيجر ، وهو النهر الذى يجرى على الجانب الآخر من جبال أثيوبيا .

وتلقت الطريقة التي فسرنا بها تكون الدلتا أنظارنا إلى أن هذه الدلتا تعمل

في نفس الوقت وأن قاع النيل يرتفع معها بالمثل . لكن ما هي العلاقة بين هاتين الزيادتين في المدسوب ، وما هي احتمالات أن يفيض عليها النيل في أضعف فيضاناته كما في أكثرها غزارة بالمياه بشكل كاف وليس بشكل أكبر من اللازم ؟ هذا ما ليس من السهل تحديده .

ولقد شعر قدماء المصريين منذ زمن طويل أنه لا بد لهم أن يسيطروا على مياه النيل إذا ما شاءوا ألا يتعرضوا لخطر وجود مساحات كبيرة من الأرض محرومة من أحد عوامل النمو والخضرة والماء . ويزعم المؤرخون أنهم قد حفروا بحيرة موديس « بحيرة قارون » لكي تكون خزاناً منظماً لفيضانات النيل، فالمياه التي تصب في هذا الخزان الواسع، والذي يستقبلها أو يصرفها حسب الطلب عن طريق بحر يوسف تعوض فيما يقال انخفاض مياه الفيضانات بالغة للضخمة، أما في حالة الفيضانات الشاذة والعالية فقد كان هذا الخزان يخلص أرض مصر من المياه التي كان من الممكن أن تظل تغطيها لوقت بالغ الطول، ولربما كانت هذه هي نفس الفكرة الضخمة التي كانت لديهم على الدوام، ولعلها في نفس الوقت أنسب الأفكار التي من شأنها ازدهار بلد ما ازدهاراً حقيقياً^(١) .

ولا يزال توجد حتى اليوم تلك التربة التي كانت تنقل المياه من بحيرة موديس « قارون » أو بالأحرى من النيل من مصر العليا إلى بحيرة ماريوتيس « مريوط »، وإن كان التلف قد أصاب نهاية مجراها . ولهذا السبب، نجد الجزء المجاور من ولاية البحيرة للصحراء، والذي سبق أن خصبته مياه هذه التربة، محروماً اليوم من الزراعة .

(١) أوضحنا في مقالتنا من سميرت وادي النصارون، وفي ملاحظات عامة حول بحيرة موديس، ما نراه حول هذه البحيرة، وحول النظام البدئي للياه في مصر انظر المجلد الثاني من الترجمة العربية — الدراسة الرابعة .

(٦)

طبيعة لسان الأرض

الذى يفصل بحيرة المنزلة عن البحر

رأينا تبعاً لما قلناه في هذه المقالة أن جيولوجيا مصر السفلى تخضع لمبادئ بالغة البساطة ، فحيث لا تعرف الطبيعة هنا على الإطلاق نوبات المد الكبرى أو البراكين والزلازل أو تلك العواصف والإعصارات العنيفة التي ينظر لها تمدنه من دمار باعتباره كوارث تظل محفورة في الذاكرة ، فقد وجب على أشكال الأرض في هذه البلاد أن تحتفظ بالخواص العامة للمادة وأن تتبع تغيرات هذه الأشكال حركة العناصر الموحدة على الدوام والتي تتم بموجب قوانين الحركة والمقاومة . فالأمطار التي تسقط بشكل منتظم كل عام أثناء انقلاب الصيف فوق جبال الحبشة تنحدر هذه الجبال لصالح وادي النيل والدلتا ، ويتسبب الطمي الذي يحمله النيل من هناك في كل مكان تقل فيه سرعة مياهه ، فيرتفع مستوى الأرض التي تظل المياه فوقها زمناً ، وتكون كتلا من الرمال وتحدث بعض تغيرات عشوائية في مجرى النهر وتساهم في تشكيل المرافئ واتساع البلاجات . وتحمل الأعاصير الرمال من قاع البحر ، وتلقى بها إلى الساحل ، وفي أوقات انحصار المياه تجف الرمال وتحملها الرياح من جديد من فوق صخور الساحل ولهذا السبب ترتفع البلاجات والكثبان وتتحول الأماكن المخطأة من صخور الساحل إلى بلاجات .

ويلتقى النيار الساحلى الذى يتبع سواحل المتوسط من الغرب إلى الشرق بمجرى فروع النيل ، وينتج من جهة اليسار ، ويسبب تضائل السرعة لهاتين القوتين المندفعتين ترسيباً يتخذ شكل قزم تتفاوت في درجة حدتها ، بينما يتخذ البلاج على البين وهو الذى يقع بين اتجاه مجرى النهر وهذه القمم الحاصلة ، شكلاً دائرياً . وهذان الشكلان دائمان ، ويجدهما المرء عند مصب فرع دمياط وعند فتحة دية وأم فرج .

وتشكل الرمال والطين التي تجلبها هذه الحركة المزدوجة ، في اتساع
البلاجات وبخاصة تلك التي تقع إلى اليمين حيث تلتصق تلك القمم أو الروس التي
يرأها المرء بين دمياط وبيروز ، كما تلتصق في ذلك صخور الرصيف وهذا المنحدر
الطويل الذي يتوغل إلى الشمال في المياه ، والذي يبعد عن الشاطئ تلك المرافئ
العميقة . وتتبع هذه المرافئ بطبيعتها اتجاه الرمال والطين . ولخليج دمياط على
يسار مصب النيل قاع صلب من الطين الأسود في حين أن قاع خليجى بغافة
ورأس بوو اللذين يقعان إلى اليمين ، من الطين الرخو الضارب إلى الصفرة ،
وهناك تقوم السفن بالصيد في بعض الأحيان ، دون مخاطر ، على بعد فرسخين
أو ثلاثة فراسخ .

ويمحطنا التماثل على الاعتقاد بأن البلاجات التي تربط بحيرة البرلس وبحيرة
البحيرة على فروع النيل تدين بتكوينها إلى نفس الأسباب .

وأخيراً فإن التيار الساحلى سواء في حركته العادية أو عندما تدفعه الرياح
القادمة من الغرب يشكّل عند مقابلته لخليج غرة دوامات غير معروفة لنا إلا
فيما ندر إذ هي تكاد لم تدرس على الإطلاق وقد ساهمت هذه الدوامات في
طمس الخليج من جهة بيروز وسوف تواصل التقليل من اتساع هذا البلاج .

والآن ، فإذا أخذنا في اعتبارنا أن النيل ، بدءاً من الدلتا حتى قمة جبال
الحبشة ، يمر بين سلسلتين من الجبال الحجرية حتى أسوان ، والجرانيتية إلى
الجنوب من هذه المدينة فسنحصل على فكرة تقريبية عن كل ما يتعلق بجيولوجية
مصر . وتبدو التلال التي تحيط بالصحراوات الليبية في الجزء الأدنى من مصر
على أنها تلال رمالية إذ تغطيها الرمال الصوانية وإن كانت نواتها في الواقع من
الحجر الصخري .

وقد افترضنا بذلك تمام الاقتناع عندما نزلنا في السكوف التي بها مومياوات
الطيور إلى الجنوب من سقارة ، وعندما دخلنا المقابر الملاصقة لأهرام الجيزة
وعندما تأمانا أبا الهول بل والأرض التي قامت عليها الأهرام نفسها .

(٧)

لمحة سريعة عن بعض المدن التي لها صلات ببجيرة المنزلة

تقدم بلاد مصر التي زرتها ، في كل أنحائها تقريباً ملمحاً لفراغ سكاني كبير ، ولقد قدر على مدن هذه المنطقة الواقعة عند مدخل سوريا أن تجد نفسها تحت أقدام الغزاة وكان عليها أن تستشعر قدوم جيوش الغزو التي كانت تنتمي في غالبيتها العظمى إلى شعوب همجية ويقودها قادة لا سييل إلى التعامل معهم من قبيز أو عمرو ، العاني اللفظ ، على أن السبب الرئيسي في التدهور التام لمدن هذه المنطقة كان بلا جدال هو جفاف الفروع اليميلوزى والثانيى والمنديسى .

كانت تقع على شواطئ هذه الفروع أو في المناطق المجاورة لها مدن هامة مثل تنيس^(١) وتونة ، وسمنة ، وبيروز ، بالإضافة إلى مدن أخرى أقل أهمية .

ولقد أصبحت مدينتا تنيس وتونة ، الخربتان ، تقعان اليوم وسط المياه وتنتميان كما سبق أن قلنا إلى بحيرة المنزلة .

وكانت هاتان المدينتان كسكل المدن التي تصلها مياه الفيضان ، تنهضان فوق بسطة صناعية ، لكن أرضهما المائئة بالانقراض والتي نسير فوقها اليوم أرض غير مزروعة بشكل تام ، بل أن سطحها قد أصيب بنوع من التبلور بحيث تنز الأرض وتفتت تحت الأقدام كما يفعل البرد وقد بدأ في التجمد وهذا ما يجعل السير خلال هذه الجزر أمراً شاقاً وعسيراً .

كانت تنيس مدينة بالغة الاتساع ، وكان يقوم بالدفاع عنها سور من الجدران تعلوه أبراج وحصون وبه آبار تمتلئ بالمياه ، سكنها اليوم خالية من

(١) تنيس Tennyss ، مدينة رومانية ، بنيت فوق أنقاض مدينة مصرية ، وكانت تنهس هذه مزدهرة أيام أغسطس .

أى مبنى . فأنقاض حمامات ، وأطلال بعض القباب تحت الأرضية والمبيلة يحذق بالغ . والتي يغطى جدرانها أسمنت بالغ الصلابة ، بل ويبدو بالغ الحداثة، وأنقاض كهف مستطيل من الجرانيت الأحمر.. تلك هى كل المباني التي يستطيع أن يميزها المرء وسط أنقاض واسعة من الطوب الأحمر والخزف والفخار والقطع الزجاجية من كل لون .

ويقوم سكان البلاد المجاورة باستمرار بالحفر في هذه الجزيرة ، ويجمعون هناك مواد يستخدمونها في إقامة مساكنهم ، وبهذه الطريقة نقلت العمدة وقواعد العمدة ، وقمها ومواد البناء المختلفة التي زارها اليوم موضوعة بشكل شديد الهمجية في المساجد والمنشآت الرئيسية أو الملقاة كيفما أتفق في المباني العادية ، وعتبة ثكنة دمياط على سبيل المثال إنما هى قطعة من مسلة بالغة الجمال ، تملؤها النقوش الهيروغليفية ، ولقد وجدنا في هذه المدينة بحوار أحد الأبواب قاعدتين عموديتين مليئتين بكتابتين أحدهما يونانية والأخرى لاتينية ، كما وجدنا في أحد مساجدها عموداً من الرخام الغامق المجزع ، يحمل كتابة يونانية متأخرة امتد إليها بعض التلف .

وكانت تونة أقل أهمية من تليس ، ولقد قادتنا الصدفة السعيدة فيها لنعدث فوق سطح الأرض على تمثال قديم من العقيق المجزع يقف فوق قاعدة من العقيق ويبلغ طوله ٣٦ سم وعرضه ٢٨ سم ويمثل رأس إنسان من منظور جانبي ، ينطق بتعابير كثيرة : عين ثاقبة ، وملح شجاع ، وشفاه لامبالية تدل على الازدراء ، وشواهد أخرى ، وكل هذا يحملنا على الظن بأننا هنا بصدد تمثال لرأس أغسطس ، ذلك الذى استطاع أن يقاوم سحر وجمال كليوباترة وأن يتغلب على كل الصعاب التي كانت تحول بينه وبين السلطة .

وتقع سمثة ^(٢) على شاطئ ترهة بحر مويس . . ويبدو أنها كانت مدينة

(١) سمثة Samnah ، وصان هى مدينة تاليس القديمة ، وقد ألتقى عليها إلى العرجة السبيلية (لاوراء) التي تمت في مصر اسم تزوان Tzoan ومنها جاءت كلمة صان .
(انظر d'Anville) .

هامة في الماضي وأنها كانت تمتد كثيراً محاذية للترعة ، ونرى بداخلها نوعاً من الفورم أو الميدان العمومى على شكل مستطيل ، وله مدخل كبير من ناحية الترعة ومنافذ في الأجزاء الجانبية ، ويتجه المحور الكبير لهذا الميدان من الشرق إلى الغرب ، ولقد لحنا فوقه كثيراً من المباني المخطمة والمسلات المكسورة والمقلوبة . وعندما نتأمل أنقاض هذه الضخامة فقد يحق أن ندهش من الجهود التي لا بد قد بذلت لقطع هذه المسلات بالقرب من قاعدتها ثم قلبها في الأتربة بأكثر مما ينبغي أن ندهش من الوسائل والجهود التي استخدمها الناس أو بذلوا لإقامتها . ولقد احترم الزمن النقوش الهيروغليفية لواحدة من هذه المسلات وقد أخذنا رسماً لها .

واليوم ، فإن سمته هي مستودع البلع الذي يجلب من الصالحية والذي يذهب صيادو البحيرة ليأخذوه مبادلة بالسماك المملح .

أما بيلوز^(١) فتقع على الطرف الشرقى لبحيرة المنزلة بين البحر والكثبان ووسط سهل قاحل عار من أية خضرة . ويعبر طرف الفرع البيلوزى الذى تضام ليصبح قناة كبيرة تملأها الأوحال — يعبر هذا السهل بادماً من البحيرة إلى البحر . ويوجد على شاطئ هذه الترعة قصر الطينة الذى انهار أنقاضاً بعيداً عن الشاطئ بمسافة كافية ، ويبدو أنه يعود إلى عصر دخول سليم إلى مصر . أما خرائب الفرما فتقع إلى الشرق من بيلوز نحو البحر .

وبعد أن اجتازنا المرفأ الواقع عند مدخل الفتحة البيلوزية ، وجدنا عمقاً كافياً من المياه في مساحة معينة تسكنى كي يحتوى فيها أسطول صغير من المراكب الصغيرة . ومن هذه المنطقة كانت مراكب بحيرة المنزلة تمارس عمليات التهريب إلى سوريا .

(١) بيلوز ، كلمة مشتقة من كلمة يونانية تعنى : العاين ، وقد احتفظ لها العرب بهذه التسمية عندما سموها الطينة .

أما الطريق الذى يؤدى من فتحة أم فرج إلى قطية^(١) فيمر إلى الغرب من الطينة ومن خلال بيلوز . وهذا الطريق موحل للغاية ومن الأفضل أن يحاذى المرء في سيره الفتحة البيلوزية .

وقد لاحظنا أثناء مرورنا أن ارتفاع الكشبان التى تقع إلى الشرق من بيلوز والننى تتجه جنوباً نحو ولاية الشرقية أمر يسمح لنا بالنأكد من أن ترعة الاتصال بين الخليج العربى « البحر الأحمر » والبحر المتوسط لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الفرع البيلوزى وعلى مسافة كافية من مصب هذا الفرع . ومن هناك كانت التربة تتفرع من النيل نحو البحر الأحمر ، إن الخوف من اندفاع مياه هذا البحر نحو البحر الأبيض ، والذى اعتقد أنه لا ينهض على أسس كافية سيكون برغم ذلك أقل احتمالاً بكثير إذا ما أقيمت هويسات لتفادى هذا الاندفاع المفترض .

ويجد المرء فوق سطح سهل بيلوز ، وهو يتجه من البحر إلى الكشبان ، وعلى بعد مسافة قصيرة من هذه ، مواقع تنتشر في البداية بوفرة كبيرة ثم تأخذ بعد ذلك في التناقص حتى تصبح نادرة ، وفضلاً عن ذلك تغطى كل سطح الأرض على وجه التقريب قبور ملحية ، وهكذا يعلن كل شيء أن مد البحر يصل إلى هناك

(١) يبدو أن قطية هى المدينة التى كان يطلق عليها كينت كوريس Quinte Curce (الكتاب الرابع) ؟ معسكر الاسكندر .

ولايستقيم النص الذى ذكره ، فلأعني ترجمة بوزيه Beauzée : « بعد رحيل الاسكندر بسبعة أيام من غزة ، وصل إلى هذه المنطقة من مصر ، التى تحمل اليوم اسم معسكر الاسكندر ، ومن هناك سير جنوده نحو بيلوز ، ثم أبحر عن طريق النيل بم رفقة من صفوته ، وقلية هى المعسكر الوحيد ، بسبب بعض الآبار الفزيرة التى توجد بها ، والتي يمكن أن يجدها المدونون في اليوم السابع من رحيلهم من غزة ، وهى كذلك النقطة شديدة الاقتراب لتسيير فرق عسكرية إلى بيلوز ، وقد قطع جنود نابليون هذه المسافة في ستة أيام في حين قطعها جنود الاسكندر في سبعة .

(وقد درست هذه المدينة الثانية قطية كما يذكر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، والذي وضعه المرحوم محمد رمزى — المترجم) .

وتظل المياه فوق هذه المنطقة لمدة من العام وقت انقـالـب الصيف على وجه التقريب . وظاهرة السراب شديدة الانتشار في سهل بيلوز وتصبح الأشياء بعد نصف ساعة من شروق الشمس تبدو شائبة حتى أن المرء لا يعود قادراً على التعرف عليها^(١) .

ويقول سترابون أن محيط بيلوز كان يبلغ عشرين غلوة وإنما كانت تقع على مسافة مائة من البحر . وبالفعل فإن امتداد السور الحاطي الذي يوجد في بيلوز يبلغ عشرين غلوة ، وإن كان البحر يبعد عنها الآن بمسافة أكبر أربع مرات من تلك التي كان يبعد بها عنها في زمن سترابون ، بحيث أننا لو قمنا برسم قوس من بيلوز إلى النقطة من البلاج الأكثر اقتراباً من البحر ، لبلغ طول هذا القوس ٦٠ غلوة . وقد رأينا على الشمال من مدخل قرية أم فرج منطقة واسعة من الأرض تكونت عن طريق الإيداعات التي رسبها النهر بوفرة ، وعن يمين هذه المنطقة يتحرك ذلك التيار الساحلي الذي يسير بحذاء سواحل البحر الأبيض متجهاً من الغرب إلى الشرق . ولسوف يؤدي ذلك إلى اختفاء هذا المجرى الطويل الذي نشأ كما هو واضح عن تكوين جديد ، وسيزيد اقتراب جزيرة تنيس من البحر بمرسحين مما سيؤدي إلى أن يتطابق موقعها في هذه الحالة مع ذلك الموقع الذي حدده لها المؤلفون القدماء .

ولا يوجد أقل أثر للخضرة فوق السهل ، حيث تقع بيلوز ، ويرى المرء داخل أسوارها ربوة منعزلة تتوجها الأشجار الصغيرة . وبعض المسافرين هي

(١) عرف القدماء ظاهرة السراب . والبيكم ما قاله كينت كورس ، الكتاب السابع ، الفصل الخامس « في صحارى سوجديان (بالقرب من صمرقند) تؤدي حرارة الشمس في أثناء الصيف إلى التهاب الرمال ، وفضلاً عن ذلك ، يخرج البخار من جوف الأرض بالغ الاتهاب ، فيجعل الضوء مهراً ، فلا تعود الأرض تبدو سوى بحر واسع عميق » .

ضيوف هذا الدغل الوحيدون وهم الذين يخففون بعض الشيء من تلك العزلة المبهضة التي ترين هناك . وفضلاً عن ذلك فسوف لا يرى المسافر الذي تستبد به الدهشة في هذا المسكان الذي كانت توجد به ذات يوم مدينة كبيرة وشعب كثير إلا بعض الأعمدة الراقدة في الأتربة ، وبعض الأنقاض الفقيرة ، وسيظل يبحث بلا جدوى في الضواحي عن ظل أثر لمقاتل عرف السعادة زمناً طويلاً وكان عليه في النهاية أن يخضع لمشية قيصر ، لكنه لن يجد هناك سوى ذكرى هذا الرجل الشهير ، ضحية الغدر والنكران ، وأكثر حوادث الاغتيال خسة وجبناً ونذالة .

إن نصباً يقام فوق هذا الشاطئ المبهجور الذي دفنت فيه بقايا بومبي (*) سوف يكون تخليداً لآلاف الذكريات (١) وفوق ذلك ، فسوف يحدد هذا النصب تلك الفترة التي جاء فيها أحفاد هؤلاء الفرنسيين (٢) أنفسهم الذين حملوا آخر طلائعهم إلى بيلوز ، بعد أن خاض هؤلاء الأحفاد معركة خالدة ضد أوربا المتحالفة ، وبعد أن اجتازوا المتوسط واخترقوا الإسكندرية . . جاءوا بعد ستة قرون ، ليس كفارسان مغامرين متعصبين ، وإنما كمقاتلين أصداقاً للبشر وللغنون والعلوم ، ليسوا معاً الطرف الآخر من قاعدة مصر الدلتا والطريقين اللذين يؤديان إلى آسيا وإلى الهند ، وبلغوا في مهمتهم تلك أرض النوبة الحارقة ، وسوف يسعون لتخليد إقامتهم في هذه المناطق بنصب تذكاري يكون لا مثقاً بالدرجة الأولى بحضارة شعوب الشرق .

(*) Pompée ، تمصل روما عام ٨٨ ق م .

(١) ويمكن للمرء أن يخط هذه العبارة البسيطة فوق هذا النصب : « من بونابرت ، تخليداً لذكرى بومبي ، .

(٢) الصليبيون .

ملحق

بشكل تقريبي تعداد سكان المدن والقرى التي تجاور بحيرة المنزلة: أقول بشكل
بي حيث لم يكن هناك ما هو محدد في هذا الخصوص، وسط هذه الانقراض، إذ أن
مات التي يمكن للمرء أن يحصل عليها في مثل هذه الظروف، تكون غاهضة لحد كبير.

٢٥٠	العزبة (١)
١٥٠	٠٠٠٠
١٥٠	٠٠٠٠
٢٠٠	٠٠٠٠
١٨٠٠٠	دمياط
٣٠٠	السفانية
١٥٠	منية شريف (حالياً)
	(ميت شريف)
١٠٠٠٠	٠٠٠٠
١٢٠	قصب القش
١٠٠	٠٠٠٠
١٠٠	٠٠٠٠
١٥٠	الرحامية
٨٠٠٠	المنزلة
٥٠٠	منطقة المنزلة
٢٠٠	السايفة
١٠٠	٠٠٠٠
٣٠٠٠	المطرية
٠٨٠	٠٠٠٠
٣٢٠٥٠	المجموع

(١) لم يتم تصحيح املاء هذه الأسماء بسبب غيبة المعلومات اللازمة (وقد تم ذكره بالتالي
و تصويب هذه الأسماء فأتت أن أترك مكانها خالياً — المخرج)

(٢)

رحلة إلى غرب الدلتا ”مباروك لانكريد“

العنوان الأصلي للدراسة : نبذة طبوغرافية عن الجزء
من أرض مصر الواقع بين الرحمانية ومدينة الاسكندرية ،
وعن ضواحي بحيرة مريوط .

(١)*

بيتنا في دراستنا عن ترعة الاسكندرية ، المواقع بالغسة الاهمية التي يقابلها المرء بطول مجرى هذه التربة ، ولقد كان الغرض من تلك الدراسة أن نتعرف على حالة الملاحة حالياً في هذه التربة ، وعلى الوسائل التي يمكن أن تجعل منها مجرى صالحاً للملاحة طيلة العام ، ويتبقى علينا هنا أن نضيف بعض التفاصيل حول هذه المنطقة من أرض مصر التي تروىها ترعة الاسكندرية والتي تلامس منطقة المربوطية ، كما يمكن لهذه المعلومات أن تستخدم في تسكئة اللوحة الطبوغرافية لذلك الإقليم المسمى : ولاية البحيرة .

يوجد القليل من الآثار في كل هذه المنطقة التي عانت كثيراً من التغيرات الفيزيائية والسياسية ، فقد أدى طول مكث المياه ، والأعمال التي تتطلبها الزراعة وكذلك غزو رمال الصحراء لأراضي هذه المنطقة — أدى ذلك كله بالضرورة وبدرجة كبيرة إلى إختفاء آثار العصور السابقة على غزو الاسكندر ، هذا إن كانت هذه المنطقة في تلك العهود مسكونة أو مزروعة على الإطلاق .

وبرغم ذلك فقد عثرنا هناك على آثار قديمة ، ففي سماديس رأينا قطعتين لعمود من الجرانيت الأحمر يبلغ طول قطره ٤٠ سم ، كما وجدنا في قرية أفلاقة ، وهي تقع على بعد حوالي ألفي متر من النيل ، على الشاطئ الأيمن لترعة الاسكندرية ، بالقرب وإلى الشمال من دمنهور ، وجدنا ثلاث قطع لنحت مصري يحمل كتابات هيروغليفية ، ولم تكن هذه الكتابات شديدة الوضوح ، لكنها كانت منحوتة بعناية كبيرة ، وفي واحدة من رسومها البارزة والتي انقسمت إلى جزئين توجد وجوه لبعض الحيوانات ، وثمة رسم لأوزة صغيرة ضمن رسوم أخرى ، لكن ما هو أكثر إثارة من الرسوم الثلاثة التي تحدثنا عنها

من قبل وفي مكان سابق هو وجه لسيدة جالسة، وهو عمل بالغ الروعة، منحوت بشكل بارز، وفي الفراغ، على حجر صلب بالغ النعومة، من نفس نوع حجر أنيتوبوليس.

وإذا ما عدنا إلى الرسم الموجود في هذا العمل، فسوف نرى أن رقة التمثال لم تفارقه مطلقاً، مثله في ذلك مثل النقوش البارزة في أجمل معابد مصر العليا، فكل شيء يعلن أن هذه القطعة الثينة ربما كانت جزءاً من إفريز أو من رسم بارز لمعبد كان يوجد في ضواحي هذه المنطقة لرفات نسر، نتعرف في وجهه ورأسه المغطاة، على الإلهة إيزيس، التي يرسم على ملاحمها تعبير يطفح بالركة والرضا.

وعلى بعد مائة متر من قرية محلة داود التي تقع على شاطئ ترعة دمنهور، وعلى بعد ٤٠٠ متر من الرحمانية، شاهدنا مبنى قديماً من الطوب مساحته كبيرة، ويحوراه كومة ضخمة من الملاط المختلط بالجير، وقد علمنا أنه كانت توجد في هذا المكان في الزمن القديم مدينة مسيحية، وأن هذه المباني كانت لحمامات هذه المدينة. وفي الواقع فقد رأينا أن بعض هذه المباني واسع وبعضها الآخر ضيق، ويتخذ هذا وذلك إما شكل دائرة وإما شكل نصف دائرة وكانت كل هذه المباني مطلية بأسمنت رافع أحمر اللون، تغطيه طبقة من أسمنت أبيض بالغ الصلابة والنعومة ويقول أهالي البلاد بأن هذا الأسمنت قد عومل بالزيت. وبعد صفين من الطوب يوجد أسمنت مماثل وطلاء مماثل.

وبعد أفلاقة وقايل بالاتجاه نحو الغرب، وجدنا كثيراً من الخرائب وهي أنقاض لمدن أو كفور كانت في الماضي مزدهرة. ويحيط شاطئ الترعة أكوام مغطاة بالطوب المحروق وهي بقايا مساكن قديمة وبقايا أشياء اندثرت منذ زمن طويل. وعلى الرغم من الفوائد التي تقدمها هذه الترعة. فقد فقدت هذه البلاد كل أهميتها وهجرها على وجه التقريب كل سكانها، بل إن الزراعة نفسها قد توقفت.

وكانت قرية بسنتواى هى آخر قرية فى هذا الجانب والى ما يزال لها بعض من الأهمية .

وحسب المعلومات التى قدمها لنا شيخ العرب مسبك : فإن بحيرة من النظرون تقع على بعد ثلاثة فراسخ فقط من دمنهور ، لكن هذا النظرون محدود القيمة . ويتفق هذا الموقع لحد ما مع موقع قرية محلة خيل ، غير بعيد من الحد الشرقى الأقصى لبحيرة مريوط . وفى إتجاه الشمال الغربى ، بالقرب من قرية سنهور ، نجد فوق أرض سميكة بالغة السواد مياه مالحة ، وملحاً بحرياً متكسباً ، يختلف دون شك بقليل من النظرون^(١) .

وعند أبى الخذر ، وهى قرية تقع على شاطئ ترعة الاسكندرية ، كما أنها اليوم غير مأهولة بالسكان ، توجهنا إلى قرية كوم البركة وعبرنا الترعة ، وعلى بعد حوالى ٢٥ متراً عبرنا ترعة أخرى بالغة الانخفاض ، يبلغ عرضها من ١٦ - ١٧ متراً وتندمج بالقرب من القروى مع الفرع الحالى وتتجه من الجهة الأخرى نحو بسنتواى ، ويقول أهالى البلد أن هذه ترعة قديمة تأخذ مياهها عند أطفيح بالقرب من فوه . وقد عثرنا على هذه الترعة وعبرناها عندما اتجهنا مباشرة من برك الحمام إلى الرحمانية على بعد ١/٢ فرسخ قبل بسنتواى وإن كانت فى هذه المنطقة أصغر كثيراً منها عند كوم البركة . ولعل السبب فى ذلك . هو نفس رأى الذى استلجناه بخصوص ترعة الاسكندرية الحالية التى ننظر إليها على اعتبار أنها قد تكونت من اتصال هذه ترعة كانت فيما مضى ترعاً مختلفة^(٢) .

وعلى شاطئ هذه الترعة يوجد تجاه قرية أبى الخذر كوم بالغ الارتفاع

(١) كتبت هذه الملاحظات فى عام ١٨٠٠ ، وقد تغيرت أحوال هذه المنطقة بعد أن قطع الجيش الأنجليزى سد هذه الترعة ودخلت مياه البحر المجرى القديم لبحيرة مريوط وهو الحادث الذى يعود لى عام ١٨٠١ . وتشكل هذه القرية اليوم جزيرة وسط هذه البحيرة .

(٢) شاهدنا فى بسنتواى غزلاًنا تتجول على حريتها فى السهل .

يغطيه الطوب . وهذه المنطقة من ولاية البحيرة تزخر بأعداد لا حصر لها من السكبان المتشابهة وبخاصة في المنطقة الواقعة بين قرية كوم البركة والاسكندرية وثمة تل تجاه هذه القرية نفسها في الجانب الآخر من التربة . وقد لحنا في بقعة واحدة خمسة عشر تلا ، وهذه المرتفعات هي بلا أدنى شك بقايا مدن أو قرى قديمة . وينبغي على المرء أن يرى بنفسه هذا السهل الفسيح حتى يستطيع أن يكون فكرة عما كانت عليه هذه المنطقة في الماضي .

للوحه (*) واحدة من هذه القرى المهجورة ، وتقع على الشط الايسر للترعة ، وتوجد على الشط الايمن قرية الدشو التي تقع في نفس الوقت في الزاوية الجنوبية الشرقية لبحيرة أبي قير . وهناك تبدأ سلسلة من المرتفعات الموازية للترعة والتي تلامسها بالقرب من قرية السكريون لكنها ليست على الإطلاق خراب من الطوب ، ونحن نحدد أنها كانت تستخدم سداً أو هويساً لإحدى الترع ، ويوجد بالقرب من ذلك حائط من الحجارة يفصل التربة عن بحيرة أبي قير ويبلغ سمكه من ١ إلى ١٣ متراً ، وأسمنت هذا الحائط بالغ الصلابة ، وهو جزء من سد أرضي يبلغ سمكه حوالي ستة أمتار (١) . وفي مناطق عديدة نجد مبانى مماثلة يبدو أنها ذات أصل أغريقي ، وتفصل التربة عن المستنقعات المالحة جدران بالغة الضخامة من الحجارة لكن بعض هذه الجدران قد تقوض حتى الأساس . وفي البيضاء التي تقع على مرتفع ، يوجد حائط قديم من الطوب الذي يبلغ طول الواحدة منه من ٢٠ — ٣٠ سم وهو متماسك بفعل كثير من المونة . وثمة آبار واسعة مبنية من الطوب كذلك التي توجد في قرية كوم البركة .

وفي قرية السكريون وبالقرب من أحد خزانات المياه ، وجدنا أيضاً

(١) تحدثنا في دراستنا عن ترعة الاسكندرية عن سد حجري يبلغ سمكه من ٦ — ٧ أمتار ، لكن ذلك هو السمك الإجمالي للسد ، فالسمك الحجري لا يبلغ إلا متراً واحداً أو ١ من الأمتار .

(*) أو لالوها Lélouha . وقد جاء بوصف مصر ، الدولة الحديثة ، مجلد ٣ ، الفهرس الجغرافي ص ٨٤٢ ، أنها قرية مهجورة [المترجم] .

أنقاضاً تعود إلى الأزمنة القديمة وهى عبارة عن بقايا نقش بارز من الحجر الجيري يبلغ ارتفاعه حوالى المتر، أما طولاه الآخران فيبلغان ٢٠، ٣٠ سم وعلى إحدى واجهاته رسمت زينات تسمى سلاسل الرماح والتي يحسن أن نقارنها بنباتات رمزية . فهل جلبت هذه الشظايا وكذلك مثلها التي توجد فى قرية أفلاقة من مكان آخر ، أم كانت توجد مبانى مصرية قديمة فى كل هذه الأماكن المختلفة ؟ أما نحن ، فإننا نحولون على الاعتقاد بأن هذه وتلك قد أتت من خرائب جزيرة هيرموبوليس القديمة وهى التى كانت تقع فى نفس المكان الذى تشغله اليوم مدينة دمنهور .

(٢)

بحيرة إدكو وضواحيها

يرتفع البحر أحياناً ما بين إدكو وسدود أبى قير فوق مستوى سطح الأرض بكثير ، وعندما ينحسر فإنه يترك أرضاً سوداء عارية تتكون من رواسب بالغة القدم من رواسب النيل . وتعالو هذه المسافة من الأرض لقدم أو قدمين فوق مستوى سطح البحر ، وهى مغطاة فى كل مكان بالرمال ، ومع ذلك فهناك منطقة تدوس فيها القدم على نفس الأرض القديمة ، وعلى نفس الطريقة نرى واحداً أو اثنين من كشبان من الطين الأسود المختلط ببقايا من الفخار ، وتلك مرتفعات كانت تنهض فوقها فيما مضى بعض القرى ^(١) .

(١) لاحظنا أن النباتات فى هذه المنطقة تنمو بسرعة كبيرة وبدرجة أكبر مما هو متعارف فى مصر ، فقد رأينا أن القمح التركى ، بعد خمسين يوماً من زراعته قد نما لطول ٥ أقدام بل لقد بلغ طول بعض السيقان ٦ أقدام أى حوالى المترين . وهكذا فمع افتراض أن النمو يحدث بنفس النسبة مع الزمن وهذا صحيح لحد ما ، فإننا نستنتج أن هذه السيقان الخارجة عن المؤلف كانت تنمو بمعدل ٤ سم فى اليوم الواحد أى بمعدل ١ سم فى الساعة الواحدة . (القمح التركى هو الذرة الشامية) .

ومنذ عامين ألحف سكان إدكو في طلب قطع جسر طويل يمتد على شاطئ النيل ويحمي ديروط ، وقد ووفق على الطلب دون دراسة كافية ، وقطع الجسر شمال ديروط بنصف فرسخ ، وجرت مياه النيل بكميات كبيرة للغاية إلى البحيرة . وفي عام ١٨٠٠ كان الفيضان كبيراً فطفت المياه في البحيرة بوفرة شديدة وأتت هذه المياه التي لم تحجزها أية ترعة على جزء كبير من أراضي ديروط واجتاحتها من كل الجهات وخطت بأرضها كميات كبيرة من الرمال ، وهذان أمران يحول كل منهما دون زراعة الأرز . فالأمر الأول لا يسمح بأن تسوى الأرض بطريقة تسمح باستقبال نوبات الري الصناعي ، أما الثاني - وهو الرمال فينزع عن الأرض خاصية سرعة إنباء المحصول ، ذلك أنه من الجدير بالملاحظة أن كل الأراضي التي يزرع بها الأرز تسكون سوداء لحد كبير حتى في أكثر الحالات جفافاً ، وهو ما يعنى أنها لا تحتوى على أى جزء من الرمال . واستوجب الأمر أن يقفل الجسر الذى قطع برعونة كي تعود إلى أراضي ديروط خصوبتها القديمة ، وهو ما لا يمكن أن يتم دون كثير من الوقت والجهد والتكاليف .

وتشبه إدكو الواقعة على الطريق بين رشيد والإسكندرية لمدينة صغيرة أكثر مما تشبه لقرية ، ويوجد بها عديد من المساكن والمنازل المبنية بالطوب المحروق وهو نفس ما نجده في رشيد ، حيث المنازل واسعة وتتكون من عدة طوابق . ولا تشاهد في هذه الأماكن أية حيوانات ضخمة ولا يسكنها إلا الصيادون . وقد تزيد عدد سكانها بسبب تهديم القرى المجاورة لأبى قير .

وقد دفنت الرمال التي يخرجها البحر من جوفه باستمرار ، والتي تحملها رياح الشمال فوق إدكو جزءاً من المدينة بالفصل ، وسوف تتقدم هذه الرمال باستمرار وعلى الدوام حتى تبلغ رشيد وهى التي تواجه نفس الوضع .

والبحيرة الواقعة قريباً من إدكو كثيرة الأسماك ، ويشكل الصيد بالنسبة للأهالى كما هو الحال بالنسبة للحكومة دخلاً كبيراً . وهذه البحيرة ليست سوى

مستنقع ضحل لا يصل عمقه في أى مكان لا أكثر من متر تحت مستوى سطح الأرض . وهى تستقبل مياه النيل وقت الفيضان ، وعندما يكون الفيضان بالغ الوفرة تصب المياه فى البحر بالقرب من بحيرة أبى قير عند الوكالة أو منزل المسافرين التى يطلق عليها الفرنسيون اسم : المنزل المربع .

وهذه الوكالة مبنية بالحجارة وهى شديدة المتانة ، وعندما تتصل مياه البحيرة بماء البحر تغرق المياه جدرانها ، وكان عمق منطقة الاتصال فى عام ١٨٠٠ يبلغ حوالى من ٦ - ٧ أمتار وعرضها حوالى ٣٥ متراً . وتسكن الرمال التى يحملها البحر عادة لإغلاقها . وهذا المسكان ، هو نفسه الممدية التى تحدثت عنها كل مؤلفات البحارة المحدثين إذ لم يكن قد تم فى عهدهم قطع سدود أبى قير .

وفى عام ١٨٠٠ تلقت بحيرة إدكو ، بخلاف المياه التى تأتىها من ديروط مياهاً أخرى من جزء من سهل دمنهور بفعل قطع حدث فى جسور ترعة الإسكندرية بالقرب من سنهور ، وهذا ما يدل على حقيقة المستوى الخاص بهاتين البقعتين . وأخيراً فقد تلقت البحيرة مزيداً من المياه بين الفتحة المسماة : أبو جاموس بالقرب من قرية محلة داود عن طريق المستنقع الذى ننظر إليه باعتباره مجرى الفرع السكاني القديم . وهذا المجرى الأخير ، حسب أقوال أهل البلاد ، هو المخفد الوحيد الذى كان فيما مضى يحمل المياه إلى البحيرة .

ولو أن جسور ديروط كان قد أحسن بناؤها ، لسكان فى الإمكان زراعة كل أراضيها ولزادت كمية إنتاج البحيرة من أسماك الصيد ولأمكن لفتحة : « أبى جاموس » أن تحصل كل عام على كمية كافية من المياه ، بل ولربما كانت قد حادت تبعاً لذلك شواطئ الفرع السكاني القديم لتصبح آهلة بالسكان . واسكن ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن معدل الانحدار من ديروط إلى البحيرة شديد

السرعة، فلو أن ترعة قد أنشئت في هذه المنطقة لأصبحت بالغلة الاتساع
ولاحدثت الكثير من الأضرار .

وعندما يكون الفيضان ضعيفاً أو عندما يهمل فتح الجسور التي يلغى أن
تسمح بمرور مياه النيل إلى بحيرة إدكو، فإن البحيرة تتضاءل لتصبح صغيرة
الاتساع وتصبح مياهها شديدة الملوحة ويصبح عائد الصيد منها بالتالى ضئيلاً^(١).

(٣)

بحيرة مريوط

لم تكن شواطئ بحيرة مريوط وقت مجيء الحملة الفرنسية^(٢) — وكما
يعتقد البعض — محجوة تماماً، فعند رحيلنا من البيضا متبعين ترعة الاسكندرية
لاحظنا بعد مسيرة ثلاثة أرباع الساعة وعلى بعد حوالى ٥٠ — ٦٠ متراً من
الترعة منحدرأ سريعاً على مقربة فرسخ أو اثنين من الاسكندرية . وكان هذا
المنحدر نفسه شديد الاقتراب من التربة . وكنا نرى على قمة هذا المنحدر ومن
مضافة إلى أخرى بقايا جدران ليست من الطوب وإنما من الحجر الجيري . كانت
أرض قاع المنحدر رطبة بدرجة ملحوسة ، بل وكانت تحتوى على عدة
مستنقعات من الماء المالح كما كانت أيضاً أكثر رملية من بقية
أراضي مصر .

ويذكر بيلون Belon أنه رأى بحيرة مريوط مليئة بالمياه ومن السهل تبين
ذلك، فعندما تسكون مياه النهر في قمة ارتفاعها فإن كل السهل الواقع إلى يسار

(١) ينبغي أن نذكر أن الفترة التي كتبت فيها هذه الملاحظات هي عام ١٨٠٠ .
(٢) على الرغم من أن الأماكن قد تغيرت كثيراً منذ الوقت الذي كتبت فيه هذه
الملاحظات فإننا نعتقد مع ذلك أن من الواجب الاحتفاظ بها بالشكل الذي سجلناه في
مذكراتنا عن هذه الرحلة .

الترعة يمتلئ بالمياه التي تبقى حتى مجيء الربيع ، ولا تقل هذه المياه مطلقاً أثناء الشتاء بسبب الأمطار التي تسقط هناك دائماً بكميات تكفي لتعويض الفقد الذي يسببه البخر .

وتدهم الجسور اليسرى لترعة الاسكندرية المجاورة للمستنقعات المالحة بالقرب من المنخفض بحائط من الحجارة تقويه من مسافة لأخرى دعائم سميكة ، ويبدو أن هذا الحائط قد صنع لحماية الجسر من مياه بحيرة مربوط التي كانت في هذه الفترة دون شك تحتفظ بمياهها طيلة العام ، وحيث أن المياه لا توجد بها الآن إلا لفترات محدودة ، وحيث أن مياهها لم تعد تعلو فإن هذا الحائط لم يعد ضرورياً .

وعندما نتوجه من الاسكندرية إلى البيضاء عن طريق أقصر فإننا نعبّر بحرى بحيرة مربوط (مريوتيس) القديمة ، لكن هذا الطريق لا يستخدم إلا في الصيف إذ توجد المياه في الأوقات الأخرى في هذا الاتجاه ، وترتفع هذه المياه لتبلغ نحو قدم ، بل إن الأرض حتى في الصيف تكون شديدة الرطوبة ، ويتكلس الملح فوق كل مكان من سطحها .

وعند الاتجاه إلى الجنوب الغربى من قرية كوم البركة ومسافة ثلاثة فراسخ ونصف إلى سيدى غازى وهى القرية التي تقع على وجه التقريب عند أقصى المنطقة القابلة للزراعة في هذا الإقليم . وهذه القرية تابعة لعربان مزارعين ، وتروى أرضها عن طريق الترعة الغربية التي تشكل امتداداً لترعة بنى يوسف والتي يغذى بحراها فروع عديدة مثل فرع الطرانة ، وفي بعض الأحيان يوجد بها مياه كثيرة ، وفي عام ١٨٠٠ تلقت الترعة كمية كبيرة من المياه بلغت مستوى فوق مستوى النيل وسالت بكميات كبيرة خلف دمنهور لتصب في بحيرة مربوط

بعد أن روت المنطقة^(١).

وعند الاتجاه إلى الغرب من سيدى غازى وبعد مسيرة ثلاث أو أربع ساعات بدأنا نخوض فى أرض رطبة كانت وقت الفيضان شديدة الوحولة ، تلك هى بقية الجزء الغربى من بحيرة مريوتيس القديمة ، وبعد أن سرنا حوالى الفرسخ من هذا المكان وجدنا أنفسنا عند بداية وادى مريوط . هناك يبدأ الجبل الذى يحد بارتفاعه أضيق فروع البحيرة ، وقد ميزنا المكان بزاوية ولى يسمى الشيخ على ينهض مقامه فوق صخرة ، وقد استغل الصخر للحصول منه على الأحجار بل لقد حفرت فيه كهوف ومخارات ، وتوجد بالقرب من ذلك مياه حلوة تأتى مثلها مثل مياه سيدى غازى من الأمطار التى تسقط بكميات وفيرة فى كل هذه المنطقة . وتبلغ المسافة من هذه الزاوية حتى شاطئ البحر مباشرة حوالى الفرسخين لكن هذه المسافة تقل إلى فرسخ واحد إذا اتجهنا إلى الاسكندرية .

ووادى مريوط الذى يعبره المره وهو متجه من الزاوية إلى البحر ، منبسطة تماماً وأرضه سوداء موحلة يختلط بها كثير من الرمال ، وعند الاقتراب من الشاطئ ترى كمية كبيرة من كتل الحجارة الضخمة المقطعة .

والأرض هناك مغطاة بالقواقع لدرجة تبدو منها بيضاء تماماً . وأرض هذا الوادى وكذلك أرض بحيرة مريوتيس مالحه ولا يمكن لها مطلقاً أن تزرع لذا يسميها أهل البلاد : السباخة .

وربما كانت الروابي المجاورة للضريح (الزاوية) هى تلك التى كان ينمو عليها النينذ المريوطى الذى تغنى به هوراس ، والأرض هناك طباشيرية كما هو

(١) بنيت قرية سيدى غازى على نحو مخالف بعض الشيء لقرى الداخل ، فكل البيوت تقريباً على شكل قباب وقد وجدنا فى مسجد القرية عملاً كبيراً لأدوات الزراعة وأواني الألبان التى تنقلها السيدات على ظهور الجمال وكذلك تلك الأغذية التى يصنعها العربان ، وتوجد بالقرب من هذه القرية ، وفى بعض الأماكن من ضواحيها ، مستنقعات كثيرة من المياه الحلوة لكن لونها يعيل لى البياض كما أنها حملة بالجير .

الحال في شبنانيا ، أما الاراضى المجاورة وكذا أرض الضريح فهى طباشيرية بالمثل ويزرع فيها بكثرة صنف من البطيخ الشهير بجودته البالغة وهو يماثل بطيخ بحيرة البرلس . وهذه الاراضى بيضاء تماماً ويبدو أنها تتكون من أحجار مسحوقة ، ويزرع البطيخ فى خطوط طويلة وعلى عمق يزيد على المتر .

وتقع خرائب مريوط وبقايا مدينة ماريا القديمة على بعد حوالى ثمانية فراسخ من الاسكندرية وقد وصفناها فى مكان آخر .

وعند الطرف الشرقى للوادى الطويل ، الذى شاهدناه يمتد بعيداً نحو الغرب ليصبح الفرع الضيق لبحيرة ماريوتيس ، والذى يسميه العربان وادى مريوط وهو يوازى شواطىء البحر ثم ينفصل عنها بواسطة واد يسمى درياح البحر - تسقط الأمطار فى الوادى الأول بسبب حالة خاصة من البرودة ، وذلك بخلاف مياه النيل ، وبرغم هذا يشاهد هناك قليل من العربان ، ولا يمكن أن يشاهد المرم فى هذه المنطقة سوى غابات من النخيل تبعد الواحدة عن الأخرى بمسافة كبيرة ، كما أنها ليست سوى أدغال يبالغ ارتفاعها بين ٣ و ٤ أمتار كما توجد فى نفس المنطقة ٥ أو ٦ نخلات نمت على نحو طيب ، بالقرب من الضريح الذى يسمى ضريح أبى الحنير .

ويبلغ عرض وادى مريوط بالقرب من الاسكندرية حوالى فرسخ واحد لكنه يأخذ فى الضيق شيئاً فشيئاً ، وبالقرب من أبى صير - تابوزيريس القديمة - حيث يقع برج لا يعود اتساعه يبلغ سوى ٢ فرسخ فقط .

وبدأ من تل حمامات كليوباترة حتى المسكان الذى ينتهى فيه التل ليغلق مدخل الوادى المسمى درياح البحر ، أى فى مساحة تبلغ أكثر من ثلاثة فراسخ توجد المحاجر التى استغللت على نطاق واسع والتى استخدمت فى بناء مختلف مدن الاسكندرية .

ولا يستطيع المرء أن يمشى في وادى درياح البحر لأكثر من ٤٠٠ متر دون أن يقابل آثار حوائط إما موازية لطول الوادى وإما متعامدة عليه ، ويرى المرء فيها أيضاً معالم جداول مطلية بالأسمنت ومخصصة لنقل المياه ، وثمة خرائب مماثلة فى ذلك الجزء من وادى مريوط الذى تتبعه قبل أن يندمج فى وادى درياح البحر ونلاحظ عند فتحة الوادى على اليمين آثار حائطين متوازيين يبلغ ارتفاع كل منهما ما بين ٥ إلى ٦ أمتار ويبلغ طول كل منهما ٩٠٠ متر .

ولابد أننا سنخطئ لو أننا افترضنا أن كل هذه الخرائب إنما هى بقايا منازل ، لأن الأمر لابد أن يعنى عندئذ أنه توجد مجموعة من المنازل المتوالية على امتداد عشرة فراسخ ، لكن الأقرب إلى الصحة أن تكون هذه الانقاض بقايا لأسوار وحدائق وبساتين . كما لابد أن نستنتج كيف أن الصناعة التى كانت فى مدينة مجاورة بهجم الاسكندرية قد قضت بانزاع جزء من أرض ترويه مياه الأمطار بشكل يكفى لإمكانية أن تبنى فيها خزانات للمياه . ثم إن امتداد هذه الأسوار التى يقطع بعضها الوادى بشكل عمودى لأمر مناسب تماماً لمثل هذا الاستغلال .

وقد رأينا فى نفس الوادى - وادى درياح البحر - قطعاً كبيراً من الماعز وحوالى العشرين من الثيران والأبقار ، وهى من نوع يختلف كثيراً عن ماشية الداخل فهى أصغر منها بكثير كما أن سيقانها أقصر نسبياً ، ولونها أشقر يضرب إلى اللون البنى أما أسفل بطنها فأسود اللون ، ويتماثل كل القطيع فى هذا اللون .

ويحتل كل هذه الوديان العربان الذين يرعون فيها قطعانهم أو ينسحبون إليها عندما يطردون من داخل مصر . وعند جولتنا كانت هذه المنطقة فى حوزة قبيلة أولاد على الكبيرة العدد (١٠ فبراير ١٨٠١) لكننا لم نجد فى وادى درياح البحر سوى رجلين أو ثلاثة رجال وطفلاً واحداً وسيدة مسنة لم يكن قد تسنى لهم الوقت السكاكى للفرار قبل مجيئنا فظلوا محتبئين بين الصخور وكثبان الرمال التى تفصل الوادى عن البحر .

(٤)

رحلة إلى أعماق الدلتا ”دي بوا - امييه“

العنوان الأصلي للدراسة هو :
رحلة إلى أعماق الدلتا ، وتتضمن هذه الدراسة بعوناً
جغرافية عن بعض المدن القديمة ، وملاحظات عن عادات
وتقاليد المصريين المحدثين .

القسم الأول

لمحة عامة عن الدلتا - الرحيل من القاهرة

الوصول إلى منوف - وصف المنوفية

الدلتا، هي ذلك الجزء من أراضى مصر المحصورة بين البحر الأبيض المتوسط وبين فرعى النيل اللذين يصبان بالقرب من مدينتى رشيد ودمنياط .

وفيما مضى ، عندما كان النيل يصب فى البحر عن طريق سبعة أفرع كبيرة كان اسم الدلتا يعنى كل الأراضى الواقعة بين الفرع السكاني الذى كان ينتهى بالقرب من موقع أبى قير حالياً والفرع البيلاوزى الذى يمكن أن نحدد مصبه عند الطرف الشرقى لبحيرة المنزلة .

والشكل المثلث لهذه الأراضى هو الذى جعل الإغريق يطلقون عليها اسم الدلتا ، وهو اسم حرف من أبجديتهم كانوا يسمونه على شكل مثلث . هكذا كانت تبدو لهم مصر السفلى فى شكل مثلث ، قاعدته تتركز على المتوسط وتنتهى قته فى الجنوب ، نحو ممفيس .

ولا يكاد يكون هذا الاسم معروفا لدى المصريين المحدثين الذين قسموا أراضيهم على نحو مخالف لما كانت عليه فى عهد الإغريق . وحيث أن الدلتا قد تكونت من الطمي الذى رسبه النهر ، فليس بها على الإطلاق أى مرتفع طبيعى ، إذ ليس بها سوى بعض الكشبان الصناعية وبعض التتوءات التى نتجت عن الحفرايب والانقاض التى تحيط بالمناطق المسكونة وكذا بعض الكشبان الرملية .

تلك فقط هي أشكال عدم الاستواء فى أرض الدلتا . . . وثمة عدد هائل من الترع يقطع هذه الأرض من كافة الاتجاهات . وثمة بحيرة تشغل

مساحة هائلة في أقصى الشمال لا يفصلها عن البحر سوى لسان ضيق من الأرض ، كانت تعرف في الماضي باسم بحيرة بوتس لكنها اليوم تحمل اسم البرلس .

وتبلغ المسافة ما بين قمة الدلتا في الجنوب وبوغازى رشيد ودمياط ، وفي خط مستقيم ما يقرب من ١٦ ميرومتر « ١٦٠ ألف متر » أما طول فرع النيل اللذين يصبان عند هاتين النقطتين فيصل طولهما من ٢٣ إلى ٢٤ ألف متر ، ويبلغ طول قاعدتهما إذا ما أدخلنا في الحساب طول التمرجات الساحلية ١٤٥ ألف متر بينما يصل طولها كخط مستقيم بين مدينتى رشيد ودمياط ، طرقي هذه القاعدة ، إلى ١٣٧ ألف متر .

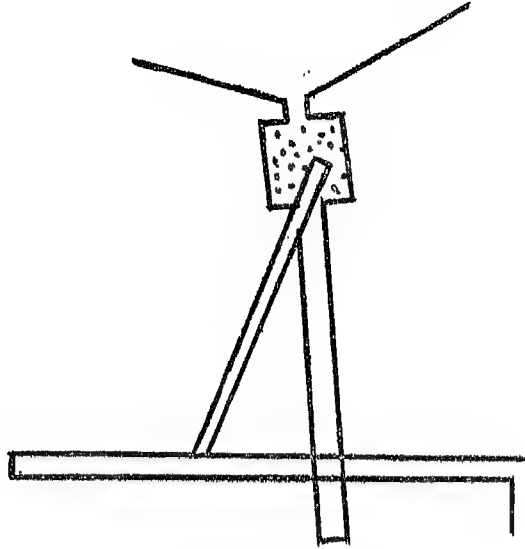
ذلك هو الملح العام ، وتلك هى مساحة البلاد التى سوف نعبها في رحلتنا هذه ، وهى بلاد قل من كان يعرفها من الرحالة الأجانب قبل مجيء الحملة الفرنسية ، بسبب الأخطار التى كانوا يشعشعرونها ، ما أن كانوا يبتعدون عن شواطئ النيل .

رحلنا من القاهرة في الخامس من فندمير من العام الثامن « ٢٧ سبتمبر ١٧٧٩ » . وكنا مكلفين بأن نشق في الدلتا طرقا عسكرية وأن نقوم ببعض تمهيدات للأرض . وأن تعرف وأن نحسن من نظام ترع الملاحة والرى وأن نقوم خطوطاً تلغرافية بين القاهرة وشاطئ المتوسط^(١) . وبعد أن تلقينا التعليمات

(١) لأن جيشنا كان قد بدأ يضعف . فقد أصبح في ميس الحاجة لىكى يعرف على وجه السرعة أخبار العدو . ومن هنا ندرك كم كان من المفيد إنشاء خطوط تلغرافية ، وكانت تستبعد على الفور أية فكرة لتبين أنه يصعب تنفيذها . ومن العيب أن يقال لأنه كانت تنقصنا المواد اللازمة ، فلقد كان الجيش يجد في شخص المسيو كونتيه Conté ، مدير الورشة الميكانيكية ، رجلاً عرف ، بعفريته الإبداعية ، تلك العبقرية التى صمدت كثيراً للاختبار ، كيف يغلب على كل العقبات ، فلقد صمم في وقت وجيز منظارات رائعة ، وأقام عدداً كبيراً من خطوط التلغرافات على نمط جديد . وحيث قد مات المسيو كونتيه قبل أن يفسر وصفاً لجهاز التلغراف الذي صممه ، فقد ظننت أن من الأفضل أن أقدم له هنا هذا الوصف الموجز .

حول هذه الموضوعات ، أبحرنا نحو بولاق ، تلك المدينة التجارية الواقعة على

= يتكون التلغراف ، وهذا هو شكله من :



١ — صارى رأسى يثبت طرفه الأسفل في طوار البرج .

٢ — قطعة من الخشب على شكل حرف L تتحرك حول مسمار فلابوط بشكل أفقى ، بحيث يثبت أكبر ضلعها عند الطرف العلوى للصارى .

٣ — ذراع خشبي يمر عن طريق طوق معدني يثبت على الصارى عند منتصفه تقريباً ، ويرتبط الطرف العلوى لهذه الذراع بالقطعة الخشبية حرف L بحيث تجعلها تدور رأسياً حول مسمار الفلابوط المثبت في قمة الصارى . وتحدث الحركة بجذب الذراع أو بدفعها بقبضة موضوعة في طرفه الأسفل ، ويتحرك امتداد هذه الذراع ليرفع على التوالي في عدة ثقوب موجودة في سمك اللوح الخشبي الموضوع بشكل رأسى على أسفل الصارى . وتحدد هذه الثقوب بالنسبة لقطعة L مواضع مختلفة ، توضح عن طريق معطياتها ، الجبل المستقبلة .

ولما كان المسير كونه قد رغب في معرفة المعادلة الجبرية للمنحنى الذى يخطه المحرك على اللوحة الرأسية الممتدة ، فقد وجدت أنها معادلة جبرية من الدرجة السادسة ، ومن السهل أن نقبين أنه إذ كان علينا أن نعتبر الطوق المعدني في نقطة ثابتة فوق محيط الدائرة المعطاة التي يرسمها الطرف العلوى للذراع والذي يمر بهذا الطوق ، وإذا كانت الذراع مساوية لقطر الدائرة المعطاة ، فإن فرعى منحنى التلغراف سيتكونان : أحدهما من فوقية علوية والآخر من قوس دائرى ، بطريقة تجعل من كليهما فوقية علوية وقوساً دائرياً كامليين . وتبين المعادلة من الدرجة السادسة نظام هذين المنحنين ، وتقدم كذلك المعادلتين المنفصلتين اللتين تحكمهما ، بانقسامهما الى معامليين : أحدهما من الدرجة الثانية ، والآخر من الدرجة الرابعة .

ضفاف النيل على بعد ربع فرسخ من القاهرة حتى أنها تعتبر على نحو ما ضاحية من ضواحيها .

ركبنا واحداً من تلك القوارب الخفيفة التي تسير بالشرع والمجداف ، وعند مؤخرة القارب كان ثمة حجرة مجهزة على نحو طيب ، وكنا نستخدمها كماوى ضد حرارة الشمس بالنهار وضد الرطوبة بالليل .

وعلى بعد حوالى نصف فرسخ من بولاق ، لمحنا عن يميننا قصرأ خرباً ، كان البسكوات « المماليك » يذهبون إليه في موكبهم الفخم ليستقبلوا الباشوات الجدد الذين كان يرسلهم بلاط القسطنطينية .

كانت تتحرك من حولنا لوحة حية تتشكل من عديد من القوارب تتقاطع في شتى الإتجاهات^(١) وهى تشق الأمواج بشرعها أو مجدافها وسط ضجيج من أغنيات البحارة ، واختفت الشمس خلف الهضبة الليمية ، بينما آخر أشعتها لا تزال تلامس قمم الأهرام ، تلك التي كانت تبدو كتلتها السفلى وهى غارقة في الظلال كما لو كانت تتباعد شيئاً فشيئاً عن سماء أرجوانية اللون ، وكانت صفوف النخيل الطويلة تلوح في شكل دائرى بهيج ، وكانت تمتد من حولنا حتى تصل إلى رمال الصحراء مراعى البرسيم ، وكنا نلمح على شواطئ النيل قطعانا من الجاموس جاءت تغمس أجسادها في النهر ، وكانت طيور أبى قردان البيضاء تحط في وداعة وهذوء فوق ظهور الجاموس السوداء ، وكان الأطفال الصغار بأجسامهم العارية واللوانهم البرنزية يلاعبون بعضهم مع بعض ، وعندما ، أحياناً ، يتوقف أحدهم بلا حراك ، يخيل إليك أنك ترى في وقفته وهيئته تلك ، واحداً من تماثيل مصر القديمة وقد عادت إليه الحياة .

(١) تؤدي قلة ارتفاع ضفاف النيل ، بالإضافة إلى هبوب رياح الشمال بشكل دائم ، إلى جعل الملاحة في النيل سهلة ، سواء كبتنا نتجه مع التيار أو ضده .

كانت هذه النباتات الافريقية ، وتلك الأغنيات العربية ، وتلك الآثار السابقة في وجودها على الحضارة الأوروبية وأخيراً اختلاؤنا بأنفسنا وتذكرنا ما نحن فيه .. كان كل ذلك . يذكرنا ببعدها عن فرنسا ، وبذلك المسيرة الشاردة للحياة الإنسانية ، وبزوال امبراطوريات كانت أكثر ازدهاراً منا ، وكنا نقول لأنفسنا : بعد وقت طويل ، سوف يزور هذه الأرض القديمة ، مهد العلوم والفنون ، أناس آخرون ، وإذا ما كان الفرنسيون يوماً قد اختفوا من فوق الأرض ، شأنهم شأن كثيرين غيرهم من الأمم الشهيرة ، فلسوف تبقى هذه الأهرام شاهدة على انتصاراتهم ، وسوف تظل آلاف النقوش التي خلفوها تشهد على مرورهم بهذه البلاد ، وسوف تحتفظ بذكرهم ، ولسوف يقال عندئذ ، لقد كان ثمة محاربون شبان ، ولدوا في تلك البقعة الجميلة التي يحدها البحر ونهر الرين وجبال الألب والبرانس ، ولقد جاء هؤلاء محاربون لينزعوا مصر من أبناء القوقاز المتعجرفين ، من أولئك الممالك البواسل . وعندما نسمع في مراقبتنا مثل هذا الثناء ، في ذلك المستقبل البعيد . وفوق أطلال الأزمان والقرون ، فلسوف تحفق قلوبنا ونحن في اللحد ، حباً للوطن وحنوا عليه .

فاجأنا الليل ونحن في خضم أفكارنا تلك ، ومررنا أمام ترعة «أبو منبجة» ، وعندما تجاوزناها بخمسة آلاف من الأمتار لنصل إلى ذلك المكان الذي يعانق النيل فيه دلتاه بينما هو ينقسم إلى فرعين ، سرنا في فرع دمياط ، ذلك الذي يمضي إلى الشمال ، بينما يسير زميله فرع رشيد ليتخذ شكل مرفق يتكئ إلى الغرب . ويسمى أهل البلاد نقطة انفصال هذين الفرعين : بطن البقرة .

حاذينا الجسور التي تسد ترعة الفرعونية القديمة ، وبعد عدة أمتار تركنا فرع دمياط لندخل في ترعة صغيرة من ترع الدلتا ، لا تصلح للملاحة إلا أوقات الفيضان ، وقادتنا هذه التربة إلى أسفل التل الصناعي الذي أقيمت عليه مدينة منوف .

وبعد عدة أيام من وصولنا إلى المدينة ، أردنا البدء في تطهير ترعة الفرعونية ولهذا السبب توجهنا إلى القرية التي تحمل هذا الاسم والتي تقع على فرع دمياط . لم يكن قد سبق لنا أن اتخذنا لأنفسنا حراساً ، وكثيراً ما هوجمت في هذا الطريق بعض سرايانا ومع ذلك فقد كنا سعداء أكثر منا حذرين ، وفي الوقت نفسه فلربما كان الفلاحون أنفسهم قد أصبحوا أقل جسارة منذ خبروا قوة جيشنا وكفاءة جنودنا . ومهما يكن الأمر ، فلقد لاحظنا بحق أن هؤلاء الفلاحين ليسوا بالغلظة التي كنا عادة نظنهم عليها ، كما أن أولئك الذين عملوا منهم في خدمتنا قد قدموا الدليل على المودة والاستقامة والشجاعة ، يضاف إلى ذلك كرم الضيافة التي يحض عليها دينهم . كل ذلك سيكون على الدوام بمثابة ضمان أمان للمسافر الذي ، إن كان يعرف لغتهم ، فليسوف يسير بكل طمأنينة أمام أولئك الذين يرتاب فيهم كأناس سيئ القصد ، وليسوف يطلب إليهم أن يصحبوه إلى رئيسهم وسوف يقول لهذا الرئيس مشيداً بشجاعته وفصائله وكرم ضيافته أنه قد جاء إليه وهو واثق مطمئن . ولقد نجحت هذه الطريقة على الدوام معنا حتى في تلك المناطق التي لم تكن بعد كلية في حوزتنا ، وسوف لا نتردد في استخدامهم مطلقاً مع أى أناس مهما كانوا ، ذلك أن البشر ، مهما كانت غالبيتهم في معظم الأحيان قساة ، ومهما كانوا في العادة سيئين ، فإنهم على الدوام حساسون ، يستجيبون لصوت الشرف ، وليس ثمة ما ينبغي عليك أن تفعله إلا أن تعرف كيف تحسن اختيار الوقت المناسب الذي تجعلهم فيه يستجيبون لصوت هذا الشرف .

قدمنا أنفسنا إلى شيخ قرية الفرعونية ، الأمير « أحمد » الذي أوكلت إليه مهمة حراسة جسور الترعة الكبيرة والعناية بها . وكانت قد تميات لواحد منا — من قبل — الفرصة لإسداء خدمة جليلة إليه قبل القائد العام للجيش الفرنسي ، فاستقبلنا بسرور وترحاب ؛ نمنا وتعشنا في كنفه . وفي صباح اليوم التالي دخل علينا الحجرة ومعه ابنته ، وهي طفلة جميلة في حوالى السابعة من عمرها ، جاءت

لتقدم إلينا الفاكهة والفطائر ، وكان وجهها مكشوفاً ، وكانت هي شاهقة البياض .
وبالتأكيد ، فإن زيارة هذه الطفلة لنا ، خاصة وقد خلعت النقاب عن وجهها ،
لدليل قوى - بالنسبة لعادات الشرق - على الترحيب الكبير ..

هند رحيلنا ، أراد الشيخ أن يضع في أيدينا مبلغاً كبيراً من المال ، لكننا
رفضنا ، فقدم إلينا حصانين فأجبتنا بأن ليس من عادة الفرنسيين قبول هدية بهذه
القيمة فنظر إلينا دهشاً ، وسمعنا خدامنا العرب يقولون لبعضهم البعض بصوت
خفيض أنه لا بد أن سادتهم هؤلاء رجال جدعان ، وإن كانوا مجانين بعض
الشيء ، فلقد بدا رفض الهدية في نظرهم بمثابة عته واختلال في العقل . على أن
عادة تقديم الهدايا لمن أقدمت إليهم واجبات الضيافة إنما تعود إلى الماضي
السحيق . ألم يتلق أوليس من مضيفه السليوس كمية كبيرة من الذهب ، ورداه
وكأساً ؟ . كان علينا - ربما - أن تمثل بعض عادات الشرق ، لكن ذلك
كان يعنى بالنسبة لنا ، وعلى نحو ما ، أن تتقاضى ثمن خدمات سبق أن قدمناها .
لقد تغلبت العادة وعملنا نحن من جانبنا كل ما أمكننا عمله ، حتى يبدو رفضنا
أقل فظاظة .

يبدو أن كلمة فرعونية مشتقة من فرعون . وهو الاسم الذى كان يطلق على
ملوك مصر القدماء ، وحيث كان سكان هذه البلاد - وما زالوا - يلبسون
إلى هؤلاء الملوك بناء كثير من المنشآت التى يأتى الأجانب إلى بلادهم شوقاً لرؤيتها ،
فإن بإمكاننا أن نستنتج أن قرية الفرعونية تضم بعضاً من مخلفات الماضى ، التى
عمل الزمن والغزاة البرابرة على إخفائها ، لكننا نجعل أى مدينة قديمة تنهض هذه
القرية على أطلالها .

مسحنا مجرى ترعة الفرعونية كله ، وقمنا بما يلزم من تطهير وتسوية . تبدأ
الترعة من فرع دمياط إلى الشمال قليلاً من القرية التى تحدثنا للتو عنها وتغترق
الجزء الأعلى من الدلتا لتنتهى فى فرع رشيد شمال قرية نادر . وانحدار تلك

الترعة الذى يبلغ فى مجمله ثلاثة أمتار و٩٦٣ مم على مدى يبلغ ٣٧ ألفاً ومائتين وخمسين من الأمتار ، بالإضافة إلى ما سبق أن قننا به من عمليات تعبيد وتطهير فى أماكن أخرى من الدلتا ، إلى جانب ذلك الشح المتواصل فى كمية المياه التى تجري فى فرع رشيد .. كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن هذه المساحة من أرض مصر تعاني من انحدار عام يتجه من الشرق إلى الغرب ..

كانت مياه الفرع الشرقى بفعل الانحدار التى تحدثنا عنه تصب فيما مضى بوفرة شديدة فى ترعة الفرعونية لدرجة أن الأقاليم التى تليها ، بالقرب من دمياط ، لم تكن تحصل على المياه اللازمة لرى أراضيها وحتى أن البحر كان يغطى بمياهه الأرض الأكثر انخفاضاً . واضطرت حكومة القاهرة بسبب الخسائر التى نجمت عن ذلك إلى إغلاق ترعة الفرعونية . ويبدو أن مراد بك هو أول من أخذ على عاتقه هذا الأمر ؛ ولكن السدود - لأنها بنيت بشكل سيء - لم تستطع مقاومة ضغط المياه وعندما استولى أيوب بك الشيخ ، على الحكم عاود العملية ، ولكن ما أن انتهت حتى سارع أيوب بك نفسه وعثمان بك - تحركهما مصالحهما الخاصة - بقطع السدود . وفى النهاية استقر الأمر على إغلاق الترعة نهائياً بموجب أمر من مراد بك عندما عاد هذا المملوك ليعتلى قمة الأحداث . وأوكل الأمير أحمد - الذى التقينا به فى الفرعونية - بأن يتكفل بهذا العمل فتمكن بمشقة بالغة من إنجازه وذلك بأن ألقي فى مدخل الترعة وقت انخفاض منسوب المياه كتلا ضخمة من الحجارة ، وكانت مياه فرع دمياط تتسرب وقت الفيضان من خلال السدود لتدخل إلى مجرى الترعة لتتصل بذلك المياه التى تدخلها من جهة فرع رشيد ، مما كان يسمح بالملاحاة فيها لبضعة شهور من العام بواسطة القوارب الصغيرة (١) .

(١) فى أثناء الفيضان الكبير الذى حدث فى العام التاسع ، اكتسحت المياه السدود لعصب فى ترعة الفرعونية التى عادت بذلك صالحة للملاحاة ، وظلت طيلة العام تعمل كفرع كبير من فروع النيل ؛ لكن رحلتنا فى أعماق الدلتا ، كانت سابقة على هذا الحادث .

وشواطىء ترعة الفرعونية ليست - كغيرها من شواطىء غالبية الترغ في مصر - محاطة بمتوءات طينية نتجت عن التطهير السنوى ، لكنها تشبه شواطىء أفرع النيل الرئيسية ، وتقوم على جانبيها زراعة جيدة كما تنهض قرى شديدة الاقتراب كل منها بالآخرى .

يطلق على المنطقة التى كنا نعبها : ولاية المنوفية وهو اقليم أقل من غيره من أقاليم الدلتا تعرضاً لغارات العربان^(١) ، وجزؤه الأعلى المحصور بين فرع دمياط وفرع رشيد . وترعة الفرعونية يسهل الدفاع عنه ضد العدو حين تكون قوات هذا العدو مكونة فقط من الفرسان^(٢) .

تقدمنا إلى الأمام ، إلى داخل هذه الجزيرة : وعرفنا أنها تروى - عموماً - عن طريق ترعة أبو سرّة التى تأخذ مياهها من ترعة الفرعونية حيث تعود لتصب فيها مرة أخرى عند الرملة عن طريق مصبين مختلفين بعد أن تكون قد حملت مياه النيل عن طريق شعاب كثيرة إلى عدد كبير من القرى .

وتبقى مياه الفيضان في هذه المنطقة من مصر لوقت قصير ، وهذا ما يؤدي بالضرورة بالهواء أن يكون صحيحاً أكثر منه في المناطق الأخرى لذا فإن الطاعون هنا أقل خطراً وانتشاراً عنه في شمال الدلتا^(٣) . ويزرع هناك القمح والشعير والذرة والنبيلة والسكران والسلجم والبرسيم والتمرس والبصل والفلو والعدس وبعض البقول المناسبة ، وكذا بعض الخضروات التى تناسب مع

(١) أوقات انخفاض المياه ، يصبح من السهل اختراق النيل في مصر السفلى من عدة نقاط ، وهذا هو الوقت الذى كان العربان يختارونه للاغذاء إلى الدلتا .

(٢) الطاعون من الأمراض الموطنة في مصر . ويخطئ بوضوح أولئك الذين يظنون أنه يفد إليها كل عام من القسطنطينية ، فها هى تنقضى أربع سنوات منذ أن احتل الجيش الفرنسى مصر ، توقفت فيها العلاقات تماماً بين مصر وتركيا ، وطبقت هناك - بعناية فائقة -

الطقس مثل البامية التي تؤكل ثمارها بعد طهوها في المياه وهو طعام غير مستساغ

== كافة الاحتياطات الصحية التي تتخذ في كورتيئات أوروبا ، ومع ذلك جاء الطاعون في أوقات المعتادة ولم تكن أخطاره على مصر أقل من ذي قبل . ولماذا نندهش ؟ ألسنا نعرف أن السكنى بجوار المستنقعات تسبب أنواعاً من الحمى الوبائية أكثر خطورة من مجرد ارتفاع درجة الحرارة ؟ فبعد الفيضان تصبح كل أنحاء مصر مستنقعات واسعة تحف تبعاً بطريق البحر ، وفي نفس الوقت فإن الخضروات التي تزدل والحيوانات التي تنفق في الأوحال تتعفن بسرعة وتنتشر رائحتها السكرية بفعل الشمس الحارقة ورياح الخماسين السامة التي تهب من قلب أفريقيا لتصبح أكثر التهايباً بينما هي تجتاز سهول الرمال الواسعة . ولهذا فإن حمى المستنقعات — وهي خطيرة في كل بلاد العالم — لابد وأن تتخذ هنا بالضرورة طابعاً مدياً شديداً الواضح .

ولقد لوحظ أن كل الأوبئة الفتاكة ، كانت تسبقها فيضانات عالية . وفي هذه الحالات كان الطاعون يهبط من مصر العليا ، لأن الصعيد هو المكان الذي يفرقه الفيضان أولاً . ولكن حيث أن الجسور هناك — على العكس — قوية ، فليس ثمة مناطق تفرق أو مستنقعات تتسكون لولا في مصر السفلى . ونفس السبب أيضاً يبدأ الطاعون في الظهور في مصر السفلى ثم يؤدي الاحتكاك والمواصلات إلى امتداده إلى الداخل ، ذاهباً من الشمال إلى الجنوب .

ومع ذلك فمن الممكن أن ينفذ الطاعون إلى مصر عن طريق البلدان المجاورة ، ولكن إذا حدث ذلك في الوقت الذي لا يحدث فيه الطاعون عادة في مصر فإنه سرعان ما ينتهي .

وقد يقال أن تصاعد الأبخرة من التربة لا يمكن أن يؤدي في حد ذاته إلى حدوث الطاعون ، وأن الرياح هي التي تنقله بسرعة من مكان لآخر ، بل ويلاحظ أن أقل حفرة أو أبسط حاجز كفيف باقائه ، لكن هذا الاعتراض مجرد اعراض بشكى وليس ثمة ما هو أسهل من حوضه . فلا بد أن نقر منذ البداية أن مركز هذه المستنقعات هو مصر السفلى ، لذا سوف يكون من العبث أن ينهزل الناس بعضهم عن بعض ليهربوا من الطاعون ، فأنهم بائعونهم هذا لن يفعلوا سوى أن يقللوا من درجة الخطر وذلك بتجنبهم للاخطار التي يمكن أن تهددهم بكل الطرق لولا الخطر الذي يلجج عن طريق الهواء ، ومع ذلك فقد تسكون هذه العزلة بذات فائدة في المدن ، ولأن كانت تلك على الدوام أقل صحية من المستنقعات التي تحيط بها . وفي نفس الوقت فإن هذا الاحتياط الحكيم لن يكون بمقدوره إن يحمي كلية ضد كافة الأخطار ، ويقدم لنا التجار الأوروبيون الدليل على ذلك ، فأنهم برغم حييلتهم البالغة بعدم اختلاطهم بالشعب المصري قد أصابهم الطاعون في بعض الأحيان ، وقالوا عندئذ وهم محقون لابد أنها قطة أو عصفور هو الذي نقل إليهم المرض . لذا ينبغي أن نفكر في أسباب مماثلة . وأخيراً فإن الطاعون في مدن أوروبا — حيث لا يشكل سوى خطر عارض ، وليس ثمة سبب لحدوثه إلا الاختلاط بالأجسام الحاملة له — له نفس الملعج الرئيسي — فسوف يظل هناك الهواء كسبب للانتشار ، ومن المؤكد أن حائطاً أو حفرة يمكنها أن توقد هذا المرض القاتل .

بسبب لزوجته ، والمملوئية وهى عشب يخرط ويطحخ وهى طعام مرغوب من

== ويسكن اللاوكسيجين حسب التجارب الرائعة للكيميائيين المحدثين ان تهاك أو حتى تحيد تلك الروائح العفنة ، لذا فان الهواء الطبيعى — شريطة ألا يكون حاملا للابخرة التى تسبب فى حدوث المرض — كاف لقتل العناصر الضارة . لذا يمكن أن يصاب الرء وهو على بعد بضعة الميترات من مريض أو من بالة قطن ملوثة بالطاعون فى اللحظة التى تفتح فيها — كما يمكن أن يصاب بالمرض دون أية ملامسة بل يسقط فى بعض الأحيان من منه . وقد حدث من ذلك أمثلة عديدة ، ولكننا إذا ما ابتعدنا عن ذلك المكان الملوث ببعض الشيء فلن يكون ثمة ما نخشاه ، ذلك أن كتلة الأكسجين فى تلك المسافة كافية لكي تقضى على كل الروائح السكرية الحاملة المرض .

كل هذه تفسيرات بادية البساطة ، ولهذا بالضبط تبدو غير مقنعة ، ذلك أن الإنسان يجب عندما توصف الأخطار التى تهدده ، أن يقف على الرائم ، على الأمر غير العادى ، وسوف تكون مثل هذه الأسباب الأقل احتمالا ، طالما هى خارجة على المألوف ، هى التى تبعث برغم كل شيء على الإقناع . لأنه من السهل على الدوام أن تلهب الخيال أكثر مما تستطيع أن تضىء العقول .

كانت أشد نوبات الطاعون — التى واجهناها فى مصر — فمكاً هى تلك التى حدثت فى العام التاسع ، فقد هلك سكان عديد من قرى الصعيد عن بكرة أبيهم ، أما القاهرة فقد قدمت أعظم المشاهد دمعة للحزن والأسى ، وكثيراً ما تبدو لى البيانات التى أعدت فى تلك الفترة ، ونشرت فى أوروبا عن حالات الوفيات أقل من الواقع . فلقد كانت تسمع الأنات والصراخات من كل البيوت ، وكنا نقابل فى كل خطوة جنازة ، وغالباً ما كانت تجمع العديد من الجثث فى نفس النعش . وفى بعض الأحيان كنت أرى الرجال الذين يحملون النعوش ، وهم يسلمون حولتهم لأخرين ، ليرقدوا على الأرض يمانون من كل أعراض الطاعون .

وفات يوم ، بينما كنت أعب السهل الخالى ، سهل إبراهيم ، الذى يفصل القاهرة عن جزيرة الروضة ، شاهدت منظرأ لن ينمحي من ذاكرتى مدى الحياة . كانت عن يسارى صفوف متوالية من الأبخاض ، ينهض فوقها معقل معبدنا ، وكانت عن يمينى حقول وأشجار نخيل وجيز ، وكان الجيوش فى ذلك الوقت مشتتاً بسبب المناوشات الطائشة للجنرال مينو ، كان العدو يقترب ، وكنا نخلى مستشفى إبراهيم ، وكانت رياح الخماسين تغطى بدوامتها الترابية كل شيء بقناع معتم ، بل لأنها صبغت الشمس نفسها بلون شاحب ، وشاهدت صفأ كبيراً من الجمال تغنذ طريقها نحو القلعة ، حيث كان الناس يلتمسون المأوى من تلك الرياح ، وعبرت السهل .

كانت تسمع بين لحظة وأخرى صيحات « الندابات » . وصرا بالقرى من رجل تركى ، يهود حماراً ، وترقد أمامه على ظهر الحمار جثة رجل فرنسى ، وشاهدت رجلاً آخر يتقدم ==

السكان لسنها قلما تحوز رضا الأوربيين لما بها من مادة رغوية لزجة ، والقلقاس الذى تطهى درناته فى المياه وهو طعام شهى ، كما يزرع الخيار والباذنجان والبطيخ والشمام وأخيراً الخبازى التى يأكلونها ثم الحلبة التى لا نستخدمها فى أوروبا

بخطى واسمة ، وهو يحمل على رأسه سلة ، تتبعه عن قرب سرية المحارب البائسة ، وكان يعتمد بأدعيات الجناز عند المسلمين ، وعلمنى أذرع الأطفال ، وأقدامهم الصغيرة ، التى تتدلى من السلة التى يحملها الرجل فوق رأسه ، أن نفس المنجل ، منجل الموت ، قد حصد فى نفس الوقت ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، الصديق والعدو . وفى نفس هذه اللحظة ، وبينما أنا غارق فى هذا المشهد ، وفى تأملاتى ، التقطت أذنائى هذه الكلمات ، كأنما ينطق بها صوت نبي :

أيها المدينة المليئة بالضجيج ،

سوف يموت كل أطفالك ،

لكنهم لن يموتوا بحمد السيف ،

فللك الموت سائر أمانى ،

تلفت ، وتعرفت عليه . كان ضابطاً فرنسياً مسه الجنون منذ بعض الوقت ، وأصبحت ذاكرته منذ مرضه مشوشة لدرجة عجيبة ، ولطالما سمعته يردد بحماس كبير ، بعض أشعار هوراس ، ومقطوعات مطولة من هوميروس ، ومن التوراة . كان يكاد يكون عارياً ، وكان وجهه ملتصقاً . وعيناه ثابتتين ، وشمسه مبهر ، وكانت لحيته تتدلى فوق صدره ، وكانت ضجة سلاسله ، وحركته وصوته ، والمآسى التى يندلج بها — كان كل ذلك يكاد يهدد بالأرض من تحت أقدام حراسه ، ويبعث الرجفة فى سلاحهم ؛ كان يصيح :

احفروا قبوركم كما أُنذرتكم كلمات الأنبياء والقديسين ،

لقد جاء يوم الغضب ،

ودخل الرب إلى مصر ،

وسوف تنهشها لعناقه .

ويستريح هنيهة ثم يعود ليقول :

ها قد خرسست أصوات الطبول ،

وبما عادت تسمع صيحات الأفراح ،

وأسكتت القيثارة وأتارها العذبة ،

واختفت المدينة الرائعة من خريطة العالم .

كانت هذه الكلمات السكتية ، وتلك الأناشيد والطفوس الجنائزية ، وتلك العاصفة والدوامات المسممة تتلاقى عند عميد المعهد ، ترسم لوحة مريمة تطرق بالحاح فى غيلى ، حتى أخالنى اليوم ، أراها ، وهادق تفاصيلها .

إلا كعليق لسكرهم في مصر يستخدمونها كغذاء ويأكلون نباتها نيئاً وبلا تبئيل لبذرتها كما أنهم يأكلون سيقانها الصغيرة .

ولا يزرع القنب إلا بكميات قليلة ولسبب يختلف عن السبب الذى يزرع من أجله فى فرنسا ، إذ يبدو أن المصريين الذين علموا الأوربيين فيما مضى فن غزل الكتان وصنع الحبال والأقشعة منها ، لم يعرفوا أن القنب يمكن أن يستخدم فى نفس الأغراض ، أو أنهم على الأقل قد أهملوا زراعته لهذا الغرض ، فهم يدخلون هذا النبات بدلاً من التبغ أو يتناولون بذوره كمخدر يزيد من قوتهم وشجاعتهم ويدفعهم إلى القيام بالأعمال بالغة الجراءة ، ويحببه العامة منهم حباً شديداً ويبدو أنه بالنسبة لهم بمثابة تعويض عن المشروبات الروحية التى حرّمها عليهم دينهم ، ذلك أن الناس فى كل مكان يسعون لتخدير العقل — هذا الذى يتباهى به بنو البشر — إما ببعض النباتات أو بعض المشروبات . أتكون الآلام العالقة بوجودنا نفسها هى سبب تلك اللذة التى يبدو أننا نحس بها ما أن ندسى كل شيء ؟

ومظهر مدينة منوف مظهر غير لائق ، فنازلها منخفضة ومبيدة باللبن ، وشوارعها ضيقة ومتعرجة ، وأكوام الخرائب والانقاض التى تحيط بها تحجب عنها الرؤية كلية من الشرق أو من الغرب . وتحيط بها مياه النيل فى أوقات الفيضان وإن كانت تنصرف عنها سريعاً ، لذا فهى واحدة من أحسن مدن مصر السفلى من الناحية الصحية . ويمكن أن نميز بسهولة بين أولئك الذين احترقوا الزراعة من سكانها وبين أولئك الذين لا تستدعى أعمالهم الحركة ، فالأولون نحيلو الأجسام وأشداء ، بينما الآخرون أكثر سمناً ، وهم بدرجة أساسية اللساجون ، وهم كثيرون فى هذه الولاية .

ولا توجد بمنوف أية آثار لمنشآت قديمة ، ولا ينبئ التل الصناعى المبني بالطوب اللبن والذى تنهض فوقه أنه كانت توجد هناك واحدة من مدن مصر

القديمة - ويعود ذلك بلا جدال إلى أن أطلال هذه المنشآت القديمة فد غطتها من جديد أطلال المنازل الحديثة . وفي الواقع فإن علينا أن نعود بمنوف إلى أصل ضارب في القدم ، فقد كانت هذه المدينة بالفعل وقت دخول العرب مصر مدينة هامة لحد أنها أعطت اسمها لإقليم بأكمله من أقاليم الدلتا . وربما كان علينا أن نضع في موضعها الحالى - أو الأبعد من ذلك بمسافة جد قصيرة - مدينة نيسي Nicii التي تذكرها الخرائط القديمة والتي كانت عاصمة لإقليم بروزوبيتيس Prosopites .

ذلك أن نيسي حسب مسار أنطونين كانت تقع على بعد ٤٨ ألف متر من ممفيس و ٢١ ألفاً من أندروبوليس وهما المدينتان اللتان يتفق كل الباحثين على مكانهما^(١) . فالأولى تقع بالقرب من أهرام سقارة عند قرية ميت رهينة حيث عثرنا بالفعل على خرائبها ، أما الثانية فتقع عند قرية شابور على الشاطئ الأيسر لفرع رشيد .

وقد رأينا في بعض مساجد منوف أعمدة من الجرانيت يبدو أنها جلبت من مبان قديمة ، كما اكتشفنا عند باب أحد المنازل حجراً أثرياً يستخدم كمقعد بينما يمكن أن يدفع تجار العاديات فيه أعلى الأثمان ، وهو عبارة عن كتلة ذات زوايا أربع ، وهو من الجرانيت الأسود وكامل الاستقامة ، وتوجد على أحد جوانبه آثار نقشين واحد بالحروف الهيروغليفية المائلة تماثل تلك التي نراها على أغلفة المومياءات وأوراق البردى ، والآخر بحروف يونانية جميلة . . . ويبلغ طول هذا الحجر ١,٢٤ م وثمثة إطار أماس طوله سنتيمتران يحيط بالنقوش ويحد من طول الأسطر المكتوبة إلى ١٢٠ سم ، أما زاويتاه البارزتان فهشمتان ، وكلا النقيشين في حالة من العطب الشديد ، وقد نقلنا عدة كلمات من النقش الأول ، ولا تترك المقارنة التي قننا بها بينها وبين النقوش الوسطى التي وجدناها فوق حجر رشيد أدنى شك حول هوية الحروف . وقد شاركنا هذا

(١) أنظر على سبيل المثال :

Les mémoires sur l'Egypte, par d'Anville.

الرأى كلية زميلنا المرحوم الميسور ريج Raige الذى أطلعناه على النصوص التى كانت فى حوزتنا ، ولعله كان بقادر على أن يقدم لنا تفسيراً لهذه النصوص لو لم يفاجئة الموت وهو منهمك فى أعماله بنفس المهمة التى كان يعمل بها وقت العثور على حجر رشيد^(١) .

أما حروف النقش الشانى فلا تدع مجالاً لآى شك ، فهى باليونانية ، لكننا لم نستطع أن نقرأ بوضوح سوى السكيات الثلاث الأولى وبداية السكامة الرابعة .

من الملك الشاب ، دائماً . .

ويدبغى أن تكون النقوش — إذا ما حكمنا عليها من ناحية الحجم — أكبر أهمية من نقوش حجر رشيد ، فالنقوش اليونانية فى هذا الحجر الأخير لا تشغل سوى مثلث عرضه ٣٤ سم وطوله ٧١ سم بينما يبلغ عرض مثلث منوف ٣٦ سم وطوله ١٢٠ سم كما أن التماثل اللافت للنظر والقائم بين هذين الحجرين يحملنا بالطبع على الاستنتاج بأن الحجر منوف بالضرورة نقشاً ثالثاً باللغة الهيروغليفية .

ومن المعروف أن الأثر الحجري الذى عثر عليه فى رشيد يتضمن مرسوم^(٢) أصدره الكهنة المصريون يطلبون فيه القيام بصلوات خاصة على شرف بطليموس ايفان الذى نودى به إلهاً فى معبد ممفيس . واليك أولى كلمات هذا المرسوم : فى عهد الملك الشاب الذى أعقب . . .

(١) هذا الأثر الحجري هو أثمن الأحجار التى حصلنا عليها منذ وقت طويل ، وتوجد عليه ثلاثة نقوش : الأول باللغة الهيروغليفية ، والثانى بالمصرية القديمة الدارجة ، والثالث باليونانية .

وقد عثر عليه زميلنا الميسور بوشار Bouchard ، بينما كان يقوم بالتنقيب بهدف ترميم حصن قديم يقع شمال رشيد بـ ٤٥٠ متراً على الشاطئ الأيسر للنيل .

(٢) أنظر شرح النقش اليوناني لحجر رشيد ، الذى أعده الميسور أميون

Ameignon, Paris 1803, in—40

ليس ثمة أى خلاف فى بداية النقش الذى عثرنا عليه وذلك الذى عثر عليه فى رشيد ؛ إنه فى الواقع يتضمن مرسوماً من نفس النوع . هذا هو الإنسان فى هوانه المعبود ، وهؤلاء هم السكينة يصعدون لأكثر من مرة مثل هذا المرسوم العام والعانى سعياً وراء تملق ومداينة ملوك الأغريق عندما آل إليهم حكم مصر .

وقد عثر زميلنا كارستى Caristie فى القاهرة على حجر آخر من نفس نوع الحجرين سألنى الذكر لسكرته يختلف عنهما فى الحجم (١) ، وقد جعل هذا الاثر من رأى الذى قلناه للتو بخصوص عدد وأنواع النقوش أكثر ترجيحاً .

(١) ليس كما جاء بخصوص هذا الموضوع فى الرسالة المؤرخة فى ٣٠ فتتوز من العام العاشر ، برقم ١٠٨ من بريد مصر Courriers d'Egypte : « اكتشف المواطن كارستى ، مهندس الطرق والسكبارى ، فى بداية هذا العام فى جامع الناصرية الواقع فى حى من أحياء القاهرة يسمى بهذا الاسم ، حجراً أو لوحة من الجرانيت الأسود كانت تستخدم عتبة لباب هذا المسجد ، وتعرف فيها على ثلاثة نقوش بثلاث لغات قديمة . وقد وافق الجنرال مينو على أن ينتزع هذا الحجر وأن ينقل إلى المعهد حيث هو الآن . ومما ييسر هذه النصف — لوحة التى تلفت وتشمعت عند منتصفها كما يلى : الطول ٦ قدم ، العرض ١٥ بوصة ، السمك ١١ بوصة . وهو من الجرانيت الأسود الجميل ، البالغ النوعية . وبلاحظ وجود ثلاثة نقوش عليه مكتوبة الواحد منها فوق الآخر : أولها وأعلها باللغة الهيروغليفية ويتكون من ٢٦ سطراً متعددة باطارية .

والثانى بلغة يشك فى أنها إما الهيروغليفية المائلة وإما اللغة الدارجة للمصريين القدماء ، وهى تشبه الحروف المنقوشة على أغلفة المؤامرات ، ويبلغ عدد سطوره كذلك ٢٦ سطراً . أما النقش الثالث فهو باليونانية ويبلغ ٢٥ سطراً . وعلى العموم فإن حروف هذه النقوش الثلاثة معطوبة تماماً ، بل لا تسكاد تقرأ ، وعلى الجزء الأعلى من هذا الحجر ، عند الحافة المهشمة تجاه العرض ، رسم بلناحين مفرودين ، يماثل تلك الرسوم التى تزين واجهات المعابد المصرية القديمة ، وأسفل ذلك ، نعرف جيداً على صور لبعض الأشخاص . وهذا الحجر الذى توجد عليه ثلاثة نقوش ، بثلاث لغات مختلفة ، أكبر كثيراً من الحجر الذى عثر عليه فى حصن جوليان بالقرب من رشيد ، وهو من نفس نوعه وطبيعته .

وهو من الحجر الذى تحدثنا عنه فى رقم ٣٧ من بريد مصر ، لسكرته أقل منه فائدة لأن من الصعب بمكان أن نفك بعض كلمات متواليته منه . وهو يشير إلى أنه يعود إلى زمن البطالمة .

أقننا في منوف في منزل واسع لحد ما ، وكان المباشر القبطى يشغل الجزء السفلى من هذا المنزل ، وقد شاهدناه من نافذتنا مرات عديدة وهو يأمر بجسد أولئك الفلاحين الذين لم يدفعوا الضريبة المقررة عليهم — في فناء منزله . ولكم توسلنا إليه مراراً من أجلهم ، لكن القبطى كان يجيبنا في كل مرة بأن هذا هو التصرف المعتاد طيلة حكم المالك ، وأن الفلاحين ان يدفعوا شيئاً إن لم يرغبوا على ذلك بالقوة . ويذكر أميان مارسلان Ammien Marcellin أن الضرائب كانت تحصل بنفس الطريقة في أيام الرومان ، فلقد كان المصريون يجدون أن من العار — حسبما يقول — أن يدفعوا الضريبة طواعية وعن طيب خاطر وبدون أن يرغبوا على ذلك بضربات السياط . وفي الواقع ، فكثيراً ما شاهدنا الفلاح من هؤلاء ، بعد أن يسكون قد تلقى عدة ضربات بالسوط بلا جسدوى ينتزع في النهاية من فمه أو من ثنايا عمامته النقود المطلوبة ويقدمها المباشر . ياله من قدر عجيب ! هؤلاء هم الفلاحون المسلمون ، والذين ربما كانوا ينحدرون من أصلاب صحابة محمد ، يضربون بالسياط في بلد إسلامى على يد الأقباط المسيحيين والمالك المارقين ! ولقد كانت شفاعتنا لهم تأتى بالنفع في بعض الأحيان ، ولا بد أن المباشر كان يلعننا في سويداء قلبه دون أن يجرؤ على الإفصاح عن ذلك ، ولقد أحببنا الناس في منوف لهذا السبب ، وأصبح الأمر الذى كنا نفعله في البداية بدافع من مجرد الشفقة ، يختلط بالنسبة لنا بشعور من الكبرياء القومى ، قد لا يدرك كنهه من لم يفارق وطنه . . فأنت — بعيداً عن الوطن — تعطى للوطن وتلصق إليه كل شيء ، وليس ثمة ما تلصقه لنفسك ، وإن يهلك في كثير أو قليل أن يذكر اسمك ، شريطة أن تسمعهم ، كما كنا نسمعهم يقولون : « إنه فرنسى ذلك الذى قدم لى العون من حافظه نقوده ، وأسبغ على حمايته من ماله ، إنه فرنسى ذلك الذى أفقذنى من يد الأعداء ، » .

الرحيل من منوف . وصف الفرع الترموتى — أطلال
أتر بشيش ويبلوس وبوزيريس — الوصول إلى سمنود

أقنا فى منوف لعدة أشهر إلى أن صدر الأمر لفصيلة من جنودنا — من
حامية المدينة — تتألف من خمسة عشر جندياً ، من جنود المدفعية ، بالتوجه إلى
سمنود ، فسارعنا بانتهاز الفرصة لعبور هذا الجزء من الدلتا فى حماية
هذه الفصيلة .

رحلنا سائرين على الأقدام فى العشرين من فريمر ، وبعد مسيرة ثلاث
ساعات وصلنا إلى شبين الكوم . وهى قرية كبيرة على ترعة واسعة تسمى
القرينين ، على بعد فرسخين ونصف فرسخ من منوف . دخلنا القرية كى نقضى
فيها بقية النهار ، وقادنا البعض لهذا الغرض إلى بيت المالك . وثمة أمثال هذا النوع
من البيوت فى غالبية القرى ، وهى مخصصة لإقامة رجال الحكومة الذين يجوبون
الأقاليم . وليس فى هذه البيوت أثاثات على الإطلاق ولا آنية للطبخ ، والسكان
هم المازمون بتأثيث هذه البيوت وإمدادها بكل ما هو ضرورى لإقامة من ينزل
فيها من رجال الحكومة .

أرسل شيخ القرية خبزاً و روفاً حياً اقتسمناه فيما بيننا ، وجامنا بعض
الفلاحين يبيعوننا الدجاج والبيض^(١) وبدأ جنودنا يعدون وجبتهم بينما كنا نخدمنا
المصريون يعدون طعامنا . وذهبنا نحن للتنزه فى القرية ، ولاحظنا وجود أعداد
هائلة من الخراب والأطلال التى تنبئ أن ثمة كانت مدينة قديمة ولسنا نشك
فى أننا لو حفرنا هنا ، لعثرنا على مبان قديمة .

(١) فى الأيام الأولى من إقامتنا ، كنا نشترى ١٢ بيضة فى مقابل ثلاث بارات ، كما
كنا نشترى الدجاجة بنحو ٥ — ٦ بارات . لكن هذه الأسعار تضاعفت بعد ذلك ،
وتساوى البارة حوالى ٧ سنتيمات .

لعل من الجائز أن تكون هذه الخرائب هي أطلال مدينة أتربشيش التي حدثنا عنها هيرودت والتي أشار إليها سترابون باسم أفروديس بوليس Aphrodisopolis وقد نكون مصيبين بعض الشيء لو أننا نسبنا إلى هذا الموقع مدينة نيسي Nicii ذلك أن هيرودت يضع أتربشيش داخل جزيرة بروزوبيتس، وقال أنه رأى هناك معبدًا مخصصًا لعبادة فينوس، ويضع سترابون مدينة فينوس (أفروديس بوليس) في إقليم أبروزوبيتس وهي بالتأكيد نفس المدينة المسماة بروزوبيتس أو بروزوبيتس كما يذكر بعض الجغرافيين ويعدها بلين ضمن مدن الدلتا، أما اسمها اليوناني أفروديس بوليس (مدينة فينوس) فقد منح لها بسبب العبادة التي كانت تقام فيها لتلك الآلهة. أما اسمها المصري فله نفس الاشتقاق، واحتفظ اسمها هذا في اللغة القبطية بنفس معناها السابق (مدينة فينوس).

ومن أتربشيش - كما يذكر هيرودت - كانت تذهب السفن إلى كافة أنحاء مصر لتجلب عظام الثيران كي تدفن هناك في احتفال ديني مهم^(١). وتبرهن هذه الملاحظة أن أتربشيش كانت تقع على فرع من فروع النيل صالح للملاحة، وشبين الكوم بموقعها الحالي تفي بهذا الغرض.

وليس ثمة في أي جزء من هذه التربة ما يدل على أثر لعمل الإنسان، إذ هي تتبع قرب قرية القرينين من فرع النيل الرئيسي المتجه إلى دمياط، لتجري دفعة واحدة عبر الدلتا حتى تصل إلى قرية شبين الكوم حيث تنقسم إلى فرعين: ويقطع أحد هذين الفرعين الدلتا أفقيًا ليصب بالقرب من قرية الفرستق في فرع النيل، أما الثاني وهو أهمها فيصب مياهه أسفل قرية سبتيس في ترعة التبانة التي تصب مياهها في بحيرة البرلس غير بعيد من أطلال يمكن أن نسبها بأكبر

(١) كانت العجول تدفن بقرونها فوق سطح الأرض، حتى يستطيع سكان أتربشيش الموكل إليهم جمع عظامها أن يعثروا على هذه العظام بسهولة (هيرودت - الكتاب الثاني).

من الترحيج إلى المدينة القديمة بوتو Buto . ويسمى هذا الفرع الثانى باسم ترعة
مليج وذلك ابتداء من شبن السكوم حتى اتصاله بترعة التبانة .

كل هذا يحملنا على الاعتقاد بأن تلك التربة التى حددناها للتو — منذ
مئذئها من فرع دمياط حتى مصبها فى بحيرة البرلس — ليست شيئاً آخر سوى
فرع النيل القديم الذى كان يسمى بالفرع السبنيقي الذى يذكره سترابون وبذا
يكون له نفس المجرى القديم للفرع الترموتى فى عصر البطلمة، بعد أن نضيف إليه
ذلك الجزء من فرع دمياط، الواقع بين قرية القرينين وقمة الدلتا .

كان الفرع السبنيقي الذى تحدث عنه سترابون صالحاً للملاحة وكانت المياه
تجرى فيه طوال العام، وكان اندفاع المياه فيه سريعاً بعض الشيء كما كان عرضه
يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ متر، وكان فى بعض المناطق يتفرع إلى فروع كثيرة
مشكلاً بذلك كثيراً من الجزر . كما كان يغذى كثيراً من الترع التى تروى أراضي
المدن والقرى الرئيسية فى الدلتا . وهكذا وصلت مياه النهر إلى ما تحت أسوار
الحلة الكبرى (السكبرى) وحلة أبو على .

فى صباح يوم ٢١ أبحرنا فى هذه التربة مع حراسنا لنقطع حوالى سبعة
آلاف متر حتى نصل إلى قرية مليج التى تحمل التربة اسمها . ولقد لمخنا جنوب
هذه القرية، حيث تمنحنى التربة لتتخذ شكل مرفق، مرتفعات هائلة من الطوب
اللبن وهو ما يدل على موقع مدينة قديمة بالغة الأهمية، نعتقد أنها مدينة يدياوس
التي تحدث عنها كل من كتسياس وايتيان دى بيزانس . ونحن نعرف أن المصريين
عندما أرادوا النكاية بالفرس وضعوا على رأسهم ايناروس ملك ليبيا، وأن
هذا الأمير، بعد أن دعمه الاثليون، وبعد أن أحرز انتصارات واسعة
استولى على مصر، سكنه فى النهاية هزم على يد الفرس وطرد من عفىس واضطر
للتحصن مع فلول جيشه فى جزيرة بروزوبيتيس بحسب ما يذكر ثيوخيديد أو فى
بيبلوس كما يذكر كتسياس، ومن هنا، فحيث أن هذه الوقائع قد حدثت تحت

نظر هذين المؤرخين ، فأننا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن بيبيلوس كانت تقع في جزيرة بروزوبيتيس وكان لهذه الأخيرة تسعة فروع صغيرة تدور حولها حسبما يذكر هيرودوت . والموقع الذى حددناه لمدينة نيسى في ضواحي منوف يضع خراب ملبج عند الطرف الشمالى للجزيرة وهذا ما يتفق مع الموقع الذى يعطيه العلامة دانفيل لمدينة بيبيلوس حسب بعض المعلومات التاريخية ، وقد لاحظ دانفيل أن الفرس بعد حصارهم بيبيلوس لمدة عام ونصف ، قد استطاعوا فى النهاية أن يجففوا المياه من حول السفن الاثينية ، تلك التى كانت تساهم بقوة فى الدفاع عن السكان . ولعل الفتحات التى نزلت بواسطتها مياه القرعة هى التى حملته على الظن بأن مدينة بيبيلوس تقع فى الجزء الأدنى للجزيرة . ونحن نجد فى الواقع ، فى أعلى مايج فرعين عامين ، أحدهما كما سبق القول يتفرع قرب قرية شبين السكوم لينضم إلى فرع رشيد قرب قرية الفرستق ، أما الثانى وهو أقل أهمية لدرجة كبيرة وأكثر قربا من ملبج ، فهو يجرى إلى الشمال نحو مدينة طنطا . ويمكن الاستنتاج بأن هاتين الترعتين هما من عمل الفرس أثناء حصار بيبيلوس ، وأن اختفاء جزيرة بروزوبيتيس يعود لإنشائها ، أو أنها بالآخرى قد اختفت بفعل الترع التى كانت تحيط بها .

واصلنا السير فى مجرى التربة ، وأخذ واحد من بحارتنا المصريين ، أكثر حبا للعشرة مما اعتدناه من بقية مواطنيه ، يرفه عنا بأسئلته الساذجة . وحيث أن أفكاره حول بعض الأمور تماثل أفكار كثير من المصريين من أبناء طبقاته ، فسوف نذكر أشد هذه الأفكار غرابة .

لم يكن هذا البحار (النوتى) يستطيع على سبيل المثال أن يصدق أن لدينا فى فرنسا نهراً آخر بخلاف النيل ، ولكنه فى مقابل ذلك لم يشأ أن يضىء سماءنا نفس القمر الذى يضىء سماء مصر . وهذا رأى الذى نراه غير معقول لاهلة الأولى ، يعود مع ذلك إلى جهل عميق أكثر مما يعود إلى عقاية منحلة ، فحيث أنه لا يعرف مطلقاً المجرى السكامل للنيل وحيث أنه لم يرتع لا تتفرع منها ترعة

أو فرعاً آخر، فمن الممكن له إذن أن يظن أنه إذا ما قابل واحد - أى واحد - نهيراً عذب المياه ، وفى أى مكان ، فلا بد أن يكون هذا النهر جزءاً من المجرى الواسع لنهر النيل أو من أحد فروعه العديدة ، وكذلك ، وبفكر مشابه ، فما هو ذا يرى القمر كامل الاستدارة فوق رأسه ، فكيف يمكن لهذا القمر إذن أن يضىء سماء شعب آخر ، يبتعد عن مصر بكل هذه المسافة ، وهو الشعب الفرنسى .

وقد كانت ديانتنا أيضاً مبعث دهشة له . وكثيراً ما سمعنا مصريين آخرين يقدمون حول هذا الأمر آلاف الاعتراضات الغربية . وكان احترامنا لديانتهم ، وتلك الديباجة : لا اله الا الله محمد رسول الله ، التى استقيناهما من كتبهم المقدسة ليقرأوها فى بداية كل بلاغاتنا وكل منشوراتنا العامة ، لا يمكن لها فى رأيه أن تتفق مع ديننا المسيحى الذى يظنونه دين كل الأوربيين والذى يرونه عدواً للدين الإسلامى . وعندما لاحظ بعضهم أن الفرنسيين لا يمارسون أية طقوس دينية ، ظنوا أنه ليست لدينا أية معرفة بالله ، وظنوا أن هذا هو الوضع الأمثل لنا ، إذ يصبح من الميسور - والحالة هذه - أن نعتنق الإسلام أكثر مما يكون ميسوراً لو أننا كنا نعتنق ديناً معادياً لديانتهم . وبسبب هذا الاعتبار لقيت أمتنا لديهم بعض الترحيب .

وفىما نحن نستمتع إلى أسئلة ملاحنا ، وإلى الأفكار التى كان يقترحها هايتا مررنا أمام قرى ميت عافية ، ديا ، الجعفرية ، عثما ، شبرا بلولة ، أبو الجهور الواقعة على الشط الأيمن للترعة وكذلك قرى بركة السبع ، كفر الحاج داود ، السنطة ، على الشط الأيسر .

وقد توقفتنا أمام القرية الأخيرة . وفى اليوم التالى أبحرنا إلى الشط المقابل وسرنا على أقدامنا حتى قرية المشية ومنها إلى شرشابة . وتروى أراضيها بواسطة ترعة تنفرع من ترعة مليج ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى سبباط بعد أن مررنا بهجرى

يقوم بحجز المياه أيام الفيضان ؛ وأسفل هذا الجسر فتحة ترعة : ثم سررنا في طريقنا على قريتي شبرا والبنوان ووصلنا أخيرا عند قدوم المساء إلى بوسير^(١) وهي قرية كبيرة تقع على شط النيل .

وكل هذه المنطقة من الدلتا - كما رأينا - مزدهجة بالسكان ، وهي كذلك شديدة الخصوبة وزراعتها طيبة ، وعدد العربان هناك أقل منه في كافة أنحاء مصر ، كما أن الفلاحين هنا لا يستخدمون كوقود إلا سيقان الذرة المجففة وروث الماشية بعد أن تعجنها النساء مع قليل من القش المهروس ، ثم يلصقنها بجدران البيوت حتى تجف بفعل الشمس ، وهذه الطريقة تساهم في إعطاء القرية مظهرا لا يليق ، سيما وأنها - القرية - مبنية بشكل ردى ، ومن الطوب اللبن أو ببساطة من الطين . أقننا خيامنا خارج بوسير تحت بعض أشجار النخيل المزروعة على شط النيل ولاحت لنا القرية باللغة الكبر وأجمل بناء من القرى التي مررنا بها . وقد هتارنا فوق الاطلال التي تحيط بها على كتلة كبيرة من الحجر الرملي تحمل آثار بعض الكتابات المصرية القديمة ، ومنهض هذه القرية على مرتفع صناعي مربع الشكل يقع على بعد ٣٠٠ متر من هذه الاطلال ، كما كان لاسمها رنين خاص عند دافيل ، الذي يحدد في مكانها موقع مدينة بيزيرس أو بوزيريس عاصمة أحد الأقاليم القديمة . كان يوجد في هذه المدينة كما يقول هيرودت معبد كبير مخصص لعبادة ايزيس حيث كان يقام في كل عام احتفالا بهذه المناسبة الالهية ، عيد يعد من أهم الأعياد في الديانة المصرية القديمة بعد عيد بوباسطة . وكانت جماهير من الناس من كلا الجنسين يتوجهون إلى بوزيريس من كافة أنحاء مصر ، وكانوا يستعدون لتقديم القرابين بالصيام والصلوات ، ثم يذبجون عجلا

(١) ينبغي أن نذكر أنها تكتب في عديد من الخرائط ابوسير بدلا من بوسير . وأعتقد أننا نحن أنفسنا قد سمعنا سكان هذه القرية يلفظون اسمها هكذا . وبلا جدال ، فإن إضافة أداة المعرفة « ال » هو سبب هذا الخطأ ، ذلك أن الجغرافيين العرب : الإدريسي والمقرئزي وأبو الفدا وآخرين يكتبون اسمها : بوسير .

يترهون عنه جلده ، وأمعاه ، وأنفاده وأكتافه ورقبته وأردافه .. ثم يملأون جسمه بالدقيق والعسل والعنب المجفف والتين والبخور والمر ، ومواد أخرى ذات رائحة ، وبعد أن تعد الاضحية بهذه الطريقة ، تشعل فيها النيران وهي موضوعة فوق أتون ، وكانوا يغذون النيران بالقاء الزيوت عليها ، وفي هذه الاثناء كان المتفرجون يلتجئون ويصفقون ويلطمون أنفسهم . ولكن هيرودت الذى نقل الينا هذه التفاصيل أضاف بأنه لم يسمح له بأن يقول على شرف من كان المصريون يظهرون كل هذه الاحزان . وإذا كان من الممكن لنا على الاطلاق أن نبدي رأياً حول موضوع مماثل ، فإنه يلوح لنا بالرغم من مرور كل هذا الزمان وبالرغم من تحفظ المؤرخين أن هذه الاحزان كانت نكتاً من أجل موت أوزيريس ، ذلك أن بلوتارك فى روايته عن أيزيس وأوزيريس يؤكد أنه بالرغم من وجود مقابر عديدة فى مصر أنشئت خصيصاً من أجل أوزيريس فإن جثمانه فى الواقع موجود فى بوزيريس وأنه ولد هناك . وثمة بعض من الناس يشترك اسم هذه المدينة من السجلات المصرية القديمة فى — أوصيرى أى مقبرة أوزيريس أو كلمات أخرى تعنى نفس الشيء . ومهما يكن الأمر فيما يتعلق بهذه الاشتقاقات المختلفة فأنا نستنتج منها دائماً أن مدينة بوزيريس قد أخذت اسمها من اسم أوزيريس ، ويمكن أن ترتب على ذلك أنهم كانوا هناك يقيمون عبادة خاصة لهذا الإله . وبمعنى آخر فإن السكينة جعلوا من انحدار الشمس إلى نصف الكرة الجنوبي ، وانحسار مياه النيل ، وهما الفترتان اللتان تسمحان بقيام احتفالات جنائزية مبهمة ، مقابلاً لموت أوزيريس رمز الشمس والنيل عند المصريين ، كما أن الأشخاص غير المؤهلين لفهم أسرار الديانة كانوا يعتقدون أنهم يحتفلون بذكرى موت حق لواحد من آلهتهم .

ويدعى بعض علماء الميثولوجيا كذلك أن مدينة بوزيريس تأخذ اسمها من بوزيريس ، ملك مصر الطاغية المستبد الذى كان يذبح قربانا لجوبيتر كل الأجانب

الذين يفدون إلى بلاده وأن هذا الأمير قد قتل على يد هرقل بينما كان هذا الأمير يعد له نفس المصير ، لكن سترابون يؤكد أن هذه خرافة لا أساس لها وإنما قد اخترعت - ربما - للانتقام من المصريين لأنهم غير مضيافين نحو الأجانب . ونحن في هذا الخصوص نشارك سترابون رأيه تمام المشاركة ، لكنه عندما يضيف بأنه لم يكن ثمة ملك مصري على الإطلاق يحمل اسم بيزريس ، فلسنا نستطيع أن نجزم أيها كان على حق : هو أم ديودور الذي ذكر أميراً مصرياً بهذا الاسم ونسب إليه تأسيس طيبة . وفي نفس الوقت فإن ديودور يتفق مع سترابون فيما يختص بالاحداث الاسطورية التي تنسب إلى فرعون ويقدم لها تفسيراً بالغ الاقناع فيقول : أن ملوك مصر القدماء كانوا يقدمون كأشخاص على مقبرة اوزيريس رجالاً يشبهون طيفون بشعرهم الأشقر ، وكانت هذه الأشخاص تأتي دائماً من بين الأعراب حيث أنه من النادر أن نجد مصريين لهم هذا اللون ؛ هذا هو أصل الاسطورة التي جعلت الإغريق يرون في بوزيريس ملكاً مصرياً يذبج الأجانب ، وفي مقابل ذلك فإن المصريين لا يرون في هذا الاسم مطلقاً اسماً لواحد من ملوكهم وإنما هو يعنى في المقام الاول : مقبرة اوزيريس .

وفي اليوم التالي ، هند انبلاج النهار ، تركنا بوصير ، وبعد أقل من ساعتين وصلنا إلى سمنود بعد أن اجتزنا شمال هذه المدينة ترعة كبيرة متفرعة عن النيل .

عن مدينة سمنود — خرائب بهييت

سمنود « بكسر السين » أو سمنود « بفتحها » هي أهم المدن التي يمر بها المرء منذ أن يسير مع مجرى النيل من القاهرة حتى دمياط . وحيث أنها تقع على النيل ، وحيث أنها محاطة بالترع الملاحية الكبيرة ، كما أنها تجاور المحلة الكبيرة « الكبرى » ، أهم مدن الدلتا الصناعية ، فقد أصبحت سمنود بهذا الموقع المحفوظ

مرسراً بالغ الحيوية للتجارة ، فثمة أسواق عديدة تجذب الناس من البلدان المجاورة حتى أن المرء كثيراً ما يلقى صعوبة في المشى في الشوارع . وأغلب المنازل هناك مبنية بالطوب وبناؤها حسن المظهر ، وليس ثمة مثل لمساجدها ، وأكبر منشأة فيها هي وكالة كبيرة^(١) تقع على شاطئ النيل . ويبلغ تعداد الوفيات في سمنود في الأوقات العادية من ١٣ - ١٧ نفساً في الشهر الواحد وهو رقم يجعلنا نفترض أن تعدادها يصل من ٤ - ٥ آلاف نفس .

والسهل المحيط بالمدينة بالغ الخصوبة ، ويخترقه عديد من الزرع أهمها الثلتان : تتبع أحدهما من الجنوب بالقرب من سمنود وتلج الأخرى من الشمال قرب الشبانية وهما تجريان نحو الغرب لتلتقيا بترعة مليج بحيث تبدو سمنود والأراضي المحيطة بها أشبه بجزيرة .

وهذه المدينة جزء من ولاية الغربية ، وقد أصبحت عاصمة للولاية إبان الحكم الفرنسي ، ذلك أن العمليات الحربية جعلت الفرنسيين يفضلونها على المحلة الكبيرة ، فجعلوا منها مقراً لقيادة الولاية .

ويتفق كل العلماء على أن سمنود هي نفسها سبنتيقوس القديمة كما كان يسميها الإغريق والتي كان الأقباط يسمونها سيجيمنوت Sjemnou ، والتماثل بين هذه الأسماء كما زى شديد الواضح . وبالرغم من أن هذا لا يعد دليلاً كافياً فإنه مع ذلك لا يلغى أن نعلمه ، ذلك أننا نجد في مصر العديد من المدن والقرى التي لم تتغير

(١) تبني الوكالات تقريباً على نفس النمط ، فهي تشتمل على فناء كبير ، مربع الشكل ، يحيط به دمليز تدعمه أعمدة من الجرانيت أو الرخام ، يتكون جذعها من قطعة واحدة ويلاحظ في ذلك ، على الدوام ، أن تاج العمود يحل محل قاعدة . والعكس . وفي الطابق الأرضي ، توجد أبواب المحلات تحت الدمليز . وتتكون الأدوار العليا بنفس التقسيم الذي نراه في الدور السفلي ، كما توجد حجرات ملحقة بالمحلات ، وممرات تؤدي إلى الدمليز . وتخصص هذه الوكالات للمسافرين . وهي ليست سوى نوع من الفنادق التي يجدها المرء في مصر . وعلى المرء أن يحضر معه فراشه ، وأدوات الطبخ الخاصة به ، وأن يعد لنفسه طعامه .

أسمائها منذ عصور بالغة القدم أو أنه لم تتناولها إلا تعديلات طفيفة . كما أن الاطلال التي تحيط بسمنود والتي تمتد مسافة طويلة نحو الغرب من المدينة ، تحمل فضلا عن ذلك ملامح الماضي القديم ، وحيث أن هذه الاطلال قليلة البعد عن ترعة ملبج^(١) ، ثم تقترب منها مشكلة منحنى يشبه المرفق ، فلا بد أن هذه الاطلال تقع في نفس المكان الذي كانت توجد فيه ولا بد مدينته سبنتوس على الفرع السبنتي الذي يذكره سترابون ، وكذلك هيرودت ، والذي يتكون من ترعة النبانية ومن الجزء العلوى من فرع دمياط^(٢) بالإضافة إلى هذه التركة . وفي النهاية فإن النهر يشكل شمال سمنود جزيرة واسعة لحد ما ، يمكن أن تكون هي كسيوس Xios التي يذكرها سترابون كعاصمة للإقليم السبنتي .

ولا تشغل مدينة سمنود إلا جزءاً ضئيلاً من الحيز الذي كانت تشغله سبنتوس ، ونذكر أنه بين المتحف الثمينة التي عثرنا عليها هناك كان التمثال (جسم بلا رأس ولا أطراف) الذي حمله إلى فرنسا الجنرال فيال Vial وكذلك كتلتين من الجرانيت ، يحتمل أنهما كانتا فوق مرتفعات الاطلال التي تجاوز المدينة . ويبلغ طول إحدى هاتين الكتلتين مترين وعرضها ٥٠ سم وارتفاعها ٦٠ سم ، وفي أعلى أحد طرفي التمثال جزء من عرش كروي ويوجد على أحد وجوهه بقايا جدران كبير مفروود الجناحين وهو الرمز الذي يشير إليه الآثريون باسم الجعران ذي الأجنحة ، أما بقية الوجوه وكذلك الجزء الكروي فغطاة بحروف صغيرة تماثل في وضوح الكتابات الهيروغليفية ، وقد سبق أن رأينا مثيلات لها على أوراق البردي وعلى أغصان المومياءات ، وفي واحدة من مقابر الماوك في طيبة . ونعتقد أن هذه الحروف — على ما يبدو — هي حروف من الهيروغليفية المائلة التي تختلف عن تلك التي نجدها فوق المنشآت القديمة . ومن الجائز أن هذه الأخيرة قد تناولها التغير شيئاً فشيئاً لتصبح أكثر سهولة ، فلقد انتهى

(١) سبق أن قلنا إن هذه التركة كانت الفرع السبنتي الذي يذكره سترابون .

(٢) انظر خريطة مصر التي صممها مهندسو جيش الشرق .

المصريون دون قصد إلى الحروف التي نجدها على أوراق البردى ثم أخيراً إلى الحروف التي تشكل النقش الثاني في حجر رشيد . وربما كانت لديهم في وقت معاً ثلاثة أنواع من الكتابات : الهيروغليفية المائلة الدارجة ، والهيروغليفية المائلة ، والهيروغليفية بشكلها الأصلي، وذلك دون أن نغير إلى تلك اللوحات المحفورة أو المرسومة فوق جدران المعابد، والتي تذكر بالأحداث الكبرى للتاريخ وبأسرار الديانة ومظاهر الطبيعة .

كانت لدينا رغبة شديدة في الذهاب لزيارة خرابب بهيت التي تقع إلى الشمال من سمندود : وقد سهل لنا الأمر الجنرال فوجيير Fugière قائد الولاية ولن نمنى مدى الحفاوة التي لقينا بها ولا تلك الروح العسكرية التي يتحلى^(١) بها .

وفي اليوم المحدد للذهاب إلى هناك ركب حصانه وسار معنا يحرسه بعض

(١) أثناء معركة أبي قبيس ، التي دارت في السابع من ترميدور من السابع ، كسر الدراع الأيمن للجنرال فوجيير بطلقة بندقية ، لكنه لم يشأ أن ينزل عن حصانه ، ولا أن يترك قيادة وحدته ، وبمسد لحظات جاءت قذيفة أخرى لتضاع له نفس الدراع عن كتفه . وقابلة القائد العام الجنرال بونابرت ، بينما كانوا ينقلونه إلى مؤخرة الجيش ، فأبدى له هميق تأثره للحالة التي وجدته عليها ، فأجابه الجنرال فوجيير : « سوف تغبطني ذات يوم على هذا المصير . فلقد مت في ساحة الشرف . [من تقرير النائب العام بونابرت إلى حكومة الديركتوار] . ولم يستطع المسيو لاري Larry ، الجراح الأول للجيش الفرنسي ، أن يقوم بتمر عظمة مقدمة الذراع ، فاضطر لبتزها كلية من عند الكتف . وخلال هذه العملية الأليمة نسي كثير من الضباط الجرحى آلامهم وزحفوا نحو خيمة الجنرال فوجيير ، وعبروا بدموعهم عن الألم الذي يستشعره لفقد هذا القائد الشجاع ؛ ذلك أن الجميع كانوا على يقين من موته ولكنه ، وبوجه يستعذب الألم ، لم يستطع شبح الموت ولا آلام الجراحة أن تغير من ملامحه لحظة واحدة ، وجهه لم يلهم كلمات عزاء ، وأوصاهم بالحرس على النصر والوطن والعرف . لأنها مشاعر النفوس النبيلة التي تقيد أمامها الآلام . وعندما شفى ، وقد حدث ذلك كما لو كان بفعل تيممة من التأمم — أراد أن يواصل في شجاعة خدمته العسكرية ، وأصبح قائداً لولاية الغربية ، وقت وصولنا إلى هناك .

« دى بوا — ليميه »

الفرسان ويصحبه بعض مشايخ الولاية . وقد عرجنا في منتصف الطريق على تربة التبانة التي تلتقي إلى الغرب من هنا بترع مابج .

وعندما اقتربنا من بهيت لمخنا عند حامل مدفع في شرق القرية مرتفعاً من الأرض . كانت تلك هي الخرائب التي كنا نسعى إليها ، هرعنا نحوها وسرعان ما وجدنا سوراً له زوايا أربع يبلغ طول أكبر واجهة له ٢٦٢ متراً ويبلغ طول أصغرها ٢٤١ متراً ويبلغ ارتفاعه في بعض المناطق ٩ - ١٠ أمتار ، وله فتحتان من الواجهة الغربية ومثلها في الواجهة الجنوبية وفتحة واحدة في الشمال ، ولا يمكن أن يعرف المرء أن هذه الجدران مبنية بالطوب النقي إلا في أماكن محدودة جداً لأن هذا الطوب في الغالب محطم ومختلط لدرجة لا يبدو معها من الخارج إلا كتلة من الطين ، ويزرع جزء من الأرض التي يحيط بها هذا السور وثمة قناة تحمل إليها المياه اللازمة للري في أوقات الفيضان ، وفي حوالى منتصف هذا المكان وعلى بعد ١٢٠ متراً من الواجهة الغربية للسور ترتفع في فضاء مساحته ٥٠ × ٨٠ م أطلال مبنى ضخم . أنها كومة مختلطة من الأحجار الجرانيتية تميز من بينها تيجان عمود وروس إيزيس وأحجار سقوف وجذوع أعمدة نقشت فوقها رسوم بارزة نفذت بعناية فائقة ، وقد يبدو لأول وهلة أن من الغريب أن يوجد في مصر السفلى معابد بأكلها مبنية بالمواد المستخرجة من محاجر أسوان بينما شيدت قصور مصر العليا ببساطة من أحجار رملية أو جيرية . لكننا هنا وعلى الفور نتعرف على فكرة المصريين القدماء عن العظمة والخلود تلك التي كانت تقودهم على الدوام في تنفيذ وتصميم منشآتهم . لقد كانوا يعرفون أن الحجر الرملى والحجر الجيري لا يعمران طويلاً إذا ما تعرضا لهواء البحر فلم يترددوا في استخدام الجرانيت في الدائنة ، وليس ثمة صعوبة يمكن أن تثني شعباً يضاعف من قوته صبره وعناده ، وفي مقابل ذلك ففي الصعيد ، حيث السماء صحو صافية ، وحيث لا يذوب الخشب ذاته ، وحيث تغلبت من البسلى أجسام الحيوانات التي دفنت بلا تحنيط شريطة ألا تغمر

الأراضي التي دفنت فيها مياه الفيضان^(١) . فقد كان على المصريين أن يفضلوا الأحجار الأكثر سهولة ما دامت تتساوى في مقاومتها لفعل الزمن مع الأحجار الأخرى الأشد صلابة . ولن نتوسع هنا في وصف خرائب بهييت ، فقد تحدثنا عنها بالتفصيل في الفصل ٢٥ من وصف مصر — الأزمنة القديمة .

وتبين خريطة بوتانجييه Peutinger أنه كانت في الدلتا ثلاث مدن تضم معابد مخصصة لعبادة إيزيس . من بينها دون جدال واحدة يتطابق موقعها مع موقع بهييت . على أن استنتاج وجود مدينة قديمة في نفس موقع بهييت أمر يمكن الاستدلال

(١) عندما كتبنا نحن الاثنين في سيوط ، في مصر العليا ، مع صديقنا ادوار ديفيليه E. Devilliers وآخرين من زملائنا ، وافق أحمد العريان ، بعد أن شربنا منه بئس سقى مومياة ذهب ، وبمعنى أدق مومياة ابن آوى ، كان قد عثر عليها في الجبل الواقع غرب وادي النيل ؛ وافق أن يصحبنا إلى مكان توجد فيه كما قال مومياوات للرجال ، وفي اليوم المحدد ، رحلنا بلا حراسة ، وبلا أى شيء يذكر من امتثنا ، خوفاً من أن يعترض على رحلتنا قائد المنطقة خشية منه علينا . وتسلق الأعراي سلسلة الجبال الليبية ، ونزلنا نحن من الجهة الأخرى ، عبر واد ضيق ، سرنا فيه لمدة ساعة ، ثم صعدنا عدة تلال ، ثم عبرنا مجموعة متوالية من الوديان الضيقة حيث كانت الحرارة مرتفعة لحدي كبير ، بسبب لانعكاس أشعة الشمس التي ترددها أرض بيضاء عارية عن أية خضرة ، وفي النهاية ، وبعد مسيرة نحو ساعتين ، قال لنا مرشدنا ، وهو يشير لنا إلى بقايا منشأة قديمة ، وقریباً من بعض القباب التي ترتفع ارتفاعاً طفيفاً عن سطح الأرض : « هنا توجد مومياوات لأدميين » . وعرفنا بسهولة ، أننا لسنا لزاء مقابر رمود إلى مصر القديمة ، ولكنها أطلال مسيحية ، مأو بائسة لاولئك الرهبان الذين جاءوا إلى هنا ، في الأزمنة الأولى للمسيحية ، معتقدين أنهم يهربون من غرائزهم ، في وقت لم يكن لهم فيه من مرشد سوى خيالهم المشبوب . جاءوا إلى هنا والقباب ملهم بالشوق ، يختبئون وسط أحجار الصعيد ، ويبحثون في صمت الوحدة ، وفي كافة ضروب الحرمان ، عن غذاء لرغباتهم الغامضة . وفي الوقت الذي كنا نفحص فيه أطلال هؤلاء الرهبان المقدسين ، بدأ الأعراي ينقب تحت واحدة من هذه القباب الصغيرة ، وسرمان ما نادانا ليرينا الحدأ من خشب الجميز كان قد جذبته لثوه ، كان الأحد يضم رجلاً أبيض البهرة ، وكانت عضلاته ، وجلده ، وأسنانه ، وأظافره ، ولحيته في حالة جيدة ، لا تزال . وكذلك كان الكفن المحيط بالجثمان . ومع ذلك لم نثر على أثر لتجنيط أو عطور ، ويرجع هذا الحفظ الجيد ، دون ريب ، إلى الأرض الجافة التي لا يمكن أن تصلها مطلقاً مياه النيل ولا مياه الأمطار ، وكذلك إلى جفاف الجو وخلوه من الرطوبة ، وإلى حرارة الشمس الحارقة ، وإلى تلك السماء الصافية ، الحالية من السحب والأنواء .

[دى برا — لمييه]

عليه بفعل تلك الاطلال الرائعة أكثر مما يمكن الاستدلال عليه من شهادات مؤرخي العصور القديمة .

عن مدينة المحلة الكبيرة وطنطا — عن بعض الأطلال المصرية وعن خرائب مدينة سايس

غادرنا سمندو لنعبر الدلتا ابتداء من فرع دمياط حتى فرع رشيد مروراً بالمحلة الكبيرة وطنطا ، وهما أكبر مدينتين في مصر السفلى .

وتقطع المسافة بين سمندو والمحلة الكبيرة مشياً في حوالى الساعتين ونصف الساعة . ونصف هذه المسافة على وجه التقريب يمضى بحذاء ترعة سمندو ثم يبحر المرء عبر فرع صغير يتفرع عن ترعة ملبج ليمضى حتى المحلة الكبيرة ، وفى الطريق ، قابلنا قرية كبيرة تسمى قرية محلة أبو على ثم ضريحين لوليين يحملهما رجال القرية ، وعند الضريح الثانى لمخنا تجويفاً منحوتاً فى قطعة من الصخر على شكل مكعب ينتهى بمخروط ارتفاعه ١٠ سم . ويبلغ طول التجويف الإجمالى ١١٥ سم .

والمحلة الكبيرة هى عاصمة الغربية ، واسمها يعنى حرفياً : المدينة الكبيرة . وهى فى الواقع جديرة بهذا الاسم لأنها أكبر مدن الدلتا اتساعاً ، سكنها ليست أكثرها ازدحاماً بالسكان بالنسبة للمساحة التى تشغلها ، ففيها أحياء بأكملها خالية تماماً من السكان ، ويدور بها بعض النشاط التجارى ، لكنها تلك التجارة التى تحدث فى مدينة صناعية ، وليست تلك التى تحدث فى مناطق التبادل والمستودعات الجركية ، كما هو الحال فى مناطق عديدة فى مصر حيث الأسواق الكبيرة التى تجذب البضائع الأجنبية والوطنية من كافة الأنحاء .

وأكبر المصانع عدداً فى المحلة الكبيرة هى مصانع نسج الحرير . وبما يضاعف من أهمية هذه المصانع أنه لا يوجد مثيل لها فى أية مدينة مصرية أخرى ، وبأقحر الحرير من سوريا فى هيئة شرائق إلى دمياط وهناك تفك خيوطه لتتلف

في بكرات ويصبح عندئذ أصفر اللون وتشوبه بعض الشوائب ، ثم يبيض في المحلة الكبيرة وتغلى البكرات في المنطرون وتخل خيوطها ، وتوضع في شلات تضرب فوق حجارة مسطحة ثم تغمر بالمياه ، ويعطى هذا التجهيز للحريز لوناً أبيض رائع الجمال ، وفي المشغل الذى تفقدناه باهتمام شديد ، لاحظنا أنهم لا يصبغون الحرير إلا بثلاثة ألوان فقط هى الأسود والأحمر والأصفر ، وهم يحصلون على اللون الأسود من النيلة والأحمر من الدودة القرمزية ، والأصفر من البايحة ، وترجع الأخيرة في إقليم الشرقية المواجه لسمنود . وتصنع كل ملابس النساء الحريرية على وجه التقريب في مشاغل المحلة الكبيرة ، كما تصنع هناك أيضاً المناديل التى يغطى بها رؤوسهم وكذا الأقنعة النيلية الزاهية التى يصنع منها المصريون قصائهم . وقد شاهدنا فوق الأنوال تلك الفوط والمناشف التى تستخدمها السيدات في الحمامات وحوافها مطرزة بالحرير وهى تصنع من الكتان ومصبوغة بألوان عديدة .

وتضم المحلة الكبيرة بعض أطلال لمبشآت قديمة ولا نثبتنا الآثار عن وجود مدينة قديمة في هذا المكان ، ولعله كانت تقوم هنا في الماضى مدينة سينوبوليس Cynopolis التى كانت تابعة لإقليم بوزيريس والتى يضعها انطونين في مساره على بعد ٣٥ ميلا من ثويس ، ويشكل هذان الموقعان إطاراً حول موقع المحلة الكبيرة هند المقارنة بينه وبين موقع بوسير وتمى الأمديد^(١) . أما عن مسافة الـ ٤٢ ميلا الواقعة بين سينوبوليس وأندرو Andro فهى نفس المسافة بين سينوبوليس وموقع طوا Towa القديمة على طريق طنطا ، أما الآثار التى نعثر عليها في المحلة الكبيرة فهى وثيقة الصلة بالآثار التى وجدناها في بهيت .

والمحلة الكبيرة هى ملتقى كل بغايا الدلتا بل وماجداً لكل الآلاتى يتخوفن

(١) من المعروف أن بوسير هى بوزيريس القديمة ، كما أن خرائب ثويس Thumais تقع على مقربة من تمى الأمديد .

على أنفسهم - في أماكن أخرى بما فيها القاهرة - من ملاحقة الشرطة لهم .
وهن يرتعن هنا في حرية مطلقة ، ومن هناك تدير زهيمتهن رحلاتهن إلى المناطق
المجاورة ، وتجذب الأسواق وموالد الأولياء على الدوام عدداً كبيراً منهم ،
وقد حدث أكثر من مرة أثناء جولاتنا بالمدينة أن شاهدنا بعض هؤلاء الفتيات
يهروان أمام فرق جنودنا ويشوشن بنغمات الدفوف والصاجات التي يحملنها على
موسقانا العسكرية ، كما كن يلجأن لكل فنون التساقى لإغراء جنودنا كما كن
ينصبن خيامهن وسط نخيلنا .

ويوم وصلنا إلى المحلة الكبيرة أقننا عند واحد من أغنى سكانها ، وكان في
ذلك اليوم يحتفل بزواج رجل شاب هو رئيس خدمه ، وقد لقينا بكثير من
المودة والترحيب وأراد أن يشهدنا على كافة تفاصيل حفل الزفاف . كان المنزل
مزدهراً بالأضواء وكان أصدقاء الزوج متجمعين مع بقية الناس في فناء المنزل ،
وكان الجميع جالسين على مقاعد ، وكانت تسمع من وقت لآخر أغنيات من
بعض المغنيات الجالسات في المندرة ^(١) ، وسط اللساء وصديقات
الأسرة . واستمرت هذه الأغنيات التي تصحبها الدفوف وبعض الآلات
الموسيقية الأخرى لمدة تقرب من ساعة ونصف . حتى نزلت اثنتان من

(١) المندرة حجرة فسيحة في الطابق الأول ، تفتح على الفناء ، وتجه دائماً نحو الشمال
وتزدان واجهتها عند الأثرياء بمعدان من الرخام ، تشكل سمات دلوها عادة بواكى من
الحطب ، حيث النقوش والتصميمات العربية ، والرسومات ذات الألوان المتعددة ، وهناك
درازين ، إما مصنوعة من الحطب ولما مبلية ، وترتفع فوق واجهة الحجرة بملو يسمع
بالانسكاه ، وتمتد فوقه شبكة تمنع الذباب من الدخول إلى الحجرة . وسقف المندرة شديد
الارتفاع ، بحيث يسمح للهواء أن يتجول فيها بحرية . وفي هذا المكان يستقبل رب البيت
أصدقاءه ، ويصرف عشوقه ، وتشكل الحجرة التي تقع أسفل المندرة ، في الطابق الأرضي ،
مدخلًا يقيم فيه الخدم . وواجهة المندرة عادة ، هي أكثر أجزاء المنزل زينة ، فهي المكان
الذي يحرص الأثرياء أن يكون جميل البناء ، رائحة العنارة .

العالم^(١) إلى النساء حيث قامت بأداء رقصات جنسية عنيفة وكانت إحداها تقوم بدور الرجل ، بينما قامت الأخرى بدور المرأة ومثلتا بحركات معبرة — بل مسرفة في التعبير لكي يفهمها الأوربي ، هجمات العاشق ومحاولاته وتمنع العروس الشابة ومقاومتها .. ويمجد الشرقيون لهذه كبرى في هذه التمثيليات الصريحة ، ويحضر الشبان من كلا الجنسين هذه الحفلات بحرية تامة .

وما أن انتهى الرقص حتى ظهر رب البيت وأصدقاؤه في المندرة . ودغينا لاحتلال مكان الصدارة وكان يجلس إلى جوارنا العريس وكان اسمه على ، وكان جالسا على كنبه ، أما عروسه الشابة عيوشة ، والتي لم يكن قد رآها حتى الآن فكانت في حجرة مجاورة محاطة بسيدات منهنمكات في تزيينها . وعندما انتهت من زينتها جاء من يصحب عليها لدخول هذه الحجرة وافتضت أمام عينة بكارة تلك التي أصبحت زوجته . وجاءوا بعد ذلك نحونا ، وبدأ العريس كأنما يسير القهقري ، كان خطوه بطيئا وكان يستند إلى سيدتين وكانت تتبعه العروس وهي مسنودة بنفس الطريقة ، وكانت تزينها جواهر ثمينة ، كما كانت تزين رأسها عمامة محلاة بسلاسل من ذهب وفضة ، وكانت جبهتها وخداها مصبوغة باللون الأحمر ورسمت فوقها بأوراق ذهبية رسوم غريبة وكانت عيناها خفيضتين في حياء

(١) تتعلم الفتيات اللاتي يعددن كي يصبحن عالمات (عالمات) ، منذ نعومة أظفارهن ، كل ما يمكن أن يبعث على الإثارة الشهوانية ، ويكون شغلن الشاغل تعلم الموسيقى الخنثى ، وأشعار العشق والغزل ، والرقص الجنس ، وليس ثمة مثل لرشاقتهن . ولو أن ملامح وجوههن كانت على الدوام في مثل رشاقة قامت بهن ، وفي جمال أذرعهن وأيديهن ، وفي نفس دقة تسكون سيقانهن وأقدامهن ، لما وجدت فينوس لنفسها ، في أي مكان من العالم ، وصفات يلقن بها مثلن 'العالم' ، في مصر ، من بهجة الأعياد . وفي الأحيان يفتن ، وفي البعض الآخر يقمن بدور عاشقين ، وفي أحيان ثالثة يرقصن على نغمات الدفوف ، ويحمان الصابحات ، مقلدات في رقصاتهن حركات الجناح . وحين يقلدن هذه الحركات الجنسية ، يقفزن في الهواء هازات دفوفهن ، وتستدعي جليتهن الحسية تلك ، وكذا رشاقة وحبوبة خطوهن ، إلى الأذهان ، منظر الغائيات وهن يتقصصن ويتمايلن .

(دى بوا — لمييه)

وعندما يحدث أن ترفع صينيها ، فإنما السكى تثبتهما فوق عريسيهما السائر أمامها . . وهكذا وصل كلاهما على مقربة من الكنبه التى كنا نحاس عليها ، واتخذ العريس من جديد مكانه إلى جوارنا ، أما العروس فظلت واقفة أمامه لا تتحرك ، وقام أحد الشيوخ - وهو صديق حميم للعائلة - لينزع قطعة من الذهب من فمه ليضعها فى فمها ، وبعد ذلك عادت إلى الغرفة المجاورة تصحبها على الدوام هاتان السيدتان اللتان كانتا تسندانها وكانتا تصيحان من وقت لآخر : السعيد من يعيش فى ظل شريعته يا بنى . . وغيرت العروس ملابسها وظهرت من جديد أمامنا تتألق فى ملابس جديدة ، ولم يعد على منذ الآن يتابعها وأخذت تقوم بجولة فى الحجيرة ، وجاءت مرة أخرى لتجلس أمامنا فى هذه المرة وضع العجوز قطعة الذهب على صدرها بدلا من فمها ، وتكررت هذه العمالية الغريبة خمس مرات فى حضورنا ، وتكررت كثيراً بعد ذلك فى الليل مع ظهور العروس فى كل مرة بملابس أخرى جديدة . وفى أثناء الفترات الفاصلة بين ذلك كانت المغنيات يؤدين بعض الأغنيات مصحوبات بآلاتن الموسيقية المنفرة ، وقام الموسيقيون الذين يصحبون العروس - وكذلك القابلة - بجمع بعض البارات من المتفرجين^(١) . ولم نبق لننتظر نهاية الحفل فقد كنا فى أمس الحاجة إلى الراحة . فانسحبنا إلى الحجيرة التى كانت قد أهدت لنا .

وفراش المصريين فى العادة عبارة عن حشية من القطن مفروشة على الأرض فوقها غطاء من السكتان ، ويحتفظ الرجال والنساء أثناء الليل عادة بأجزاء من ملابسهم وبالذات غطاء رؤوسهم وتغطى الحشية ناعوسية وهى تقي من لذعات

(١) لا نستطيع أن نجزم أن كل حفلات العرس فى الدلتا تتم على نفس النحو الذى وصفناه ، فن المحتمل ألا تظهر العروس فى القاهرة على سبيل المثال ، مكشوفة الوجه أمام الرجال . وقد شاهدنا فى المهلة نساء ، كن غير محجبات أمامنا داخل بيوتهن ، لكنهن كن يسارعن بوضع الحجاب فوق وجوههن ، فى كل مرة يستدعى الأمر أن يبادثن واحداً من الرجال ، وقد كان لنا لمنهن لا يكشفن عن وجوههن إلا أمام زوجهن ولخوتهن .

الحشرات المنزلية . وأثناء النهار يطوى كل ذلك ويخبأ في دولا ب بحيث لا تجد بعد ذلك أثراً لفراش منصوب في البيوت ، كما أن المرء لا يرى هناك لا كرسيّاً ولا منضدة . أما أرضية الحجرات فغطاة حتى ثلاثة أرباعها بحصيرة . وبطول جدران الحجرة تصطف المراتب القطنية تغطيها سجادة تتدلى حتى تغطي جزءاً من الحصيرة . وتصف فوق المراتب ، ملاصقة للجدران مخدات ضخمة قماشها من الحرير . في هذه المنطقة يجلسون عادة ، وعلى الداخل أن يخلع نعليه في ذلك الجزء من أرضية الحجرة الذي لا تغطيه إلا الحصيرة والسجادة . وفي هذا الجزء المكشوف كذلك يوضع الأبريق والطشت والحنفية وباختصار كل ما يمكن أن يتسبب في اتساخ السجادة التي يتمددون عليها أو يجلسون القرفصاء لفترة طويلة من النهار . ويجلس الرجال على عادة الأوروبيين أمام باب منازلهم في بعض الأحيان على مقاعد كبيرة من الخشب لا ظهر لها ولا مساند «دكة» . وقد استعاضوا عن المنضدة - وهي تنقصهم - بأن يسندوا الورق على يدهم اليسرى أحياناً على لوحة متحركة يحملونها في أيديهم أو يضعونها فوق ركبتيهم وذلك عندما يريدون الكتابة ، أما عند الطعام فتقدم الوجبات على حصيرة مفروشة على الأرض أو على صينية دائرية من النحاس يحملها كرسى بلا مساند مصنوع من الخشب الملون المطعم بالصدف ، ويجلس المدعوون حولها فوق السجادة وسيقانهم مثنية تحتهم ، أما الفقراء فيستخدمون حصيرة خشنة كفرش بالليل وكجاس ونضد أثناء النهار ، وتخلق النوافذ بقضبان خشبية شديدة الضيق تسمح بمرور الهواء وهو احتياط له ما يستوجبه في بلاد بمثل هذه الحرارة . وهذه القضبان التي يتم تشكيّلها من فوق تستخدم أيضاً بدافع من الغيرة إذ هي تسمح لمن بالداخل أن يرى ما في الخارج دون أن يكون عرضة لأن يراه أحد . ولم نشاهد ثمة من يستخدمون الشيش الزجاجي إلا بعض عدد قليل من أهل المدن كانوا على صلة ببعض الأوروبيين ، وكانوا يستخدمونه أوقات الشتاء لحسب وثمة قلال «دقلة» وهي زهرات صغيرة غير مطلية ، مصنوعة من طين ذي مسام ولونها رمادي ضارب إلى الزرقة وتوضع في النوافذ في ظل القضبان الخشبية ويؤدي تيار الهواء الذي

يتدفق على الدوام في هذا المكان إلى تبخر الماء الذي ينز من مسام القلة مما يبرد ما يتبقى من الماء داخل القلة بشدة . ويشرب المصريون من هذه القلل على الدوام ويعطرونها أحياناً .

وعندما تركنا المحلة الكبيرة عرجنا على طنطا عبر سهل خصيب يخترقه عدد هائل من الترع المتفرعة عن ترعة مليج بحيث يمكن أن يقال أن لكل قرية ترعتها، وثمة جسور قوية من الطين تحمي الأرض من مياه الفيضان ولكي تحافظ على المياه حتى تظل تمر تباعاً إلى الحقول التي تحتاج إليها .

والمحاصيل هي فيما يبدو نفس المحصولات التي سبق أن رأيناها في أماكن أخرى . وهي تكاد تكون موحدة في كل أراضى الدلتا إذا ما استثنينا الأرض الذي تكثر زراعته في القرى المجاورة لكل من رشيد ودمياط . وربما كانت أشجار وشجيرات : الجوز ، التين الشوكي ، التمر هندي ، النبق ، الست المستحية ، الحنة ، الأكاسيا ، البرتقال ، الليمون ، الرمان ، التين ، القطن . . هي فقط كل ما يمكن للمرء أن يقابله من أشجار .

وقد مررنا في طريقنا بعدة قرى أخرى أهمها : برقين ، صفط ، طوخ ، أخنوى . . وفي المناطق غير المزروعة ، كانت الشقوق العميقة التي يسببها جفاف الأرض بعد الفيضان تجعل السير عسيراً على الخيول التي لم تلدأ في مصر . ويبدو أن رقة وذكاء الحصان في مصر وبلاد العرب تعود بالتأكيـد إلى الألفة التي تقوم بينه وبين سادته ، إذ هو ما يكاد يولد حتى يلعب مع أطفالهم . ويعتني الأطفال به ، وفي تبادل المنافع والملاذات هذا تعلم الحصان أن يفهم الإنسان وأن يجعل الإنسان يفهمه ، إنه صديق أكثر منه عبداً ، ويكاد المصري ، والعربي صوماً ، يعتبره واحداً من أفراد أسرته حتى ليصعب عليه أن يبيعه مهما كان الثمن المعروض فيه ، أما تلك الخيول التي تربي في بعض أنحاء أوروبا في حرية كاملة وسط المراعي والغابات فتحتفظ في أغلب الأحيان في علاقتها بالإنسان

بعض المساوىء الناتجة عن تربيتها الوحشية ، لقد قلنا في علاقتها مع الإنسان ، ذلك أن ما نراه سوءة عند الآخرين ليس في الغالب سوى فضيلة تبعث الضيق ، فالسكان الحر السجاع ينظر إليه على الدوام كسكان غير مفيد أو مزعج لأولئك الذين يريدون أن يسيطروا سيطرتهم عليه . ولا تلقى الخيول في الدلتا نفس التقدير الذى تلقاه في الصعيد ، وفي مقابل ذلك فليس للماشية في الصعيد نفس القيمة التى لها في الدلتا ، فهى في الدلتا أشد جمالا ، والثيران على وجه الخصوص ضخمة ولا يمكن للعجول البقر أن تبلغ مبلغها من الحجم ، ومن النادر أن تستخدم هذه الثيران في فلاحه الأرض بل تستخدم في هذا الغرض عجول البقر بينما تخصص دخول الجاموس للاخصاب . ويشكل ابن الجاموس غذاء دسماً للفلاحين . والخراف هناك من النوع المسمى الخراف البربرية وهى لا تخصى ، ولحومها اللذيذة الطعم ، أما الماعز فأعدادها قليلة وهى تشبه النوع الذى يطلق عليه العلماء اسم ماعز الشرق ، وشعرها قصير ، ورأسها محدب بشدة ، وآذانها طويلة مدلاة ، والخير هناك ، وفي كل أنحاء مصر ، قوية ، أما الجمال فليس لها قوة الجمال التى تعيش في المناطق المتاخمة للصحراوات . ولا تربى هناك خنازير ، فالدين الإسلامى يحرم أكل لحوم هذه الحيوانات التى كان المصريين القدماء ينظرون إليها من قبل كحيوانات دنسة . وفي النهاية فإننا نجد في القرى أعدادا هائلة من الحمام والدجاج ، وحجم الدجاج صغير للغاية ، وبلا جدال فإن العادة الموجودة في مصر منذ العصور القديمة ، عادة إفراخ البيض إفراخاً صناعياً بواسطة الأفران لها أكبر الأثر في تشويه جنسها .

وتقع مدينة طنطا ، التى وصانا إليها بعد سفرنا من المحطة الكبيرة على مسافة من القاهرة تساوى تقريباً المسافة بينها وبين كل من دمياط ورشيد ، فهى بحق المدينة المركزية في الدلتا .

وتروى أراضى المنطقة المحيطة بطنطا عدة ترع ترفد عن ترهة القرنين الكبيرة ، وتصل هذه الترع حتى شرق المدينة وغربها ويحطن بها ، وهى ترع

قليلة العمق ، ونتيجة لذلك فإن نواحي طنطا التي كانت تلمع بها الخضرة وفتت مررنا بها تصبح أراضى قاحلة تماماً إذا ما كان فيضان النيل ضعيفاً ذلك أن العشب قلما ينمو من تلقاء نفسه في هذه البقعة من أرض مصر التي تمتدح خصوبتها عن جدارة ، إذ قلما نرى فيها إلا مزروعات بذرتها يد الإنسان ، أما الأراضى التي لا تروى فتظل بلا خضرة ، وأما تلك التي تزرع فتبدو بعد الحصاد في شكل أرض قاحلة . ولهذا السبب فقد كتب عمرو بعد فتحه لمصر إلى عمر بأن هذه الأراضى تبدو على النوالى في شكل حقول من التراب ثم بحار من الماء ثم بساط من الورود ، ولثربة مصر خاصة أخرى لا تقل أهمية ، وهى أن الخضروات الأوربية عندما تبذر في أرضها تأتى بمحصول وفير في السنة الأولى لسكن البذور التى تنتج عنها بذرة عقيم أو أن هذه البذور لا تعطى - إذا ما زرعتم - إلا محاصيل هزيلة خواصها أقل بكثير من الأولى ، بحيث يتحتم أن تجلب بذور جديدة في كل عام وهذا ما يفعله الأوريون بشأن الخضروات التي يزرعونها في حدائقهم . وأخيراً فثمة خاصية أخرى - بالغة الخصوصية - تلك هى التشابه القائم في هذا الأمر بين النبات والإنسان ، ذلك أن الأجانب الذين لا يتزوجون إلا فيما بينهم بدلاً من الاختلاط بأهل البلاد لا يعمرن بأكثر مما تعمر النباتات الأجنبية المجلوبة ، ويقدم المالك مثلاً محسوساً على ذلك : فنجد أن استقروا في مصر ، من عدة قرون ، وهم يتزايدون على الدوام عن طريق شراء الرقيق وليس عن طريق التناسل ، إذ كان أطفالهم - كلهم على وجه التقريب - يموتون في شباب غض ، ويقال أنه كان من النادر أن يستمر جنسهم حتى الجيل الثانى .

ويشرب كل أهالى طنطا ملاً تمييز من مياه النيل في أوقات الفيضان ، لسكن الأغنياء وخدمهم الذين يظنون يتمتعون بهذه الميزة بقية العام لأنهم يستطيون الاحتفاظ بالمياه في خزاناتهم ، بينما تقنع الغالبية من الناس بالشرب من المياه الملحة التى يستخرجونها من الآبار . وهى المياه التى تزيد ملوحتها بقدر ما ينخفض منسوب النيل ، وهذه الآبار عميقة لحد يكفى أن تمتلئ كلها بالمياه حتى في الأوقات

١٠٢

التي ينخفض فيها ماء النهر لحده الأدنى . وتتكون فوهة هذه الآبار عادة من قطعة من عمود قديم بجوف من داخله .

وطنطا ، شأنها في ذلك شأن كل مدينة في مصر محاطة بالخرائب . وعند شرقها ، ترى كوماً كبيراً من الطرب اللبن أقام عليه السكان مقابرهم ، وهو مقطوع رأسياً في عدة أماكن مما يسمح برؤية طوب كبير الحجم .

وهذه التلال الصناعية قد بناها سكان مصر القدامى كي يجعلوا مدنهم بمنأى عن مخاطر الفيضان وإذا ما حدث ولجأ المصريون المحدثون في بعض الأحيان لعمل مشابه ، فمن الممكن تمييزه عن الأعمال الأولى بصغر حجم المواد المستخدمة ، إذن فقد كان ثم مدينة قديمة في نفس المكان الذي نشأت فوقه مدينة طنطا .

وبالرغم من أن هذه المدينة تعد أكبر مدن الدلتا ازدحاماً بالسكان ، فليس بها سوى ١٠ آلاف من السكان ، وبيوتها مبنية من القرميد وهو يصنع في البلدة نفسها من تراب الخرائب التي تحيط بالمدينة^(١) ومن السهل أن نحدد حركات التوسع التي تمت في همران المدينة ، فالبيوت تشكل شوارعاً حول المدينة القديمة وهي مبنية فوق الأطلال المتراكمة على سفح الدور الأول، وقد نتج عن ذلك أن المدينة بكل شوارعها ليس لها سوى منفذين ، وهو وضع لم نقابل له مثيلاً في أي مكان آخر في مصر .

وتضم مدينة طنطا ضريحاً لأحد الأولياء يجتذب المتدينين الذين يأتيون من

(١) كل مدن مصر محاطة بالخرائب ، ذلك أن المواد الناتجة عن تهدم البيوت القديمة لا تصلح للاستخدام في إقامة منشآت جديدة ، لذلك يضطر الناس لنقلها إلى خارج المدن ؛ كما أنهم يفضلون التضحية بجزء من الأرض ليكسبوا فوقها كل هذه الأرباح ، عن أن يسطروها فوق الحقول ، التي قد ينتهي بها الأمر — لماذا ما ارتفع منسوبها — إلى أن تحرم من مياه الفيضان .

شُيِّ بقاع مصر في شكل حبيج . لذلك فإن على بك المعروف بما أولاه للتجارة من رعاية وبالإنشآت النافعة التي أقامها خدمة لها عرف كيف يستفيد بمهارة من هذا الوضع كي يجعل من هذه المدينة مركزاً هاماً للتجارة . فأنشأ فيها منذ حوالي أربعين عاماً وكالة واسعة من أجل الاغراب .

والولى الذى تحدثنا عنه للتو هو السيد أحمد البدوى . وقد ولد في فاس سنة ١٢٠٠ هـ ، ١٢٠٠ ميلادية ، و مر بمصر في طريقه إلى مكة وأنهى حجه وعاد من مكة إلى طنطا في يوم واحد^(١) . واستقر هناك ومات عن تسعة وسبعين عاماً ، وقد صنع في حياته عدداً لا يحصى من المعجزات فأحيا الموتي ، وجعل الكسبيين يمشون والعميان يهضرون . . إلخ وكل هذه الوقائع مدونة في تاريخ طویل، ورآها حسب أقوال الدساک المسلمين جمهور كبير من الناس رأى العين .

وفي عام ٧٠٠ هـ ألحق السلطان الملك الناصر بالمبنى الصغير الذى أقيم في البداية حول ضريح الوالى مسجداً يضارع أجمل وأنخم مساجد القاهرة بسبب اتساعه ودقة تصميمه ، وبسبب التحسينات المتتالية التى أدخلت عليه . وتبدو نظامته بحق في القبة التى يرقد تحتها جثمان السيد أحمد البدوى . ولم يخل على بك حين أمر بترميمها لابلال ولا بالجهد وقد يظن أحد أن على بك كان في ذلك الأمر واحداً من الدساک أو المریدین بينما هو لم يكن في الواقع سوى سياسى ماهر . وكانت الجدران حتى بداية القبة مغطاة بالرخام أما القبة وهى من الخشب ، فغطاة بالرصاص ومزدانة في الداخل بنقوش مذهبة وزخرفات عربية جميلة .

ويحاط ضريح الوالى بسور من البرنز ويعلق فوقه ما يشبه بالسكانة من القطيعة ، وثمة عمامة ضخمة شالها من الكشمير موضوعة فوق الجملة التى تتفق مع موضع رأس الولى . أما أبواب القبة وأقفالها الخشبية فمغطاة بطبقة من الفضة .

(١) تبلغ المسافة من مكة إلى طنطا ٣٠٠ فرسخ .

وهرع أفواج الزوار إلى طنطا من كل أنحاء مصر ومن جهات بلاد البربر المتطرفة في مماسكة دارفور ومن أعماق الحبشة وعموماً من كافة البلدان التي تدين بالإسلام . ويأتي هؤلاء في اعتدال الربيع ولهيب الصيف وبخاصة في الأيام الأولى من هذين الفصلين .

وتكاد تكون الروحانيات على الدوام هي الأسباب الرئيسية لنشأة الأسواق دائمة الصيت . فالناس تحت صيت المعجزة التي آتى بها واحد من أشباههم ربما كانوا هم أنفسهم يسيئون معاملته وقت حياته ، يهرعون نحوه ضريحه ، فحب المعجزة يجذبهم ويجعل أجناسهم المختلفة تختلط عند سفح نفس المحراب ، وهناك تصهرهم الدموع والندم وتقارب ما بينهم ، وقد يكون كل منهم مجحولا للآخر ، لكنهم سرعان ما يعقدون من الصداقات ما سوف يوحد ربما إلى الأبد بين أسرهم عن طريق تلك الذكريات الحلوة ، فهناك يحكى كل منهم للآخرين عن رحلته ، ويتحدث معهم عن منتجات مسقط رأسه ومنتجات البلاد التي مر بها ، ويطلع بعضهم بعضاً على الأشياء التي جلبوها من هناك ويتبادلونها فيما بينهم ، وتتحول شوارع المزار إلى سوق واسعة وتصبح الروحانيات وقد بانث للدنيا فائدتها هربة للتجارة ، وتربط بفعل الاحتياجات الجديدة بين الناس ، أولئك الذين كثيراً ما باعدت بينهم التجارة نفسها في هنف وشراسة .

والحج إلى ضريح السيد أحمد البدوي مثال على ذلك فهو يجذب أفواجا هديدة من الغرباء ، لدرجة أن سكان طنطا يؤكدون لنا أن الحقول حول طنطا وعلى بعد فرسخين تكون مغطاة بالبشر ، ويقدر عدد الزوار بـ ١٥٠ ألف زائر .

وليس من العسير أن يلاحظ المرء أن البيوت في طنطا مبنية بشكل يتناسب مع أغراض التجارة . فالجزء من الطابق الأرضي الذي يطل على الشارع مخصص في أحياء كثيرة لمخلات صغيرة تؤجر للتجار الغرباء من أوقات الأسواق . وقيم

كثير من الزوار خيامهم خارج المدينة وتزدان الخيام والبيوت في الليل بالأضواء وتسمع من كل الانحاء صيحات الفرع محتلطة بصنجيج الآلات الموسيقية المصرية، وتستهمر هذه الأسواق ثمانية أيام وتعود على الإقليم بفوائد جمّة ، لكن هذه الأسواق لم تقم مطالعة فترة وجود الجيش الفرنسي في مصر ، ذلك أن الطاعون قد أدى إلى إيقافها بسبب الخوف من الأخطار التي يمكن أن تنجم وقت انتشار الوباء من تجمع مثل هذا العدد الهائل من الناس .

وبعد أن مكثنا بطنطا عدة أيام واصلنا من جديد طريقنا ومررنا بقرية بيار أو ابيار، حيث اتصلنا بالفرع الغربي لترعة القرينين الذي يشير إليه البعض باسم فرع شبين السكوم ، لأنه ينبع قريباً من هذه القرية . وقد أنهينا يومنا الأول بالقرب من قرى : النصارية ، أسديمة ، حيث نشاهد بقايا منشآت قديمة يمكن أن تكون أطلالا لمدن مصرية قديمة ويمكن أن تكون واحدة منها هي سيوف Sauf التابعة لإقليم سايتس saites التي ولد بها أمازيس الذي أصبح فوهونا .

وفي اليوم التالي أبحرنا في ترعة شبين السكوم حتى مصبها عند قرية الفرسق ثم ذهبنا بعد ذلك إلى صا الحجر وهي سايس القديمة ، حيث لا تزال ثمة أطلال هامة . وسوف نتعرف في الجزء الأول من اسمها على ملاح الاسم القديم ، أما كنية الحجر فقد أعطاها أياها العرب بسبب الأحجار وانقراض المنشآت التي توجد بها . وكان المؤلفون الأقباط يسمون هذا المكان بأسم ساى Saii^(١) ،

(١) كثيراً ما تؤخذ الكلمات المصرية والإغريقية : سايس وسايك Saïs Saitique وتايتيك Tanis Tanitique لمصادما في مكان الأخرى ؛ وذلك بلا جدال ، بسبب تماثل النغمة في أذن الأجانب ؛ لكننا وجدنا في اللغة القبطية ، حيث بقيت كلمات كثيرة من اللغة المصرية القديمة ، اسم : سايس ، ويسمى في القبطية ساس ، واسم تايتس ، حيث لا يمكن أن يكون الحرف الأول منها موجوداً لا في الفرنسية ، ولا في الإغريقية ، ولا في العربية . وقد حاولنا أن نذكر منه في لغتنا بالحروف : tz ، z ، zj ، مما يجعلها تلفظ على التوالي : دجايس ، سجايس ، ترايس . انظر ما ذكر عن الفرع التايتس ، وعن مدينة سايس في مقالنا عن وصف فروع النيل القديمة ، وعن وصف مدينة ملبو بوليس .

ولا يمكن أن يثار أدنى شك حول تطابق هذا الاسم مع سايس ، بالإضافة إلى أن موقع خرائب صا الحجر يتفق تماماً مع الموقع الذى حدده سترابون لمدينة سايس ، لكن الشيء الذى يشهد أكثر من ذلك على وجود هذه المدينة القديمة ، إنما هو الخرائب الهائلة التى لاتزال موجودة فى صا الحجر ، والآنقاض تتشكل أساساً من كوم شديد الاتساع يبلغ طوله ٨٨٠م وعرضه ٨٢٠م ويضم كمية كبيرة من الآنقاض وخرائب الأزمنة القديمة وقد تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل الخامس والعشرين من وصف الدولة القديمة .

كانت سايس مقراً للفرعون وقد اهتم أمازيس على وجه الخصوص بتجميلها ، لكن ما جعلها أكثر إشراقاً هو أن الاسم الذى خلعه عليه زورنين . ومن هذه المدينة أصطاحب شكروبس Cécrops الجالية المصرية التى أنشأت أثينا ، تلك التى خسف مجدها منذ كانت فى المهدأعجاد وأعلام مصر القديمة (ذكرى ما يكون لمنجزات وعبقريه بل وحتى لأخطاء شعب حر دوى أكبر ومنفعة أعظم من تلك الثروة والأوضاع الداخلية لأمة تخصص فيها السلطات والمعرفة لفئة محدودة ، بينما يكون الجهل والعمل من نصيب الأغلبية .

أضعننا يوماً فى ظل التنقل من صا الحجر إلى دسوق محاذين شواطئ النيل ، وعبرنا عند حوالى منتصف الطريق ترعة كبيرة تجرى لتبدد مياهها فى بحيرة البرلس .

ودسوق قرية كبيرة . وقد شاهدنا فى أحد مساجدها ضريحاً لأحد الأولياء يجذب مرتين فى العام عدداً هائلاً من المسلمين ، وهو الحجيج الأكبر رواجاً فى مصر بعد مولد السيد أحمد البدوى الذى تحدثنا عنه ونحن بصدد الحديث عن مدينة طنطا .

وقد أرشدنا البعض ، على بعد فرسين إلى الشمال الشرقى من دسوق ، وعلى

شواطىء ترعة كبيرة إلى خرابب تسمى كوم فرعون، ويتفق هذا الموقع إلى حد ما مع موقع كبازا Cabaza عاصمة لإقليم كباسى Cabastie ، ويؤكد رأينا هذا اسم شباس الذى يحمله عديد من القرى المجاورة : شباس المالح ، شباس عمير ، كوم شباس . .

اتخذنا طريقنا نحو فوه على بعد ربع فرسخ من شمال دسوق وعبرنا ترعة كبيرة صالحة للملاحة طيلة العام تقريباً ، وعند حوالى منتصف الطريق قابلنا قرية سلمية التى اقتحمتها قواتنا وأحرقناها فى العام الماضى عقاباً لأهلها على هجماتهم المتكررة على قواربنا ، ومع ذلك فقد كان يبدو أن هؤلاء الناس لا يكون أية ضغينة على أمتنا كما سبق أن لاحظنا المسيو دينون Denon من قبل .

وسوف نلاحظ فى هذا الخصوص أن المصريين الذين يظنون يسعون لأجمال عديدة متعاقبة ، وعن طريق عمليات القتل والاغتيال ، للانتقام لذويهم الذين فقدوهم فى مشاحنات خاصة ، يغفرون فى نفس الوقت تلك الآلام التى تسببها لهم الحروب الصريحة ؛ فما نحن أولاء ، وبعد كل هذه الآلام التى كابدها فى مصر بعض المدن الكبرى التى هاجمناها ، لا نستطيع أن نسوق دليلاً واحداً هل أن جندياً واحداً من جنودنا قد اغتيل هناك ، بل إن لنا أن نؤكد بأن ليس ثمة واحدة من البلدان التى حملنا ضدها السلاح ، كنا فيها محبوبين بقدر ما كنا فى مصر ، ومن المعروف أن فى مصر مثلاً يقول « اتكلم فرنساوى » ويعنى ذلك : « اتكلم دوغرى » ، ولقد سمعنا واحداً من قناصلنا فى إيطاليا ، كان قد أقام فى القاهرة بعد رحيل جيشنا يحكى أن العامة كانوا يسبون على الدوام فى الشوارع ناعين عليه أنه لا يحيط بحكومته علماً بالفظائع التى تركها القوات التركية فى بلادهم يوماً : « فلو أن الفرنسيين قد أحيطوا علماً بذلك - فيما يقول هؤلاء البؤساء - لعادوا إلينا وخلصونا » . وبإله من شرف لامة ترك فى أعدائها المهزومين مثل هذه الذكريات !

أما سكان الدلتا على وجه الخصوص ، فهم أحسن مما يعتقد المرء عادة ، صحيح أنهم في بداية دخول قواتنا إلى مصر قد أبدوا من المقاومة أكثر مما أبدت أقاليم أخرى فذبحوا عدداً من الجنود الفرنسيين وهاجموا بعض فرقنا.. ولكن لنضع أنفسنا في نفس وضعهم ، وهو أمر ينبغي فعله على الدوام قبل إصدار رأى حكم على طباع أمة ما .. فلو أن المسلمين قد أنزلوا عنوة جنودهم عن طريق البحر في واحد من أقاليمنا شديد التمسك بدينه السكائوليكي ، وتحكموا في مدنه الرئيسية فهل يظن أحد أن فرقةهم العسكرية المنعزلة - في الأيام الأولى لسيطرتهم - سوف تستقبل في قرانا بالترحاب ، وأن الناس هناك لن يقاوموها بالسلاح وخاصة عندما يأتون لجباية الضرائب من كل نوع - أو أن الحكومة المخلوعة - والتي لم تصف بعد نهائياً برغم ذلك - لن تعرضهم على حرب نبيلة ؟ حسن ، هذا بالضبط هو موقف المصريين نحونا ، ومع ذلك فبعد ثلاث سنوات من الإقامة بينهم ، وبعد أن ألف المصريون سادتهم الجدد ، فإنهم أصبحوا يلاقون بالترحاب سرايانا المعزولة وجنودنا السائرين بمفردهم . ولقد سافر واحد منا بمفرده من سمندود إلى القاهرة ، وكثيراً ما قفنا برحلات طويلة ، اثنين اثنين ، وبدون أية حراسة ، أما في أعماق الدلتا ، وأما في مقاطعات مصرية أخرى .. وبما لا جدال فيه أن ثمة بلدانا في قارتنا الأوروبية يضطرب فيها الأمن بحيث يحتاج المرء أثناء السفر فيها إلى حراسة أكبر من تلك ، مثال ذلك بعض أجزاء إيطاليا المطلة على البحر المتوسط .. وفي النهاية فما هي تجربة تمت منذ أربع سنوات ، تبرهن على أن مصر لو ظلت لوقت أطول في حوزة الفرنسيين لسكان النظام والأمن قد استتباً في ربوها ، ليس ذلك لحسب ، بل لسكان شعوبها قد استوعبت - وبسهولة أكبر مما كان المرء يعتقد في البداية - فنوننا وأذواقنا وتقاليدينا .

تقع فوه على شواطئ النيل ، وتسكاد تسكون موازية للإسكندرية ، وهي تقترب كثير من الموقع الذي حدده لمدينة ميتليس Metelis . وهي ليست مزدحمة بالسكان بالنسبة لتوسعها ، وكانت في القرن الخامس عشر مستودعاً لكل التجارة التي

كانت تتم بين الإسكندرية حيث ترسو السفن القادمة من أوروبا وبين القاهرة حيث تأتي القوافل من داخل أفريقيا وبلاد العرب، لكن بسبب الإهمال الذي بدأت تعاني منه الترع التي تتم بواسطتها التجارة بين فوه والإسكندرية في عهد المخربين الأتراك، استوجب الأمر أن تمر البضائع المرسلة من القاهرة عن طريق النيل حتى رشيد ثم تنقل من هناك بالبحر حتى الإسكندرية، ومنذ ذلك الحين تدهورت فوه بعد أن فقدت المزايا التي كانت تعود عليها من موقعها تدهورت بشكل لافت للنظر بينما أدت نفس الأسباب إلى ازدهار سريع لمدينة رشيد حيث نقل إليها قناصل أوروبا مقارهم نتيجة لذلك — وقد كانوا من قبل يقيمون في فوه .

وعلى بعد فرسخين من تلك المدينة الأخيرة، نجد القرية الكبيرة المسماة مطوبس الواقعة على شاطئ النيل . وتعرف هذه القرية بتقاليدها الغربية والمتساهلة، فهي مقر لعدد كبير من العوام . وتوجد بالقرب منها أكوام عديدة من الانقاض تسمى كوم البحر، وأهلها أطلال مدينة قديمة، وربما كانت على وجه التحديد هي بقايا ميلاسيان Milésians التي كانت كما هو معروف بجاورة لبحيرة بوتوس Butos .

وهذه البحيرة قريبة جداً من مطوبس، وتشغل من الشرق إلى الغرب أكثر من نصف قاعدة الدلتا، وهي كذلك أكثر اقتراباً من فرع رشيد عنها من فرع دمياط ويفصلها عن البحر لسان ضيق من الأرض، وتتصل به عن طريق فتحة وحيدة وهي المصب القديم للفرع السبتي وتوجد على شواطئها بعض الأطلال وهي في معظمها أكوام من الانقاض وفتات من الطوب ويحمل أكبر هذه الكتلان اسم الكوم الكبير، ويقع عند حوالى منتصف شاطئ البحيرة المطل على البحر المتوسط، وعلى بعد فرسخ نحو الشرق توجد كومة أخرى من الانقاض الحمراء يرتفع وسطها عمود نامحه عن بعد شديد، ونقابل أيضاً فيها

بين البحيرة والشاطئ الغربي لترعة التباتية فراغا يمتد من ٥ - ٦ فراسخ توجد في أماكن عديدة منه خرائب وتلال صناعية تنبئ أنه كانت توجد هنا عدة مدن قديمة ، وثمة ثلاثة من هذه الأطلال تسمى على التوالي : الدمراوى ، النمرى ، السكالية ، وهى تقع كلها على الفرع السبتيق ، وأخيراً نرى على بعد خمسة فراسخ من هناك مع الاتجاه نحو الشمال مع شواطئ البحيرة وعلى الشرق من مصب التربة - نرى فوق تل الحنداحور ، حتى اليوم ، وبعد مضى أربع سنوات قبل وصولنا إلى مصر ، وذلك منذ الوقت الذى أمر فيه أحد الكشاف بالتراعها ، ثلاثة أحجار ضخمة لعلها من أطلال بعض المنشآت القديمة . ويبلغ طول تل الحنداحور حوالى ألف متر وعرضه حوالى المائتين وهو يتسكون من أراض يغطيها قليل من الرمال وبعض قطع من الأحجار . ربما كان هذا هو المكان الذى كانت توجد فيه فيما مضى مدينة باخنامونيس عاصمة الإقليم السبتيق الأدنى التى يضعها بطليموس شرق الجزء الأدنى من الفرع الترموتى ، وهو ما يتطابق مع موقع تل الحنداحور بالنسبة لسمنود أوسبنتيقوس القديمة ومع ترعة التباتية التى هى جزء من المجرى القديم للفرع الترموتى .

أما بوتوس فكانت تقع على الشط الآخر حسبما يقول نفس العالم الجغرافى ، وينبغى نتيجة لذلك ونتيجة لمشاهدات هيرودت أن نبحث عن موقعها فى المناطق المجاورة للترعة وللبحيرة ، بين الخرائب التى سبق أن تحدثنا عنها إذ يقول هذا المؤرخ بأنها تقع بالقرب من مصب الفرع السبتيق للنيل ونقابها عندما ندخل البحر عن طريق هذا المصب . الخ وتوجد بالقرب منها بحيرة فسيحة . وكانت هذه المدينة واحدة من أهم مدن الدلتا وكان يوجد بها معبد هائل لإحدى الإلهات المضرىات التى اعتبرها الإغريق مثل آلهتهم لاتون وكانت تقدم لها الأضحية العظيمة ، وكانت تعتبر فى مصر من أكبر الآلهة تأثيراً .

وينقل إلينا هيرودت عن هذه المدينة تفاصيل هامة : « كانت ترى فى بوتوس

معابد عديدة هي معبد أبولون وديانا وكذلك معبد لاتونا Latone حيث كانت تقدم
الاضحيات ، وهذا المعبد الأخير معبد ضخم له دهاليز شديدة الارتفاع ، وكان
أكثر ما أثار دهشة في النطاق المخصص للإلهة لاتونا هو معبد هذه الآلهة ، إذ
هو منحوت في حجر واحد مكعب الشكل وطول كل بعد من أبعاده أربعون
ذراعاً وثمة حجر آخر مربع الشكل طول حافته أربعة أذرع يستخدم كغطاء له .
وجزيرة خميس هي الأخرى مثارة للعجب ، وهي تقع في بحيرة عميقة وفسحة
بالقرب من معبد لاتونا ويذكر المصريون أن هذه الجزيرة جزيرة عائمة على الرغم
من أنى لم أرها تعوم أو تتحرك . ويلفت النظر فيها معبد كبير لأبولون له ثلاثة
مذابح وينمو في أرضها تلقائياً عدد كبير من أشجار النخيل وغيرها من أشجار
فاكهة تؤتى أكلها . وإليكم السبب الذي من أجله كما يرى المصريون تسمي هذه
الجزيرة : فلاتونا وهي إحدى الإلهات المعبودة منذ زمن ضارب في القدم كانت
تقيم في بوتوس حيث يوجد الآن سحراها . وحيث أن إيزيس قد سملت لإيها
أبولو كوديعة فإنها خبأته في هذه الجزيرة التي تسمى الآن الجزيرة العائمة وهي
التي كانت من قبل ثابتة لا تتحرك . وبذلك أنقذته في الوقت الذي وصل فيه
طيفون حين كان يجد في البحث عن ابن أوزيريس في كل مكان ، إذ يقال أن
أبولون وديانا قد ولدا من باخوس «أوزيريس» وإيزيس ، وأن لاتونا كانت
مرضعته «أى مرضعة أبوللو» . وسمى أبولون عند المصريين حورس وسميث
نخيريس Cérès إيزيس كما سميت ديانا بوباستيس .

وتضم بحيرة البرلس عددا كبيرا من الجزر ، أراضى معظمها موحلة ،
وسوف يكون من الممتع أن نبحث بين هذه الجزر من جزيرة خميس وهلبو
المشهورتين في العصور القديمة . وقد سبق أن نقلنا عن هيرودت ما كان يعرفه
عن الجزيرة الأولى ونضيف الآن أن اسمها الذي أطلقه عليها الإغريق ربما
يأتى من نخبى أو نخمى وهو اسم مصر في اللغة الإغريقية القديمة . ومن هنا

يمكن أن نستنتج أن المصريين ربما يكونون قد أمسوا هذه الجزيرة « جزيرة مصر »^(١) تشریفاً لها إذ كانت تستخدم ملاذاً لأهلهم . أما عن جزيرة هلبو فهي تعرف على وجه الخصوص بأنها الجزيرة التي أقام فيها أحد الفراعنة ، وكان أعمى ، عندما طرده من العرش ساباكوس Sabacos ملك أثيوبيا ، وظل هناك محتبئاً لمدة خمسين عاماً هي فترة السيطرة الأجنبية . وقام بعض المصريين المخلصين بمد أميرهم الضعيف سرا بالأغذية ، وكان كل واحد يقدم من المأون حسب ثروته كما كانوا ينقلون إلى هذه الجزيرة الأتربة لكي يرتفع مستوى أرضها الموحلة عن سطح المياه .

وكانت البحيرة والأراضي غير المنزرعة التي تجاور بحيرة البرلس وبالذات إلى الشرق والجنوب تكون الإقليم الذي كان يطلق عليه القداماء اسم اليارخى Eléarchie وعن طريق هذه المستنقعات خرج أسبماتيك بعد أن نفاه زملاؤه الأحاد عشر — لكي يطردهم من العرش كما أن أميرتيه Amyrtée قد نالوا من هناك ولمدة طويلة قوات الفرس .

كانت هذه المناطق في ذلك الوقت البعيد آهلة بسكان أولى بأس شديد

(١) غالباً ما تلتصق النعوت بأسماء المدن المصرية . ومن الطبيعي أن يستعمل الأجانب في بعض الأحيان هذه النعوت بدلاً من الأسماء نفسها ، ولعل هذا هو السبب في أن نجد أحد الفراعنة يسمى عند الأغريق خيمس Chemmis ، أو أن نجد مدينة بانوبوليس تسمى نحو أو شمو Chémmo أو خمين (شمين) Chemmin ، كما يسميها ديودور الصقلي ؛ كما رأينا العرب عقد دخولهم مصر ، يعطون اسم شمون أو أشمون لكثير من القرى والمدن في هذه البلاد . وأخيراً ، فإذا كان العرب قد أطلقوا على قصر بابليون آن — شيمي اسم قصر الشمع أو قصر الأنواء ، فإن ذلك يعود ، بلا جدال ، إلى أنهم ، عندما وجدوا في هذا الحصن مبدأً مخصصاً لعبادة الدار ، قد استمدوا من لغتهم هم ، الكلمة التي يمكنها أكثر من غيرها ، مع قربها كذلك من الكلمة المصرية الأصلية ، أن تكون وثيقة الصلة بعبادة النار وقد حرف كثير من جنودنا أثناء إقامتهم في مصر ، عن طريق قياس مماثل ، الكثير من أسماء الأشخاص والأماكن .

— ١١٣ —

وهم لا يزالون كذلك حتى اليوم ، حسبما نراهم في أولئك الصيادين الشجعان
الذين يتميزون بأنهم أكثر شجاعة وأكثر استقلالا من الفلاحين داخل
هذه البلاد .

وبعد أن عبرنا معا أرض الدلتا على هذا النحو افترقنا ، وعاد أحدهما ليقطن
مدينة سمبود ، واستقر آخر في منوف ، وأصبح من السهل علينا أثناء إقامتنا
الطويلة في هاتين المدينتين أن نسجل وأن نبسط المعلومات والملاحظات التي
جمعناها خلال رحلتنا هذه . .

(٥)

جولة بين بحيرات مصر

د. هراتيان لوبيز

العنوان الأصلي للدراسة هو :

« مستخلص من دراسة عن بحيرات ومجراوات

مصر السفلى » .

بحيرات وصحراوات مصر السفلى (٥)

تناول المؤلف بالبحث ، بحيرات مصر السفلى بالترتيب التالى :

- ١ - بحيرة ماريوتيس (مريوط) .
- ٢ - بحيرة المعديّة .
- ٣ - بحيرة إدكو .
- ٤ - بحيرة البرلس .
- ٥ - بحيرة المنزلة .
- ٦ - بحيرة سربونيد (البردويل) .
- ٧ - البحيرة بين البحرين (المرّة) .
- ٨ - بحيرة موريس (قارون) .
- ٩ - بحيرات النطرون .

أولا - بحيرة مريوط

كانت مياه كل من بحيرة مريوط والبحر (المتوسط) تصنع فى الأزمنة القديمة من أراضي مدن الاسكندرية ، فى الوسط ، ونكروبوليس وكانوبى ، فى الشمال الشرقى ، والمدينتين اللتين تحملان كلاهما اسم تابوزيريس ، ومدينة بلنتين ، فى الجنوب الغربى ، شبه جزيرة طويلة وضيقة ، تمتد ، بلا انقطاع ، لمسافة تزيد عن ١٠ ميريامتر . وفى الفترة التى احتل فيها الجيش الفرنسى مصر ، من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١ ، لم تكن تشكل هذه البحيرة سوى سهل رملى ، تحتجز المناطق الواطئة منه مياه الأمطار التى تظل تغطيها الجزء الأكبر من فصل الشتاء .

(*) هذه ترجمة حرفية لما جاء فى كتاب وصف مصر ، ولم نتناول نحن الدراسة بأى اختصار ، وجدير بالذكر أن عدداً من الدراسات التى نشرت فى وصف مصر كانت موجزات للدراسات الأصلية .

ويذكر سترابون أن بحيرة ماريا أو ماريوتيس ، التي كانت تمتد من تابوزيريس (برج العرب حالياً) ، كانت تبلغ ما يقرب من ٣٠٠ غلوة (٢٨٥٠٠ قامة) طولاً ، في حين يبلغ عرضها أكثر من ١٥٠ غلوة (١٤٢٥٣ قامة) ، وكانت تضم كما يذكر المؤرخ ثمانى جزر ، كما كانت تغص شطآنها بالمساكن الفخمة . وكانت تتلقى المياه من عدة ترع سواء من الأجزاء العليا من النهر أو الجانبية منه ، وبالإضافة إلى ذلك كانت مركزاً لتجارة مزدهرة للغاية حتى أن ميناء الاسكندرية الذى يطل على هذه البحيرة كان أكثر ازدهاراً من مينائها المطل على البحر المتوسط ، وقد أدت فيضانات النهر إلى اتساع مساحتها لدرجة كبيرة^(١) .

ويذكر بلين Pline ، نقلاً عن كلوديوس قيصر Claudius Coesar الذى كان قد قاس مساحتها^(٢) ، أن عرضها يبلغ ثلاثين ألف خطوة ، في حين يبلغ محيطها ١٥٠ ألف خطوة ، مما يؤدى إذا احتسبنا كل ألف خطوة بـ ٧٥٦ قامة إلى أن يصبح عرضها ٢٢٦٨٠ قامة وأن يبلغ محيطها ١١٣٤٠٠ قامة ، ويضيف نفس المؤرخ أنها قد تكونت ونمت نتيجة فيض الفرع السكاني .

وكانت أهم ترعتين قديمتين إلى البحيرة هما : أولاً ، تلك التربة التي كانت تأخذ مياهها من النهر في إقليم أرسينويت ، ومن بحيرة موريس عند النيل الأدنى ، لتصبها عند سفح الجبل الغربى الذى يحده وادى مصر ، مرة عند سفح الأهرام لتلتف بعد ذلك عائدة إلى بحيرتنا هذه بعد أن تكون قد روت أقاليم عديدة وبخاصة إقليمى نيتريت وماريوتيت اللذين يلامسان عند الغرب

(١) جغرافية سترابون ، الكتاب السابع عشر .

(٢) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الخامس ، الفصل الاول ، المجلد الثانى ،

الصحراوات الليبية ؛ أما الترعثة الثانية فهي ترعة شيدنيا التي كانت تتفرع عن الفرع السكاني ، والتي لا يبدو لنا مع ذلك أن مجراها يتبع على نحو دقيق مجرى ترعة الاسكندرية (الحالية) التي حلت محلها ، في جزئها الأدنى على الأقل .

وهكذا كانت بحيرة سربوط ، كما سبق القول ، قد جفت بشكل تام عندما استولينا على هذه البلاد ، ويرى المرء عن طريق ما أورده أبو الفداء سنة ١٤٠٠ وبيلون Belon سنة ١٥٣٣ ، وفيلامون Villamont عام ١٥٩٠ ، وتيفنو Thevenot عام ١٦٦٣ ، أن هذه البحيرة ، وكذا الترع القديمة التي كانت تصب فيها ، كانت لا تزال موجودة في هذه الأزمنة المختلفة^(١) . ويذكر Villamont على وجه الخصوص ، أن صيد السمك في هذه البحيرة التي تبعد عن مدينة الاسكندرية بنصف فرسخ كان يدر عائداً كبيراً . وعلى هذا فإن جفافها لا يمكن أن يعود إلا إلى نهاية القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر .

وفي الرابع عشر من جرميئال من العام التاسع (١٤ أبريل ١٨٠١) قطع الجيش الإنجليزي التركي جسور ترعة الاسكندرية عند الطرف الغربي لبحيرة المعديّة ، على مسافة ٧٠٠ متر من باب رشيد الواقع إلى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة وكذا مياه البحر الذي يتصل بها عن طريق المعديّة ، عن طريق ثلاثة أو أربع فتحات حتى نهاية شهر بريريال (١٥ يونيو ١٨٠١) ، واستغرق الأمر سبعين يوماً متوالية لكي يمتلئ ، وبشكل تام ، الحوض القديم لبحيرة ماريوتيس^(٢) .

(١) Belon ، الكتاب الأول ، الفصل الثامن عشر ، ص ٩٢ ، طبعة ١٥٥٤ .
فيلامون ، رحلات ، Voyages ، الكتاب الثالث ، الفصل السادس عشر ، Thevenot ، المجلد الثاني ، الفصل الثاني ، طبعة ١٦٧٤ .

(٢) انظر في دراستي من الجزء الغربي من ولاية البحيرة ما قلته بخصوص داورية الاستكشافات وعمليات الجس والتفدين التي قمت بها في أرض البحيرة وقت لغرقها بمياه البحر .
(الدراسة الثانية من المجلد الثاني من الترجمة العربية) .

ثانياً - بحيرة المعدية

المعدية ، أو بحيرة أبى قبر ، بحيرة تسكونت حديثاً ، مياهها ، من حيث ملوحتها من نوع مياه البحر الذى يتصل بها عن طريق بوغاز يشغل على وجه التقريب نفس موضع الفتحة (أو المصب) السكانوبية القديمة . وقد سميت هذه البحيرة باسمها هذا لأن المياه الموجودة فى بوغازها تعبر « أى تعدى » الطريق بين الاسكندرية ورشيد^(١) . ويقع البوغاز وسط جوين عميق يكونه خليج أبى قبر على مسافة ٦٠٠٠ متر (١٠٧٨ قامة) جنوب الجنوب الشرقى لرأس يحمل هذا الاسم ، ويتراوح عمقه بين مترين وثلاثة أمتار حسب اتجاه وقوة الرياح ومدة هبوبها ، فحين تهب رياح البحر بشدة فإن العمق يصل إلى أربعة أمتار ، ويكون المرور هناك فى معظم الأحيان صعباً وخطراً .

ويجد الإنسان فوق لسان الأرض ، الرمل ، الذى يفصل هذه البحيرة عن البحر بقايا لآثار جسر مبنى فى جزء منه بالأحجار ، وفى جزء آخر بالخشب ، ويبلغ طوله شبه المتواصل حوالى ثلاثة آلاف متر (١٥٣٩ قامة) ، ويسير بهذا الساحل قادماً من الغرب ومتيحاً نحو الشرق ، ونقرأ فيما ذكر عن رحلات بول لوكاس Paul Lucas أن هذا الجسر قد قطع فى عام ١٧١٥ بفعل اندفاع مياه البحر بعنف ، وأن المياه قد غمرت بحيرة المعدية منذ هذا التاريخ كما أن هذا الجسر قد أصابه الكثير من الأذى أيضاً عام ١٧٨٢ بسبب حادث مماثل ، ويعتقد أن هذا الجسر ، الذى اضطررنا لعمل ترميمات عدة له ، يعود إلى عصر السلطان سليم عند حوالى منتصف القرن السادس عشر ،

(١) المعدية كلمة عربية تعنى ممر أو مرور المياه . ويمر الناس فى الواقع بوغاز المعدية فى قارب يوجد عند هذه النقطة من الطريق بين الاسكندرية ورشيد . وبوغاز كلمة عربية أخرى تعنى مصب أو فتحة الفرع نهر أو نهير أو بحيرة فى البحر .

أو هذا على الأقل هو ما يمكن استنتاجه من الأعمال الهائلة التي تم إنجازها في عهد هذا الحاكم ، على ساحل مصر كله .

ويمتد طول هذه البحيرة من ٤ إلى ٥ آلاف متر من شرق معديتها حتى قصر القياصرة بالقرب من مدينة الاسكندرية ، وبعرض يبلغ من ١٥ إلى ١٦ ألف متر . أما أقصى اتساع لها ، وهو يبدأ من نفس النقطة ، المعديّة ، حتى تل الجنان ، إلى الجنوب الشرقي ، فيبلغ ١٢ ألف متر (١٦٠ و ٦٠ قامة) .

ويبلغ عمق مياهها حوالى المتر (٣ أقدام) ، كما يخبرنا بذلك تقرير المستر ولسون Wilson ، وبالسكاد تستطيع القوارب الخفيفة أن تسبح فوقها لكن عملية لإعراق بحيرة مريوط بواسطة مياه البحر بسبب القطع الذى تم إحداثه في جسر ترعة الاسكندرية ، في أبريل ١٨٠١ ، قد أدى بالضرورة إلى تكوين حفر عميقة بعض الشيء ، لحده سمح لسفن الأسطول الإنجليزى التركى ، التى يبلغ غاطسها من متر إلى مترين بالملاحة فيها ، وبالذهاب من نخايج أبى قير ، عن طريق المعديّة ، إلى بحيرة مريوط .

ثالثاً - بحيرة إدكو

تشغل بحيرة إدكو جزءاً ، وهى التى تتخذ اسمها من اسم قرية كبيرة لحد ما ، تقع في هذه الانحاء ، الفراغ الواقع بين المعديّة التى انتهينا من الحديث عنها ، وبين فرع رشيد ، وكانت هذه البحيرة كبيرة بعض الشيء قبل مجيء الحملة الفرنسية ، وكان عائد صيد الأسماك منها يشكل الدخل الرئيسى لمنطقة إدكو ، لكنها منذ زمن ، كادت تبلغ حصد الجفاف التام لأن جسور الترع التى تحمل إليها مياه النهر لم تفتح . وبخلاف المياه التى تحصل عليها من ترعة الاسكندرية ، عن طريق خور أبى جاموس ، فإنها تحصل كذلك على مياه النهر عن طريق فرعين آخرين ، يلبغ أحدهما عند قرية سنابادة بالقرب من فوه ، ويلبغ الآخر عند قرية ديروط .

— ١٤٤ —

وخلال الفيضان الذى تم فى العام ٩/٧ (سبتمبر ١٨٠٠) ، حصل سكان
إدكو على تفويض من الحكومة الفرنسية بفتح جسر ديروط ، تلك القرية
الكبيرة نوعاً ما والتى تقع على الشط الأيسر للنيل ، إلى الغرب من فوة ،
وكذلك جسر أبى جاموس : وكان الفيضان فى ذلك العام وغيماً حتى أن مياه
البحيرة التى أرتفعت إلى نحو ٥٠ إلى ٦٠ سم فوق مستوى مياه البحر قد تسببت
فى حدوث بعض الخسائر للبلاد ، فشقت لها فتحة إلى البحر بآتساع بلغ حوالى
١٥٠ متراً ، وبعمق قدره ٣ إلى ٤ أمتار ، بالقرب من وكالة أو نزل كان
الفرنسيون يشيرون إليه باسم البيت المربع La maison Carrée .

رابعاً — بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس الجزء الأكبر من الساحل البحرى الواقع بين فرعى
دمياط ورشيد ، وتدين هذه البحيرة التى يبلغ أقصى اتساع لها ٣٥ ألف متر
(١٧ و ٩٥٧ قامة) باسمها إلى رأس منخفض رملى ، كان الأقباط يطلقون عليه
اسم برولو Broullo أو بارالو Parallou ويبدو أن مياه البحر كانت تهاجم هذا
الساحل بشكل دائم ، حيث أننا نجد اليوم تحت مياه هذه البحيرة أطلال
مسجد وإحدى القرى .

ولا يزيد عمق مياه بحيرة البرلس عادة عن متر واحد ؛ لذلك فمن العسير
الملاحة بها ، وتصب فيها ترع عديدة متفرعة عن النيل ، أهمها ترعة التبانة التى
تبدأ من سمند على فرع دمياط .

أما بوزاخ البرلس ، فى اتساعه الذى يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ متراً فيبلغ
عمقه من ٣ إلى ٤ أمتار تبعاً لـ

خامساً — بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة من دمياط حتى ما وراء قصر الطينة، بالقرب وإلى الشمال من أطلال بيلوز^(١). وتفصلها عن طريق البحر كتلة من الرمال ضيقة الاتساع، تقطعها فتحات عديدة لتصل البحيرة بالبحر، وأهم هذه الفتحات فتحنا فم الديبة وأم فارج.

وتدين هذه البحيرة باسمها لقرية المنزلة، وهي مكان رئيسى فى منطقة تقع إلى الغرب من لسان من المياه يشكل إلى الجنوب مصباً لثلاثة أشون.

وتمتد مياه المنزلة من الطينة عن طريق القنطرة التى تقع على طريق الصالحية — قطية لمسافة حوالى ٣٥ ألف متر إلى الجنوب نحو مركز البرزخ أو القلزم. وتشكل المياه السنة غير صالحة للملاحة يسميها العرب بركة البلح. وتنتهى هذه الأسنة التى تغطيها النباتات والشجيرات ذات الطبيعة الممحية، والتى كانت توجد منذ القدم كما يذكر سترابون Strabon — تنتهى إلى الجنوب الشرقى بمكان يشير إليه العرب باسم رأس المياه (رأس المياه أو البلاح). ويجدد المرء فى ضواحيها بعض مرتفعات من أنقاض مساكن قديمة، وتوجد قريباً منها بعض الشىء، ناحية الشرق، آبار أبى الروك التى تعطى مياهاً عذبة أو تميل للبلوحة قليلاً. ويتردد على هذه المناطق العربان الذين يسعون إلى إخفاء سيرهم من مصر إلى سوريا.

سادساً — بحيرة سربونيس أو سبباخة البردويل

كانت بحيرة سربونيس كما يذكر كل من هيرودوت، وديودور، وسترابون تبدأ من رأس كاسيوس الواقع إلى الشرق من بيلوز، وتحاذى الساحل البحرى

(١) دراسة عن بحيرة المنزلة تأليف الجنرال (بالمدفعية) اندريوسى، الدول الحديثة المجلد الحادى عشر، ص ٥١٩ إلى ٥٥٤ (من الطبعة الثانية من وصف مصر).

لمسافة تزيد على مائتى غلوة (١٩ ألف قامته) ، ويبلغ أقصى اتساع لها ٥٠ غلوة (٧٥٠ قامته)^(١) .

وحتى اليوم ، لاتزال تنطبق الأوصاف التى تركها لنا كل من ديودور الصقلى وسترابون مع وضعها الحالى ، إذ يذكر ديودور أن « فرقا عسكرية قد هلكت فيها حيث كانت تجهل حقيقة هذه المستنقعات العميقة التى كانت تغطيها الرياح بالرمال التى حجبت هوائها ، ويضيف بأن الرمال والأوحال لم تكن تغوص فى البداية تحت الأقدام إلا قليلا ، كما لو كان الأمر لإغراء المسافرين الذين يواصلون تقدمهم لحسد لاتستطيع المساعدات التى يقدمونها لأنفسهم - حالما يدركون الخطأ الفادح الذى وقعوا فيه - أن تنقذهم ، فكل المجهودات التى يبذلونها حينئذ لا تؤدى إلا لجذب المزيد من الرمال من المناطق المجاورة وينتهى الأمر بأن تبتلع الرمال هؤلاء المسافرين التعساء ، ولهذا السبب فقد أطلق على هذا السهل الطينى اسم barathrum أى سهل الهوات أو سهل جهنم .

ويذكر سترابون أن كل المنطقة من غرة حتى سربونيس ، وكذلك تلك المنطقة التى يمتد بها من الغرب رأس كاسيوس حتى بيلوز ذات طبيعة رملية قاحلة وتخلو من أية مياه عذبة ، كما أن تربتها على الدوام منخفضة وعميقة وموحلة مثل تربة فيليقيا ، وكانت توجد عند المنتصف فتحة (تصب) طمسها الرمال . ومن كاسيوس يبدأ الطريق المؤدى إلى بيلوز ، ويحدد المرء فى هذه الانحاء هوات تسكونت بشكل طبيعى ، حيث هى تقع فى ضواحي بيلوز ، من فيض النيل على مناطق واطئة .

(١) هيرودوت ، الكتابان الخامس والسادس ؛ ديودور ، الكتاب الأول ، الباب الأول ، الفصل السابع عشر .

ويذكر نفس هذا الجغرافى فى الكتاب الأول^(١) أثناء حديثه عن هذه الجهات « لا بد أن البحر قد كان فيما مضى يغطى أرض مصر حتى هذه المستنقعات المجاورة ليلوز ورأس كاسيوس والمرتنعات المجاورة لسربونيس ، ذلك أننا لا نزال نجد حتى اليوم ، عندما تحفر مناجم الملح فى أرض مصر كتلا من الرمال ومن القواقع المتحجرة ، كما لو كان البحر فى الزمن القديم يغطى هذه البلاد ، ولا بد كذلك أن كل ضواحي كاسيوس وكذا المكان المسمى جرها Les Gerrea ، كانت قاعا ضحل العمق بلامس خاييج بحر أريتريا ، ولا بد أن البحر عند انحساره قد كشف هذه الأرض ، لكن المياه قد بقيت فى بحيرة سربونيس التى أصبحت بعد ذلك ، وبفعل تدفق جديد للمياه مستنقعا ؛ ويضيف نفس المؤلف : « وفى أثناء إقامتى فى الاسكندرية ، ارتفع البحر عاليا بين ييلوز ورأس كاسيوس وأغرق الساحل المحيط بهذا الجبل حتى أصبح بمثابة جزيرة وسط المياه ، وحتى أن الطريق المؤدى إلى فيليقيا كان يمكن أن يقطعه الناس بواسطة السفن ، لذلك لا ينبغي أن ندهش لو حدث أن البرزخ الذى يفصل البحر المصرى (المتوسط) عن بحر أريتريا (البحر الأحمر) قد هوى أو تفتت فإن هذين البحرين سيتصلان ببعضهما البعض بواسطة مضيق ضيق يشبه مضيق أعمدة هيرقل ، (مضيق جبل طارق) .

وتحمل بحيرة سربونيس اليوم اسم سباحسة البردويل باسم بودوين Baudouin ملك أورشلين الذى مات فى العريش أثناء عودته إلى سوريا ، فى عام ١١٧٧ ، بعد الحملة التى سيطر فيها على الفرما (يلاوز) ، وتشكل هذه البحيرة بشكل أساسى كل الفراغ الواقع بين رأس ستراكى ورأس كاس والذى تبلغ مسيرته نحو سبع إلى ثمانى ساعات بجذاء شواطئ البحر الرملية ، ويحد اتساعها

(١) سترابون ، الجغرافيا ، الكتاب الأول والسادس عشر والسابع عشر ، الترجمة الفرنسية لهذا المؤلف ، باريس ، سنوات ١٨٠٥ وما بعدها .

إلى الجنوب طريق قطية - العريش الذى يبلغ طوله ١٠ - ١١ ألف متر (٥١٣٠ إلى ٥٦٤٣ قامة) ، وكل هذه المساحة ، هى الحوض القديم للبحيرة ، ولا تزال الرمال المتحركة حتى اليوم تغطى جزءاً كبيراً منها ، وهذه الرمال المتحركة هى التى تركتها هناك نفس الهوات التى تحدث عنها كل من ديودور وسترابون ، وإننا لندين ليوميات زحف السيد الجنرال مينو ، عند عودة الجيش من سوريا إلى مصر بتفاصيل شيقة حول هذا الجزء من الساحل ، الذى اتبعه هذا القائد من العريش إلى قطية^(١) ، وإليك نص هذه اليوميات .

خط السير من العريش إلى قطية عن طريق
سواحل البحر المتوسط ، الذى اتخذته فرقة
من الجيش الفرنسى أثناء عودتها من سوريا إلى مصر

دربنا من العريش ، فى الساعة الخامسة من بعد الظهر : وبعد مسيرة نصف الساعة باتجاه الشمال الغربى ، وصلنا إلى شواطئ البحر ، وسرنا بخذاء الشاطئ باتجاه يمينه إلى الجنوب الغربى لمدة ساعة ونصف الساعة قبل أن نصل إلى بئر المسعودى حيث تزودنا بالمياه ، واصلنا السير فى الساعة الثامنة

(١) يعود الفضل فى تدوين يوميات هذا الزحف إلى المسير لازوسكى Lazousky ، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس سرية فى سلاح المهندسين ، التابع لفرقة الجنرال مينو ، أثناء زحفه من العريش إلى قطية ، عن طريق الساحل ، فى المدة من ١ إلى ٣ ميسيدور من العام السابق (١٩ - ٢١ يونيو ١٧٩٩) ، وعندما تقدم هنا نص هذا التقرير الهام ، فإننا نحقق لمحدى رغبات الجنرال الذى اصططحته دوماً فى جولات استطلاع وحملات عسكرية أخرى ، وقد أودعنى هذا التقرير فى القاهرة كى أعمل على نشره ، الأمر الذى تحقّق فى هذه الدراسة .

مساء حتى الحادية عشر ، متخذين نفس الاتجاه ، فقطعنا بذلك حتى نقطة أول استراحة لنا أربعة فراسخ .

« وفي اليوم التالي واصابنا السير في الخامسة صباحاً ، وفي الساعة السابعة قفنا بالتنقيب في الأرض التي تنتشر بها حفر كثيرة لكن المياه التي هئنا عليها كانت بالغة الملوحة ، ويتوغل الشاطئ في هذه المنطقة نحو الشمال ، وكنا نسير بميل يبلغ ١/٤ درجة جهة الشمال ، ثم واصلنا مسيرتنا باتجاه غرب الشمال الغربي حتى وصلنا إلى رأس بالغ الانخفاض يطلق عليه دانفيل d'Anville في خريطة رأس ستراكي ، وقد تجاوزناه في العاشرة والنصف صباحاً .

« وعندما وصلنا إلى هذا الرأس كنا قد قطعنا تسعة فراسخ ، وهو ما يتفق في كثير مع الخريطة ؛ ولا يريد ارتفاع الساحل - وهو منخفض إلى حد كبير - عن ٥ إلى ٦ أقدام فوق مستوى مياه البحر ؛ ويشكل الشاطئ ، شأنه في ذلك شأن الصحراء التي كانت عن يسارنا ، سهلاً خفيفاً ، وحين اقتربنا من رأس ستراكي وجدنا العديد من البحيرات الصغيرة ، كان قاع بعضها مغطى بملح أبيض جميل تعلوه ست بوصات من المياه ، وقد وجدنا بعض البحيرات كذلك خالية من المياه ، كما وجدنا أن بعضها عميق الغور ، لكنها جميعاً كانت قليلة الإتساع . سرنا بقية النهار ، عن يسارنا سلسلة من بحيرات متشابهة ، في حين تمتد الصحراء على مدى البصر فوق سهل واسع شديد الانخفاض ، يخلو تماماً من أية خضرة .

« بعد رأس ستراكي يتخذ شاطئ البحر من جديد اتجاه الغرب ، وغرب جنوب الغرب ، بشكلًا منحنى يشبه المنحنى الذي انتهينا من اجتيازه بمحاذاة البحر ، ابتداء من العريش ، ويلتهى هذا المنحنى الذي نحن بصدد عند رأس كاس كما تسميه خريطة دانفيل ، ويتسكون هذا الرأس من كتبان بالغة الارتفاع تتصل بأرض مرتفعة ، تبدأ من داخل الصحراء لتشكّل نهاية لسير بحيرة

قديمة لم تعد بها مياه ، ويخطى هذه المرتفعات نبات العايق أو العيص ، وتبدو قابلة للزراعة ، وتدل المدقات العديدة التي تخترقها ، وكذا روث الجبال والخيول والماعز الذى يخطيها ، على أن العربان يترددون على هذه المناطق ، وقد اكتشفنا خلف وفي سفح الكتبان ، خزاناً للمياه قاعه رملي ، وتكسوه جذوع صبار مطمورة تماماً ، ووجدنا حوله كذلك أنقاضاً لا نهاية لها من الفخار الطيني ومن بعض مواد البناء ، على شواطئ البحر .

« كنا قد قطعنا حتى ذلك الوقت ١٦ فرسخاً ، وقد حاولنا اجتياز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ، كي نصل إلى قطية ، لكن أحواضاً أخرى لبحيرات قديمة بالغة الإلتساع ، شكلت عوامق بالنسبة لخيولنا وجمالنا ، إذ كانت تغوص فيها حتى بطنها ، لدرجة اضطررنا معها أن نعود أدراجنا نلتهمس من جديد شواطئ البحر ، التي يفصلها عن هذه المستنقعات جسر رملي يبلغ عرضه من ١٠٠ إلى ١٥٠ قامة ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ستة أقدام فوق مستوى سطح البحر وقطعنا بعد ذلك أربعة فراسخ حتى بلغنا استراحة الماء ، وفي اليوم التالى ، وبعد أن سرنا بهذه البحر ، الذى يمضى شاطئه هناك فى خط شبه مستقيم ، باتجاه ١٠ درجة نحو الجنوب ، وبعد مسيرة خمس ساعات ووجدنا مبنى من القرميد جيد البناء ، له شكل المنزل المربع يقسمه من الداخل جدار ، ويقع هذا الطلل ، الذى تتناثر من حوله آثار أخرى من مواد بناء ، فى الطرف الشمالى الشرقى لارتفاع لا يشكل مطلقاً رأساً فى البحر ، وإن كان يشكل ، من جهة الغرب ، نهاية أحواض كبرى للبحيرات القديمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وفى هذا المكان ، أمر قائد الفرقة مينو بالسير إلى قطية ، وكنا عندئذ قد قطعنا ابتداء من العريش حوالى ٢٥ فرسخاً فوق رمال متحركة ، دون أن نعلم على مياه ، بخلاف تلك التى ووجدنا فى بير المسعودى .

« أما بخصوص خزان رأس كاس ، فقد يكون من المفيد القيام بتطهيره

لمعرفة نوع وكمية المياه الموجودة به وهو يقع على بعد تسعة فراسخ من طلل
القرميد الذى تحدنا عنه من قبل ، ومن المرتفعات التى اجتازناها لتتجه صوب
قطية . وبعد مسيرة ساعة دخلنا الطريق المؤدى من الطينة إلى قطية ، .

حرر فى قطية ، فى الثالث من ميسيدور من العام السابع
قائد لواء المهندسين لازوسكى
(توقيع)

وهكذا نثبت من هذه الأوصاف ، أن طبيعة هذه المناطق لم تتناولها تغيرات
ملحوظة ، منذ ما يقرب من عشرين قرناً .

سابعاً — البحيرة المرة أو البحيرة بين البحرين

تتخذ البحيرة التى أشار إليها مؤلف دراسة « القناة التى تربط بين البحرين ،
المسيو لوبير Lepère ، أنخى الأكبر ، والذى كنت واحداً من معاونيه ،
باسمها القديم ، البحيرة المرة ، تتخذ فى هذه الدراسة تسمية جديدة ، هى البحيرة
بين البحرين ، وهو الاسم الذى أطلقته هايبا والذى يبدو منطقياً تمام الانطباق
على حالتها ، وعلى موقعها وسط قلم السويس ، وعلى الدور الذى قامت به
فى الاتصال القديم بين بحر الهند وبحر اليونان ، وعلى الدور الذى تستطيع أن
تقوم به بشكل طبيعى عند إعادة فتح هذا الإتصال^(١) .

ثامناً — بركة قارون أو بحيرة موريس

تعتبر بحيرة موريس ، بين كل الأعمال المدهشة التى قام بها قدماء
المصريين ، هى ذلك العمل الذى تحدث عنه المؤرخون القدامى بأكبر قدر

(١) انظر دراسة المسيو Lepère عن القناة التى تربط بين البحرين ، الدولة الحديثة ،
المجلد الحادى عشر ، ص ٣٧ . (الطبعة الثانية) .

من الاطراء والحماسة ، ومع ذلك ، فحين نعرف عبقرية شعوب الشرق في كل العصور ، وروح وأسلوب كتابهم ، فإن المرء لا يدهش بعد أن يجد ، كما يقول سترابون حين يتحدث عن هوميروس ، أن الأساطير والخرافات تتداخل في كتاباتهم ، ولهذا على وجه الدقة ، فإننا لن نجاني الحقيقة حين نحمل حمل الأسطورة ما كتبه هيرودت عن أعاجيب بحيرة موريس ، وفي الواقع ، فإن هذا المؤرخ ، وهو أقدم هؤلاء الذين كتبوا عن مصر ببعض التفصيل ، هو سبب الأخطاء والمعلومات غير الدقيقة التي جعلت كتابنا المحدثين ، حتى عصرنا هذا ، مشغولين بهذه المسألة الجغرافية ، سواء كان ذلك من هيرودوت بفعل تقليد خاطيء أو مغلوط منه أو كان بسبب تفسيرات غير دقيقة حصل عليها من السكينة المصريين .

لكنني لن أدخل في هذا الصدد في أية مناقشات حول موضوع أرى أنه قد توضح الآن بشكل كاف حتى لأعده بذلك منتهياً ، بعد هذا الذي كتبه ونشره في مصر ، المسيو جومار Jomard ، الذي كان ضابطاً في سلاح المهندسين الجغرافيين^(١) .

تاسعاً — سباحة النطرون أو بحيرات النطرون

يضم الوادى المتاخم لمصر السفلى ، في جزئه الأوسط والأكبر انخفاضاً ، بعض السنة يطلق عليها بحيرات النطرون ، باسم مادة ملحية حجرية تلتجها هذه البحيرات ؛ وتتجه هذه البحيرات إلى شمال الشمال الغربى موازية الفرع الغربى للنيل ، الذى يبعد عنها بمسيرة نحو ١٠ إلى ١٢ ساعة نحو الغرب ، ويبدأ ظهور

(١) دراسة عن بحيرة موبيس ، الدولة القديمة ، المجلد السادس ، ص ١٥٥ (الطابعة الثانية) .

هذا الوادى بين أهرام سقارة والجيزة ، ويلتهى عند تخوم ولاية البحيرة إلى الجنوب من ماريا Maréa ، عاصمة إقليم المريوطية القديم .

وتقع بحيرات النظرون على خطوط موازية لقريتي ميت سلامة والطرانة على النيل ، على مسيرة ١٢ ساعة إلى الغرب من الطرانة أى مسافة نحو ٤٨ ألف متر من هذه القرية ، على اعتبار أن مسيرة الساعة تساوى أربعة آلاف متر .

ولابد أن يتبادر إلى ذهن المرء أن قاع هذه البحيرات أدنى من مجرى النيل . وكذا من مستوى مياه البحر المتوسط ، بل إننا مدفوعون إلى الاعتقاد كذلك بأن مياه النيل تنسرب إليها عن طريق الرشح حاملة معها المادة الملحية الحجرية التى تحالها من التربة التى تحترقها ، والتى تستخدم فى تشيكيل وتجهيز النظرون فى هذه الحفريات الطبيعية ، ذلك النظرون ، الذى استطاع العلم فى كل العصور أن يعده لاحتياجاتنا الصناعية ، ويقول هيرودوت بهذا الخصوص « إن النيل أثناء فيضاناته الكبرى يغرق ليس الدلتا فقط ولكن كذلك مناطق الصحراوات الليبية وكذلك بعض أجزاء من بلاد العرب ، إذ يفيض على الجانبين لمسيرة نحو يومين » ، ويؤكد بلين Plinio هذا الاستنتاج عندما يقول إن مياه النيل تحدث فعلها فى ملاحات النظرون .

وعلى غير سند قوى ، فى رأى ، رفض واحد من أحدث رجالاتنا هو المسمى سويلنى Sonnini رأى الطبيعيين اللاتين ، الذى تبناه وتوسع فيه الجنرال أندريوسى فى دراسته الموجزة عن وادى بحيرات النظرون^(١) وحيث أننى لست أستهدف هنا الدخول فى تفاصيل كثيرة حول هذا الوادى ، فإننى أحيل هنا إلى الدراسة التى دونتها فى بريد مصر Courrier de l'Egypte وبصفة

(١) Memoire sur la vallée des

Laco des Natroun وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى عشر .

وهو الدراسة الرابعة من المجلد الثانى فى الترجمة العربية .

خاصة إلى الدراسات التي سبق أن ذكرتها لسكل من المسمو سونيني والجنرال أندريوسى ، وأذكر هنا^(١) حكاية طريفة من شأنها أن تعرفنا على طبيعة

(١) في أثناء الرحلة التي قمت بها إلى بحيرات النطرون صحبت معي ، بناء على رغبته ، السيد قائد الفرقة الجنرال مينو ، وكان على رأس ٥٠٠ من رجال المدفعية وقت لبرار الجيوش الإنجليزى — التركى في أبى قير ، في السادس والعشرين من ميسيدور من العام السابع (١٤ يولية ١٧٩٩) ، وكان — هو — مكاءاً بمسح الصحراء ، بهدف قطع خط الرجعة على مراد . وكان هذا البك ، المتعالف مع العدو ، والذي كان يهدد في ذلك الوقت سواحل أبى قير ، يمتاز بالبحيرة مع بعض من أحزاب الماليك والعربان ، حيث كان يسمى إلى تاليب هذه الولاية ضدنا ، لكنه عرف كيف ينسحب من هناك في الوقت المناسب . وقد عانينا في هذه الحملة العسكرية ، في هذا الوقت من السنة ، من أشد درجات حرارة الصيف ، ومن أقسى المتاعب ، ومن الحسائر في الرجال والخيول ، كما سنعرف لفتو ، في التفاصيل التالية :

بعد أن رحلنا في الخامس عشر من يوليو ١٧٩٩ من امبابة ، وهى قرية تقع على الشط الأيسر للنيل ، حازت شهرة بسبب معركة الأهرام ، أصبحنا في السادس عشر من الشهر داخل الصحراء في منطقة مرتفعة ، على مسيرة ثلاث ساعات إلى الغرب من وردان ، وزحفنا نحو الأهرام اليونانية والسريانية الموجودة عند بحيرات النطرون ، وهنا اضطر نقص المياه ، الجنرال مينو إلى التماس النيل مرة أخرى ؛ وكنا قد فقدنا حتى ذلك الوقت بسبب مقاب العطش رجلين : أحدهما يونانى ، قتل نفسه بأساً ببنديقه ، وقد بلغنا النيل بعد ساعتين ، بالقرب وإلى الشمال من ميت سلامة ، وعندما عاودنا الرحيل ، عند الساعة الرابعة ، عدنا مرة أخرى إلى الصحراء حيث ضربنا خيامنا ، وفي اليوم التالى وصلنا ، عند حوالى الساعة العاشرة ، إلى دير القديس مكاريوس ، بعد أن فقدنا مرة أخرى أربعة رجال ، وحصاناً ، وجمالاً ، واستفرت مسيرتنا من شواطئ النيل إلى هذا الدير عشر ساعات من السير المتواصل ، وبعد وصولنا استعشرت سماعة غامرة حين تمكنت من إنقاذ حياة ثلاثة جنود ، زحفوا ، وفهم يرغى رغوة الموت ، وجسدهم يرتجف بشدة ، نحو الدير الذى كان دخوله ممنوعاً على الفرقة ، وبعد أن وضعناهم في ظل الجدران ، وبعد أن قدمنا لهم الماء المنعش بالقدر المناسب ، استطعت أن أستعيدهم إلى الحياة التى خرجوا منها بعد ذلك بربع الساعة ، وبلا عودة : عندئذ حفرت الفرقة وهى تجرى هنا وهناك ، الرمال ، على بعد ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر من الدير ، حيث عثرنا على قلب من المياه المالحة تكفى بالكاد لرى عطش لا سبيل إلى وصفه ، وكان لابد أن تحدث بعض لمصابات بالحصى الرهيبية ، التى يتسبب في حدوثها في هذه الصحراوات عطش مهلك ، تبلغ قسوته درجة لا يمكن تحملها أو وصفها ، ولستنا في حاجة بالتأكيد إلى أن نلتصق في عاصفة هبت على هذا البحر من الرمال اللبينية ، السبب في ضياع جيش قبير الذى ابتلته هذه المنطقة من بلاد آمون ، ذلك أنه تكفى ببساطة هبة متلهبة من رياح الخمسين لمدة يوم أو يومين فقط ، أو مجرد زحف اضطرارى في هذه الصحراوات الخالية من المياه ، كى يهلك هناك جيشي بأكمله .

الصحراوات التي تقع في وسطها بحيرات النظرون ، وعلى الخطر الكامن في اجتيازها في فصول السنة شديدة الحرارة وبخاصة لو أن ذلك قد تم ، دون اتخاذ الاحتياطات الضرورية .

وفي رأي أن من المهم أن يلم بهذه الحكاية الطريقة أولئك الذين يتحتم عليهم أن يسافروا إلى هذه المناطق .

وفي التاسع عشر من يوليو ، وبعد مسيرة خمس عشرة ساعة من دير السيدة (أو دير السريان) بلغنا النيل من جديد ، من جهة الشمال الشرقي ، عند العويجة ، وفي أثناء هذه الرحلة قدنا رجلين آخرين بعد ساعة واحدة من السير إلى غرب النهر ، وقد وضع المسير جاكوتان Jacotin السكولوايل بفرقة المهندسين الجغرافيين عند رسم خريطة مصر الكبرى ، مماطاً تبين هذه المسيرة الصعبة التي كان على القائد أن يتحملها مع الجنسدي . ، لذا كانت هذه الحملة جد متسربة ، لقد لم يكن لدينا من الوقت ما يكفي كي ننزود لا بالخيام ولا بأية مؤن ضرورية أخرى ، أما هي أما ، فبعد مسيرة سبعة أيام من زحفنا ، أربعة منها في الصحراء ، لحقت في أبي قير بالجندال مينو ، الذي تولى قيادة حصار هذا الحصن . وبعد استسلام الحصن هدت إلى رشيد حيث عائلت من آلام شديدة مع كل الأعراض التي تصاحب الطاعون الذي ألقيني منه لحسن الحظ نوبة عرق غزير ، جاءني نتيجة سير اضطراري . وعند العودة إلى القاهرة ، بعد ذلك بشهر ، هاجمتني نوبة رمد ، حرمتني كلية ، طيلة اثني عشر يوماً ، من النظر ، وهي نوبة لم أشف منها إلا بعد ستة أسابيع . وقد عانى آخرون ، كثيرين ، من الظروف القاسية للغاية التي صاحبت هذه الرحلة ، وقد ظل حصاني ، وكذا حصانان آخران من خيول الجندال ، مرضى بسبب هذه الرحلة لمدة ١٥ — ٢٥ يوماً حتى أنها استعطمت بالكاد أن تواصل السير معنا في اليوم الأخير حين اتجهنا من العويجة إلى الرحمانية ، وقد أتيح لي أن ألاحظ وأن أقتنع كذلك بأن سبب الحوادث التي عانيت منها بصفة خاصة يعود إلى أثر الفرق الملحوظ ، والمؤثر أبلغ الأثر في الجسم ، بين الحرارة الشديدة في النهار والتي تبلغ من ٣٢° إلى ٣٥° وبين البرودة الشديدة بالليل وسط هذه الصحراوات ، وبخاصة حين لا يحرص المرء على أن يغطي نفسه جيداً أثناء الليل ، وهذا أيضاً سر الإرهاق الشديد الذي يحس به المرء هناك ، ذلك أن امتناع العرق في مصر ، كما في كل البلدان الحارة ، هو أحد الأسباب الأولى لوجود الأمراض الملزمة لأجوائها .

ملاحظات عامة

يقول المسيو جراتيان لو بير Gratién le Père إنه قد أطلعنا في الوصف الخاص الذى قدمه عن بحيرات مصر والذى نقلناه بالنص فيما سبق ، على ما لم يكن قد نشر من قبل :

١ — إن حوض بحيرة مريوط ، الذى يمتد بطول الساحل البحرى للاسكندرية حتى برج العرب ، لمسافة من ٣٨ إلى ٤٠ ألف متر ، والذى كان قد جف تماماً فى عام ١٨٠٠ ، قد ظل حتى اليوم أدنى من منسوب البحر بشكل ملحوس ، بحيث أن المياه المالحة ، نتيجة لعملية تخريرية ، تغمره اليوم كله ، ويبلغ عمقها فى نقاط عديدة سبعة أو ثمانية ، وربما عشرة أمتار .

٢ — أن قاع حوض كل من بحيرات المعديّة ، وإدكو ، والبرلس ، وكذلك بحيرة المنزلة التى تلامس بقية الشاطئ البحرى للدلتا القديمة ، والتى تتصل مباشرة بالبحر بواسطة فتحة أو هدة فتحات ، ينخفض بوضوح عن مستوى البحر ، حيث تتخذ مياه هذه البحيرات الملاحية ، حين تتناقص بتناقص منسوب النيل ، كل ملوحة مياه البحر التى تصب فيها ههنا ، وترتفع بدرجات متفاوت بحسب قوة واتجاه الريح القادمة باتجاه عرض هذه البحيرات .

٣ — وأن بحيرة سربونيس التى تمتد من رأس ستراكى إلى رأس كسارون ، والتى تغطيها قشرة ملاحية ، تضم ، شأنها فى ذلك شأن الالسنّة المتاخمة من جهة الغرب باتجاه الطينة ، نفس الهوات التى كانت موجودة هناك منذ النى عام .

٤ — أن بركة البلح ، التى تتصل شمالاً بالمنزلة ، وتمتد حتى رأس المية هند حوالى منتصف قلزم السويس ، لا تزال حتى اليوم ، وبشكل ملحوس للغاية ، أدنى من مستوى سطح البحر المتوسط ، حتى أنها ليست سوى فيض بمعنى

الكلمة لمياه حلوة أو مالحة من المنزل ، تبعاً لحالات المنزل المختلفة ويتم ذلك بفعل القنطرة التي تفصلهما على الطريق من مصر إلى سوريا والذي يمر بالصالحية .

هـ — أنه يتضح بشكل ملموس لسكل من يعبر قازم السويس من بحر لآخر ، على نفس خط عمليات المهندسين الفرنسيين ، مدى إنخفاض أرض البحيرات المرة من مستوى سطح البحر الأحمر ، وتطابق النتائج التي توصل إليها من المهندسون الفرنسيون فضلاً عن ذلك مع تلك التي توصل إليها من قبل مهندسو داريوس ، كما تقول الروايات المتواترة ، وكذلك مع الشهادات التاريخية للزوفين القدامى والمحدثين ، كما تتطابق كذلك مع شهادات الاقباط ومثقي القاهرة .

٦ — أن بحيرة موريس — وبركة قارون ليست سوى أدنى بقعة من هذه البحيرة القديمة — تشكل كذلك ، وهو أمر ملموس ، اتساعاً لمنخفض يمكن أن يبلغ عمقه — وهو أمر لم تحققه أية عمامة قديمة أو حديثة — نفس ما ذكره هيرودوت ، أى ٥٠ أورجى (٩٢ متراً) تحت أعلى مياه في هذه البحيرة ، وأنه ، إذا لم يكن هذا العمق صحيحاً في موقع النهرين اللذين أقامهما موريس ، فلا شيء ، في الواقع ، يتعارض مع ما يمكن لهذا العمق أن يبلغه بالنسبة لأية منطقة أخرى ، حيث تبدو تربتها أدنى بكثير من سرير النيل ، وترتبطا هلى ذلك ، أدنى من منسوب البحر المتوسط .

٧ — أن تربة البحر بلا ماء ، والتي يعود جفافها بلا جدال ، وكذلك جفاف كل البحيرات الأخرى في مصر ، تلك التي لم تعد تتغذى بمياه النهر أو البحر ، إلى الأعمال التي قام بها ، فيما مضى ، موريس ، الذي يتحدث عنه هيرودوت ، وكذلك إلى البحر المستمر في هذه الصحراوات من الرمال القاحلة

— ١٣٩ —

والملتهبة، وأن تربة هذا الوادى، حسبما أرى، لابد أن تكون بالمثل، أدنى من مستوى البحر.

٨ — وأخيراً، أن حوض بحيرات النظرون، حيث يجد المرء محجراً طبيعياً غير قابل للنفاد، من هذا الحجر الملحي، لابد أن يكون دون ريب أدنى من سرير النيل الذى تجرى مياهه، فيما يبدو، تحت قاع هذه البحيرات فتجلب إلى هذه الوهاد رطوبة ملحية، هى واحدة من العناصر التى تكون هذه المسادة المعدنية. ومن الممكن أن نقرر هنا - ولا يتم ذلك على غير أساس - أن التربة، هنا بالمثل أدنى من مستوى مياه البحر المتوسط.

وإذا ما حاولنا، بعد أن تعرفنا هكذا على بحيرات مصر، أن نضع فى اعتبارنا الطبيعة العامة والخاصة لهذه البحيرات، التى تحيط بها سهول منخفضة وقاحلة حيث نجد رمالا متحركة، تبللها مياه مشبعة بالأملاح من كل نوع؛ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا فى النهاية أن رطوبة الليالى الدائمة، تهيء بشكل مستمر فى طقس هذه البحيرات، والصحراوات التى تحيط بها، رطوبة ملحية تخرق مسام الأجسام وتعمل فيها فعلها، فإننا نتوصل إلى أن قلزم السويس، وكل مصر السفلى، وكذلك كل الساحل المتاخم من الغرب لواحة آمون فى الصحراوات الليبية، وتطابقاً مع رأى الذى كان يحدسه الكهنة المصريون، والذى نقله وتبناه هيرودوت، وسترابون، وكل فلاسفة الأزمنة القديمة، تشكل بلا جدال امتداد بخر جفت مياهه.

وقد شارك فى هذا رأى كل الرحالة المحدثين، الذين زاروا هذه المناطق؛ ويمكن أن نذكر من بين هؤلاء الرحالة هورنمان Hornemann، الذى تعرف فى هذه الصحراوات، بعد أن عبر أفريقيا سنة ١٨٠٠ من الشرق إلى الغرب مروراً بواحة آمون (سيوة)، على الآثار المحسوسة للغاية لإقامة طويلة لمياه البحر (فوق هذه المناطق)، وأضيف إلى ذلك، تبعاً لرأى الكهنة المصريين

ورأى هيرودوت ، أنه يحتمل ألا يكون وادى النيل اليوم ، وهو الذى ترتفع تربته بشكل مستمر من القاهرة وهو يتجه جنوباً نحو الصعيد ، سوى ترسيب هائل لطمي النهر ، وأن وديان بحر بلا ماء ، وكذا بحيرات وادى النطرون قد أمكنها أن تشكل فيما مضى خلجاناً مشابهة لخلجان البحر الأحمر ؛ وأضيف إلى ذلك ، أخيراً ، أن الواحات — وذلك من حيث ينظر إلى الصحروات الليبية والإفريقية بشكل عام ، باعتبارها أجزاء من أرضية بحر جفت مياهه — وهى تلك الأنواع من الجزر المزروعة أو القابلة للزراعة ، والتي نراها مبعثرة باتساع هذا البحر من الرمال ، ليست سوى وهاد ، مثل تلك التى توجد فى قاع البحار ، والتي لا تزال تربتها ، جزئياً ، أدنى من المستوى الحالى لمياه البحر المتوسط . ويقول مؤلف هذه الدراسة : لم يكن منوطاً بى أن أحدد سبباً للثورة الفيزيقية التى أمكنها أن تغير على هذا النحو سطح كثير من هذه المناطق ، لذلك فاست أدعى بأننى قد توصلت للثورة على هذا السبب الثانوى ، سواء بالإشارة إلى أثر المد والجزر غير الاعتياديين ، واللذين ، تبعاً لما يقول سفر الخروج ، والذي تنفق روايته القديمة مع ما يذكره ديودور^(١) عن أكلة الأسماك Ichthyophages ، وهى شعوب سواحل البحر الأحمر ، ربما يكونان (أى المد والجزر) قد جففا جزءاً كبيراً من هذا البحر ؛ وسواء كذلك بافتراض أن انخفاضاً قد تم آلياً لمياه المتوسط بسبب انقطاع أحدث مضيق أعمد هيرقل ، المسمى حالياً مضيق جبل طارق^(٢) ، كما اننى أخيراً لا ألتبس السبب فى ذلك

(١) سفر الخروج ، الأصحاح الرابع عشر ، الآية الحادية والعشرين .

(٢) بين كل هذه الروايات أو الافتراضات ، تبدو زوابة انخفاض مياه المتوسط بسبب انقطاع مضيق الأمعدة ، وهى الرواية التى كانت موضع دراسة فى جغرافية سترابون ، أكثر الروايات مدعاة للقبول ، كما أنها أكثرها احتمالاً ، ولذا فذهن لقبل بالقول بأن المتوسط كان ينفلى فيما مضى الجزء الأكبر من صحراوات ليبيا وأفريقيا ، وأن هذه المياه ، عندما انخفضت عن ارتفاع بعينه ، بدلت قطع طبيعى أو صناعى لمضيق جبل طارق ، وقد كشف اتساع هذه السواحل التى حولها الجفاف إلى بحر من الرمال القاحلة والمتهمة . أنظر سترابون ، الكتاب الأول من المجلد الأول الترجمة الفرنسية ، وكذلك بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب السادس ، الفصل الأول .

الأنفحسار السريع للياه بعد عصر تلك الكارثة العامة التي تحتم خلالها على الكوكب الذى نعيش فيه ، أن يدور ، خلال قرون ، تحت غلاف بحر لا حدود له ، وهى كارثة لا تزال السهول وكذلك الأغوار بالغة العمق ، والجبال شديدة الارتفاع عن سطح الأرض ، تحمل شواهد لا تنمحي منها ، إن من العبث أن نعذب روح الإنسان ، القلقة فى حد ذاتها ، بافتراضات تتفاوت فى درجات حذقها أو درجات احتمالها لتفسير أسباب هذه الثورات الكبرى ، كما أن أسباب وأوقات هذه الأحداث المرعبة ، التى تهددنا بمسارها ، الدورى ، ربما ، بمجولة لنا ، وستبقى مدفونة فى طيات ليل الأزمان الأبدى .

ولكى نعود إلى الغرض الذى من أجله أعدنا هذه الدراسة ، فإننا ننتهى بأن نقدم هنا لوحة موجزة لمساحة أسطح البحيرات البحرية لمصر الدنيا ، مع مقارنة هذه المساحة ، بمساحة الدلتا القديمة والدلتا الحديثة .

لوحة موجزة للمساحات المقارنة لبحيرات مصر السفلى (١)

المساحة بالمكتار	التسميات الحديثة والقديمة للبحيرات
٨٥٧٧٨٤	١ — بحيرة مريوط . . بحيرة ماريوتيس
١٣٧٨٣٢	٢ — د . . المعديّة د . . المعديّة
٣٣٧٧٧٢	٣ — د . . إدكو د . . إدكو
١١٢٨٦٠	٤ — د . . البرلس د . . البرلس
١٣٧٠٢٨	٥ — د . . المنزلة د . . المنزلة
٤٤٣١٢٠	المجموع
	٦ — سبخة البردويل . . سربونيس
	٧ — البحيرات بين البحرين . . البحيرات المرة
	٨ — بركة قارون . . بحيرة مورييس
	٩ — سبخة النطرون . .

(١) سجلات المساحة المحسوبة جزئياً بالنسبة للبحيرات أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ =

ويرى المرء من مساحة الـ ٤٤٣١٢٠ هكتار، ما إن كانت مصر ستفعل ما فعلته هولندا، ذلك البلد الذى تنخفض أرضه بشكل عام بـ ٣ إلى ٥ أمتار عن مستوى سطح المحيط، والذى يقدم مثالا يدعو إلى الإعجاب، على مقدرة الإنسان حين انتزع فصفها أو على الأقسى ثلثها، عن طريق تجفيف كل هذه الألسنة المائية الضارة، التى تفرخ كل أنواع الأمراض الوبائية والمستوطنة فى البلدان الحارة؛ إن مصر بزيادة وتطهير أرض أقاليمها البحرية، سوف تجنى بعد وقت قصير عشرة أضعاف القروض التى يمكنها أن تحصل عليها من شركات التجارة والصناعة التى قد تسمى إلى الحصول على تنفيذ هذا المشروع الكبير.

ومن بين كل الأعمال التى ينبغي على حكومة عاقلة ومستنيرة أن تقوم بها لصالح رفاهية هذه المنطقة، فإن الأعمال التى تستهدف الرى وتجفيف الاراضى لابد وأن تنال الأولوية عند هذه الحكومة، وعنايتها الكبرى؛ ذلك أنه لولا الترع والجسور لسكانت مصر، وقد كفت عن أن تكون ولودة معطاء، بل مجرد كتلة هائلة تغمرها مياه النهر أكثر مما يجب، ولهلك شعبها، فالعناية السنوية بالجسور والترع هى إذن أساس الوجود الفيزيقي لهذه المنطقة. وإذا كان تاريخ مصر لا يحد ثناياها عن منجزات تمت على أرض مصر - ولست أقصد هنا هذه الأعمال العظيمة والعلاقة التى تبدو اليوم وكأنها تزدري بسكبرياء وأنفة بعض حكامها، بل أقصد هذه الأعمال الكبيرة والنافعة، التى لم تكن تهدف إلا إلى توسيع وتطهير، وكذا ازدهار هذه الأرض القديمة والمقدسة - فإننا مع ذلك سوف نجد

== على الخريطة الجديدة لمصر، بمقياس رسم ديسمتر واحد لكل ١٠ آلاف متر أى بنسبة ١ إلى ٦٠٠٠ بالنسبة للمقياس الطبيعى.

ولم تكن ظن أنه ينبغي علينا أن نقدم مساحات البحيرات الملحبة أرقام ٦، ٧، ٨، ٩ لأننا لم نكن نعرف أطوالها بالقدر الكاف، ولأن تربتها فضلا عن ذلك غير قابلة لأن تزرع بعد تقيفها.

بعض الذكريات مدونة فوق سطح هذه التربة . ومهما يكن من ضعف هذه الذكريات ، فإنها تشهد بأن مصر يمكنها أن تصبح من جديد ما كانت تحت عهود هؤلاء الحكام الممتازين ، وفي الواقع ، فإننا حين نعبّر مصر السفلى - وأرضها بلا جدال كما قال هيرودوت هبة النيل - نبحث دون جدوى عن مجرى الفرعين الرئيسيين للنهر ، والذين كانا يكونان جانبي دلتا القديمة ، ولا نعود نجد وسط هذه السهول المزروعة والخصبة ، هنا وهناك ، سوى ترعة مطموسة أو متقطعة ، ولا تشكل فروصها الكثيرة ، والتي تقاطع في كل اتجاه إلا آثارا نتعرف عليها بالكاد لنظام الري ، كما لا يلمح المرء اليوم في مكان هذه الكفور والمدن التي كانت تزدهم بالبشر ، سوى أكوام من الانقاض العارية والقاحلة : تلك هي بقايا المساكن القديمة قد تحولت إلى رماد . وأخيرا فإن المرء لم يعد بعد يرى سوى السنة طينية مليئة بالأوبئة ، أو رمال قاحلة تنسبط وتغزو بلا انقطاع ، أرضاً سبق لدأب الإنسان أن انتزعها من الصحراوات ومن البحر ، لنلق إذن بنظرنا على الخريطة الجديدة لمصر ، ومع ذلك فإن هذه الخريطة لن تقسّم للبهامد سوى فكرة ضعيفة عن الوضع البائس والمخون الذي تردت إليه هذه المنطقة . وحتى يكون حكمنا في ذلك أكثر دقة ، فإننا نختم هذه اللوحة بمقارنة بين مساحة الدلتا القديمة ، وتلك المساحة للدلتا الحديثة .

قدّم لنا هيرودوت القاعدة البحرية للدلتا القديمة ، وحددها ابتداء من بحيرة سربونيد (أو سربونيس أي البردويل حالياً) بالقرب من رأس كاسيوس حتى تابوزيريس إلى الغرب ، على الخليج البيليني ، وهو يقسّم هذه القاعدة بـ ٣٦٠٠ غلوة ، أي ما يساوي ٣٥٣٦٢٨ متراً ، باعتبار أن الغلوة المصرية الصغيرة تساوي ٩٨ متراً و ٢٣ سم^(١) ، لكننا ، مع تضيق هذه المسافة إلى تلك

(١) الغلوة التي يشير إليها هيرودوت تبلغ بلّ شونة ، وهو مقياس يستخدمه المصريون كما يذكر هذا المؤرخ ويساوي Parasanges . وبعبارة أخرى فإن الشونة =

القاعدة (قاعدة الدلتا) التي بين تقع أطلال بيلوز (شرقاً) وبرج العرب (غرباً)، نجد أيضاً أن هذه المسافة، التي نقيسها تبعاً لانحناء الساحل، على الخريطة الملحقة بالدراسة عن التربة التي تربط بين البحرين، حوالى ٣٥٠.٠٠٠ متر.

أما بخصوص جانبي الدلتا، فإننا سنحصل على المسافة مباشرة من المقياس الواقع عند القمة الجنوبية لجزيرة الروضة، التي يرتبط موقعها بالفسطاط العربية، أو بباليون المصرية، حتى أطلال بيلوز إلى الشرق، وبرج العرب إلى الغرب، باعتبار ذلك هو ما يشكل الدلتا القديمة، لكننا سننقل هذين الجانبين، فيما يتعلق بالدلتا الصغيرة (الحالية)، إلى المدينتين البحريتين الواقعتين على فرعى النيل الكبيرين: دمياط ورشيد، وحيث أننا نعتبر هاتين المسافتين المثلثتين الشكل (شكل من الدلتا القديمة والحديثة على التوالي) تابعتين لقطاع من نفس الدائرة يشكل جانباً كل منهما، قطرى هذه الدائرة، فإننا نحصل على الأبعاد والنتائج الآتية:

== تعادل ٤ أميال رومانية وتساوى ٣٠٢٤ ر قامة مما يصل بالغاوة المصرية إلى ٩٨ م و ٢٣ سم
ل ب ق قامة
(٩ ٤ ٢ ٥٠) . أنظر ترجمة هيرودوت التي قام بها المسيو لارشيه ، الكتاب الثاني ،
الفصلين السادس والسابع .

الأبعاد بالمتري		دلالات
القاعدة البحرية سواحل الدلتا		
١٧٠٠٠ م	٣٢٠٠٠ م	أبعاد الدلتا { القديمة الحديثة }
١٧٠٠٠ م	١٣٥٠٠ م	
٣٦	٦٣	٢٧٧٢٧٥٨٣
٠٠	٠٠	٣٩٦٠٠٠
٣٦	٦٣	٢٧٣٣١٥٨٣
٠٠	٤٠	١٧١٤٧٥٤٩
٣٦	٢٣	١٧١٨٤٠٣٤

تبعاً لهذه الأطوال نجد أن المساحة المتريّة للدلتا القديمة تبلغ (١) :

ويبدو أن تقطع منها مساحة المثلث الذي يكونه الجزء الواقع إلى الغرب من الصحراوات الليبية (مساحة بحيرات النظرون) ، وحيث أن قاعده هذا المثلث تبلغ ١٩٨ ألف متر وارتفاعه يبلغ ٤٠ ألف متر فإننا نحصل على :

حاصل الطرح الأول من مساحة الدلتا القديمة :
نستبعد منها مساحة الدلتا الجديدة الذي يبلغ :
وبذا يكون مساحة الجزء المفقود من الدلتا القديمة

(١) على الرغم من أن الشاطئ الغربي للدلتا الكبرى قد يبلغ ١٩٨ ألف متر ، فإننا لا نعتمد سوى ١٦٧ ألف متر بسبب الأجزاء الداخلة فيه من الصحراء ، والتي نعتقد أن من الواجب استبعادها .

أما المسافة من المقياس إلى أطاليل بيلوز ، والدوثة فوق الخريطة فتصل إلى ١٦٨ ألف متر، وقد رفعناها إلى ١٧٠ ألف متر بسبب الفروق الصغيرة التي توجد فضلاً عن ذلك على جانبي الدلتا الصغيرة اللذين ينتهيان عند دمياط ورشيد .

وتعطي الخريطة ١٥١ ألف و ٥٠٠ م من أطاليل هليوبوليس إلى أطاليل بيلوز وتختلف هذه المسافة عن تلك التي يذكر هيرودوت بأنها تبلغ على وجه الدقة ١٥٠٠ غلوة تعطي (بحساب الغلوة ٩٨ م و ٢٣ سم) [أى ٥١ قامة] ١٠٧ ألف و ٣٤٥ متراً ؛ وهذا قد يصل بالفرق إلى ٤ آلاف و ١٥٠ م أى ما يساوى ٤٢ غلوة في الغلوة .

من هذه النتيجة نتبين أن الدلتا القديمة قد فقدت أكثر من نصف مساحتها ؛
وتغطي حوالى ١/٥ مساحتها كذلك مياه بحيرات مريوط ، المعدية ، إدكو ، البراس
المنزلة ، وهذه هى الآثار المحزنة للامبالاة للحكام المسيطرين ، بل المخربين لهذه
البلاد البائسة .

لقد تحدثت فى هذه الدراسة عن الأعمال العظيمة الرى والتجفيف ، التى
يمكن القول بأنها استخلصت مصر من قلب البحر ، ووضعتها فى أعلى درجات
الازدهار ، ولم يعد على سوى أن أعبر عن أمانى بأن تصدر القرارات
اللازم اتخاذها بشكل عام ، لمواصلة تنفيذ هذه الأعمال ، التى بلغت اليوم مرحلة
العدم التام ، بفعل تخريب البشر ، أكثر منه بفعل أى دمار يكون الزمان
قد أحدثه .

(٦)

دراسة موجزة عن
الحدود القديمة للبحر الأحمر

”دي بوا - ايميه“

يقع الطرف الشمالى للبحر الاحمر على بعد ستة إلى سبعة آلاف متر إلى الشمال من مدينة السويس . وفيما وراء ذلك ، ثمة حوض ينتهى بعد حوالى ستين ألف متر إلى الشمال من هذه المدينة ، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٢ — ١٥ ألف متر ، ويضيق كثيراً عند الجنوب (انظر الخريطة) .

وبفعل مظهره ، فإن هذا الحوض ، الذى اجتزته مرات عدة ، يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى ؛ فهناك يعثر المرء على طبقات من الملح البحرى، تتخذ فى بعض المناطق شكل قباب ، تبرز الأرض عندها تحت أقدامنا ويلج المرء من خلال شقوق صغيرة ، وعلى عمق أربعة إلى خمسة أمتار ، مياهاً ، نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر ، وفى مناطق الأخرى ، نجد الأرض موحلة .

ونعثر هنا وهناك على مستنقعات من مياه مالحة ؛ وحين يحفر المرء فى الأماكن الرملية ، لعمق يباغ ١٥ ديسمتراً فقط ، فإنه سيحفر على المياه المالحة ، تحت طبقة من صلصال وحماً . والأرض فى هذا الحوض تغطيها القواقع ، وتنخفض عن سطح البحر لحد كبير^(١) ؛ وعلى الرغم من ذلك . فلا يفصلنا عن البحر سوى كتلة من الرمال ، يباغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يندر أن يتجاوز المتر الواحد فوق مياه الخليج ، وفى النهاية فإننا نلمح فوق التلال المحيطة به ، خطأ يتسكون من مخلفات نباتات بحرية تشبه تمام الشبه ذلك الأثر الذى تتركه البحار فوق الشواطئ ، لكن ما يلفت النظر هنا بشكل كبير ، هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المسد العالى للخليج العربى .

(١) يبلغ الفرق فى أماكن عديدة من ١٢ إلى ١٥ متراً .

ولشكل هذا ، فإنه يبدو لي ، وبوضوح ، أننا هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر . لقد جاء يوم تسكونت فيه كتلة من الرمال جنوب السويس بقليل ، بالقرب من أضيق مكان بالبحر ، ولا بد أن أسباباً عديدة قد أدت إلى زيادة هذه الرمال بشكل غير محسوس ، وهنا أصبح كافياً أن تهب عاصفة لترفع هذه الرمال إلى ما فوق المستوى المعتاد للمياه . وبذلك يشكل الطرف الشمالي للبحر الأحمر بحيرة بدأت بعد ذلك في الجفاف بفعل البخر^(١) .

ومن المثير ، بل وربما كان مستحيلاً ، أن نحدد على وجه الدقة متى حدث ذلك ، ومع هذا ، فلا بد أنه قد تم بالتأكيد قبل عصر أرديان . وحين نظن أننا قد تعرفنا على آثار التربة التي حفرها الخلفاء (المسلمون) بعد استيلائهم على مصر ، إذ أن تربة القماماء ، تلك التي يتحدث عنها هيرودت ، بلين ، سترابون ... إلخ ، كانت تنتهى عند الطرف الشمالي للحوض الذي انتهيت لتوى من تحديده .

وعندما أعلنت عن رأي هذا بخصوص الحدود القديمة للبحر الأحمر في مقالة قرأتها في المجمع المصري^(٢) ، فإن هذا الرأي قد تعرض للرفض من قبل كافة المهندسين الذين ساءهوا ، مثلي ، في عمليات تفدين(*) قلزم السويس ، لكن غالبيتهم عادوا بعد ذلك ، ليعضمو صوته إلى صوتي وليعتبقوا رأياً لم أطرحة من قبل إلا كمجرد احتمال .

(١) منذ حملة البرتغاليين في البحر الأحمر ، بقيادة كاسقرو ، سنة ١٥٤١ ، سدت الرمال خليج السويس للدرجة خطيرة ؛ ولذا فبالإمكان التنبؤ بأن البحر سترجع في حالتها هذه نحو الجنوب .

(٢) كان عنوان هذه الدراسة عن عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر ، وعن بعض المعجزات التي تمت على يد موسى ، وقد طبعت هذه الدراسة مع بعض التعديل في المجلد الرابع من Mémoires Sur l'Egypte .

(*) أي قياس ارتفاعات وانخفاضات الأرض .

وأضيف هذا ، إلى البراهين التي استخلصتها عن البنية الفيزيائية لخليج السويس ، شهادات القدماء من أشهر المؤرخين والجغرافيين .

يذكر هيرودت (الكتاب الثاني ، الفصل ٥٨) أنه كانت توجد ألف غلوة بين رأس كاسيوس وبحر أرتيريا ، أى خمسمائة ألف متر ، إذ تبيننا التقييم التقريبي الذى يقدر الغلوة الواحدة بمائة متر^(١) .

وحسبما يذكر سترابون (الكتاب السادس عشر) ، فقد كان رأس كاسيوس عبارة عن جبل زملى يتوغل داخل البحر الأبيض ، فى حين يضعه مسار أنطونين على مسافة أربعين ميلاً من بيلوز ، وعلى نفس هذه المسافة بالضبط من أطلال بيلوز نجد اليوم كثيراً عالياً من الرمال يتوغل داخل البحر ، حيث يشكل رأساً صغيراً يسمى رأس الكسارون ، ولا يمكن لأحد الشك فى أن هذا الكتيب هو كاسيوس القديم نفسه ، وتبعاً لذلك تكون المسافة من هذه النقطة إلى ما أراه الحدود القديمة للبحر الأحمر ، مائة ألف متر ، الأمر الذى يتفق تمام الاتفاق مع الألف غلوة التى يذكرها هيرودت .

وقد يعترض البعض بأن هيرودت قد قال فى موضع آخر (الكتاب الرابع ، الفصل ٤١) ، بأنه توجد مسافة ألف غلوة أو مائة ألف Orgyies ، وأن هذا التقييم للغلوة stade ، يدفعنا إلى الاستنتاج بأن هيرودت كان بصدد الحديث عن الغلوة الأولمبية التى تساوى نحو ١٨٥ متراً ، وليس عن الغلوة المصرية التى تساوى مائة متر ، وأن المسافة بين كاسيوس والخليج العربى كانت تبعاً لذلك ١٨٥ ميلاً وليس مائة ألف متر .

لكن هذا التقدير الأخير ، سيرجع بالطرف الحالى للبحر الأحمر نحو الجنوب

(١) اتفاق طول الغلوة الصغرى مع تقسيمنا العشرى لربع الزوال الأرضى ، أمر جدير بالملاحظة .

بمقدار ٦٠ ألف متر ؛ وعندئذ يكون البحر قد تراجع من الشمال كل هذه المسافة ،
في حين أن شكل الأماكن يثبت على العكس من ذلك ، أنه قد انسحب إلى
الجنوب ، تاركاً حوضاً واسعاً ، قد يملؤه من جديد ، إذا ما رفعنا فقط أربعة
إلى خمسة آلاف متر مكعب من الرمال ، وعندئذ لن يفصله ، بعد ، عن كاسيوس
أكثر من ألف غلوة صغيرة .

ومن جانب آخر ، فإنني على ثقة بأن هيرودت ، في وصفه لمصر ، قد استخدم
على الدوام الغلوة الصغيرة . فهل يمكن أن يكون هذا المؤرخ قد استخدم
بخصوص القلزم وحده مقياساً مختلفاً ، في حين تتعارض المسافة التي تلتج عن
ذلك كثيراً مع المشاهدات الجيولوجية التي يؤكد لها الافتراض الأول ؟ يخيل إلى
أنه ليس من العسير أن نتقبل فكرة أن هيرودت ، بعد أن قدر في الكتاب
الثاني من تاريخه امتداد القلزم بألف غلوة ، قد وقع في خطأ حول طبيعة الغلوة
التي كانت في متناوله في ذلك الوقت ، وأنه ، عندما عاد إلى الحديث عن القلزم
من جديد في الكتاب الرابع ، لم يفعل سوى أن كرر على نحو ما سبق أن قاله ،
لقد كان يعرف من قبل أن هذه المسافة تقدر بنحو ألف غلوة ، وهذا سهو من
السهل ارتكابه ، جعله يقدر هذه المسافة بـ ١٠٠ ألف أورجى ، ونحن نعرف أن
هيرودت قد ارتكب خطأ مشابهاً حين قارن المسافة بين بيزا Pise وأثينا بالمسافة
بين هيلوبوليس والبحر الأبيض .

ومع ذلك ، فإن كل هذه الشروح تصبح عديمة الجدوى ، إذا ما بنينا ذلك
الرأى ، الذى ينهض ، فيما يبدو لي ، على أن الغلوة الصغيرة كانت تنقسم شأنها
في ذلك شأن الغلوة الأولمبية ، إلى مائة قسم متساو ، يسمى كذلك باسم أورجى
Orgyie فعندئذ ستطابق شهادة هيرودت ، ما سبق أن ذكرته بخصوص الحدود
القديمة للبحر الأحمر .

ويخبرنا بلين Plin (الكتاب السادس ، الفصل ٢٧) أن طول التربة التي

نُحَضِّ بِمَشْرُوعِهَا سِيزُوسْتَرِيسَ ، لِنَرْبِطَ النِّيلَ بِالْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، كَانَ يَبْلُغُ ٦٢ مِيلًا^(١) ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَسَافَةَ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَقْصَرَ مَسَافَةً بَيْنَ النِّيلِ وَالْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ ، وَيَبْدُو مِنَ الْمَوْكُودِ أَنَّ هَذِهِ التَّرْعَةَ كَانَتْ تَنْفَرِعُ عَنِ النِّيلِ جَنُوبَ بَوَّاسِطَةِ بَقْلِيلِ (هَيْرُودَتِ ، الْكِتَابُ الثَّانِي ، الْفَصْلُ ٥٨) ، حَيْثُ يَصْنَعُ النَّهْرُ فِي الْوَاقِعِ مَرْفَقًا يَتَجَهَّ نَحْوَ الشَّرْقِ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، نَجِدُ لَدَيْنَا مِنْ هَذِهِ النِّقْطَةِ إِلَى طَرَفِ نَهَايَةِ الْخَلِيجِ ، وَفِي خُطِّ مُسْتَقِيمٍ ، ٩٠ مِيلًا ، فِي حِينِ أَنْتَالُو تَتَبَعْنَا تَعْرِجَاتِ وَادِي السَّبْعِ أَيْيَارَ ، وَتَوَقَّفْنَا عِنْدَ الْحُدُودِ الْقَدِيمَةِ لِلْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، سَمَحَصَلْ عَلَى الْمِ ٦٢ مِيلًا الَّتِي يَذْكُرُهَا بَلَايْنُ .

وَنَمْضَى الْآنَ فِي تَجْمِيعِ رَاهِينِ أُخْرَى .

يَقَعُ وَادِي السَّبْعِ أَيْيَارَ ، كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْعَرَبُ ، عَنِ خُطِّ عَرْضِ ٣١° ٣٠' شَمَالًا ، وَيَبْدُو عَلَى بَعْدِ نَحْوِ ٢ مِيلٍ يَامِتْرَ^(*) مِنْ بَلْبِيسَ ، وَيَتَجَهَّ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَتَتَوَغَّلُ فِيهِ مِيَاهُ النِّيلِ أحيانًا فِي أَوْقَاتِ الْفَيْضَانِ ، كَمَا تَوْجَدُ فِيهِ عَلَى الدَّوَامِ مِيَاهُ عَذْبَةٌ حِينَ نَحْفِرُ لَعَمَقِ ١٢ إِلَى ١٥ دِيسِيمِتْرَ . وَلِأَرْضِ هَذَا الْوَادِي نَفْسُ طَبِيعَةٍ وَمِلْحَ أَرْضِ مِصْرَ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ ، خَفِيفٌ تَغْطِيهِ مِيَاهُ النِّيلِ لِفَتْرَةٍ أَقْلَ عَلَى الدَّوَامِ ، فَإِنَّ طَبَقَةَ الْأَرْضِ الصَّالِحَةَ لِلزَّرَاعَةِ ، وَالَّتِي يَرْسِبُهَا النَّهْرُ ، أَقْلَ سَمَكًا ، إِذْ قَلْبًا يَبْلُغُ سَمَكُهَا هَذَا ثَلَاثَ دِيسِيمِتْرَاتٍ ، تَوْجَدُ تَحْتَهُ طَبَقَةٌ مِنْ صَلَاصَالٍ خَفِيفٍ ، مَخْتَلِطٍ بِالرَّمَالِ ، وَقَدْ حَفَرْتُ التَّرْعَةَ الَّتِي تَجَلِبُ لِمِيَاهِ النِّيلِ عَلَى امْتِدَادٍ يَبْلُغُ ١٢ مِيلًا يَامِتْرَ خَلْفَ تَلٍّ يَحْتَفِ بِالْوَادِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، مِمَّا يَسْهَلُ كَثِيرًا عَلَى السَّكَّانِ مِهْمَةَ الْحَصُولِ عَلَى الْمِيَاهِ الْإِلَازِمَةِ لِلزَّرَاعَةِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ يَحْدُثُ أَنَّ تَمْرَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ سَنَوَاتٍ عَدَّةً ، دُونَ أَنْ يَصِلَ النَّهْرُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الِارْتِفَاعِ ،

(١) يَسَاوِي الْمِيلَ ٧٥٦ قَامَةً أَوْ $\frac{١٧}{١٠}$ ١٤٧٣ مِتْرًا .

(*) يَسَاوِي الْمِيلَ يَامِتْرَ ١٠ أَلْفَ مِتْرَ .

الكافى لإمداد هذه التربة بالمياه ؛ وفي هذه الحالة يستخدم الناس الآبار لرى الأرض .

وعند مدخل الوادى توجد قرية العباسية ، التى تقع إلى القرب منها بحيرة يسميها العرب بركة الفرجة أو بركة الحج القديم ، ويقودنا الاسم الأخير الذى يعنى : البحيرة القديمة للحجاج ، إلى أن نستنتج أن موكب الحج الكبير ، الذى يمر الآن بئر العجروود كان يتبع فى الأزمنة الأولى التى بدأ فيها الحج إلى مكة ، وادى السبع أبيار ، ليعتف من حول الخليج ، إما لأن قاع هذا الخليج كان يمتد عندئذ إلى جهة الشمال لمسافة أكبر من تلك التى يمتد إليها اليوم ، وإما لأن كتلة الرمال التى كانت قد كونت حديثاً ، بحيرة اقتطعتها من الجزء الشمالى للخليج ، لم تكن تهيء مطلقاً ، حتى ذلك الوقت ، أى طريق مناسب للمرور . وتوقف التربة على مسافة ٢ ميريامتر من العباسية ، وهنا كذلك ينتهى وادى الطميلات ، الذى يتخذ اسمه من اسم قبيلة عربان الطميلات التى تقطن هذه المنطقة ، ويمتد وادى الطميلات بعد ذلك لمسافة ٢ ميريامتر نحو الشرق ؛ وفى نحو منتصف هذه الجزء من الوادى ، نجد كومة واسعة ضخمة من الانقاض ، تلبى عن موقع مدينة قديمة . ويطلق العربان على هذا المسكان اسم : أبو كيشيد (*) وعند قمة مرتفع يتكون من هذه الانقاض ، توجد كتلة ضخمة من الجرانيت ، نقشت فوقها بحروف بارزة ، ثلاثة آلهة مصريين ، هى فيما أعتقد : أوزيريس ، إيزيس ، حورس ، وتبدي فى هذه الرسوم عظمة إنسانية ، ويجلس كل إله منهم إلى جوار الآخر ، أما ظهر الكتلة ، وكذلك الأجزاء الأخرى المسطحة ، فتغطيها النقوش الهيروغليفية (أنظر الرسم الذى جمعه المسيو فيفر Fèvre) والذى يوجد بين آثار الدلتا) ؛ ونجد كذلك ، فوق الانقاض ، عدداً كبيراً من شظايا الحجر الرملى الأحمر الصوانى ، تشابه حجر الجبل الأحمر القريب من القاهرة ، وفوق الكثير من هذه الشظايا ، توجد نقوش هيروغليفية .

(*) تل المسخوطة حالياً . (المترجم)

وثمة اعتبارات كثيرة تدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الانقراض تلتصق إلى مدينة هيروبوليس القديمة .

وينذكر فلافيوس جوزيف Flairus Joosophe (الكتاب الثاني، الفصل الرابع) أنه ، عندما رحل يعقوب من بير سبع ، جاء ابنه ، وزير فرعون ليلقاه في هيروبوليس . وتفسر الترجمة السبعينية للتوراة ، على نفس النحو (الآية ٢٨ من الإصحاح ٤٦ من سفر التكوين) على الرغم من أن الأمر ، في النص العبري ، لم يكن يتحدث عن هيروبوليس بشكل خاص ، وإنما بأرض جاسان على وجه العموم ، وقد تمت هذه الترجمة في مصر ، بعد حوالي نصف قرن من فتح الإسكندر ، لذلك ينبغي أن نولي بعض الثقة ، للتفاصيل الجغرافية التي تحتويها هذه الترجمة . إذن فقد كانت مدينة هيروبوليس ، في زمن هذه الترجمة السبعينية تقع في أرض جاسان ، في المكان الذي يحدد فيه الأثر (التوراة) لقاء يوسف بأسرته ، وعلى هذا فقد كانت المدينة تقع على الطريق المؤدى ، من بير سبع أو من ضواحي غزة إلى ممفيس ، أى بعيداً جداً عن الموقع الحالي للبحر الأحمر ، وفي نفس الوقت ، فإن اسم الخليج الهيروبوليتي Golfe Heroopolite الذي كان القدماء يطلقونه على هذا الطرف من بحر أريتريا ، يبرهن على أن هيروبوليس كانت تقع على شواطئه^(١) ، بل يذكر ذلك بشكل قاطع كل من بلين وسترابون ، حين يتحدث الأخير عن امتداد البحر الأحمر فقد كانت هيروبوليس على الدوام ، هي التي تحدد طرفه الشمالي .

ويتفق هذا التعارض الظاهري ، إذا افترضنا أن البحر كان يملأ الحوض التي تحدث عنه : وتبدو أطلال أبي كيشيد ، بوجودها عندئذ على الطريق بين

(١) وهكذا فإن مدينة القازوم ، التي كانت توجد في ضواحي السويس قد أعطت لهذا الجزء من البحر اسم بحر القازوم ، الذي يحمله حالياً ، وهكذا أيضاً بدأ العرب يسمونه اليوم بحر السويس .

بمنيس وغزة، وبعداً بعض الشيء عن شاطئ البحر، تبدو مناسبة لموقع هيروبوليس وفي نفس الوقت ، فإن دانفيل d'Anville ، الذى لم يسكن يعرف شيئاً عن اطلال أبى كيشيد ، والذى كان يحفل أن البحر قد تراجع بالمثل نحو الجنوب ، فقد وضع هيروبوليس في نفس الموقع ، على وجه التقريب .

ويبدو أن هيروبوليس هى نفس المدينة التى تشير إليها التوراة باسم بيتوم Pithom وثمة ترجمة قبطية عن نص إغريق ، ترجمت فيها هيروبوليس بيتوم ، وقد ظن كثير من العلماء ، وقد جرحهم إلى ذلك التشابه الذى يجدونه بين بيتوم Pithom وباتوموس Patumos ، أن هذين الاسمين يشيران إلى نفس المدينة ، ومن المؤكد أن الإغريق قد حرفوا بشكل كبير أسماء البلدان الأجنبية بإعطائها على الدوام نهاية يونانية ، وفهنا عن ذلك ، فإن هيرودت ، يذكر أن التربة التى تحمل مياه النيل إلى البحر ، كانت تصب في البحر ، بالقرب من باتوموس ، وقد رأينا أن هيروبوليس ، كانت تقع ، على مسافة قريبة من من الأراضى التى هجرها البحر .

وكانت مدينة كليسا Clysma تقع على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، وعلى بعد ٦٨ ميلاً من هيروبوليس ، تبعاً لمسار أنطونين Antonin ، وتقودنا هذه المسافة ، إلى مدخل وادى التيه ، أى إلى حوالى ١٢ درجة جنوب السويس ، فى حين يضع بطليموس Ptolémée كليسا ، على درجة بأكملها جنوب طرف الخليج ، وإننى لأعرف جيداً أنه لا ينبغي أن نلتزم أكثر مما ينبغي بالتحديدات الجغرافية لبطليموس ، الذى لم يفعل بتحويله مقابل الاتجاهات إلى درجات ، سوى أن ضخم من الأخطاء وجعلها أكثر خطورة ، حين أعطاها مظهراً من الدقة الفلكية ، ومع ذلك فإن من المستحيل على الأقل ، أن نتقبل خطأ يبلغ أربعين دقيقة بين نقطتين متجاورتين إلى هذا الحد ، وتقعان ، كما يمكن القول ، تحت نفس خط الزوال (الطول) : ومع ذلك ، فتلك هى الغلطة التى كان

يمكن أن يقع فيها بطليموس لو أن قد كان البحر فيما مضى يجرى داخل الحدود التي له الآن ، في حين يبلغ الخطأ ، إذا ما تقبلنا فكرة أن البحر كان في عصره ، يمتد إلى جهة الشمال بالمسافة التي سبق تحديدها ، لا يبلغ أكثر من ١٢ إلى ١٣ دقيقة ، وهي نسبة تقريبية كبيرة إلى حد ما في مناقشة من هذا النوع .

أما عن البحيرات المرة ، فسوف نخطئ إذا ما اعتقدنا أنها تشغل الحوض الذي يقع إلى شمال السويس ، ذلك أن بلين Pliny ، بخلاف البراهين التي قدمتها لدحض فكرة أن البحر كان يغرقها فيما مضى ، يذكر بشكل موضوعي أن التربة المتفرعة عن النيل ، كانت تبلغ في طولها ٣٧ ميلاً ونصف الميل حتى البحيرات المرة ، وحيث كانت هذه التربة تنبع ، تبعاً لأكبر الاحتمالات ، إلى الجنوب من بواسطة ، فإننا نرى أن البحيرات المرة ، كانت ولا بد — تبدأ إلى الغرب قليلاً من هيروبوليس : وفي الواقع ، فإنه يوجد بين هذه النقطة ، وبين الطرف القديم للخليج ، أى بامتداد يبلغ حوالى ٣ ميلاً ، كثير من البحيرات التي كانت تستقبل مياه النيل في أوقات الفيضانات الكبرى .

وزى من النصوص المختلفة التي انتهينا من إيرادها ، ان المؤلفين القدماء يؤكدون ما قد دلنى عليه مجرد مشهد الأماكن ، ويبدولى أن هذا الاتفاق يشكل احتمالاً متساوياً لسكل ما يمكن أن يطلق عليه الناس في مجال التاريخ اسم ثقة .

إن معرفة الحدود القديمة للبحر الأحمر ستفيدنا بكل تأكيد ، في أن نحدد بصورة أكثر دقة بما أمكن فعله حتى اليوم ، موقع المدن التي كانت توجد فيما مضى على شواطئ الخليج ، والتي اضطرت الجغرافيون المحدثون أن يكسوها ، في ضواحي السويس ، في حين نجد ، نحن ، قريباً من الأرض التي هجرها البحر ، اطلال هديد من المدن ، كانت تقع جميعاً — وهذا هو الأمر

الجدير حقاً بالملاحظة - فوق مستوى منسوب أعلى نوبات المد بالخليج العربي ، وسأذكر على سبيل المثال تلك المدينة التي كانت تقع عند الطرف الشمالى للحوض : فقد وجدنا هناك كتلا كثيرة من الجرانيت ، تنسب إلى مبنى دائرى يبلغ قطره حوالى أربعة أمتار ، وهذا ما يتعرف عليه المرء من شكل بروز بناء منحوت فوق واحدة من هذه الأحجار ، ونقابل قريباً من ذلك عدداً كبيراً قطع وشظايا الجرانيت ، والحجر الرملى ، والحجر الجيري ، والتي تنهى عن موقع مدينة قديمة ، يبدو لى ، أنها لا بد وأن تكون مدينة كليوباتريس Cléopâtre ؛ فقد كانت هذه المدينة كما يذكر سترابون (الكتاب السابع عشر) ، تقع فى الجزء الثانى من الخليج العربى ، كما يذكر فى الكتاب سالف الذكر ، أن التربة المتفرعة عن النيل ، كانت تنهى إلى البحر ، قريباً من هذه المدينة ، وبمواصلة السير مع الساحل الغربى للحوض ، نقابل كذلك ، بين الانقاض والخرائب التي تحدثنا عنها للتو ، وبين السويس بقايا مدمشة قديمة ، نقشها عليها حروف فارسية .

(V)

الحدود القديمة للبحر الأحمر مرة ثانية... "دى بوا - امييه"

« العنوان الأصلي لهذه الدراسة هو : ملحق
للدراسة التي سبق لنا أن قدمناها عن الحدود القديمة
للبحر الأحمر » .

الفصل الأول

عن حالة الأماكن^(١)

منذ نشرت دراستي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر^(*) وأنا أدرك ضرورة أن أدهم رأيي ببراهين تاريخية جديدة ، وبأن أضيف إلى الوصف الذي سبق أن قدمته عن الأماكن بعض وقائع قد تيجر — إذا ما لزمنا الصمت عنها — إلى افتراضات خاطئة . وفضلاً عن ذلك ، فإن كل ملاحظة تتم عن الأماكن نفسها ، وكذلك كل معطى يقدمه الواقع ، لابد وأن يهدف — كل ذلك — إلى التعرف بالحالة الفيزيائية للأرض ، داخل موسوعة كهذه ، تهدف لأن تقرّبنا — هي أفضل وضع ممكن — من الوصول إلى الوصف الكامل والدقيق لمصر .

ولقد سبق أن ذكرت (في دراستي السابقة) أن الحوض الواقع إلى شمال السويس ، والذي سأطلق عليه منذ الآن حوض القلزم ، لاتفصله عن الخليج العربي إلا كتلة من الرمال يبلغ عرضها نحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف متر ، وبارتفاع يبلغ متراً واحداً في أكثر أجزائه علواً حسب خط التفدين^(*) الذي

(١) عثيت بأن أضع على الخريطة التي أرفقها بدراستي عن فروع النيل القديمة ، كل ما يمكن أن يعين على فهم هذه الدراسة ، وتلك التي سبقتها كذلك . انظر هذه الخريطة ، الأطلس الحديث ، المجلد ١ ، ص ٢٧٧ ؛ كما أن من الضروري مراجعة دراستي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . الدولة الحديثة ، المجلد ١ ، ١٨٧ (وهي الدراسة السابقة في هذا الكتاب) وكذلك دراسة المسيو روزييه Rozière عن الجغرافية المقارنة والحالة القديمة لسواحل البحر الأحمر . الأطلس الحديث ، المجلد ، ص ٢٧ ، ٢٢١ .

(*) الدراسة السابقة من هذا الكتاب .

(*) التفدين هو قياس أو مسح الارتفاعات المختلفة لجزء من الأرض .

أقناه. ولقد كانت كل هذه المقاييس معتمدة بعض الشيء ؛ ولهذا السبب فقد شئت أن أتجنب لوماً قد يوجه لى بأننى أتتقى من المعطيات ما يدعم افتراضى؛ وهأنذا أقدم لكم المقاييس التى نتجت عن هذا التفدين (١) .

رقم الموقع	المسافة بين الموقع والذى يليه بالمتر	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد			الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
		لنية	بوصة	قدم		
٠	٠	٠	٠	٠	لنية بوصة قدم	يبين الموقع صفر وتد القياس الموضوع فى مستوى سطح البحر فى الخامس من بليفورلى السابع منه على مسافة ٢٢٧٠ متر شمال السويس وضعت مسطرة
١	٢٨٠	بعده ٦	٣	٤	٢ ٢ ٤	الارتفاع لقياس ما هو خلف الموقع رقم ١ فوق سطح البحر
		قبله ٢	١	٢		وتد الموقع صفر .
		الفرق ٤ ٢ ٦				

(١) كانت مسطرة القياس التى استخدمناها تنقسم لى أقسام وبوصات لائح ؛ أما السلسلة الحديدية التى كنا نقيس بها المسافات فسكانت تنقسم لى أمتار .

ولزيد من الدقة فقد نقلنا من مفسرنا عن عمالية التفدين هذه الأرقام دون أن ندخل عليها تعديلاً من أى نوع .

رقم الموقع	الموقع والذى يليه	المسافة بين	الارتفاعات كما تدينها مسطرة التسميد	الفرق بين مستوى السطح ومستوى مسطح البحر	ملاحظات
٢	٦٤٠	بالمتر	لنية بوصة قدم - بعده ٣ ١ ٣ قبله ٢ ٩ ٤ الفرق + ١١ ٣ ٠	لنية بوصة قدم ٣ ٦ ٢ شرحه	الموقع رقم ٢ هو أعلى نقطة في خط نفديتنا . وقد أقيم بين كتل الرمال التي تفصل البحر عن حوض القلزم حالياً .
٣	٨٠٠		بعده ٣ ١ ٢ قبله ٤ ١٠ ١٠ الفرق - ١١ ٨ ١	٠ ٩ ٤ شرحه	
٤	٨٠٠		بعده ٤ ٣ ١١ قبله ٣ ٠ ٣ الفرق + ٨ ٣ ١	٢ ١ ٠ شرحه	
٥	٨٠٠		بعده ٢ ٥ ٨ قبله ٣ ٧ ١٠ الفرق - ٢ ٢ ١	٠ ١٠ ١٠ شرحه	
٦	١٢٠٠		بعده ١ ٨ ٧ قبله ٣ ٤ ٤ الفرق - ٩ ٧ ١	٠ ٨ ١١ تحت سطح البحر	ابتداء من هذا الموقع تأخذ الأرض في الانحدار نحو حوض القلزم . وهذا الحوض أدنى في كل جزء منه من البحر الأحمر ، وقد وجدنا الفرق يبلغ أحياناً نحو ٥ قدماً وثلاث بوصات .

وهكذا ، فالمسافة يبلغ طولها ٨٢٠ متراً من نقطة البدء . حتى اجتيازنا لكتلة الرمال التي كونتها التراكمات الأرضية التي سبق أن تناولتها في دراستي السابقة ؛ وكانت أعلى نقطة في خط التفتدين الذي اتبعناه لاجتياز هذا السد الطبيعي تبلغ قدمين وست بوصات ولنيتين فوق المستوى المتوسط لأعلى المياه في البحر الأحمر (١) .

وحين نلقى نظرة على اللوحة الثانية (الدولة الحديثة) فسوف نجد أن نقطة بدءنا كانت تقع على بعد ٢٢٧٠ متراً إلى الشمال من السويس ، وسوف نرى كذلك أننا لو كنا بدأنا من قاع الخليج كما تحدده خطوط الممدى (٢) التي تبلغها أعلى مستويات المد ، لكننا قد وجدنا أن هذه المسافة حتى النقطة التي تنخفض عندها الأرض إلى ما تحت مستوى سطح البحر لا تبلغ سوى خمسمائة أو ستمائة متر .

وفي النهاية فإننا نستنتج من الملاحظات التي لاحظناها في السويس أن البحر يرتفع في نوبات المد غير العادية إلى قدمين وست بوصات فوق مستوى المد الذي استخدمناه قاعدة للمقارنة في تفدينا (٣) . وعلى هذا فإن السد الطبيعي الذي يحول اليوم دون أن يلقى البحر ، في أقصى نوبات مده ارتفاعاً ، بمياهه في

(١) عندما نتحدث عن مياه البحر الأحمر . فإننا نعني على الدوام المستوى الذي وصلت إليه ، في السويس ، في الخامس من يناير من العام السابع (٢٤ يناير ١٧٩٩) عند أعلى نوبات المد . وقد بلغ الفرق بين أعلى وأدنى مستوى البحر في ذلك اليوم خمسة أقدام وست بوصات .

(٢) تستخدم هذه الكلمة هنا ، كما تستخدم في كثير من المؤلفات للإشارة إلى المخلفات النباتية ، وربما كذلك الفواقر والأصداف التي يلقى بها البحر على شواطئه والتي تحد على نحو ما تراجته أو خطوطه السكتورية .

(٣) انظر دراسة الميسولوبير Iepère عن اتصال بحر الهند بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر وقلزم السويس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٢١

حوض القلزم ، قد لا يعملو فوق مستوى مياه البحر بأكثر من ثلاث لنيات ، كما
توضح لنا الأرقام التالية :

لنية	بوصة	قدم
مستوى أعلى مياه للبحر في الخامس من		
بليفوز من العام السابع	٠	٠
مستوى أعلى مد معروف للبحر في		
الخامس من بليفوز من العام السابع	٠	٦
مستوى الموقع رقم ٢ وهو أعلى موقع		
أقناه فوق التراكمت التي تحدثنا عنها ...	٣	٦
		٢

وفي الواقع فلقد تم هذا الجزء من عملية التفدين التي قننا بها ، في قاع خور
ضيق ، وكانت مساطر قياس الارتفاع مثبتة على الدوام في أكثر المناطق انخفاضاً ،
وأخيراً فقد أمكن لخط المد الذي استعنا به في تحديد خطوط أكثر نوبات المد
ارتفاعاً ، أن يزيد ذلك ببعض بوصات ، بالنظر إلى ما يحدثه اندفاع الأمواج
من تأثير ، وإلى ما للرياح كذلك من أثر في بعض الأحيان . وهكذا ، فحتى إذا
لم نتشبه ببوصاتنا الثلاث ، فإننا على الأقل نستطيع أن نؤكد أن البحر الأحمر ،
خلال نوبات المد غير العادية ، يصل على وجه التقريب إلى نفس مستوى سطح
بعض أجزاء من الأرض التي تفصله عن حوض القلزم .

ومع ذلك ، فإذا كان هذا القدر الضئيل من الارتفاع ومن الاتساع كافياً
كي يسد هذا الخور أو هذه التربة التي تتبعناها في هذا الجزء من عملية التفدين
التي قننا بها ، ولكي يحول بين البحر وبين الامتداد إلى ما وراء حدوده الحالية ،
فلهذا نمنع أنفسنا إذن من أن نصدق أن سداً طبيعياً مشابهاً ، يقع عند الطرف

الشمالى من حوض القلزم يمكن أن تكون له نفس النتيجة عندما كان البحر فيما مضى يملأ كل حوضه ؟ وإذا كان هناك بعض من عبروا عن شكوكهم فى ذلك، فإن كل المهندسين وكل أعضاء شعبة العلوم والفنون المصرية ، الذين شاهدوا حوض القلزم^(١) ووادى السبع أبيار قد شاطرونى هذا الرأى . أقول إنه كان يوجد إلى شمال حوض القلزم سد طبيعى بمائل للسد الذى يفصله حالياً عن الخايج العربى ، ونجد البرهان على ذلك فى الموقع رقم ١٦٠ الذى يعلو بمقدار قدم واحد وتسع بوصات وأربع لنيات فوق مستوى أهلى مياه البحر الأحمر وفيما بين هذين الموقعين كان يوجد المستوى الذى نشير إليه ، وعند نقطة أكثر ارتفاعاً من تلك التى سجلناها الارتفاعات^(٢) ذلك أن مسطرة القياس قد سجلت بعده تسعة أقدام وأربع بوصات وسبع لنيات ، أما مسطرة الارتفاع التى وضعت قبله فقد سجلت خمسة أقدام وثمانى لنيات . ومن جهة أخرى حتى إذا ما افترضنا - وهو مع ذلك أمر مستحيل - أن أداتنا كانت تسجل ارتفاعاً

(١) أعضاء الشعبة الذين عبروا وادى السبع أبيار وحوض القلزم هم السادة : لوبير ، ديفلييه ، شابرول ، سان جينى ، فافيه ، جراتيان لوبير ، دى شانوى ، فيفر ، وأنا ؛ وقد صرّح آخرون فيما بين حوض القلزم والسويس ، لكنهم لم يعبروا هذه المنطقة ، بل لم يلمحوها ولو من بعيد .

(٢) لم نشر فى وصف مصر إلا بعض معطيات هذا النفدين ، ولمسله ، كان من المفيد أن نعرف بهذه المعطيات كلها ، مع تفاصيل ارتفاعات المواقع عند كل تغير فى الارتفاع . ولو فعلنا ، لكأننا لدينا ، ليس فقط معطيات كل المواقع ، وإنما كذلك ، وعلى وجه الدقة ، ارتفاع النقاط الوسيطة بين المواقع المتناوبة ، مع مقارنة الارتفاع الآتى للسطح بالارتفاع السابق عليه واللاحق له . ولمسله كان من المثير للاهتمام كذلك أن نشر بتفصيل أكبر ، يوميات النفدين بعد أن يراجعها كل المهندسين الذين ساهموا فى عملية النفدين هذه .

وقد شاء المسير لوبير أن يفضل فيسمح لى أن أستخلص من هذه العملية المعطيات التى أقدمها هنا ، وقد راجعتها على مسودة الخريطة المرسومة للقاهرة ، وكذلك على أصول المذكرات التى كان يدونها المهندسون خلال عملية النفدين .

— ١١٠ —

رقم الموقع	الارتفاع بين السطحين بالمتر	الارتفاعات كما تبينها مسطرة التسديد	الفرق بين مستوى السطح أو مستوى سطح البحر	ملاحظات
		ل ب ق	ل ب ق	
١٥٠	٨٧٠	بعدہ قبلہ الفرق +	٧ ٦ ٠ ١ ٣ ١١ ٥ ٢ ١	١١, ٧ فوق مستوى البحر
١٥١	١٢٠	بعدہ قبلہ الفرق -	١٠ ٨ ٠ ٤ ٦ ٩ ٨ ٩ ٦	١١ ٩ ٧ تحت مستوى البحر
١٥٢	٥٨٠	بعدہ قبلہ الفرق +	٢ ٣ ٧ ٣ ٢ ٦ ١ ٠ ١١	٠ ٩ ٦ تحت مستوى البحر
١٥٣	٣٢٠	بعدہ قبلہ الفرق +	٤ ١ ٩ ١٠ ٠ ٣ ٦ ٠ ٦	٦ ٨ ٠ تحت مستوى البحر
١٥٤	٧١٠	بعدہ قبلہ الفرق -	١ ٤ ٠ ٣ ٤ ٥ ٢ ٠ ٥	٨ ٨ ٠ تحت مستوى البحر
١٥٥	٤٤٠	بعدہ قبلہ الفرق -	٥ ٠ ٥ ٢ ٤ ٦ ٩ ٤ ١	٥ ٠ ٧ تحت مستوى البحر
١٥٦	٧٢٠	بعدہ قبلہ الفرق +	١ ٨ ٧ ٠ ١١ ٦ ١ ٩ ٠	٤ ٣ ٦ تحت مستوى البحر

وجسداً فيما بين الموقعين
١٥٣، ١٥٢ حواف حوض
القازم التي يمتد لنا من
جديد مدى مشابهاً لمدى
البحر الأحمر . ولها نفس
المستوى الذى لمدى الآخر.

يبعد هذا الموقع عن السويس
بـ ١١٢ و ٧٧ متراً .

رقم الموقع	الارتفاع بين البحر والسابق عليه	الارتفاعات كما تبينها مخططة التأسيس	الفرق بين مستوى السطح ومستوى سطح البحر	ملاحظات
بالمتر	ل ب ق	ل ب ق	ل ب ق	
١٥٧	٤٠٠	بعده قبله الفرق +	٤ ٥ ٨ ٤ ١ ٤ ٤ ٤ ٠	يوجد هذا الموقع أسفل أكدة تكس فوة بها أنقاض تمود إلى عصور قديمة أشرفنا لها في الحرة على يد سرياء يوم
١٥٨	٦٦٠	بعده قبله الفرق -	٤ ١ ٨ ٥ ٨ ٤ ١ ٦ ٨	وجدنا أن الأرض فيها بين الموقعين ١٥٩ ، ٦٦٠ تعلو بقدر قدمين وعشرين بوصة عن خط ثوبات المد العالية بالبحر الأحمر .
١٥٩	٢٠٠	بعده قبله الفرق +	٨ ٢ ٦ ٣ ٣ ٥ ٥ ١١ ٠	وجدنا أن الأرض فيها بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ تعلو بقدر قدمين وعشرين بوصة عن خط ثوبات المد العالية بالبحر الأحمر .
١٦٠	٦٠٠	بعده قبله الفرق +	٧ ٤ ٩ ٨ ٠ ٥ ٤ ٣ ١١	وجدنا أن الأرض بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ تعلو عن البحر بأقل من ٧ قدم و ١٠ لترات .
١٦١	٥٤٠	بعده قبله الفرق -	٦ ٣ ٩ ٢ ٢ ١٣ ٨ ١٠ ٣	وجدنا أن الأرض بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ تعلو عن البحر بأقل من ٧ قدم و ١٠ لترات .

ونستخلص من الجدول السابق أن هناك سداداً طبعية تعلو عن مستوى البحر الأحمر
تفصل حوض القازم عند الشمال بالقرب من سرياء يوم .

رأسياً يبلغ كل طولها ، أى أربعة أقدام^(١) ، لكانت النقطة التى وضعت فيها قد بلغت قدمين وعشر بوصات فوق مستوى عرض البحر الأحمر ، وأخيراً فقد كانت مساطر الارتفاع ، فيما بين الموقعين ١٦٠ ، ١٦١ ، اللذين يبعد كل منهما عن الآخر بـ ٥٠ متر ، تسجل ٩ أقدام و ٣ بوصات و ٦ لنيات ، ثم ١٣ قدماً وبوصتين ، مما يعطى للنقطة الوسيطة التى توجد بها الأداة ارتفاعاً يبلغ على الأقل سبعة أقدام وعشر بوصات فوق سطح البحر ، وكنا عندئذ بجوار سرايوم وأنقاضها أكثر من ذلك ارتفاعاً ، وتصل الربوة التى توجد فوقها سرايوم بسلسلة من الروابي والتلال ، تقفل حوض القلزم عند الشمال .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه مما يلفت النظر ذلك الاتجاه الذى اتخذته مياه الفيضان الكبير فى العام التاسع (١٨٠١) ، فلقد اندفعت المياه بغزارة إلى وادى السبع أبيار كما ارتفعت عند خرائب الموكل^(*) إلى أربعة أقدام وسبت بوصات وثلاث لنيات ، فى الثلاثين من برومير فوق النقطة الأدنى من مجرى التربة^(٢)

(١) كانت الحفر التى ثبتت فيها طرف أداتنا ثابتة بحيث تجعل خط ارتفاع المنظار ٣ فى ٦ بوصات فوق مستوى الأرض ، لكننا نفترض هنا أن الأرض صلبة لا يمكن لقم الحديد المدببة والموجودة فى أطراف أقسام المنظار وهى قم يبلغ طولها البوصتين وسبع لنيات أن تغوص فيها . وعلى هذا فلا بد أن تكون أداتنا فى الأرض الرملية أكثر انخفاضاً بثلاث أو أربع بوصات على الأقل ، ويبلغ ارتفاع الأداة وأرجلها معاً أربعة أقدام ، بدءاً من المنظار حتى أدنى الطرف الحديدى المدبب . وقد أخذنا الحد الأقصى للارتفاع حتى نفوت الفرصة على من يشاء أن يتهمنا بأننا نختار المعطيات التى تتفق مع رأينا .

(*) lo Mouqfar ، ووردت فى القاموس الجغرافى لوصف مصر باسم خرائب الموكل ، وهى نفسها المكفر ، وتقع على مسافة قريبة إلى الجنوب من طريق الاسماعيلية — القاهرة وكان يطلق عليها رسمياً عند حفر قناة السويس . (المترجم)

(٢) يبلغ ارتفاع أعلى جزء من صغيرة الموكل بدءاً من أدنى نقطة من التربة ثمانية أقدام وأربع بوصات . ونحن رأينا المسيو ديفلية أثناء فيضان العام التاسع وجدها تبلغ متراً واحداً و ٢٤ سم أى ثلاثة أقدام وتسع بوصات وتسع لنيات فوق سطح الماء . ويعطى هذا النقص الذى يبلغ ثمانية أقدام و ٤ بوصات ، عمقاً للمياه يصل إلى أربعة أقدام وست بوصات وثلاث لنيات . ويحول المسيو لوبير فى صفحتى ٤٤ ، ٤٥ من هذا العمق ، فى الواقع ، يبلغ نحو أربعة أقدام ، كما أن التربة يمكن اجتيازها . وسنجد فى نهاية هذه الدراسة مستخدماً من يوميات المسيو ديفلية .

والتي يبلغ عمقها في هذه المنطقة خمسة عشر قدما وعشر بوصات ولتيتين تحت مستوى سطح البحر الأحمر بـ ١١ قدما وثلاث بوصات و ١١ لنية ، وأدنى كذلك ، ولأسباب واضحة من الأراضي التي ترتفع عن سطح هذا البحر والتي تحف بحوض القلزم من جهة الشمال .

لم تكن المياه لترتفع في الموكل لأكثر من ذلك ، بل ثمة اعتبارات كثيرة تحملني على الاعتقاد بأنها لم تحتفظ بهذا الحد من الارتفاع الا لوقت بالغ الضآلة ؛ فمن الثابت أن قوافلنا وداوريانا وقواننا ، وكذلك قوافل الأهالي ، كانت تعبر من هناك دون مشقة خلال مدة الفيضان بأسرها ، فلقد كانت تلك هي نقطة الاتصال الوحيدة بين بليس والصلحية ، إذ تغطي الطريق الذي يربط بينهما مباشرة مياه بالغة الارتفاع لحد لا يمكن معه اجتيازه ؛ ولسوف نلاحظ بعد ذلك أن المياه — بعد أن كانت تتقدم بشكل بالغ البطء في فندمير من العام التاسع ، في وادي السبع أبيار^(١) — لم تعد تبتدى على الإطلاق ، في الثلاثين من برومير — أى تحرك ملموس بين رأس الوادي وأبو كيشيد^(*) ، في نفس الوقت الذي تنطلق فيه ، فيما وراء الموكل ، وبالقرب منها ، بشكل بالغ الاندفاع^(٢) وتوضح لنا السجلات التي تفوه بها المسيو لوبيير Le Père بهذا

(١) قصد بهذه التسمية كل الوادي الذي ينفتح بالقرب من العباسة ثم ينسبط من الشرق إلى الغرب حتى ما وراء آبار السبع أبيار .
(*) أو أبو خشب هي قل المسخوطة حالياً ، وتقع على بعد ٦٠٠ م إلى غرب أبو صوير على حافة ترعة الاسماعيلية إلى الجنوب ، ويتطابق موقعها مع بلدتي هيروبوليس وبثيوم القديمتين . (المترجم)

(٢) يوميات المسيو ديفليه ، ودراسة المسيو لوبيير ، ص ٤٠ ، ٤٥ . وقد أخطأ المسيو لوبيير فقط في تحديده للتواريخ ، فلم يكن الأول من برومير من العام التاسع مطلقاً هو اليوم الذي رحل فيه السادة لوبيير وشابروول وديفليه من القاهرة . ولأنما تم ذلك في السابع والعشرين من فريير . وفي الواقع ، فأننا نجد في ص ١٦٤ المسيو لوبيير يخبرنا بأنه وجد نفسه بالقرب من الشيخ هنادي في الأول من فريير ، وهذا صحيح ، لكن ذلك يحول دون أن يصبح في المكان عودته إلى القاهرة في الحادي عشر من برومير كما يذكر هو =

الخصوص أن هذا الاندفاع قد بدا له أكبر بكثير من اندفاع مياه النيل في فرع من فروعه الطبيعية . ويقدر المسيو ديفيليه هذه السرعة في الاندفاع بأربعة أقدام في الثانية مما يبرهن على أنها تصل إلى أراض أكثر انخفاضاً بكثير ، كي تنتشر فوقها . ومع ذلك فأين كانت تصب هذه المياه ؟ أكان ذلك في حوض القلزم كما ظن ذلك البعض ؟ كلا ، ولقد تأكد من ذلك السادة شاربول ولويير وديفيليه عندما اجتازوا هذا الحوض متوجهين إلى السويس ؛ إذن فلا بد أن المياه كانت تلتقي إلى رأس المية كما أكد شيوخ العرب إلى المسيو ديفيليه حين هاد في العام التاسع إلى وادي الطميلات^(١) ، وفضلاً عن ذلك ، فمن الضروري أن تجعلنا نتائج التفدين ، وشكل الأرض نحس ذلك ، إذ أن الالسنه المسماة كراش ، إلى الشمال من سرايوم والشيخ هنادى تتلقى مياه النيل أثناء الفيضانات غير العادية . وقد أقر ذلك بشكل موضوعي ، الجنرال ريلنيه Reynier^(٢) ، وهو الذى تولى القيادة ، لفترة طويلة ، في هذه المنطقة من أرض مصر ، وبذلك فقد كان في متناوله أن يستعلم من السكان على الدوام ، ويبدو أنه لم يعلم منهم مطلقاً أن مياه النيل تلتقي إلى حوض القلزم ؛ بل لأننا في وضع يسمح لنا بأن نؤكد أن ذلك لم يحدث في أية فترة على الإطلاق حتى لو افترضنا ضاربة في القدم ، فلو كان ذلك قد حدث ذات يوم لكنا قد عثرنا عن آثار لطمي النيل

في ص ٤٨ ؛ تلك ولا بد هي غلطة الناسخ ، وقد خولنى — هو — بأن أذكر أن من الضروري أن نقرأ الشهر على أنه فريير في هذا الجزء من دراسته بدلا من برومير ؛ وكذلك فإن لدى المسيو ديفيليه الرسالة الأصلية من المسيو لويير ، وهي مؤرخة في ٢٤ برومير ، ويطلب إليه فيها هذا المهندس الرئيس أن يستعمل لارجيل منه ومع المسيو شاربول لا تعرف على مسيرة المياه في الوادى ؛ ومن المهم تصويب هذا الخطأ ، وهو من النوع الذى يسهل الوقوع فيه .

(١) كان المسيو ديفيليه خلال هذه الفترة مكلفاً — وبمعه المسيو فيار Viard — باكتشاف ترع النيل ابتداء من القاهرة حتى وادى السيم أبيار . انظر (في نهاية هذه الدراسة) المعلومات التى جمعوها (حول هذا الموضوع) .

(٢) مصر بعد معركة هليوبوليس ، تأليف الجنرال ريلنيه .

على النحر الذى نجده فى كل المناطق التى توغلت إليها مياه النهر ؛ ولقد قُنِىا
بتنقيبات عديدة فى حوض القلزم دون أن نعرثر على أقل شقفة من طمى ، فى
حين وجدنا هذا الطمى ، وفى شكل طبقات أفقية ، فى وادى السبع أيار .

ولسوف يكون خطأً بيناً أن يعارض أحد شهادتنا هذه بفقرة وردت فى
دراسة المسيو لوبيير ، قال فيها أن مياه النيل كانت تصل إلى الشيخ هنادى (١) ،
إذا كان هذا المهندس الرئيس يعنى سفح الربوة التى أقيم فوقها هذا الضريح ،
كما أنه لم يكن ليكلف نفسه عناء الإشارة إلى ذلك إلا لأن خريطته توضح ذلك
الامر بشكل كاف . أما المسيو ديفيليه Devilliers ، الذى كان يرافق المسيو
لوبيير ، فقد تناول هذا الامر ، فى يومياته عن الرحلة ، بشكل بالغ التحديد ؛
وهذا هو نص كلماته : « تمتد المياه حتى سفح الربوة التى أقيم فوقها ضريح الشيخ
هنادى ، وحول جزء من الهضبة المجاورة يمكن الوصول إليه عن طريق لسان
من الأرض . وهذه الهضبة التى تسمى جبل كراش والتى تستمد اسمها من السنة
تجاورها تسمى بهذا الاسم ، تشكل أثناء فياضانات النيل غير العادية بحيرة

(١) يقدر المسيو لوبيير ، ص ١٦٤ ، معطى نفدين مكان يسمى كما قال هنادى الشيخ
١٥١٠ قداماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات ، الامر الذى يبدو وكأنه يضع هذا المكان تحت
مستوى سطح البحر الأحمر بقدم واحد و ١١ بوصة و ١٠ لنيات . ومع ذلك فلا بد لنا أن
نثق بأن ليس هذا مطلقاً هو المعطى الصحيح لضريح الشيخ هنادى لأن هذه المنطقة لم تسكن
مطلقاً واحدة من محاطنا لاذ تركه إلى الشمال خط تفديننا . وهكذا نرى أن المسيو لوبيير قد
توسع فى إطلاق اسم الشيخ هنادى لى أراض مجاورة له . وتوضح لنا الخريطة فضلاً عن ذلك
أن المخطط رقم ١٦٤ الذى يتفق معطاه مع المخطط ١٥١٠ قداماً و ١١ بوصة و ١٠ لنيات يقع
على بعد نحو ٣٠٠ متر من الشيخ هنادى . وأخيراً ، فعندما يضيف المسيو لوبيير بأن هذا
الجزء من الصحراء كانت تغمره مياه فيضان النيل فى سنة ١٨٠٠ ، فلا بد أنه لم يكن يقصد
بذلك حتى أنها كانت تصل إلى المخطط رقم ١٦٤ ، لاذ كان ينبغي ، ليم ذلك ، أن تغمر مياه
النيل بـ ١٣ قداماً و ١٠ بوصات و ٤ لنيات فى الموكل ، فى حين كان أقصى ارتفاع وصلت
إليه هو ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ لنيات . وقد وافق المسيو لوبيير على هذا الإيضاح حين
هرعت بإبلاغ نتيجة بحثي إليه .

تُشير إليها الخرائط باسم بحيرة التماسح^(١). ويعلو جبل كراش بنحو ٤٠ إلى ٥٠ قدماً عن الأراضي الطينية التي تحف بالجزء الشمالى منه : إلى هذه المستنقعات كانت تصل المياه ، ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد من المهندسين الذين شاهدوها أن هذه المياه يمكن لها أن تعلو لتبلغ قمة الهضبة التي تقفل شمال حوض القلزم وتحكم فيه .

وقد سبق لنا القول بأن عمق مياه النيل ، في الثلاثين من برومير من العام التاسع ، لم يبلغ سوى ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ لنيات في أدنى مناطق التربة بالقرب من الموكل - وهي التي ظلت هلى الدوام يسيرة العبور - كما رأينا أنه قد يستوجب لعبور حوض القلزم أن تعلو المياه لأكثر من اثنين وعشرين قدماً في نفس هذه المناطق ، أو بشكل أكثر تحديداً لأكثر من ٢٢ قدماً و ١١ بوصة، منها ١٢ قدماً و ١٠ بوصات ولانيتين لكي تصل إلى مستوى سطح البحر الأحمر، وفهنا هن ذلك فلقد كف النيل عن الزيادة منذ الثانى عشر من فندمير، وتنبىء سرعة المياه فى الموكل أنها قد وجدت أراضى أكثر انخفاضاً كي تنتشر فوقها؛ وقد عرف السادة شاربول وديفلييه ولو بر أن المياه لا تصل مطلقاً بالرغم من ذلك - إلى حوض القلزم . ومنذ ذلك الحين لم يتمكن أى مهندس ولا أى عضو آخر فى شعبة العلوم والفنون ، بسبب أحداث الحرب ، من العودة إلى هذه المنطقة من الصحراء ؛ اللهم إلا فى نهاية نيفوز ، عندما توجه المسيو ديفلييه بعد ذلك بشهر إلى وادى السبع أيدار ، ووصل إلى ما وراء العباسة بقايل ، وسأل هناك العديد من مشايخ العربان وعدداً من الأهالى ، واتفق هؤلاء جميعاً على القول بأن المياه لم تتجاوز مطلقاً الشيخ هنادى ، وأنها تصل إلى رأس الميسه أو البلاح بما يعنى أنها تصب فى بحيرة المنزلة .

وقد عرفت فى دراستى الموجزة عن الحدود القديمة للبحر الأحمر بالشكل

(١) يقول المسيو لوبيير فى ص ٥٨ أن هذه البحيرة تسمى ذاب التماسح .

الداخلى لحوض القلزم ؛ وقد أضيف بأن الملح البحرى (موريات الصودا أو هيدروكلوريد الصودا) توجد بهذا الملح بوفرة شديدة عما توجد عليه مع أى ملح آخر ؛ ويجعل العرب من هذا الملح موضوعاً لتجارة هامة بعض الشيء مع مصر وسوريا . وبشكل أساسى ، تتكون السكتل التى تشكل أرضاً رنانة وكثيرة الكهوف ، من هذا الملح ، وإن كان يغطيه فى بعض الأماكن قليل من الرمال .

وتوجد هذه الطبقة الملحية ، هناك وهناك ، مفتتة . مما يجعل المسيو لوبير يشبهها بأكداس من قطع مكسورة من التلوج يصنعها فيض نهر فوق شط قاحل ورملى^(١) (فى مناطق باردة) ولذى أدم هذا التشبيه أقول أيضاً أن هذه الهضبة الملحية كانت تشكل فى مجملها ما نراه فى معاملنا عندما نركز محلول ملحى ، حبيس فى كبسولة ، لدرجة تتكون معها على سطحه قشرة ، ثم تمور هذه القشرة وتتكسر بفعل بخار يتولد عن السائل الموجود فى أسفلها . ولم ز شيئاً مشابهاً لذلك فى مناطق أخرى من القلزم . ولا يمكن لفئات هيدروكلوريد الصودا التى يحمدها المرء فى أماكن أخرى ، أن تقارن مطلقاً بكثرتها الضخمة ، الموجودة هنا .

أما عن الجبس الذى شاهدناه فى حوض القلزم ، فإنه يختلط فى معظم

(١) يذكر المسيو لوبير فى ص ١٦٣ ، أن المرء يظن هذه السكتل الملحية من نوع جبسى . ونرى أنه هنا لا يعبر عن رأى شخصى له ، ذلك أن الرأى الذى يكتفى بإيراده إنما يصدر عن شخص لم يزُر المناطق التى يتحدث عنها أو أنه لم يلاحظها بالناية الواجبة ، نظراً لطبيعة الأرض . وقد كان المسيو لوبير قد ألحق بعملية التفدين لأننى كنت بالغ الاهتمام بعملية التفدين هذه أكثر من أى واحد من زملائى . ويذكر المسيو ديفلييه ، الذى كان متعمقاً هو الآخر فى هذا الفرع من التاريخ الطبيعى — يذكر فى يومياته ما يتفق مع ما قلناه من أن موريات الصودا توجد بكميات كبيرة فى كل الأماكن التى يحدث الملح فيها شروخاً أو صدوعاً وأنه — هو — لم يستطع — وسط هذه الشروخ — أن يتوصل عن طريق مقياس (مجس) طوله متر إلى عمق هذه الشروخ (بمعنى أنها أكثر من ذلك عمداً) ، أما التوضيحات التى بيدها فى يوميات التفدين فإنها لم تصلنى مطلقاً .

الاحيان بأملأح أخرى . وقد تكون أخوار مياه الأمطار ، على الرغم من ندرتها في هذه المناطق ، كافية - مع ذلك - كي تذيب مع الزمن أكثر الأجزاء قابلية للذوبان من غيرها ، وأن تحفر خطوطاً في الأرض في بعض الأماكن بحيث تكون كتلاً منعزلة ، تبدو - من مسافة بعيدة - في هيئة جذوع شجر مقطوعة ، تعلو فوق سطح الأرض بقدمين أو ثلاثة أقدام ؛ وفي بعض الأحيان تبدو سلفات الجير متكسبة على شكل إبر لامعة وبذلك تشكل طبقات شديدة الكثافة .

ويرى البعض في وجود سلفات الجير هنا دليلاً على أن البحر لم يغمر من قبل مطلقاً حوض القلزم . ومع ذلك ، فلو أمكن أن ينحسر البحر تجاه القصير ، لكشف عن أرض جبسية ، كما أن هناك الكثير من التلال ، تقع على شاطئ البحر قريباً من هذه المدينة ، وتتكون من هذه المادة (الجبس) ، كذلك فإن كل المياه الجوفية التي تصب في البحر ، تحتوى على جزء كبير من محلول هذه المادة .

ومن جانب آخر ، فإن الأصداف التي ألمحها في قاع الحوض ليست أصداًفاً نهرية ، كما أنها ليست متحجرة شأنها شأن القواقع التي يلتقاها المرء متراكمة في شكل كتل في وادى النيه^(١) ، ذلك أن أصداف أو قواقع حوض القلزم ليست

(١) كثيراً ما عبر زملاؤنا وادى النيه ، وقد حدد الم. يو ديفليه الخطوط السكتورية لهذا الوادى ، وقد دون عمله هذا على الخريطة الكبرى لمصر . وعندما عبرته في شهر نوفمبر من العام السابق (١٧٩٩) لم يكن قد سبق لفرانسى قبل أن اجتازه ، ولمن كنت لم أتبع الوادى في حد ذاته ، ولما شعبتاً من شواطئه ، ذلك أن دلبلى هنادى لم يمس قيادى . وقد وصف السيدان جيران ولوبير وادى القيه ، لكننى أذكر هنا ما لاحظته في الوادى المجاور له .

ينفصل هذا الوادى عن وادى القيه على بعد عدة فراسخ من البساتين ، وهي قرية تقع عند مدخل الوادى ، وعلى مسيرة فرسخ واحد إلى الجنوب من القاهرة . ولأننى لأفترض هنا أن دلبانا العربى ، حين قادنا قبل الشعب الأيسر - كان يهدف إلى تجنب آبار الجندلى ، وإلى =

متناسكة فيما بينها كما أنها ليست ملتصقة بالأرض ، وهى تشبه تلك التى يقذف بها

== أن يخفى عنا كل مصادر المياه التى يمكن لهذه المنطقة أن تهبطها لقبيلته لذا ما حدثت قطيعة
بينها وبين الفرنسيين .

وأول الجبال التى يلقاها المرء هى جبال جيرية ، وتشكل هذه فى بعض الأحيان كتلاً
تتكون كلية من أصداف متراكمة فوق بعضها البعض . ويمجد المرء فى قاع هذا الوادى كثيراً
من لواقح متججرة قد انفصلت عن هذه الصخرة .

أما الأرض التى يسير الناس فوقها فتأهتة للجد السكاني ، بل لأن المرء ليلمح فى أماكن
عديدة صخرة جيرية عارية ، ولأن كان يغطيها قليل من الرمال الصوانية ؛ وبعد ذلك يأخذ
الوادى فى الضيق . أما الجبال الواقعة إلى شمال الوادى فهى من الحجر الجيرى ، أصفر اللون
وبالغ النعومة ، ويتشكل من طبقات أفقية ، كما نجد بها كذلك طبقات أفقية من سلفات
الجير المتكلس . وبعد ذلك بمسافة كبيرة ، يلحج المرء إلى الجبلين سلسلة من تلال عالية بعض
الغىء ، وتتميز عن السلسلة الجيرية بأشكالها ، وبألوانها السوداء ، وتتمكون هذه التلال
من يشب يشار إليه باسم الزلط المصرى . وهذه الزلطات شديدة التقارب ، وتصل ببعضها
البعض بأسممت صوانى أبيض اللون عند مكسره ومشرب بحمرة طافية ، مما يدل على فعل
ضئيل للنار ، كما يفسر اللون الأسود الموجود خارجه . وهذه الصخور بالغة الجمال بسبب
شدة صلابتها وتنوع ألوانها ، وبسبب الرسوم القريبة التى توجد داخل الزلط المصرى .
ولم يعترف أحد قبلى على وجود هذه الصخرة التى لا يمكن اعتبارها — كما أظن — لاركتالة
(أى صخرة من الحصى المتناسك كأنه مرسوف باللياط) ولا ركماً مسنناً ، ويقابل المرء
فى الوادى الكثير من الزلط المصرى وقد انفصل عن صخوره ، وأستنتج من ذلك أن
الزلطات التى نهدمها فى أماكن أخرى قد تلتصق إلى صخرة مماثلة فى سبيلها لأن تنفتت .
قضينا الليل فى هذا المكان ، وسقط المطر فوقنا طيلة الليل ، كما قاسينا من البرد .

وفى اليوم التالى عاودنا السير فى ساعة مبكرة ، وتتابعت لبعض الوقت ، عن عيئنا تلال
الزلط المصرى ، ورأينا فى المناطق الأكثر انخفاضاً فى الوادى عدداً كبيراً من الشجيرات ،
ومع ذلك فلا ينبغى أن يظن أحد أننا بصدد غابات كثافات أوربا حيث تجد الظلال ، وحيث
تسكفى بضع خطوات (فى داخلها) كى يخفى المرء عن الأنظار ، فأكثر المناطق شجراً
فى وديان مصر الصحراوية لا توفر مطلقاً أية حماية من الشمس ، ومن خلال سيقان
الأشجار الهشة والمتباعدة ، يستطيع المرء الرؤية لمدى بعيد ، كما لو كان فى سهل عار
من أية خضرة .

حاذيتنا الجبال التى تحف بالوادى من جهة اليسار ، وهى شديدة الانخفاض ، وكانت
تتمثل لنا هى الأخرى فى طبقات أفقية من كربونات الجير ، ولورات من الجبس .

وعند الظهيرة ، صار الجنود الماطليون الذين يشكون قافلتنا ، متعبين من السير منهمكين
من العطش لحد اضطرتنا معهم لأن نعلمهم يركبون — واحداً بعد الآخر — فوق الجبال .

البحر على شواطئه ، ويمكننى أن أضيف إلى شهادتى مقاله نيبور Niebuhr ؛

== التى كانت تحمل أمتعتنا . وكانت هذه الحيوانات تحمل فى اليوم الأول كمية من المياه ، وكنا قدروا أنها ضرورة لرحلتنا ، مع افتراض أننا سنحصل على مياه جديدة من بئر الجندلى ، الذى لم نمر به على الإطلاق ، ولم تكن المياه ميسورة لنا مطلقاً ، ثم جاء حادث طارئ ليفقدنا بعض ما كان معنا من مياه .

لزمنا المركز الأخير فى الصف مع قائد الفصيلة ، السكى أرغم الجنود على السير ، وفى كل لحظة كان يرتدى البعض منهم على الأرض ، رافضين الذهاب لأبعد من ذلك ، وكنا نوقمهم ، ونسندهم ، بل كنا اضطر أحياناً لضرب بعضهم السكى فنقلهم من موت عتق ، ولما لهلك الجميع من العطش ، كما حدث بعد ذلك لفصيلة اضطرت لترك أربعة عشر رجلاً كانوا مرهقين لم يستطعوا معه المضى فى السير لأبعد من ذلك . وعندما عادت بعد ذلك بنحو ثلاث أو أربع ساعات للبحث عنهم ، ومعها الماء الذى عثرت عليه بالقرب من هناك ، كان أوان ذلك قد فات ، فقد مات الرجال الأربعة عشر . وقد كنت أسعد من ذلك خطأ لى أئنى لم أفقد سوى جندي واحد بسبب العطش . أما الجنود الآخرون ، الذين لم يستطعوا التسرف علينا بعد ذلك ، وكانوا (أثناء رحلتنا) يشعرون بالشجر الشديد من الوسائل التى استخدمناها لفسهم على مواصلة طريقهم ، فقد ظلوا ينظرون إلينا باعتبارنا مفقذين لهم . ولحسن الحظ أيضاً فإننا لم نقابل أى جانب عربى معاد ، ولما كنا بقادريين على إبداء مقاومة كبيرة ضدهم ، فلك أن الجميع كانوا قد علقوا بنادقهم فوق جباههم ، فيما عدا الضابط الذى أشرت لايه ، وجنديين أو ثلاثة جنود ، وأنا .

لم أعان كثيراً من العطش ، لكننى عانيت كثيراً من الخوف لأن أضر أن أترك فى الصحراء بعضاً من رجال حرسى ، وكانت الرعاية التى أبذلها فى سبيلهم تحول بئى وبين مواصلة ملاحظائى عن الودى ، كما قدر علينا الخوف أن نكون أبعد عن السويس عما كنا نقدر ، فلقد اضطررنا أن نسير جزءاً من الليل ، وكنا نكتمى بين وقت وآخر ببعض وفقات نلتقط خلالها الأنفاس .

وفى النهاية ، وجدنا أنفسنا عند انبلاج النهار ، عند مدخل الوادى ، فتبعنا الحجرى الجاف للخور إلى مسافة قريبة من قصر هجروث أو المعجود . ويضم هذا القصر بئراً ذات مياه ملحية الطعم ، الحاجة وحدها هى التى تجعلها قابلة للشرب . وتنزع مياه البئر بواسطة عجلات ذات قواديس (ساقية) ، وخارج أسوار القصر توجد خزانات مياه واسعة ، ومبنية . تملأ مقدماً عندما يحين وقت مرور المحمل الكبير (قافلة الحج) التى تسافر كل عام إلى مكة . ويظل البئر الذى يقع غير بعيد من هناك جافاً لأطول مدة من العام . وتصب مياهه خلال موسم الأمطار (حوالى فريمبرج ونيفوز) فى البحر ، بالقرب من السويس بعد أن تملأ حوضاً يسمى مية الجسر أو المستنقع الأفريقى ، ويستخدم هذا المستنقع فى سد احتياجات السكان .

وقد وصلنا إلى السويس ، فى نهاية الأمر ، أثناء النهار .

فقد رأى هذا الرحالة بالقرب من السويس كتلة من القواقع الحية فوق صخرة لا تغطيها من مياه سوى مياه المسد ؛ كما شاهد - هو - قواقع مائلة ، لكنها فارغة ، في مكان آخر لا يصل إليه البحر . ومع ذلك فرأى هذا الرحالة لا يتطابق تماماً مع رأيي ، لقد أدرك على نحو طيب أن البحر الأحمر قد انسحب نحو الجنوب ، لكنه نسب الأمر إلى انخفاض مياهه ، في حين أن أجزاء رملية ضئيلة هي التي انتزعت من البحر مناطق أدنى من ملسوب مستواه ؛ ومع ذلك فإن الخطأ الذي وقع فيه نيبور من السهل ارتكابه ، حيث لم يكن بمقدور هذا الرحالة القيام بأي تفدين . وإن كانت القواقع التي يعتمد عليها تأتي لتدعم ملاحظاتي الخاصة .

تحدثت في مكان آخر عن هذا الخط المسكون من أصداف وبقايا نباتات بحرية يلاحظها المرء بنفس ارتفاع المياه بالنسبة للأراضي التي تسيطر بحوض القلزم . وإليك الآن كيف هب المسيو لوبيير عن ذلك (في دراسته) في صفحتي ١٦٣ ، ١٦٤ : « نلاحظ على سطح الصحراء آثاراً لشواطئ بحيرة ، وهذه محسوسة بنفس القدر الذي نلمس فيه خطوط المدى العادية هند شواطئ البحر ، والتي نتعرف عليها بأكوام الأصداف والقواقع ، وبالخصى والحصباء والزلط الملفوف . وفي واقع الأمر فلا بد أن حوض البحيرات المرة ، يشكل ذراعاً كان للبحر في هذا الجزء من القلزم ، كما ينبغي أن نلاحظ أن عملية التفدين تدل بالقدر الكافي على طبيعة مستواه ، حيث تقدم لنا معطيات المحيطين اللذين تقع بينهما خطوط المدى هذه ١٥٠ قدماً ، وهو نفس المعطى الذي يقدمه مستوى سطح البحر الأحمر . »

وفي الحقيقة فقد ادعى البعض أن خطوط المدى هذه قد أمكنها أن تلتصق بفعل المياه الحلوة التي يمكن أن يكون النيل قد صبها في حوض القلزم . لكن ذلك لا بد له أن يعني أننا ننسى أن هذه الخطوط لها نفس مستوى نوبات المد العالية التي للبحر ؛ أو أنه قد يعني - إن كنا نذكر - أن تقرباً من مياه النيل يمكنها

أن تهبط في وادى السبع أيمار، وأن ترتفع منه إلى ما فوق مستوى البحر الأحمر؛ وهذه نتيجة مستحيلة بالنظر إلى شكل الأرض، وانحدارها، وكذلك انحدار فروع النيل؛ أما إذا قلنا أن مياه النيل قد أمكنها أن ترتفع في حوض القارم، إلى نفس مستوى سطح البحر دون أن يتبع ذلك بالضرورة أن تصل إلى نفس هذا المستوى في كل امتداد ترعة الملوك، فلا بد أننا نرتكب بذلك خطأ بالغ الشذوذ، وبدرجة لا أجد لدى معها القدرة على وصفه.

ولنا أن نتساءل الآن ما إن كانت هذه الكتلة الملحية، وهذه الأصداف والقواقع البحرية وخطوط المدى هذه التي تصل إليها مياه البحر في أعلى نوبات مداها، والتي لمسنا وجودها للتو في حوض البرزخ.. ما إن كان ذلك كله بقادر على أن يدل على أن البحر الأحمر كان يشغل في الزمن القديم كل هذه الأرض، مع منح كلمة الزمن القديم هذه قيمة غامضة، على نحو يدفع إلى الاعتقاد بأنها ترتبط هنا بواحدة من هذه الثورات الداخلية لسكوكب الأرض، في أزمنة سابقة على العصور التاريخية أو على نحو نفهم منه أنها تدل على فترة زمنية قريبة منا بالشكل الذي افترضه أعضاء شعبة العلوم والفنون في مصر، الذين زاروا هذه المناطق^(١)، فهؤلاء جميعاً يظنون - كما ظننت أنا، أن المسكان الذي أشرنا إليه على خربطتنا باسم سرايوم كان يقع على شواطئ الخليج العربي^(٢) عندما قام هيرودت بزيارة لمصر.

(١) سبق أن ذكرنا أسماءهم في هامش سابق.

(٢) نرى من الهامش الذي ينهى دراسة المسبو أوبير، وصف مصر، المجلد الأول، ص ١٥٩، أن مجموعة الوقائم التي جمعها، وناقشها بمهارة كبيرة، قد ألزمته وهو ينهى مؤلفه، أن يتبنى بشكل كامل، نفس الرأي الذي سبق أن عبرت عنه في البداية، لجمع القاهرة، في السادس عشر من برومير من العام التاسع، حول الحدود القديمة للبحر الأحمر، وأن ينظر الآن للبحر الأحمر على أنه كان يشغل بصفة مؤكدة، في زمن هيرودت، حوض القارم؛ لذلك سوف يكون خطأ، عند دعم الرأي المعارض، أن استند إلى ما سبق أن ذكره في صفحتي ٥٩، ٦٠.

وقد يبحث على الدهشة للوهلة الأولى أن البحر الأحمر قد شغل حوض القلزم دون أن يشق لنفسه - على المدى الطويل - طريقاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وإلى وادى السبع أيار . وفي الواقع ، فقد كانت الأرض التي تفصل البحرين لا تعلو عن مستوى سطح الخليج العربي إلا بقدر طفيف . ومع ذلك فمثل هذا الاعتراض يختفي إذا ما تذكرنا أن الأرض التي تحول بين البحر الأحمر اليوم وبين أن يصب في حوض البرزخ^(١) أقل من هذا ارتفاعاً .

ويستج عن كل ما قلناه أنه لم يكن هناك ما هو أيسر من ربط البحرين ، لكن الصعوبة السكامة هنا ، كانت تتمثل في الحيلولة دون أن تغرق مياه البحر الأحمر أراضي مطر السفلى . لقد كانت التربة التي شقها الفراغة ترغد عن النيل إلى الجنوب قايلاً من بوباسطة ؛ وقد بات من السهل حين تقدمت الأعمال فيها نحو الشرق في وادى السبع أيار ، إدراك أن البحر الأحمر ، بمده العالي ، كان أعلى مستوى من منسوب فتحة مياه النهر ، بل إن فيضانات مماثلاً لفيضان العام التاسع قد جاء ليضع يدنا بسرعة على هذه الحقيقة ، ولكن يجعلنا نحسد كل أخطار المشروع دون أن يكون من الضروري أن تتحسس فرق المدسوين عن طريق عمليات هندسية . ولقد فات المصريين كما نرى ، وهم الذين دفعوا إلى الأمام الكثير من العلوم والفنون ، أن يقوموا ببعض التطبيقات الهامة ، ذلك أن ما اعتبروه في ظروفيهم تلك أمراً بالغاً العسر والمشقة ، سيقوم بأمر تنفيذه مهندسون نادون صعوبة تذكر .

(١) ألم يحدث ان عادت إلى الوجود ترعة ماريوتيس بسبب قطع بلغ اتساعه بضعة أمطار ، حدث أثناء حصار الاسكندرية عام ١٨٠١ ؟ فلقد غزت مياه البحر عندئذ أرضاً بالغ محيطها أكثر من ثلاثين فرسخاً .

الفصل الثاني

شهادات تاريخية

يقول هيرودت إن على المرء لكي يتوجه من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي أن يسلك الطريق البرى مروراً برأس كاسيوس ، فذلك أقصر من تتبع ترعة الملوك ، وتتنابق هذه الفقرة من حديثه تمام المطابقة مع افتراضنا .

لقد كان هيرودت يريد (بقوله هذا) دون شك ، أن يقارن بين الطريقين اللذين كانت تطرقهما التجارة ، كما أنه لم يكن يقصد مطلقاً بما قال عن المسافة ، ذلك الخط المستقيم الواصل بين الطرفين ، إذ أنه يقدر أحد الطريقين بـ ١٠٠٠ غلوة^(١) ، ويقدر الثانى بيوم إبحار واحد ، ويلفت النظر بأن الطريق الثانى يزيد طوله بقدر ما تريد تعرجاته .

ولابد أن الطريق البرى الذى يتحدث عنه هيرودت ويقدر طوله بألف غلوة ، كان يطرقه السوريون على وجه الخصوص ، ويتفق هذا الطول مع الطول الذى أعطيناه من قبل للحدود القديمة للبحر الأحمر ، ويمكن التأكد من ذلك على خريطةنا ، على أن نأخذ فى الاعتبار أن نجعل من رأس كاسيوس نقطة بدء لنا على البحر الأبيض المتوسط ؛ ويشكل هذا الجبل حسبما يقول سترابون بشكل قاطع رأساً فى البحر ، لذلك ينبغى أن نضعه عند رأس الإسكرون ، وليس فى قاع خليج بيلوز .

(١) الغلوة التى استخدمها هيرودت حين كتب عن مصر ، هى الغلوة المصرية التى تنقسم إلى ١١١١ درجة ، وهى التى تحدث عنها أرسطو فى مؤلفه معاهدة السماء ؛ لذن فإن طول هذه الغلوة يبلغ بشكل محدد مائة متر . وقد قسمت كما رأينا بنفس الطريقة المتبعة فى نظام مقياسنا المترى أى بالتقسيم العشرى لربع درجة الزوال . وهذا الاتفاق بين العمليتين الفلكية القديمة والحديثة أمر لافت للنظر .

وإذا تتبعنا آثار التربة القديمة منذ مبدئها عند بواسطة حقى سرايوم . فإننا نجد طولها يبلغ ٩١٩٠ متر^(١) ، وهو ما يتفق بدقة مع الأطوال التى قدمها بين Pline ، ومع ذلك فمن الممكن أن تكون التربة فى عهد الفراعنة قد بلغت طولاً أكبر من ذلك بكثير . وفى الواقع ، فإننا إذا تتبعنا مجرى مياه النيل أثناء فيضان العام التاسع حتى بحيرة التمساح ، إلى الشمال من سرايوم ، وإذا اتجهنا بعد ذلك إلى الجنوب نحو حوض القلزم ، وهى نفس الدائرة التى أشار إليها هيرودت فى كتابه الثانى ، الفقرة ١٥٨ ، فسنجد أنفسنا بصدد مسافة يبلغ طولها ١٠٢٠٠ متر أو ١٠٢٠ غلوة، ولا بد أن الملاحه فى معظم الأوقات كانت تتم فى هذه التربة عن طريق جر السفن بالحبال، كما يحدث فى مصر حتى اليوم حيث لا تقطع السفن ، وهى تبحر على هذا النحو بواسطة البحارة ، أكثر من أربعة أو خمسة فراسخ فى اليوم ، وهكذا لم يخطئ هيرودت مطلقاً حين قدر طول هذه التربة بأربعة أيام من الملاحه ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كان الطريق البرى ١٠٠٠ غلوة ، أى ٢٢ فرسخاً ، ومن المؤكد ان كان بمقدور القوافل أن تقطعه فى مدة يومين ونصف اليوم أو ثلاثة أيام على الأكثر^(٢) ، وهكذا أيضاً ، فسواء كان هيرودت يضع فى اعتباره طول هذين الطريقين ، أو الزمن اللازم لقطعهما ، فإنه سيظل محقاً فى قوله بأن طريق رأس كاسيوس كان هو الطريق الأقصر ، وأخيراً ، فلعله كان يريد أن يقارن الطريق البرى عن طريق رأس كاسيوس برحلة أكثر طولاً بكثير ، كان لابد من القيام بها للانتقال بطريق الماء من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر وذلك بصعود النيل حتى جنوب بواسطة ثم تتبع تربة الملوكة .

وإذا كان هيرودت ، فى كتابه الرابع ، يقدر عرض القلزم كأمر مؤكد

(١) انظر دراسة المسيو لوبير ، وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٧٩ .

(٢) لا تستغرق المسافة بين القاهرة والسويس بالنسبة للقوافل سوى مسيرة يومين

ونصف اليوم ؛ ويبلغ طول الطريق نحو ١٢٥٠ غلوة .

بأنف غلوة ، فلا بد لنا أن نصدق أنه ، تبعاً لما قاله عنه سابقاً (في الكتاب الثاني) ، لم يكن يعرف المسافة الأقصر بين البحرين حين جعل هذا الخط ماراً برأس كاسيوس ، وأنه لأمر طبيعي في الواقع أن يسكون الأهالي الذين لجأوا إلى سؤالهم قد دلوه على واحد من الطرق ، مطروق أكثر من غيره ، يصل ما بين البحرين الأبيض والأحمر ، ذلك أن الطريق الواصل من بيلوز إلى الخليج العربي ، والذي يشير إليه بلين ، قد لا يكون موجوداً في زمن هيرودت أو قد لا يسكون مطروقا إلا فيما ندر . ويميز بلين هذا الطريق عن الطريق الآخر المار برأس كاسيوس ، وإليك نص ما ذكره بهذا الخصوص ، وسأنقل ما قال بشئ من الإفاضة لأنه هام لأكثر من اعتبار :

بعد خليج أولانتيك AElanitique (أى خليج إيلات أو العقبة) نجد خليجاً آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت EAant (لعله خليج السويس) وهناك توجد مدينة الأبطال ، كما كانت توجد أيضاً هناك ، فيما بين عرب نايل وهرب المراشدة (*) مدينة قبيز (كبريت حالياً) التي كان ينقل إليها مرضى الجيش ؛ تأتي بعد ذلك أمة العالقة Tyres ثم ميناء دانيون Danéon التي أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعة ملاحية يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم ، هي المسافة بين النيل والبحر الأحمر ، وكان أول من فكر في هذا المشروع سينوستريس ، ملك مصر ، ثم داريوس (دارا) ملك الفرس وبعد ذلك بطليموس الثاني ، الذي أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة ويبلغ عرضها ١٠٠ قدم ، وعمقها ٣٠ قدماً ، في حين يبلغ طولها ٣٧٥٠٠ قدم ، لكن بطليموس لم يتم مشروعه خشية غرق المنطقة إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر يعلو بمقدار ثلاثة أذرع عن مستوى سطح أرض مصر ، وإن كان ثمة تفسيرات مخالفة عند آخرين ، حيث يرى هؤلاء أن بطليموس قد خشي أن يتلف البحر مياه النهر إذا

(*) كانت في مصر بقايا قبائل من جزام منها نخذ يدعى نايل : Les Nèles ، أما المراشدة Les Marchades فهم عرب من بني قضاة وهذا الاسم تحريف للاسم الصحيح وهو الرواشدة . [المترجم]

ما صب الأول مياهه في النيل ، وهي المياه الوحيدة القابلة للشرب . ومع ذلك فقد كان هناك على الأقل ، ابتداء من بحر مصر ، ثلاثة طرق يطررها الناس : يبدأ أحدها من ييلوز ويمضى عبر الرمال ، وكانت تحدده أعواد البوص المغروسة في الأرض ، وبدون ذلك تضيع معالم الطريق بسبب الرمال ، أما الثاني فيبدأ على بعد ميلين إلى ما وراء رأس كاسيوس ، ثم يعبر أرض العرب الأوسيين (عرب الأوس) Les Arabes Auteens ، وبعد مسافة ٦٠ ألف خطوة يلتقى هذا الطريق بطريق ييلوز ؛ ويبدأ الثالث من جرها التي يطلق عليها البعض اسم أدسبي Adispe وبعد أرض نفس العرب ، ويبلغ طوله أقل من ٦٠ ألف خطوة ، لكن الجبال وقلة الماء قد جعلت منه طريقاً شاقاً . وتؤدي هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينويه (*) التي بناها بطليموس فيلادلف على خليج Charandre والتي أطلق عاينها اسم أخته ، وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodytiques أى سكان الكهوف ، وقد أطلق اسمه على النهر الذي يمر أمام أرسينويه .

لإذن فالطريق الثاني الذي يورده بلين هنا ، يمر حسب قوله برأس كاسيوس ولا بد أن يكون هذا الطريق تبعاً لذلك هو نفس الطريق الذي حدثنا عنه هيرودت ، ومع ذلك فإن بلين يقدر طوله (من بدايته) حتى النقطة التي يلتقى عندها بطريق ييلوز بـ ٦٠ ألف خطوة ، ثم يظل أمامنا بعد ذلك ، للوصول إلى هناك من ١٢ إلى ١٥ ميلاً مع جعل نقطة الالتقاء هذه عند أقرب موقع ممكن من الخليج ، الأمر الذي يمنح هذا الطريق ٥-٦ آلاف خطوة ، أكثر من الطول الذي يعطيه له هيرودت ، حين قدره بـ ١٠٠٠ غلوة ، ولعل ذلك قد نتج عن أن سكان هذه المناطق يضعون تحت اسم كاسيوس ، في المنطقة المجاورة لمكان يطلق عليه اسم رأس السكسون ، سلسلة من التلال أو السكتبان

() يتفق موقعها مع المنطقة المواجهة للمحطة البحرية لقناة السويس حالياً عند السكيلو

الزمالية تمتد لمسافة بعينها ، أى أنهم لا يطلقون هذا الاسم ، على نقطة بعينها ،
وثمة اعتبارات كثيرة ترجح هذا رأى . أما الطريق الثالث فكان طوله يبلغ
كما يذكر بلين أقل من ستين ميلا ويبدأ من جرها ، وقد بينت خرابب هذه
المدينة على خريطةنا فى مكان يسمى عنب دياب Anbdiaab على بعد ثلاثة فراسخ
إلى الشرق من ييلوز : وبمعنى آخر ، فإننا نجد بدءاً من هذه النقطة إلى سرايوم
وفى خط مستقيم ، ٥٢ ميلا ، ينبغى أن نضيف إليها التعرجات الطبيعية بطريق
يعبر كشبانا عالية ، وهو الأمر الذى أشار إليه بلين ، وهذه المسافة بالأميال
تنزع كل شك حول تقدير طول الغلوة التى استخدمها هيرودت ، أى تلك الغلوة
التي استخدمها فى تقدير المسافة من البحر الأحمر حتى الطرف الشمالى لحوض
القلزم .

ويقدر بلين الطول الذى كانت عليه تلك التربة التى أقامها الفراخنة لتحقيق
اتصال مائى بين الدلتا والبحر الأحمر بـ ٦٢ ألف خطوة . وليس من الطبيعى
فى عمل بهذا الشكل ألا يحسب حساب لتعرجات الأرض ، وليس ثمة كذلك
أى دافع للاستهانة بأهمية هذه التعرجات ، ولا أى سبب للوقوع فى خطأ من
شأنه - فى حالة مقاييس تؤخذ على الطبيعة - أن يعطى تقديراً أقل من
إجمالى التقدير لمسافة تقاس فى خط مستقيم ، ومع ذلك فهذا ما لعله قد حدث
لو قدر أن كانت للبحر فى ذلك الوقت نفس الحدود التى له اليوم ، ذلك أننا
نجد ، وفى خط مستقيم ، مسافة تزيد عن المسافة التى يعطيها بلين بمقدار الثلث ،
فى حين أننا نجد نفس المسافة ، مع انبعاث التعرجات ، بدءاً من وادى السبع
أبيار حتى حوض القلزم^(١) ، ويضيف بلين أن الملك بطليموس لم يصل بالترعة

(١) تبيناً لما يقول المسيو لوبيد ، ص ٧٩ ، كان لا بد أن يبلغ طول التربة التى كانت
تربط الفرع البيلوزى القديم بالقرب من بوابسطة بحوض القلزم ، قريباً من سرايوم
٩١٩٩٠ متراً . وهذا الفرق الطفيف وقدره ٦٣٥ متراً ليس بنى أهمية كبيرة ، فن
الممكن أن تنتج بعض اختلافات طفيفة فى تحديد النقاط الفصوى وفى قياس انعطافات
وانثناءات الأرض . (المترجم)

التي أمر بحفرها إلا لمسافة تبلغ ٣٧٥٠٠ خطوة حتى العيون المرة ، وتبعاً لذلك فلا بد أن كانت هذه العيون تشغل منطقة المستنقعات الواقعة بين رأس الوادى وأبو كيشيد^(١) ؛ كذلك فإن من الممكن أن يكون الأقومون يقصدون بهذه التسمية وكذلك تحت اسم البحيرات المرة ، تلك البحيرات والمستنقعات الواقعة إلى الشمال من سرايوم والتي أشرنا إليها باسم مستنقعات كراش وبحيرة التماسح إلخ .

ولسوف نقع في خطأ مزدوج إذا افترضنا أن البحيرات المرة التي تشغل حوض القلزم ، وكذلك أن نعتقد أن الجزء الذي تم تنفيذه من القناة التي أمر بحفرها بطليموس فيلادلف كان يقع بين هذا الحوض وبين الطرف الحالي للبحر الأحمر ، ذلك أننا نجد أنفسنا هنا في تناقض بين يستحيل أن يفوت على أحد ، لأننا حين نضع البحيرات المرة في هذا الموقع نجد أنه كان يكفينا أن نحفر ترعة طولها ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ خطوة لكي يتحقق الاتصال بين الخليج وبين البحيرات المرة ، في حين يذكر بلين أن بطليموس أمر بإيقاف العمل بعد أن تم حفر ٣٧٥٠٠ خطوة بعد أن وصل الحفر إلى العيون المرة ، ولا بد أن مسافة الـ ٣٧٥٠٠ خطوة ، البادئة من السويس ، والمتجهة شمالاً إلى سرايوم كانت تخترق ما يقرب من كل طول حوض البرزخ ، وقاع هذا البرزخ كما هو معروف أدنى بكثير من مستوى مياه البحر ، وفضلاً عن ذلك ، فإن الحوض — في الافتراض الذي نحن بصدده — لا بد أن يمتلئ بمياه النيل ، وهكذا يكون عمل بطليموس فيلادلف مستحيلاً وغير ذي جدوى ، في نفس الوقت .

ولا يمكن على الإطلاق تفسير هذا النص من بلين على نحو مخالف لمسافعاتنا ، كما أننا نرى فيه بوضوح أن طول القناة ابتداء من الفرع اليلوزى

(١) في فيضان سنة ١٨٠٠ كونت المياه في الشرق ، وبالقرب من الجسر الكبير في رأس الوادى ، ما يشبه بحيرة .

حتى البحر الأحمر كان يمكن أن يبلغ ٦٢ ألف خطوة لو أن العمل بها كان قد تم، لكننا نعرف في الوقت نفسه أن هذا العمل قد توقف بعد مسافة ٣٧,٥٠٠ خطوة، بأمر الملك بطليموس .

كان لابد أن تنجمع الطرق الثلاثة التي أشار إليها بلين ، بالقرب من سرايوم ، في طريق واحد ، يحاذي الشط الغربي للبحر ابتداء من طرفه الشمالي وانتهاء بموقع قريب للموقع الذي تشغله السويس اليوم ، حيث يتفق كافة المؤلفين على أن يوضعوا في هذه المنطقة مدينة أرسينويه^(١) ، وكانت تقع هذه

(١) ظننت أن على في الدراسة السابقة أن أميز أرسينويه ، عن مدينة كليوباتريس وأن أضع الأخيرة بالقرب من سرايوم . لكن خضاً أكثر عمقاً وتألياً قد أوحى لي بشكوك حول هذا الموقع ، ولست أملك من المعرفة ما يجعلني أحسم أي نص من النصين الواردين عند سترابون يلغى على أن أنناه ، أهو النص الذي ذكر فيه أن المبعض يطلقون على مدينة أرسينويه اسم كليوباتريس ، أم النص الذي يضع فيه كليوباتريس إلى شمال أرسينويه في الجزء الأدنى من الخليج .

فاذا تبيننا النص الأول ، فإننا نستطيع أن نفهم التناقض البين الذي وقع فيه سترابون ، بأن افترض أنه قد أضاع فوق كلمة أرسينويه كلمة كليوباتريس مرادفة لها فوق الناسخون في الخطأ والخلط .

أما إذا حدث العكس ، وملفنا نحو الرئي الآخر ، فينبغي لنا أن نقول إن سترابون الذي لم يرق مطلقاً بزيارة هذا الجزء من مصر ، والذي كان يعرف أن التربة النيلية كانت تغطي بالقرب من كليوباتريس ، تبعاً لما قاله في الكتاب السادس عشر ، قد ظن أن الأعمال التي تمت بالقرب من أرسينويه هي امتداد لهذه التربة ، وأن يخلط بين المدينتين ، عندما تحدث في الكتاب السابع عشر ، عن النقطة التي تنتهي عندها التربة . ولكنه عندما تلاشى سبب النوع في الخطأ ، قد عاد بعد ذلك بعدة أسطر ، ليفصل هاتين المدينتين كلا منهما عن الأخرى . وتبعاً لهذا الافتراض يمكننا أن نقول إن كليوباتريس كانت تقع بالقرب من سرايوم ، في المكان الذي توجد به الآنقاض اليوم وقد تناوأت ذلك في دراسي السابقة ، ولعل هذا المكان قد سمى فيما بعد باسم ميناء دائيون الذي ناهاه اليوم عند بلين .

أما عن المخرج التي تقع على بعد يبلغ نحو فرسخين ونصف الفرسخ إلى الشمال الغربي من السويس ، فنحن نظن أنها مئذنة عن موقع مدينة كان يسميها العبرانيون بيلغون ، وكانت هذه تقع على الشاطئ الآخر للبحر تجاه في — حابروس التي نظن أنها تقع في نفس مكان هجروت (أو العجود) .

المدينة ، تبعاً لما يذكّر الجغرافى بطليموس ، على مسيرة أربعين دقيقة إلى جنوب هيروبوليس (أو هيرونبوليس) ، وعلى مسيرة ثلاثين دقيقة إلى الشرق من نفس هذه المدينة ^(١) (هيروبوليس) والتي تتعرف عليها اليوم فى أطلال أبو كيشيد (أو أبو خثب وهى تل المسخوطة) وبمعنى آخر فإننا نجد فيما بين هذه المنطقة قديماً والسويس اليوم ، وبشكل يكاد يبالغ حد التطابق ، نفس الفروق فى خطوط الطول وخطوط العرض .

أما اسم النهر البطلمى ، الذى يطلق على خور تأتى مياهه لتضيق فى البحر أمام أرسينويه ، فإن من شأنه أن يدفع على الاعتقاد بأن القناة الواصلة من النيل إلى البحر كانت تلتهى عند هذه المدينة . لكن بلين كان يميز أحدهما عن الآخر ، فكان يطلق لفظ نهر على الأول ويطلق اسم ترعة (أو قناة) على الآخر ، ويقول لنا بشكل قاطع إن الأخيرة لم يكن قد حفر منها سوى ٣٧٥٠٠ خطوة ابتداء من الفرع البيروزى . وهكذا كانت هذه التركة كما نرى أبعد من أن تلتهى عند أرسينويه .

وحين أسس بطليموس فيلادلف مدينة أرسينويه ، لى يسر على المصيرين سبل التجارة فى البحر الآخر ، فقد كان أهم عمل يمكن أن يفكر فيه إنسان على الإطلاق هو توحيد مجارى المياه العذبة التى تأتى بها الأخوار المتقاربة وأن يوجهها (هذه المياه) نحو موقع المدينة الجديدة ، ولقد كان من الطبيعى لدرجة كافية أن يعطى الملك الحاكم اسمه للنهر الذى انتهى من إنشائه والذى يستطيع وحده أن يمنح الحضرة والحياة لهذا الساحل ، القاحل والمهجور مادام قد أطلق اسم أخته — هو — على هذه المدينة الجديدة .

واليوم ، لم يكد يبق من هذه الأعمال سوى درسها ومع ذلك فإننا نستطيع

(١) بلين ، التاريخ الطبيعى ، الكتاب الرابع ، الفصل التاسع والعشرين .

أن ننظر إلى مستنقع أفريقيا، الذي يطلقون عليه اسم نية ألبس، والذي يقع على بعد نصف فرسخ من السويس، باعتباره جزءاً من هذه الأعمال : فهناك تتجمع مياه الأمطار، ويتزود الناس بصفة أساسية بمياه خور يأتي في الشتاء من جبال وادي النيل ماراً بالقرب من هاجيروث (العجروث)، وينهض سد حجري صغير يحتجز جزءاً من المياه قبل أن تبدد في البحر، ومع ذلك فإنه يضيع منها على الدوام كمية محدودة، قد يكون الاحتفاظ بها، في مثل هذه الصحراء أمراً ثميناً، ويتعرف المرء في المنطقة ما بين هذا المستنقع والمدينة على آثار ترعة صغيرة.

تدبنا كذلك، وحتى جبل عتاقة على بعد ثلاثة فراسخ إلى غرب الجنوب الغربي من السويس، مجرى خور آخر كان جافاً في ذلك الوقت، ثم دخلنا إلى واد ضيق حفرته المياه، وسرعان ما بلغنا طرف هذا الشعب الذي ينتهي بصخور عالية، تندفع منها المياه في بعض الأحيان في شكل شلال. لم تكن المياه تجري في ذلك الوقت، لكن آثارها كانت بالغة الوضوح فوق الصخور. صعدت فوق هذا الشلال بقليل من المشقة، وكان يؤدي مباشرة إلى هذا الموقع ما يشبه مجرى هندسياً طبيعياً محفوراً في الصخور. تقدمت في هذه التربة فوجدت كهوفاً تمتلئ بمياه بالغة العذوبة؛ وكانت الصخرة عبارة عن حجر جيري أملس، أبيض وأحمر. وعند الخروج من الوادي ينقسم الخور إلى عدة روافد تصب مياهها في البحر، بل إنني أعتقد أن واحداً من هذه الروافد ينتهي بالقرب من مستنقع أفريقيا.

وقد ينظر الناس - خطأ - في البلاد الأجنبية، بل وفي مصر نفسها، إلى هذه الأعمال، التي يرجح كثيراً أنها تمت ولا ريب لتجميع وتوجيه مياه الأخوار المختلفة نحو أرسينويه، باعتبارها استمراراً للترعة التي كانت - ولا بد - تحقق الاتصال بين النيل وبين البحر الأحمر؛ وقد ينظرون نفس النظرة كذلك إلى بعض الأعمال التي تمت في نفس ذلك العهد كي تحتفظ لبعض أجزاء البحر بمعمق معين في مضائق البحرية، ولكي تزيل كتل الرمال التي كانت تعوق الملاحة في

أرسينويه ، إلى الشمال من هذه المدينة ، تلك السكك الرملية التي انتهت بأن فصلت عن البحر مانسحبه اليوم بحوض القازم . وكما هناك من أخطاء وقع فيها المؤرخون القدامى ، وقد اضطرروا - مع أنهم لم يزوروا الأماكن نفسها - لأن يكتبوا (ما كتبوه) نتيجة لاستدلالات غير متأنية نقلها بعضهم عن بعضهم في أغلب الأحيان . لقد علموا من مصادر عديدة أن مشروعاً قد تم لربط النيل بالبحر الأحمر ، وأن ترعة من المياه العذبة كانت تنصب في البحر الأحمر في ميناء أرسينويه ، وأن هناك هويسات وسدوداً كانت تحجز مياه هذه التربة ، وأن أعمال تطهير قد تمت بالقرب من هذا المكان لسكك تمهيد سبيل الملاحة نحو الشمال أمام بعض السفن في البحر الأحمر . ألا يمكن هؤلاء أن يخلطوا بين هذه الأعمال المختلفة ، وأن يأخذوا هذه في مكان تلك ^(١) ؟

أما عن مدينة هيروبوليس ، ولعلها هي نفسها مدينة أفاريس ^(٢) فأننى مصر

(١) لم يكن ديودور أو سترابون ، نفسهما ، يعرفان لا أرسينويه ولا أى جزء من القازم شمال السويس ، وعلى سبيل المثال ، فقد ارتكب سترابون في حق مناطق أخرى زارها من مصر أخطاء أشد خطورة بكثير من تلك التي فاسدها إليه هنا ، أى في منطقة لم يرها مطلقاً . وفي واقع الأمر ، فأننا نعرف أن هذا الجغرافى قد أخذ ترعة في منطقة الصعيد على أنها النهر نفسه .

(٢) أوضحت في مذكرتى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر وأى البعض من يرجعون أن تكون هيروبوليس هى التى تشير إليها التوراة باسم بيتوم Pithôm ولكن يبدو أن الاحتمال الأرجح هو أن المدينة التى أسماها العبرانيون باسم بيتوم كانت هى تلك التى أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patumos ، وأطلق عليها الرومان اسم توم Thôm ، وفي الواقع فإن هذه الأسماء الثلاثة لا تختلف إلا في « حركة الإعراب » اليونانية واستعمال أو لأعمال أداة التثنية المصرية .

(*) ويقول الأستاذ محمد رمزى في قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية ، الجزء الأول الخامس بالبلدان المندرسنة عن مدينة أفاريس : أوأريس مدينة مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى يياوز (الفرما) وأسماها Hat Awt (هات أورات) ومنها اسمها أوأريس . اتخذها رمسيس الثانى سكناً ومعسكراً له وسماها برميسس أو مدينة رمسيس . وقد اتمدثت الآن وحل محلها تل الخير أو الهر . وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيسكو التى أسماها الرومان باسم هيروبوليس ومكانها الآن تل المستوطنة . [المترجم]

على أن أضعها في نفس المكان الذي تشغله اليوم أبو كيشيد . ويغطي هذا الموقع بشكل تام تلك المسافة التي يعطيها مسار أنطونين ؛ يبدو لي أننا حين نضع هذه المدينة القديمة بالقرب من السويس كما يفعل البعض ، بسبب خط العرض الذي وضعها عليه بطليموس (الجغرافي) ، ونحن نلزم الصمت عن الموقع الأكثر مدارية (اتجاهاً نحو الجنوب) بـ ٤٠ دقيقة والذي يعطيه هذا الجغرافي لمدينة أرسينويه ، وكذلك حين نضع هذه المدينة هي و هيروبوليس مجاورتين للسويس - أقول أنه يبدو أننا حين نفعل ذلك لا تسعفنا كثيراً شهادات الأقدمين .

ولقد أورينا فيما سبق أن موقع هيروبوليس ، بالمقارنة مع أرسينويه ، وتبعاً لما ذكره بطليموس ، وإنما يتفق للغاية مع دوقى أبو كيشيد والسويس .

ومن جهة أخرى ، فإذا ما بدا أن بطليموس في مكان آخر من مؤلفه يعطى نفس خطوط العرض والطول لمدينة هيروبوليس ولطرف (نهاية) البحر الأحمر فإنه لا ينبغي لنا أن نلزم الصمت أو نمر مرور الكرام بنص آخر يضع فيه هذا الجغرافي هيروبوليس أبعد إلى الغرب بمسيرة ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة ، وإلى الشمال بمسيرة ١٠ دقائق ؛ قد لا تكون أبو كيشيد على هذه المسافة من الطرف القديم للخليج ، لكن أهم من ذلك أن نعرف أن هاتين النقطتين (أو الموقعين) لم تكونا متطابقتين ، وأن ديروبوليس كانت تقع إلى الشمال الغربي من قمة الخليج . ولا يحق للمرء أن يتوقع صرامة أكبر في الكتاب الذي نحن بصدده ، والذي اكتفى فيه بدميميس في معظم الأحيان بأن يثبت خطوط الطول والعرض تبعاً لمقاييس يقل حظها من الدقة ، كانت تتقدمها له بعض خطوط السير .

وهكذا فإننا نظن أن هذا الجغرافي لم يضع مدينة ديروبوليس عند طرف

الخليج إلا لتمييزه عن خليج أولانتيك أى خليج إيلات أو العقبة ، وأنه قدم في هذا المكان ما ظننه خطئ عرض وطول الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، وليس خطئ عرض وطول هيروبوليس التى يوردها في بقية مؤلفه واضعاً إياها في الشمال الغربى كما قلنا لتونا ؛ ومع ذلك فقد نستطيع أن نفترض ، تبعاً للنصوص التى أشرنا إليها ، أن هيروبوليس كانت لها ، على الرغم من وقوعها في مكان خرائب أبو كيشيد ، بعض منشآت تقع على شاطئ البحر ^(١) ؛ لكننا في كل الأحوال لا نستطيع الاستناد إلى شهادة بطليموس لكى نضع المدينة نفسها على الشاطئ .

وقد سبق أن قلنا أن واضع الترجمة السبعينية (للتوراة) كانوا يضعون مدينة هيروبوليس في وادى جاسان أو السبع أبيار ، على طريق ممفيس - غزة ؛ وسوف يكون من العبث - لدحض هذه الشهادة - أن نتهم هؤلاء المترجمين بأنهم ظنوا أن الفعل العبرى هوروث ، ومعناه يخبر أو يعلن أو يبني إنما هو اسم لمدينة ؛ فمثل هذا الاعتراض لن يفعل سوى أن يزيد من الاقتناع بالأمر الذى تصدى له ، لكننا قد نقول منذ البداية أن من العسير أن نتقبل أن خطأ فاحشاً كهذا ، لا يمكن أن يقع فيه أصغر تلميذ ، يستطيع أن يقع فيه سبعون حاخاماً ، لديهم معرفة عميقة باللغتين العبرية واليونانية ، وأن من الأفضل لنا - بالأحرى - أن نعتقد بأن هؤلاء المترجمين المتبحرين ، لم يسيئوا هنا ترجمة كلمة من كلمات لغتهم ، ولكنهم أضافوا - فيما يرجح - شيئاً ما إلى النص العبرى لكى يجعلوا الترجمة أكثر وضوحاً أو ليرسخوا معنى بعينه ، الأمر الذى حدث منهم في أماكن عديدة (من ترجمتهم هذه) . فلنقارن إذن النص العبرى للكآية التى نحن بصدد ترجمته اليونانية ، ونوجد أن « السبعين » لم

(١) قد تكون هذه المنشآت ، بعد اتساعها ، هى التى أدت إلى نشأة مدينة كلوبوتريسن التى يتحدث عنها سترابون ؛ أو نشأة ميناء دايون Port Danéon الذى يشير إليه بلين .

يشاءوا مطلقاً أن يترجموا هذا النص ترجمة حرفية ، وإنما شاءوا أن يفسروه . ويدل على ذلك ، على سبيل المثال أن كلمة جاسان تتكرر مرتين في العبرية في حين لا نجد لها في اليونانية حيث تقرأ كلتي هيروبوليس ورعسيس ، اللتين لا توجدان مطلقاً بالنص العبرى . ولا يمكن أن يعود هذا الاختلاف ، وغيره كثير ، إلى خطأ يمكن أن نلصقه بالسبعين ؛ وزيادة على ذلك ، فليكن هؤلاء قد تصرفوا تبعاً لدافع قد نفترضه فيهم ، أو ليسكونوا — حتى — لم يفهموا كلمة هوروث ، فلن يكون أقل من ذلك حقيقة أنه ما كان هؤلاء أن يتكلموا في هذا الموضوع عن هيروبوليس لولا أن قد كانت هذه المدينة ، في زمانهم ، قرية من المواقع الحالى للسويس في وادى جاسان أو السبع أبيار . وتنطبق نفس هذه الملحوظة على المؤرخ يوسيفوس الذى يضع كذلك مدينة هيروبوليس على الطريق من عفايس إلى غزة .

ولنتذكر أن العبريين عندما خرجوا من مصر ليسحبوا إلى صحراء سيناء قد ساروا بحذاء الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ابتداء من أرض جاسان إلى المكان الذى عبروا فيه البحر . وهذا ما نقرؤه في سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ : « وكان لما أطلق فرعون الشعب ، أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا ينسدم الشعب إذا أرادوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » ، والآية ١٨ : « فأدار الله الشعب في طريق برية بحر سوف » أى إلى الطريق الصحراوى القريب من البحر الأحمر .

كيف سيكون بإمكاننا هنا تفسير هذا النص لو أن كانت للخليج العربى ، في ذلك الوقت ، نفس الحدود التى له اليوم ؟

أما عن الـ ٩٠٠ غلوة التى يعطيها سترابون لعرض القلزم ابتداء من بيلوز حتى الخليج العربى بالقرب من هيروبوليس ، فإننا لقادرون أن نجدها بسهولة إذا تقبلنا ، وهذا أمر محتمل للغاية — أن تكون المعلومات التى جمعت من

مصر في العصور القديمة ، عن طريق الرحالة الأجانب ، عن المسافات التي كانت توجد بين مختلف الأماكن ، قد أعطيت لهم في غالب الأحيان بالغلو المصرية التي يبلغ طولها ١٠٠ متر ؛ وفضلا عن ذلك فلا بد ألا ننسى أن هيروبوليس كانت تبعد قليلا عن البحر الأحمر ؛ وكانت هذه المدينة ومدينة بياوز ، على البحرين (الأحمر للأولى والأبيض للثانية) هما مكاني التجارة المتقاربين للغاية ، وفيما بينهما كان يتم تبادل السلع القادمة من أوروبا وتلك القادمة من الهند . ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يعطى سترابون ، وهو يتحدث عن اتساع القلزم نفس طول الطريق الذي كان يتبعه الناس ، للتوجه من بيلوز إلى الخليج العربي ، مرورا بهيروبوليس . ولذلك نجد نحو ٧٠٠ غلوة من بيلوز إلى أبوكيشيد ، و ٢٠٠ من هذا المكان إلى سرايوم .

وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقة بالغة اليسر ، لماذا كانت تلتبس هيروبوليس في روايات الأقدمين ، على الدوام ، في المنطقة التي كان ينتهي إليها الخليج العربي باتجاه مصر ، على الرغم من أن هذه المدينة لم تكن تقع مباشرة على ساحله ^(١) . ألسنا لانزال نرى حتى اليوم العديد من المدن الواقعة في الداخل وهي تعد - مع ذلك - موانئ بحرية ؟

ولسنا نستطيع أن نقترح أية مقاييس أخرى إلى جانب تلك التي ذكرناها تبعاً لشهادات القدماء ، وإن كان بإمكاننا أن نعطيها قيمة مختلفة قد يكون من شأنها أن تضع قاع الخليج إلى الجنوب بمسافة أكبر بكثير عما هي عليه اليوم ، يدل على ذلك أننا نحققون في تقييمنا لهذه المقاييس كما كنا محققين في تطابقها على الطبيعة ، وإلا ، فهل ثمة أقل احتمال لأن يكون البحر فيما مضى أقل امتداداً

(١) من الضروري ، عند الرجوع إلى خريطة مهندسى المشرق أن نعرف أن الحدود المعطاة لحوض القلزم ليست دقيقة إلا في النقاط التي مر فيها خط عملية التفدين بكتورتات الحوض ، وأن هذه الحدود قد خطت على الدوام بشكل تقريبي بالنظر إلى أنه لم يتم هناك مطلقاً أى تفدين إلا ما توضح على الخريطة ، كما أن هذه الخريطة لم تبين خطوط المدي ، أى خطوط أقصى مدى للاغراق يمكن أن يبلغه البحر .

نحو الشمال بما هو عليه الآن ؟ ألا يوجد ... على العكس من ذلك هدد كبير من الوقائع الدالة على أن هذا البحر قد انحسر نحو الجنوب ؟

وقد نهى دراستنا هذه بأن نكرر هنا إن العيون والبحيرات المرة، تبعاً لما نرى، كانت تقح إلى الشمال الشرقى وإلى الشمال من حوض القلزم ؛ وإن هذا الحوض، في الزمن الذي عاش فيه هيرودت كان يشكل جزءاً من البحر الأحمر ؛ وأن أعمالاً لا بد وأنها قد تمت في عصر البطلمة لكي يبقى البحر على عمق بعينه في المضائق البحرية جنوب أرسينويه، الأمر الذي جعل من الممكن أن يطلق على هذا الذراع من البحر اسم النهر أو النهر البطلمسى ؛ وأنه قد أمكن إطلاق هذا الاسم كذلك على خور من مياه الأمطار كان يصب في الخليج بالقرب من أرسينويه ؛ وأن التربة التي شرع الفراشة فيها والتي تجدد الشروع فيها في عهد داريوس، وفي زمن خلفاء الاسكندر قد حفرت ابتداء من الفرع البيلوzy، عبر الوادي حتى البحيرات المرة ؛ وأنه إلى ما وراء هذه البحيرات، قد توغلت هذه التربة دون شك نحو البحر ؛ ولأنه كان من الطبيعي بالنسبة للملك وحكام مصر أن يوقفوا هذا العمل ما أن يتبينوا الأخطار الكبيرة التي كان يشغلها ارتفاع مياه البحر الأحمر وانخفاض مستوى النيل ؛ وأنه في فترات مختلفة، على الرغم من ذلك، قد أمكن الملاحة، فوق هذه التربة، وفوق البحيرات المرة، أثناء فيضان النيل، أن تمتد لمسافة قريبة من البحر الأحمر ؛ وأن الرحلة البحرية، بدءاً من هذه النقطة وحتى الخليج عندما اقتصرت على نقل أشياء بالغة الضلالة، قد جعلت من الممكن للناس أن ينظروا إلى الاتصال المائي (بين البحرين)، فيما يختص بالتجارة، كأمر ثابت، وأننا نستطيع على هذا النحو أن نفسر الواقع الذي حدا بكليوباترة إلى أن تأمر بنقل سفنها براً ليسكن لهذه السفن أن تلتقل من بحر لآخر^(١)، في نفس الوقت الذي يذكر

Plutarque, Vie d' Antoine, Dion Cassius, Hist. Rom. (١)
liv II,

فيه الكثير من الكتاب - مع ذلك - أن ترعة الملوك كانت قد تمت هلى يد أسلافها^(١) ؛ وأنه أمكن أخيراً فى عهد الخلفاء القيام بمحاولة لإعادة دفع البحر الأحمر إلى الأراضى التى كان يغطيها فيما مضى شمال القلزم ، وإن لم تكن هذه الأعمال ، التى سرعان ما أهملت ، بكافية على الإطلاق كى تعيد البحر ، بطريقة ملحوسة ، إلى حدوده القديمة .

مستخلص من يوميات رحلة المسيو ديفلييه

مهندس الطرق والكبارى

رحلت من القاهرة فى السابع والعشرين من برومير من العام التاسع مع السيدين لويير وشابروول .

ومن القاهرة إلى بركة الحج ، يوجد سهل رملى يغطيه نوع من الشبب البيضاوى ، يعرف بالزاط المصرى ؛ ويجد المرء إلى اليسار أراضى مزروعة ، كما يلح ، على اليمين ، ولمسافة نصف فرسخ ، سلسلة من كتبان الرمال على ارتفاعات متفاوتة ، كما يتفاوت امتدادها ما بين ربع ونصف الفرسخ وتقطع الأرض من وقت لآخر أخوار صغيرة تنمو حولها الخضرة ؛ وتستمر الكتبان إلى مسافة قريبة من بليدس . وهند الخروج من هذه المدينة نحو الصالحية ينسبط - مع ميل غير محسوس ، وإلى مسافة بعيدة - سهل رملى يغطيه الزاط المصرى . وعلى مسافة فرسخ إلى الجنوب من السويس ينتهى الجبل الجبرى ، ويمكن أن يصل ارتفاعه إلى خمسين قدماً فوق سطح الأرض المزروعة .

Strabon, Géogr., liv XVII. Diodor de Sicile; Bibl. (١)
hist. liv I.

وبالقرب من راهورنى^(١) . تبدأ كشيان رماية جديدة ، تمتد بطول وادى الطميلات وحتى أبو نشابة ، ويبلغ عرضها تجاه هذه النقطة ، فرسخاً واحداً ؛ وتغمر المياه (مياه الفيضان) هذا الوادى .

وإلى ما وراء ذلك ، أى شمال الجانب الآخر من الوادى ، يوجد سهل بالغ الانبساط يغطيه الزاط ؛ أما الجزء الجنوبي من الوادى ، فيما بين أبو نشابة ورأس الوادى فبالغ الانخفاض ، وليست للمياه به أية حركة محسوسة ، ويصل عمقها إلى ٨ - ٩ أقدام . وهى تزحف إلى بعض الأماكن من خلال الكشبان الرملية . ومن هناك نرى الجبال المجاورة للسويس .

وتغطى المياه كل المنطقة إلى ما وراء رأس الوادى ، ويشكل الفيضان سطحاً بالغ الاتساع يحده إلى الغرب الجسر الكبير ، ونجد أشجار النخيل بالقرب من رأس الوادى وقد غرستها المياه حتى سعتها . وتتجمع المياه في المكفر (أو الموكل) داخل ترعة ، ويلزمها متر وأربعة وعشرون سنتيمتراً لى تهاج الجزء العلوى من الحجر الجيري الذى استخدم نقطة استدلال فى عمارة النفدين .

(١) تقع هذه القرية على بعد نحو ٣٠٠٠ متر إلى الجنوب الشرقى من العباسة بالقرب من بحيرة تسمى الفرجة أو بركة الخليج القديمة ، ويدفع هذا الاسم ، بالإضافة إلى بقايا المنشآت التى يقابلها المرء على طريق بلبيس وعلى جسر السنيكة ، الذى يسمى الجسر السلطاني ، وهى المنشآت التى يظن أنها سكان البلاد أن حجاج مكة كانوا يستخدمونها فيما مضى — كل ذلك يدفع على الاعتقاد بأن قافلة الحمل التى كانت تنجمع كل عام بالقاهرة ، والتى كانت تمر بالقرب من هجروت (أو العجود) . كانت تنبع فى ذلك الوقت وادى الطميلات ، لتدور بعد ذلك حول الخليج العربى ، الأمر الذى يأتى كذلك لى يدعم رأى المسيو دى بوا — لمعية du Boia-Aymé عن الحدود القديمة للبحر الأحمر .

(المترجم) لم أجد اسم هذه القرية فى القاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزى ، وإن كنت قد وجدت اسم راوارنى أو الراوارنى فى القاموس الجغرافى الوارد بكتاب وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الثالث ، فى نفس المنطقة التى يحددها هنا هذه الدراسة) .

وتحيط المياه بآبار السبع أبار ؛ وبعيداً عن ذلك حفرت المياه لنفسها مجرى عميقاً بعض الشيء وتآكلت بسببها الكشبان ؛ وهناك تجرى المياه بسرعة أمكن تقديرها بأربعة أقدام في الثانية .

فإذا مضينا لأبعد من ذلك ، نجد المياه لا تزال نزحف ، بعد أن تقوم بدورة كبيرة إلى اليسار لتتألف بعد ذلك حوضين واسعين ، يبلغ محيطهما ٧٦٦ فراسخ^(١) . ثم تمتد المياه لتبلغ سفح الكتيب الذي أقيم فوقه ضريح الشيخ هنادى ، لتحيط بجزء من الهضبة المجاورة ، التي يمكن الوصول إليها عن طريق لسان من الأرض .

تركنا المياه في الأول من فرير لنتجه مباشرة إلى سرايوم متبعين الكشبان . أما سرايوم فعبارة عن مبنى دائرى الشكل ، يبلغ قطره من ١٢ إلى ١٥ قدماً ، يتعرف فيه المرء على تنوء بارز أقيم فوق كتلة بيضاوية الشكل من الجرانيت ؛ وثمة خرائب أخرى تقع إلى الجنوب الشرقى ، نجد فيها قطعاً من الجرانيت والحجر الرملى والحجر الجيري ، ويشبه الأخير تلك الكتلة الحجرية التى تشكل الهضبة التى نجد فوقها أطلال هذه المدينة القديمة .

توجهنا من سرايوم إلى طرف جبال السويس ، وقطعنا مسافة ثلاثة فراسخ ، اجتزنا خلالها البحيرات ، أو الأجزاء الدنيا التى توجد فى هذا الاتجاه^(٢) . وخلال الفرسخ الأول ، يلاحظ المرء وجود سلفات الجير ، متكسرة على هيئة إبر لامعة ، وفى شكل كتل منعزلة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام ، ولها مظهر جذوع نخيل مقطوعة ، وتبدأ تصبح الأرض رخوة تمدنى ، وأخيراً نجد الطين ومياها تميل كثيراً إلى الملوحة ؛ وقد بدا لى أن موريات الصودا توجد بكثرة فى هذه المياه ، وبدرجة أكبر مما نجد عليها فى مياه البحر . وفى الجانب الآخر ،

(١) أشير إليها على الخرائط باسم بحيرة التساح .

(٢) تشكل هذه البحيرات جزءاً من حوض القانم .

تُجد الأرض وقد تشققت إلى كتل كبيرة يبلغ حجم الواحدة من ١٥ إلى ٢٠ قدماً وتعلو كل منها إلى أربعة أقدام ، لكن المياه تذيب هذه الكتل وتفتتها ، وتكون هذه الكتل من قطع كبيرة ، بل وهائلة الحجم في بعض الأحيان ، من موريات الصودا ، ومن الرمال المختلطة بالبورات صغيرة من سلفات الجير ؛ وبعد فرسخ ونصف الفرسخ من هذه الأرض الخربة والمهلكة تنخفض التربة لدرجة أكبر وتصبح رطبة موحلة . ومن الجهة الأخرى ، يجسد المرء مع ارتفاع الأرض بعض الأصداف والقواقع على الرمال ، ثم يجسد رمالاً بدون أصداف تتناثر فوق كربونات الجير التي أخذت في التحلل ، وأخيراً بعض البورات الجبس اللامعة وقد اتجهت قممها إلى أسفل ، أما الأرض هناك فتنتفخة متشققة ، دون أن يبدو الأمر وكأنه قد تم بفعل إنسكاش بين أجزاء هذه الكتل ، بل على العكس من ذلك ، كما لو أن تمدداً هائلاً قد تسبب في رفعها ثم تسكيرها .

أما الأجزاء الأكثر ملحية من هذه الأرض ، فهي كتل من موريات الصودا ، تشكل كهوفاً أو شقوقاً صغيرة ، يبلغ عرضها بضع بوصات ، وقد وضعت بحبات داخل هذه الشقوق دون أن تبلغ قاعها وكانت الحبات قد وصلت لعمق المتر أسفل موريات الصودا .

وفي الثاني من فريمير مشينا ، بعد الخروج من هذه الوهاد ، نحو الجنوب الغربي ، واقتربنا كثيراً من الجبال التي يمر بالقرب منها طريق بلبيس - السويس ؛ وبعد ذلك اتخذنا وجهتنا نحو الشرق ، وصبرنا بقايا ترعة تقع إلى جنوب وهاد وسط القلزم ، وهدنا بعد ذلك مباشرة إلى السويس ، مجتازين هضبة عالية تتكون من رمال كبيرة الحجم ؛ وقريباً من البحر هدنا ثانية إلى غرب الترعة ، ووصلنا إلى السويس .

— ١٩٨ —

معلومات جمعت عن طريق مشايخ وسكان وادى الطميلات في
الأيام الأخيرة من نيفوز من العام التاسع ، بواسطة المسيو
ديفليميه المسكاف باكتشاف ترع النيل ابتداء من القاهرة ،
حتى وادى الطميلات

يبلغ أقصى ارتفاع للمياه في الوادى ، فى المنطقة الواقعة ما بين العباسية
ورأس الوادى . وطبقاً لما يذكره سكان طميلات الشريف يمكن أن ترتفع
المياه إلى ١٥ قدماً بالقرب من العباسية ؛ وعندما تنخفض تنكشف ضواحي
العباسية أولاً ثم تجف بعد ذلك الأرض المجاورة لرأس الوادى ، ويتركز
الإغراق بالقرب من أبو نشابة ، التى توجد بها - على ما يبدو - أدنى نقطة
فى الوادى .

ولا تتوغل المياه فى الوادى إلا عن طريق ترع صغيرة تنفرع من ترعة
بليس ، وإن كان قاعها أكبر ارتفاعاً لدرجة أن المياه لا يمكنها أن تدخل إلى
هذه الترع الصغيرة إلا أثناء الفيضانات الكبرى ، التى قلما تتم إلا مرة كل خمس
أو ست سنوات ؛ لذلك يستوجب الأمر أن يعطى أهالى الطميلات لأنفسهم
سلطة قطع جسور العباسية والسليكة رغم مشيئة سكان القرى العليا ، ويتم هذا
القطع فيما بين السليكة والمسيد . ويذكر القوم أنه كانت توجد فى الماضى قنطرة
كبيرة تتكون من قوس واحد فيما بين السليكة والمسيد على بحر الرمل بالقرب
من بحطيط . أما الفائدة التى تعود من وراء إنشاء ترعة تصل بالمياه بشكل منتظم
إلى رأس الوادى فأمر لا جدال فيه . وقد يكون كافياً أن نحمق واحدة من
الترع الصغيرة التى سبق أن تحدثنا عنها . ومع ذلك ، فسوف يكون من الضروري
فى نفس الوقت أن نعيد تثبيت جسور السليكة أو العباسية حتى لا تمر إلى الوادى
إلا كميات المياه اللازمة لريه دون أن تغرقه ، فهذا الإغراق السكامل يضيع
على الزراعة سنة بأكلها تستغرقها المياه لى تنحسر ، إذ لا يمكن - والحالة
هذه - زراعة أرض الوادى إلا فى الصيف التالى . وفى السنوات القليلة التى

- ١٩٩ -

لأنهم لا تصل فيها مياه الفيضان إلى داخل الوادى ، وتم الزراعة القليلة التي يمارسها القوم هناك بواسطة مياه الآبار التي لا تنضب أبداً .

وخلال الفيضانات العالية في تلك السنة (العام التاسع) ، قطعت المياه جسر الوادى ، ولم تتجاوز إلى الشرق وإلى الجنوب المكان المسمى بالشيوخ هنادى ، لكنها زحفت إلى الشمال حتى رأس المياه (أو البلاح) وأخبرنا أحد شيوخ العرب إن رأس مية البلاح قد دأرت مياه النيل هذا العام . وهؤلاء نحن ننقل تعبير هذا العربي بنصه .

ولا يقطع الناس مطلقاً جسر رأس الوادى . ويقول أهالى الطمبلات إنهم لا يجدون في ذلك فائدة ما ، ويمكن إدراك ذلك بسهولة .

ومنذ أربعة وعشرين أو ثلاثين عاماً ، لم يحمل النيل مزيداً من المياه إلى الوادى .



درستہ عن
النوبة والنوبيين
"كوستاز"

يطلق اسم النوبة عادة على ذلك الجزء من وادى النيل الواقع بين مصر
ومملكة سنار .

ولست لدينا نحن في أوروبا ، حول هذه البلاد ، إلا أفكاراً متناثرة ،
محدودة للغاية ، وبالغة الغموض . بل أن قدماءنا أنفسهم ، وهم الذين عرفوا ،
بشكل أفضل منا ، أعماق أفريقيا ، لم ينقلوا إلينا عن النوبة إلا معلومات بالغة
الضآلة ، كذلك ، فإن الفرنسيين لم يسبق لهم أن جاسوا في هذه البلاد بما فيه
الكفاية ، كما أنهم لم يتوقفوا طويلاً هناك للحد الذى يمكنهم من سد هذه
الفجوة في هذه الناحية من معارفنا الجغرافية . واعتقد أنه سيكون من المفيد أن
ننقل إلى العامة بعض الوقائع التى جمعتها أثناء إقامتى فى فيله فى شهر سبتمبر
سنة ١٧٩٩

يختلف سكان النوبة بشكل أساسى عن كل الشعوب التى تعييط بهم ، إذ
يحاورهم المصريون فى الشمال ، وزنوج سنار من الجنوب ، كما تتجول من حولهم
قبائل هرية فى تلك الصحروات الواقعة إلى الشرق من النيل وإلى الغرب منه .
وبالرغم من كل ذلك فإن هؤلاء النوبيين ليسوا عرباً وليسوا زنوجاً ، كما أنهم
ليسوا مصريين . أنهم يشكلون جسداً متميزاً كما أنهم يتكلمون لغة خاصة بهم
يشار إليهم داخل إماراتها باسم « البرابرة » .

وعلى بعد بضعة كيلو مترات إلى الجنوب من أسوان ، وبخاصة فى تلك
المناطق المجاورة لفيله ، يحد البصر من كل جانب جبال مكوّنة من كتل ضخمة
من الجرانيت والزلاط الأحمر والأحجار الرملية المسكدة بغير نظام ، وثمة
جبلان يطلان على الرغم من تعرجاتهما متوازيين ، على نحو ما ، كل منهما مع
الآخر . ويحصر هذان الجبلان النيل ويضيّقان عليه الخناق . وهذه الفوضى

- ٤٠ -

من الأحجار الوعرة ، بألوانها الداكنة واللامعة ، تعطى لكل المنطقة مظهراً من الاضطراب والدمار المقبض ، يتناقض معه بشكل مبهج ومستبعد في وقت مما ، منظر تلك السكتل المنتظمة والأعمدة الرائعة لتلك المنشآت القديمة التي ترى من جزيرة فيلة . وتنفرد هذه المباني الرائعة عن المشهد المحيط بها بلون مائل للبياض جميل ، تستريح لرؤيته العين ، وتبدو ، بعد مضي هذه الألوف من السنين على وجودها ، جديدة ، وفي نفس رونق أجمل منشآت باريس التي شهدت منذ عهد قريب .

وفيما بين فيلة وأسوان ، تتناثر في النيل ألوف لا يحصى عد من صخور الجرانيت التي تنهض من قاع المجرى لتشكل جزراً بالغة الضلالة ، وهناك يجرى النيل سريعاً تتكسر مياهه على هذه الصخور ، أو تندفع الأجزاء الفاصلة فيما بينها بصخب واضطراب غير هادئ ، ليكتسى كل سطحه باللون الأبيض ، حتى ليظن المرء أن مياهه قد تحولت كلها إلى زبد .

وينتج عن تلاطم الأمواج وتكسرها فوق الصخور زفير مستمر تردد الجبال صدها ليضئ صوت الصدى إلى بعيد بعيد . وفي هذه المناطق الصحراوية ، تشكل هذه المجموعة من العوامل مشهداً يهز النفوس بشكل حميق .

وتعرف هذه المنطقة باسم الشلال ، شلال أسوان . . لكننا إذا ما قصدنا المعنى الحرفي للكلمة ، سنقول بأن ليس هذا شلالاً على الإطلاق . حقيقة أن النيل هناك سريع وصخاب ، لكننا لا نرى هناك مساقط كبيرة للمياه ؛ وهي تلك التي اعتدنا أن نطلق عليها اسم شلالات بل أن جزءاً من مياه النهر ، تهرى في نفس المجرى ، تستطيع المراكب أن تصعد بها في موسم الفيضانات إذا ما جادت عليها الطبيعة بريح مواتية . لكن الشلال الحقيقي يوجد على مسيرة عدة أيام إلى الجنوب من شلال أسوان هذا ، كما يسمونه .

ويقابل المرء بشكل شبه دائم ، عند سفح الصخور التي تهيمن فيها بينها نهر النيل ، أجزاء صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة ، كونها ومهدتها تلك الترسبات السنوية لمياه الفيضان حيث الظروف هناك موالية لحدوث مثل هذه الترسبات . . . وفي كل مكان تتوافر فيه هذه الظروف المواتية ، زرع النوبيون أشجار النخيل ونصبوا السواقي لرفع المياه لرى الحقول التي يزرع فيها هذا النوع من الذرة البيضاء الذي يطلقون عليه اسمه « ذرة » ، وكذلك بعض الخضروات .

وترين فوق هذه الصخور حرارة مرهقة - وعلى الرغم من أننا كنا مازال في اعتدال الخريف ، فقد ظل ترمومتر ريو مور الموضوع في الهواء الطلق ثابتاً طيلة اليوم على درجة ٣٥ ، وهي درجة حرارة أعلى من درجة حرارة الدم إذ أن هذا الترمومتر يهبط في الواقع ثلاث درجات إذا وضعناه في الفم أو تحت اللسان . وكنا نحس بلمحيب الشمس المزعج من خلال نعال أحذيتنا المصنوعة من جلد الماعز . ومنذ عدة أيام رفض أحد أبناء البلاد ، وكان موكلًا بتوصيل إحدى الرسائل ، أن يبدأ سيره قبل غروب الشمس ، حيث الحجارة في أثناء النهار ، تجعل أقدامه تلتهب .

وعلى بعد كبير من قرية باب ، يلح المرء جداراً هالياً أقيم عند سفح الجبل الشرقي ليقطه بشكل عرضي : وقد تساقط الجبل كي نرى الجدار عن قرب . . فوجدناه بالغ السمك ، مبلياً بقطع غير منتظمة من أحجار الجرانيت والحجر الرمل بدون ملاط « مونة » ، ويمتد هذا الجدار إلى بعيد بحيث لم نستطع التعرف على بدايته البعيدة من النيل . وقد بدأ لنا أن هذا الجدار قد بنى كسور لصد هجمات الشعوب المعادية لأهل هذه البلاد .

وللنوبيين زوارق ينقلون بواسطتها - بين الشلال الصغير والشلال الكبير - الأشياء التي يأتون بها من مصر لاستهلاكهم . وتمثل هذه

التجارة المحدودة بصفة أساسية في الأقمشة التي يشترونها من أسنا والتي يقايضون بها البلح المجفف « النمر » . ويستخدمون في ملاحظتهم الشراع ، وهو يشبه شراع القوارب المصرية ، وهو صالح بشكل خاص للملاحة الأنهار حيث يساعد على سرعة حركة القوارب بفعل الرياح ، وعلى الرغم من ذلك فهذه الرياح في جنوب أسوان غير مواتية بفعل تعرجات النهر الكثيرة للنساية ويضطر الناس لوقت طويل إلى جر قواربهم بالحبال . لذلك تكون الملاحة هناك بطيئة بالضرورة .

ويقوم بإدارة القرى هناك رجال قضاء يسمون السيميلي ، وهؤلاء يحوزون نفس السلطة التي يحوزها شيوخ القرى في مصر على وجه التقريب .

وتخضع كل المنطقة حتى الشلال الكبير للسيطرة العثمانية وإن كانت سطوة هذه السيطرة تقل في الواقع وفي غالب الأحيان في مثل هذه المناطق النائية . ومع ذلك فالنوبيون يدفعون للسلطان ، أو للذين يحكمون باسمه ، ضريبة من التمور والعبيد السود . وهم يشترون هؤلاء العبيد من قوافل سنار ، لأن النوبيين لا يتجرون مطلقاً في رجال من أبناء أمتهن ، كما لا تسود بينهم هذه العادة الهمجية : عادة اصطناع أغوات .

والنوبيون في العادة لطيفو المعشر ويعيشون في حالة سلم بقدر ما يستطيعون مع جيرانهم العربان ، وعندما يشن هؤلاء عليهم هجوماً ، فإنهم ياجأون إلى الصخور وهناك يتخذون وضع الدفاع ، ويبدو أن العربان لا يجذون القيام بغارات في أرض غير مواتية لحيولهم وتشكل في نفس الوقت مأوى آمناً لسكانها أو معاقل حصينة ، سيندمون في معظم الأحيان إذا أرادوا اقتحامها .

وفي كل عام ، ينزل كثير من النوبيين إلى مصر هاربين من فقر مسقط رأسهم كي يبحثوا هناك عن عمل ، وهو الأمر الذي يكاد يماثل ما يفعله أبناء سافوى وأوفرن « إحدى مقاطعات فرنسا في التقسيم الإداري القديم » حين

يأتون إلى باريس . ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء . إذ يظنون يحتفظون على الدوام بالرغبة المتأججة للعودة لقضاء آخر أيامهم وسط صخورهم ، وما إن يحصلوا على وسيلة لعيش ميسور ببعض الشيء حتى يسارعوا بالعودة إلى بلادهم ليتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات أمتهن . وعدد النوبيين في القاهرة كبير ، ويشير إليهم التجار الأوروبيون باسم «بربران» Barbrin . ويتمتع هؤلاء بشهرة كبيرة في الاستقامة والأمانة ، ويوحى إخلاصهم الذي لم يكذب مطلقاً بالثقة المشدودة ، ويكاذبهم إليهم بحراسة بوابات كل البيوت والأسواق .

ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقي الذي يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان ، الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول مهنة قومية ؟ أينبغي أن نبحث عن السبب في ذلك ، في نوع الحياة التي يحياها كل من هذين الشعبين ؟ فالنوبيون مزارعون والعربان رعاة . والحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حماسية واستجابة لأفسكار العدل والنظام والملكية . أما في الحياة الرعوية فيحدث العكس من ذلك ، حيث تؤمن سهولة التنقل ، التلصص من العقاب وعدم الوقوع تحت طائلته ، بخصوص كل الجرائم على وجه التقريب . ولهذا السبب فإن هذه الحياة ، التي يمتدحها الشعراء ، ويترحم عليها كثير من أولئك الذين لم يتمتعوا بالطبيعة البشرية ، تقود إلى اللصوصية والنهب ، وإذا كان ما نقوله يحتاج إلى تأكيد عن طريق ضرب الأمثلة فيكفيينا أن نذكر التتار والأكراد الذين يعيشون بلا مقر ثابت وإنما يقودون مثل العربان قطعانهم من مرعى إلى مرعى ، ولهم نفس عادات السرقة واللصوصية التي تسود عند هؤلاء .

والنوبيون مسلمون شديدو الحاسة لدينهم . وعلى الرغم من رقهم ولطف معشرهم فإنهم يكتنون الكثير من النفور والمقت نحو الأجانب ، ومن العسين عليهم على الدوام أن يروا هؤلاء في بلادهم . ولقد قال لي أحد هؤلاء الذين كنت علي صلة بهم في قبيلة : أنها هي هذه المباني « الآثار » التي تجذب هؤلاء

الأغراب إلى هنا ، حسن ، ما أن يرحلوا حتى نبدأ في هدمها كي يتركنا الناس هادين في بلادنا .

لكن النوبيين لحسن الحظ ليسوا بالقوة ولا بالمهارة اللتين تكفلان لها أن ينفذا هذا المشروع الذى لا يمكن أن نعقله . ولم يكن هذا الطابع الجفول والشكاك للنوبيين ليقلقنا على أى نحو . ذلك أننا كنا فى حراسة قوة كافية ، ومع ذلك فيحسن بالرحالة العزل والمتفرقين الذين قد يأتون لزيارة الآثار الموجودة فى فيلة ، أو إلى الجنوب منها ، حيث هم لا يتمتعون بحماية كالتي فى حوزتنا ، أن يتخذوا كافة الاحتياطات الممكنة لكفالة سلامتهم وأمنهم .

ويكاد يكون لون بشرة هؤلاء النوبيين وسطاً بين الأسود الأبنوسى ، لون سكان سنار ، والأسمر البرنزى ، لون المصريين من أبناء الصعيد .

وهو يشبه بالضبط لون خشب شجر الأكاجة المصقول الغامق .

ويفيد البرابرة من هذه النقطة كي يضعوا أنفسهم فى صفوف البيض .

سألت ذات يوم واحداً منهم عما إذا كانت إحدى القبائل التى كان قد حدثنى عنها للتو سوداء فأجابنى : « كلا ، كلا . . إنهم بيض مثلنا . . » .

وفى الحقيقة فإن ملاح النوبيين أقرب إلى ملاح الأوربيين منها إلى ملاح الزنوج فليسج بشرتهم بالغ الرقة ، وليس للونهم أى تأثير منفر وتعطى الحمرة المختلطة به مظهراً من مظاهر الصحة والحيوية ، أما تقاطيعهم المعبرة والحيمة فتنبئ عن طيبة شديدة وتمتلىء تقاطيع الشبان منهم على وجه الخصوص بالرقّة . كما أنهم يختلفون كذلك عن الزنوج فى أن شعرهم الطويل والمجدد على نحو خفيف ليس له شكل الصوف . ولقد تأملت عديداً من أطفالهم كان شعرهم خليطاً من خصلات سوداء وأخرى شقراء ، وإن كان بريق هذه الثمرة ليس هو نفسه عند الأوربيين ، وإنما يقترب كثيراً من اللون الذى يكتسبه الشعر

الأحر عند اقترابه من النار ، وليس هناك ما يليه عن أن شعر هؤلاء الأطفال قد اكتسب هذا اللون بشكل صناعي .

ولقد وجد الفرنسيون عندما دخلوا لأول مرة جزيرة فيلة فتاة نوبية تركتها أسرتها بعد أن أخذت - للحفاظ على عذريتها - احتياطاً بالغ القسوة إذا خاطوا بشكل تام عضو إخصابها ، وتنتهي هذه الواقعة أننا بصدد شعب تنهشه غير متأججة ، وفضلاً عن ذلك فإن هذه العاطفة المتطرفة تتجلى في تلك العناية التي يخفي بها النوبيون نساءهم عن نظرات الأغراب ، وقد حدث في أثناء زيارة لنا إلى بعض قراهم - وكان يتبعنا منهم جمهور كبير - أن شاهدنا رجالاً يتسلحون بالعصى ولا هم لهم إلا طرد الدسوة اللاتي جذبن الفضول إلى موكبنا ، ورغم ذلك فإن عادة التحجب الشائعة في مصر ليست مستقرة بين الدسوة النوبيات ، فهن يظهرن بوجه مكشوف ، ويتوزع شعرهن بين عشرات من الخصلات « البوكلات » الصغيرة المجددة بشكل لولبي والتي تتماوج على الجبهة وعلى كل جوانب الرأس . وأرديتن تغطى أجسامهن بشكل تام ، وقد شاهدنا البعض منهن يتلفعن ملابسهن على نحو يبقى الذراع الأيمن والكتف عاريين . وتبدو حركاتهن وهياكلهن تحت هذا الملابس ، رقيقة تكسوها مسحة من نبل .

ويتسكون رداء البلد التي لم تبلغ سن البلوغ من حزام مصنوع من حبال صغيرة مجدولة فيما بينها وتندلى أطرافها كأهداب حتى تلت الفخذين ، ولا يخفي هرين هذا أى حجاب آخر ، ومهما تسكن هذه العادات لا تتطابق في كثير مع أفكار العفة عند الأمم المتحضرة إلا أنها في الوقت نفسه أكثر اقتراباً إليها من العرى التام ، وهو الأمر الشائع في مدن مصر بل وحتى في القاهرة ذاتها .

أما الرجال البالغون فيرتدون قميصاً أزرق أو أحمر اللون مثل الفلاحين

المصريين ، ويظل الأطفال عراة حتى سن الختان وعندئذ يتخذون لأنفسهم رداء ، وقد شاهدت كثيرين منهم يرتدون شالاً « إيشارب » أبيض يتدلى من الكتف اليمنى فيغطي الكتيتين والأعضاء التناسلية . ولهذا الملبس أثر طيب على نحو ما .

ولغة النوبيين رقيقة . . ليس فيها على الإطلاق هذه الأصوات الحلقية الشائعة في اللغة العربية والتي تبدو غريبة على الأذن الفرنسية حتى لتصدما عند سماعها إياها لأول مرة . ومن الممكن كتابة هذه اللغة (النوبة) بحروف الهجاء الفرنسية دون أن يتحور بذلك نطق الكلمات . ولقد قمت بعدة تجارب في هذا الصدد ونجحت باعتراف أبناء النوبة أنفسهم ، وقد لاحظوا هم بدورهم تطابق نغماتنا ونغماتهم وقال لي أحدهم : « في أول مرة سمعت فيها الفرنسيون يتكلمون ، ظننتهم أناساً يتحدثون لغتي نفسها دون أن أستطيع فهمهم » .

وقد تفضل المسيو فلسان Vincent عضو جمعية الفنون في مصر ، والذي أصبح يتحدث اللغة العربية بمهارة شديدة - فقبل بأن يكون بالنسبة لي مترجماً لتجميع المعلومات الواردة في هذه المذكرة ، ولم نكن نستطيع أن نعقد صلة إلا مع هؤلاء من النوبيين الذين يعرفون العربية ، وكانت المخارج الصوتية القوية لهذه اللغة ترق في أفواههم ، ويتخذ العرب من ذلك مادة للسخرية من هؤلاء القويين ، ذلك أن كل أمة ترى عاداتها قاعدة المفاضلة ونمطا للجمال .

وحيث أن الفترة التي أقضاها بين النوبيين لم تستمر إلا لبضعة أيام ، قضيتها كلها على وجه التقريب في دراسة الآثار القديمة ، فإنه لم يتيسر لي من الوقت ما يكفي لكي أجمع من اللغة النوبية المعلومات التي تكفي لتجعلني في وضع من يستطيع أن يحكم على ميكانيزماتها وعلى المصاحرات اللغوية التي قد تكون لها

مع اللهجات المحلية الأخرى التي تستخدمها مختلف شعوب أفريقيا ، ومع ذلك فأظنني أستطيع أن أؤكد أنها لا تختلط مع لغة أى شعب عرفناه حتى اليوم .

وقد ظن بعض الناس أن النوبيين (البرابرة) يمكن أن يكونوا مستعمرة للبربر ، والآخرين هم ذلك الشعب الذى يسكن جبال أطلس والذى يتكلم هو الآخر لغة متميزة عن لغة كل المحيطين به ، لكن هذا الافتراض الذى ينهض على تشابه فى الأسماء ساقط من أساسه ، ومن السهل التبديل على ذلك بمقارنة الأسماء التى تميز الأرقام العددية الأولى فى اللغتين . وقد حصلت على الأرقام فى لغة البرابرة (النوبيين) وأنا مقيم بينهم وعن طريق رجل من أهل البلاد ، أما أرقام اللغة البربرية فقد حصلت عليها عن طريق المسيو لانجيه Langès الذى ألحق بترجمته لرحلة هورنمان Hornmann وملخصاً بالمفردات الأساسية للغة البربرية قام بوضعه المسيو فنتور Venture والمودع على شكل مخطوط بالمكتبة الملكية .

الرقم البربرى	الرقم النوبى	الرقم الفرنسى (العربى فى الترجمة)
وين - ايان	ويرا	واحد - واحدة
وان - وا		(احد - احدى)
سن - سلسنت	أوو	اثنان - اثنتان
كراد	توسكو	ثلاث - ثلاثة
كوز	كسو	أربع - أربعة
سموس	ديجه	خمس - خمسة
سدليس	جورجو	ست - ستة
ست	كولدا	سبع - سبعة
تم	لاروو	ثمان - ثمانية
دزا	أوسكدا	تسع - تسعة
ميزوا	ديمه	عشر - عشرة

وقد شاء المستشرق الميسيو مارسيل Marcel عضو المجمع المصرى استجابة لطلب منى أن يشكل لوحة توضح التقارب بين الأسماء المعبرة عن الأرقام العددية الأولى في ثمان وعشرين لغة أفريقية قديمة وحديثة ولم أجد أى تشابه بين الأرقام النوبية والأرقام التى تنسب إلى لغات أخرى .

وحيث أن العربان يشغلون الصحراوات التى تفصل النيل عن البحر الأحمر وكذلك تلك التى تقع إلى الغرب من الصخور المحيطة بالنيل فقد نتج عن ذلك أن اللغة النوبية قد انحصرت بشكل تام فى ضفاف النيل حيث لا تنتشر إلا فى مساحة خمس درجات فقط من خطوط الطول .

وتعتبر قرية قنق الواقعة على الشط الايمن (الشرقى) للنيل على بعد ٦ ميريامتر « ٦٠ ك . م » من أسوان عند الاتجاه شمالاً نحو كوم أمبو النقطة القصوى فى اتجاه الشمال والتى يسكنها النوبيون ، ويبدو سكان هذه القرية كما لو كانوا مستعمرة منفصلة ومنعزلة بين بقية الشعب النوبى ، ويمكن العثور عليها بالصعود إلى جنوب أسوان من جديد ويقطن المنطقة العازلة ، وكذلك مدينة أسوان ، مصريون .

ويسكن جزيرة الفانتين ويقوم على زراعتها النوبيون ، وعندما يبحر المرء إلى الجنوب لمدة ستة أيام يجد هذا لامة حوله على الشاطئ ثم يجد ولمدة يومين آخرين قبيلة عربية وبعد ذلك يجد المرء نفسه من جديد محاطاً بالنوبيين الذين تمتد منطقةهم حتى الشلال الكبير .

لقد حصلت على هذه التفاصيل عن طريق نوبى حاد الذكاء يسمى الحاج محمد ، وهو قد ذهب عدة مرات إلى الشلال الكبير ، وقد أضاف بأنه يوجد فى جنوب الشلال الكبير شعب مزارع بالغ الطيبة يسمى المحس ، ويخضع هذا الشعب لعربان الشيقية الذين يخطفون فى أثناء إغاراتهم الأطفال ويلحقونهم

بالمحس بقصد زيادة عدد الفلاحين الذين يعملون لحسابهم . وهناك احتمال كبير في أن يكون المحس يلتصقون لنفس النوبيين ؛ ويمتد هذا المجلس إلى جنوب الشلال حتى دنقلة عند الدرجة الـ ١٩ من خطوط العرض .

وقد رأينا في تقرير الرحلة التي قام بها بونسيه Poncet في عام ١٦٩٨ حين كان متوجها إلى أيوريا عن طريق الواحة الكبرى ، انه بعد أن عبر صحراوات الشب وسليمة قد وصل إلى النيل في مكان تقع فيه ضيعة ضخمة تسمى مشو يقول بأنها « تنبع ملك سنار وتشكل بداية لبلاد البارورا الذين نسميهم نحن بربران » وفي الواقع فان النوبيين يعرفون بهذا الاسم « بربران » عند التجار الأفرنج المقيمين في القاهرة .

ولقد أقام المستر براون Brown لمدة ثلاثة أعوام في كبة في دارفور ووجدنا مدينة عامرة بالتجار المولودين على ضفاف النيل في الحجاز ودنقلة ، وهما منطقتان تروعهما كما يقول هجات عربان الشيجية « الشيقية » وهو الأمر الذي يطابق المعلومات التي قدمها لي الحاج محمد ، وفضلا عن ذلك فان المستر براون يقول بأن لون هؤلاء التجار زيتوني ، وأن ملامحهم تشبه بعض الشيء ملامح الأوروبيين ، وأن تقاطيعهم على وجهه العموم مناسبة ومعمرة . وفي هذه الملامح لا يمكن أن نخطئ النوبيين حتى لو لم ينقل إلينا هذا الرحالة بأن هؤلاء يتحدثون فيما بينهم بلغة البرابرة .

وقدم إلى الحاج محمد أسماء كثيرة من القرى والنجوع التي يسكنها النوبيون والتي تقع على ضفتي النيل إلى الجنوب من فيلة .

وتقع اثنتان من هذه القرى إلى الشمال مباشرة من الشلال الكبير ، ويطلق على تلك التي تقع على الشط الشرقي للنيل اسم سيوارتي أما الأخرى الواقعة على الشط المقابل فتسمى اللواناتي ، وتضم القائمة التي كتبت بإملاء من

— ٢١٤ —

الحاج محمد ٨٣ نجماً يقع أربعة وأربعون منها على الشاطئ الشرقي وتقع التسعة والثلاثون الأخرى على الشاطئ الغربي .

ومن بين تلك النجوع الواقعة على الشاطئ العربي « الشرقى » توجد الدر وأبريم اللتان ينبغي أن نوضح أهميتهما : فأبريم تعتبر بمثابة عاصمة لبلاد النوبة وربما يكون لنا أن نطلق عليها لاسمنا لاستخدام المصطلحات اسم مدينة وتذكر سبع من القرى الواقعة على الشاطئ الغربي باعتبارها تضم أطلالا وآثاراً مصرية قديمة . وقد أكد الحاج محمد وعديد من النوبيين الذين شاركوا في مهمتنا أن الكثير من هذه الانقراض تماثل في ضخامتها ودقتها آثار فيلة التي كنا في ذلك الوقت نراها بأعيننا وهذه القرى هي :

١ — دودة التي يمكن الذهاب إليها من فيلة في بضعة ساعات .

٢ — أبسكو ٣ — قرناس .

٤ — هنداد وهذه الأماكن الثلاثة شديدة القرب من بعضها البعض ، ويمكن الذهاب إليها من فيلة في بحر يوم .

٥ — كلابشة غرب : وتقع على مسيرة يومين من فيلة .

٦ — العلاقي وتقع على مسيرة أربعة أيام ونصف يوم من فيلة « وقيل لي أن بها مبنى أثريا ضخما وثلاث مسلات كبيرة » .

٧ — السبوع على بعد خمسة أيام من فيلة .

وكنيت في ذلك الوقت أجمل أن المسيو نوردان قد اتجه عن طريق النيل جنوباً حتى « الدر » وأنه قد تعرف على أطلال آثار مصرية في ثلاث نقاط على الشاطئ الغربي :

واليكم تبعاً لما ذكره نوردان أسماء الأماكن التي تقع بها هذه الآثار :

سهداب، الدكة، أبو هور، على الشاطئ الشرقي، دبودة، هنداو،
تيفا، مارية، الدندر، قرشة، السبوع، عمدا، على الشاطئ الغربي.

ومما تجدر ملاحظته أن هاتين القائمتين لا تقدمان سوى ثلاثة أسماء مشتركة
هى «دبودة، هنداو، السبوع» كما ترد في قائمة الحاج محمد والتي نجدها عند
نوردان : دبودة، هنداو، السبوع. ويبدو تبعاً لذلك أنه توجد أطلال
«آثار» في أربعة أماكن أفلتت من أبحاث هذا الرحالة، لسكنى أظنه قد خا ط
بآثار هنداو تلك الآثار التي يضعها الحاج محمد في ابسكوو قرتاس، فقد ذكر
هذا النوبي هذين المكانين باعتبارهما قريبين من هنداو ويحكى المسمى نوردان
أنه لاحظ في مساحة تبلغ أكثر من ربع فرسخ على مرتفعات هنداو وجود
جدران وأساسات لمبشبات متعددة باللغة الروعة، ولا بد لخرائب تشغل كل
هذه المساحة أن تبرهن على أن مدينة هائلة كانت فيما مضى تقوم في هذا
المكان.

ويخيل إلى كذلك أن الآثار التي يضعها الحاج محمد في كلابشة غرب هى
نفس آثار تيفا التي يتحدث عنها نوردان، وفي الواقع فإن تيفا في خريطة
نوردان تقع على الشط الغربى للنيل، في مواجهة مكان يسمى كلابشه ويقع على
الشط الشرقى، ومن جهة أخرى فإن كلمة كلابشة غرب تعنى كلابشة الواقعة
جهة الغروب وتقع في البيانات التي قدمها الحاج محمد في مواجهة كلابشة شرق
تماماً، وتعنى هذه الكلمة «كلابشة شرق» كلابشة الواقعة جهة الشروق.

ونجد على الدوام في هذا الجزء من مجرى النيل قرى تقع الواحدة في
مواجهة الأخرى وتحمل كل منهما نفس الاسم، وتتميز كل منهما بالصفيتين :
شرق وغرب، ونجد على ذلك أمثلة عديدة في تقرير نوردان وكذلك في قائمة
الحاج محمد التي سأدونها في ذيل هذه المذكرة.

ولو أن قائمة أسماء النجوع والقرى التي كونتها حسب المعلومات التي قدمها إلى هذا النوبى ، الحاج محمد ، كانت لا تشتمل إلا على البلاد التي رآها المسيو نوردان لما وجدت أهمية تذكر من وراء نشرها ، ذلك أن الوقائع التي رآها في أماكنها رحالة أوربي مستكون على الدوام أكثر مدعاة للثقة ولاشباع الفضول من تلك التي يقدمها واحد من أهالى البلاد لا يزال - حتى مع ذكائه الشديد - فى مرتبة أدنى بالنسبة لهذا الرحالة من ناحية العلم ودقة التفكير ، لكن قائمة الحاج محمد تحتوى جزءاً من مجرى النيل لم يره المسيو نوردان مطلقاً وهى تلك المنطقة الممتدة من جنوب الدر حتى الشلال الأكبر ، ولما كانت المعلومات التى تثير فضول الجغرافيين حول هذه البلاد تنقصنا بشكل تام ، فإنه يبدو لى أن نشر هذه القائمة لن يخلو من نفع ، حتى ولو لم نكن نرجو من وراء نشرها ، إلا أن تثير وأن تعين على تفهيم أفكار قد تقود ذات يوم ، إلى معارف أكثر دقة .

الجانب العربي أو ما يطلق عليه الجانب الشرقي أو شرق	الجانب الليبي أو ما يطلق عليه الجانب الغربي أو غرب
الباب	الحصنة
—	تنجار
قلة طود	بشير
كوندى	دبود
بهانة	—
جودى	أبسكو
سيالة	قرتاس
دهميت	هنداو
الأمبركاب	تيفا
كلا بشة شرق	كلا بشة غرب
أبوهور شرق	أبوهور غرب
مارية	مروا
قرشة شرق	قرشة غرب
كشتمنة شرق	كشتمنة غرب
العلاق	العلاق
سيالة	قورته
هارة	—
كرسكو	أدندان
الديوان	شاورمة
—	الريقة

الجانب الغربي أو ما يطلق عليه الجانب الغربي أو غرب	الجانب العربي أو ما يطلق عليه الجانب الشرقي أو شرقي
—	أعراب
جبل حمام	—
توماس	—
—	الندر
—	تنقالة
—	الشيقة
كركر	—
العفت	—
مصمص	—
—	لمريم
توشكي غرب	توشكي شرق
أبو سبل	أرمنا
فرس	أدندان
سرة غرب	سرة شرق
فرقندة غرب	فرقندة شرق
أرقين	أشكيت
—	دبروسة
—	وادي حلفا

(٩)

مدينة رشيد « جبولوا »

العنوان الأصلي للدراسة هو :

« دراسة موجزة عن مدينة رشيد » .

« وتشتمل هذه الدراسة على وصف عبورنا عن طريق
البحر من الاسكندرية الى هذه المدينة ، وكذلك على
وصف الرحلة من رشيد الى القاهرة عن طريق النيل » .

الفصل الأول

العبور من الإسكندرية إلى رشيد

بعد بضعة أيام من زول الفرنسيين إلى الإسكندرية أعطى القائد العام ، بعد أن قام باستعراض للجيش ، إشارة الرحيل ، فتوجهت فرقة إلى رشيد ، بينما تقدمت الفرقة الرئيسية نحو دمنهور ، لكي تصل بعد عبورها جزءاً من الصحراء ، إلى تلك السهول الخصيبة من وادي النيل . وكنا قد استولينا لصالح الجيش على كل ما كان يوجد بالإسكندرية من مؤن ضرورية ، وكان على الذين لم يتلقوا - مثلي - أمراً بوجهتهم أن يبقوا بالمدينة ليعانوا طيلة الأيام من مشاق ضخمة في سبيل التزود بضرورات الحياة .

وفي هذه الظروف ، الشاقة بقدر ما هي حرجية ، اتخذت مع عديد من الرفاق قراراً بالتوجه إلى رشيد ؛ وهي مدينة تقع على شواطئ النيل ، وقد كنا نعلمها - ونحن محقون في ذلك - زاخرة بكل أنواع المؤن . وبعد أن اجتزنا الآلاف من المشاق والصعوبات ، مما لا زى فائدة من تعدادها هنا ، أبحرنا فوق مركب حربي صغير من مراكب الحراسة كان راسياً في الميناء الجديد . اجتزنا الممر القريب من الفنار وسرنا بحذاء الشاطئ ، ووصلنا لنرسو وسط الأسطول الفرنسي الذي كان قد ألقى رواسيه في خليج أبي قيسر . وفي اليوم التالي أبحرنا نحو فتحة مصب النيل .

وسواء كانت الرياح التي تهب بعنف قد أقلقتنا ، أم كنا نخشى ألا يكون

عمق مياه البوغاز^(١) كافياً فإننا لم نقرر مطلقاً في هذه الظروف أن نعمل على إدخال مركبنا إلى النهر . عندئذ جعلونا نمضي فوق زورق مدفعية غاطسه غير عميق . وحيث كانت المياه شديدة الهياج فإن تغييرنا لسمفيلتنا لم يتم إلا بشق الأنفس . صعدنا إلى زورق المدفعية ونحن نلعب البحر والأسفار ، وعلى بعد ثلاثة أرباع الفرسخ من مصب النيل كان لون المياه أخضر فاتحاً ، بل لقد لمحنا بوضوح ، الخط الفاصل بين اللون الأخضر ، لون مياه النيل ، واللون الأزرق ، لون مياه البحر . وما أن اجتزنا البوغاز حتى تغير اللون الأخضر إلى اللون الأصفر ، الناتج بلا ريب من لون الرمال التي ينقلها النهر إلى مصبه ، والناتج كذلك من لون الطمي العالق بمياه النهر . وعندما يكون البحر هائجاً فإن عبور البوغاز يشكل بالفعل مشهداً مفرعاً . كذلك فإن كثبان الرمل التي تحيط بفتحة مصب النهر متحركة مثل الأمواج ذاتها . وليس لمن يبحر في هذه المنطقة أن يأمل في النجاة من الغرق إلا إذا كان يقوده بحار متمرس شديد الخبرة . ولقد كان معنا لحسن الحظ بحار بالغ المهارة جنباً بمحذق شديد مهالك يمكن القول بأنها كانت تحيط بنا من كل مكان . وما أن دخلنا النهر حتى أبدى البحار ابتهاجاً شديداً ، وعبر له بعض الركاب ، وهم يعطونه بعض قطع النقود ، عن بالغ تقديرهم لمهارته وحذقه .

كنا قد خلفنا وأرنا العواصف والبحر الهائج ، ولم نعد نسمع صوت ضوضاء الأمواج التي كانت تتدافع لتتكسر في صمت على كتل الرمال وعلى الشاطئ ، وكنا نستمتع بالهدوء شديد العمق ، وكنا نتابع بعيوننا جمال شواطئ النيل الذي

(١) كلمة بوغاز بالتركية تعني gozier أي الحلقوم . والبوغاز عبارة عن مدخل شديد الضيق ، يصل إليه الجرى مختزلاً كتل الرمال ، مكوناً ذراعاً عند مصب النيل . وهذه السكتل الرملية قد نتجت عن ترسبات النهر ، حين يفقد سرعته عند اقترابه من البحر . وليس هناك ما هو أكثر ثقلًا من هذا الممر ؛ فكتل الرمال التي يختزقها ، تتحرك على الدوام بفعل أمواج البحر ؛ وعندما تهب رياح الغرب ، أو رياح الشمال ، بشيء من العنف ، تندفع مياه النيل من جديد عائدة إلى مصدها ، فيضطرب الجرى في كل مكان ، حين تلقى المياه أدنى مقاومة .

يستعصى على الوصف فلم نجد أى أثر للبالغة فى تلك الحكايات التى كان يقصها الرحالة الذين سبقونا إلى هذا المكان ، وكانت الريح تملأ شراعنا ، وكنا نتقدم بسرعة نحو مدينة رشيد ، الهدف القريب من رحلتنا ، وسرعان ما اجتزنا أنقاض حصن قديم مهجور ، كان يستخدم فيما مضى لحراسة مدخل النيل والذى خاض منه الفرنسيون فيما بعد معركة دفاع بطولية^(١) بعد أن كان قد أصبح بعد ترميمه^(٢) مقراً للمعجزة والجرحى الفرنسيين .

خلفنا عن يسارنا جزيرة كبيرة بعض الشئ ، تغطيها الخضرة وتذبح أجل المحاصيل ، أما عن يميننا فقد كان ثمة غابات من النخيل ذات خضرة أخادة ، وحيث أن شطآن النهر قليلة الارتفاع فقد كان مدى البصر يمتد إلى بعيد حيث القرى الصغيرة والخصيبة ، وكنا نلح هنا وهناك كفوراً تتكون من عدة منازل بعضها من الطوب وبعضها مجرد أكواخ من قش البوص ، وكنا نلح هنا وهناك كذلك بعض مساكن منعزلة ومآذن رائعة وأضرحة ومقابر لأولياء المسلمين تتجمع حولها بشكل جذاب بعض مجموعات من النخيل . أمامنا جهة الدلتا ، فقد كانت العيون تستقر بارتياح وإعجاب فوق حقول يغطيها الأرض ، فتشكل واحداً من

(١) فى التاسع من جرمينال من العام التاسع (١٩ أبريل ١٨٠١) ، هوجم حصن جوليان . وقد أطلق الفرنسيون عليه هذا الاسم ، وهو اسم مساعد قتل عند النزول إلى الاسكندرية بيد الإنجليز ، وقد أبدى الحصن مقاومة كبيرة ، وتحمل حصاراً دام عشرة أيام ، على الرغم من الزيران المستمرة التى كانت تطلقها المدفعية القوية المعادية . وفى النهاية استسلمت الحامية ، يوم التاسع والعشرين ، بعد أن نالت كل أنجاد وشرف القتال . وسأل الإنجليز ، وهم لا يرون إلا صفاً من المعجزة والمشوهين : متى لذن ستخرج الحامية ؟ ذلك أنهم لم يكونوا ليتصوروا مطلقاً ، أنهم كانوا مشتبكين فى هذا القتال العنيف مع عجرة وعميان .

ويبقى أن نتذكر هنا ، أنه عند عمل تنقيبات ، وقت ترميم هذا الحصن ، عثر المسيو بوشار Bouchard ، الضابط المهندس ، على حجر رشيد المهير ، ذلك الأثر الثمين ، الذى وضع منذ وقت طويل تحت يد علماء أوروبا ، وقد صورت السكعابات الثلاث الموجودة على هذا الأثر المهرى على اللوحات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، المجلد الأول ، الدولة القديمة .

(٢) أنظر شكل هذا الحصن ، المجلد الأول ، اللوحة ٨١ ، الدولة الحديثة .

أبهج المشاهد . وغير بعيد من النهر ينمو بوفرة شديدة عديد من المحاصيل والشجيرات يلاحظ من بينها غلات من أشجار البرتقال وأشجار الليمون التي تدثر شذى طيباً . أما شطآن النيل نفسها فتزينها نباتات الغاب والخيزران والبشنيين «عروس النيل» ، وتوزع هنا وهناك في كل مكان أشجار الجوز الضخمة والتي تغطي أفرعها الكبيرة مساحة واسعة ، فتشكل واحداً من أبهج مشاهد الخضرة ، وتذب الحياة في هذه اللوحة الرائعة حين يظهر بين الحين والحين بعض السكان الذين كانوا ، بلحيتهم الطويلة وردائهم ، يشكلون بالنسبة لنا شيئاً رائعاً وغير مألوف في وقت معا ، وكان هذا المشهد ماثراً لاهتمامنا الكبير على الدوام .

وفي النهاية ، وصلنا إلى ميناء رشيد ، وكانت القوات الفرنسية قد سبقتنا إلى المدينة في اليوم السابق .

الفصل الثاني

المظاهر الخارجى لرشيد وضواحيها

تقع رشيد أسفل خط العرض ٣٥° ٨' ٢٨° وعلى خط طول ٣٤° ٢٤' ٣١° وهذه المدينة ، التي كانت قليلة الأهمية في زمن أبى الفداء ، هي اليوم واحدة من أهم مدن مصر بسبب موقعها وتجارها واتساعها .

وحيث أن رشيد قابعة على شط النيل وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر ، فإنها تستخدم كستودع للبضائع القادمة من القاهرة ، والمناطق العليا من مصر «الصعيد» كي تنقل إلى أوروبا عن طريق الإسكندرية ، وب نفس الطريقة ، فهي تستقبل البضائع التي تنزل إلى الإسكندرية قادمة من أوروبا : وتنقل هذه البضائع إلى القاهرة عن طريق النيل ، ومن هناك تتوزع إلى كافة أنحاء مصر . ويرجع إنشاء رشيد إلى القرن التاسع ، ويخبرنا المسكين بأنها قد بليت في عهد المتوكل خليفة

بغداد حوالى عام ٨٧٠ . ولقد ورثت رشيد المسكانة التى كانت تحتلها من قبل مدينة فوه التى كانت فيما مضى ، شأنها فى ذلك شأن مدينة رشيد ، مستودعا للتجارة ، ومقرا للقناصل الأوروبيين ، ثم زال عنها اليوم مجدها القديم .

وقد استمد فرع النيل الذى يمر أمام هذه المدينة اسمه من اسمها ، وكان هذا الفرع يحمل فى العصر القديم اسم الفرع البوليتينى نسبة إلى مدينة بوليتين الواقعة على نفس الفرع . ويشير إتيان دى بيزانس إلى هذه المدينة دون أن يحدد موقعها بدقة ، ويتحدث بلين عن فتحة «مصب» بوليتين على النهر لكنه لا يتحدث ولو بكلمة واحدة عن المدينة . ويمكن الاعتقاد بأن موقع بوليتين كان يوجد إلى الجنوب من رشيد غير بعيد عن حصن أبو منصور الذى ستتحدث عنه عما قليل . وفى الواقع فإنه يوجد فى أسفل هذا الحصن خليج صغير ، نصف دائرى ، يبدو أنه كان يستخدم فيما مضى كميناء ، وقد أصبحت تسده هذه الأيام رمال الصحراء ومنذ فترة غير بعيدة تمت تنقيبات فى هذا المكان فعثر فيه على أعمدة رائعة من الجرانيت^(١)، وهذا سبب جديد يحفز الاعتقاد فى صحة الرأى الذى هرصناه للتو عن الموقع المحتمل لمدينة بوليتين القديمة .

ولسكى نصل إلى حصن أبو منصور ، سرنا بجذاء الشط الأيمن للنيل، وهو شط مناسب لحد كبير، وفى النهاية شطنا ثلاث قطع من الأعمدة البجرانيّة ، اثنتين منها تمثلان بقية الأعمدة المزدوجة التى كانت مقامة على شواطئ النهر ولكن لعل هذه القطع التى وجدناها كانت بعيدة بعض الشيء عن موقعها الأصلي . وقد رأينا كذلك على بعد مسافة من هذه القطع جذعا آخر لعمود كان الأهالى يستغلونه فى صنع الرحيان «رحى» . وهذه الآثار القديمة التى عثرنا عليها فى هذا المكان الذى أشرنا من قبل إليه تأتى لتدعم أكثر، احتمال كون هذا المكان

(١) أنظر رحلة إلى مصر العليا ومصر السفلى ، تأليف سونيني Sonnini ، الجهاد

هو الموقع الجغرافي لتلك المدينة التي أعطت اسمها في العصر القديم للفرع البوليميني .

وعند سفح حصن أبي منصور ، توجد صومعة إسلامية « زاوية » يشكل مظهرها النظيف تناقضاً صارخاً مع تلك المساكن القذرة في أحط أحياء رشيد ، وهي ملحقة بمسجد أقيم تكريماً لولي مسلم تقع مقبرته في داخله . وأبو منصور هو اسم هذا الولي ، وهذا الاسم يعني بالعربية : أبو الروعة وأبو الجبال ، أما المكان نفسه فهو بمثابة مزار يتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجاه حتى يحوزوا بركة ورضاء الولي ، كما يحدث الأمر نفسه في مزارات كثيرة لأولياء آخرين عرفناهم في مصر ، حيث يباغ الوهم بالناس أن الولي من هؤلاء ، قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيبات اللاتي يجئن إليه ضارعات .

ويهض حصن أبي منصور على أحد المرتفعات المبتعدة إلى الجنوب ، والتي تلامس الخليج الصغير الذي تحدنا عنه ، وهو مربع الشكل ويبدو أنه قد بنى في زمن العرب ، وهو متهدم حتى أساسه وينذر بانقيار قريب ، ومن حوله تترامى الرمال التي تذروها رياح الصحراء فغاص فيها حتى منتصف ارتفاعه ، وتحيط به المقابر وكأنما الأمر نذير بالدمار الذي سيكون عليه هذا المكان ذات يوم .

وعندما صعدنا إلى المبنى تمتعنا بواحد من المشاهد الجميلة والتي تختلف اختلافاً بيناً عن تلك المشاهد التي ألفناها في أوروبا ، فهي ليست تلك المشاهد الرومانسية التي تعان عن نفسها تلقائياً بتنوع مناظرها الطبيعية حيث الجبال والسهول تشكّلان تناقضات جذابة للعيون ، فالتناقضات هنا محددة بحجم ، فهناك الصحراء الليبية في جانب ، وفي الجانب الآخر هناك شواطئ النيل البهيجة ، وهكذا يمكن القول بأن الحياة والموت يتجاوران . وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التي تفصل رشيد عن الاسكندرية ، لكن المشهد يضيع وسط الرمال

المتحركة التي لم تبق مطلقاً على أثر الخطوات الرحالة . واقد كان من الممكن ألا نلاحظ الآثار الواقعة على طريق الاسكندرية - رشيد لو لم تكن تشير إليها وتلفت الأنظار تلك الأعمدة من الطوب النية التي تنهض قباعاً بطول الطريق ، وترحف هذه الرمال المتحركة حيثما نحو مدينة رشيد حتى يبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية ، فهي تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوايق التي هناك لتكون كثباناً يتزايد عددها يوماً بعد يوم ، واسوف تغطي عما قليل ، الرقعة المنزرعة من الأرض ، وحينئذ ستكون هذه الرمال - كما سبق أن عبر المصريون القدماء بدقة - هي طيفون الرهيب الذي يهدد بغزو مملكة أوزيريس ، أي أرض مصر الخصبة .

وعندما يلتقل المرء بنظراته نحو الشرق ، يرى تحت بهره نيل مصر العظيم ، تسبح فوقه قوارب ذات شكل جذاب . ويرى كذلك ريف الدلتا البهيج حيث تمتد حقول الأرز وصفوف أشجار النخيل والجيز ذات الخضرة اليانعة ، رائحة الجمال . كل شيء في هذا الجانب ينم عن حيوية دافقة ، وكل شيء فيه يتلى بالحياة ، فهناك ترى قطعان الجاموس ، ترحى الكلا أو تخمس جسدها في النهر ، وترى الفلاح منهمكاً في أعمال الحقل دون أن يسمح لنفسه بالتقاط أنفاسه . فتراه وهو يدير ماكينته الري كي يسقي حقوله فينمو محصول الأرز وينضج فيحصل بذلك على مقابل ما بذله من جهد بالإضافة إلى ما يقتضى من ربح .

وليس الريف في شمال الدلتا بأقل ثراء أو أقل خصوبة ، ولا هو أقل محصولاً ، وتقطع الريف هناك وتخرقه آلاف من الترع والقنوات الصغيرة التي توزع في كل مكان مياه النهر ، سواء كانت تأتي إليها المياه بشكل طبيعي أو كانت ترفع إليها من طريق ماكينات هيدروليكية من تلك التي تستعمل في هذه البلاد . ويشكل البحر خلفية هذه اللوحة ، حيث يمتزج امتداده مع السماء .

ويمكن للمرء من حصن أبي منصور أن يلاحظ حركة السفن التي تسير بحذاء شاطئ البحر كي تدخل إلى مصب النيل ، كما يمكنه أن يرى تلك السفن الضخمة التي تخرج عباب البحر . وكمن مرات تملسكنى المشوة في هذا المكان وأنا واقف أطلع ذلك المشهد الرائع ، فبعد أن أكون قد أنهكت طويلا في العمل كنت أذهب إلى هناك ساعياً للترويح عن النفس ، وعلى نفس المنوال . فعندما كانت ذكرى الوطن الحلوة تلح على خيالي بشكل قوى ، كنت أذهب إلى البرج وهناك كنت أرى ... في خيالي - الطريق المؤدى نحو الوطن ، نحو فرنسا ، التي لا يمكن للمرء مطلقاً أن يفارقها دون أسى . وذات يوم ، وبينما أنا غارق في أفكارى الحزينة ، تولد في نفسى هذه المشاعر ، دوى في أذنى جرساً صوت مكتوم ، وتكرر الصوت مرة ثانية ، وثالثة ، وأخيراً تبينت الأمر ، إنها أصوات مدافع .

كانت أول فكرة خطرت لي هي أن هذه الأصوات لا يمكن أن يكون مصدرها إلا الأسطول الفرنسي الذي ألقى رواسيه في خليج أبي قير ، عندئذ ألقيت ببصرى في هذا الاتجاه فأبصرت كل بحريتنا ، لكن الشمس كانت عندئذ تغيب خلف الأفق ، وعندما أصبح الليل معتماً أمسى في الإمكان رؤية البروق الناجمة عن طلقات المدافع ، وأطلقت السفن دفعة واحدة مدافعها وعلى الفور ، حلت ضجة مفرقة مكان ذلك الصمت العميق ، آه . . لقد اشتبك الأسطول الانجليزى مع أسطولنا ودارت معركة وحشية . وظهر بريق أبيض أخذ وضوحه يزداد على الدوام ليعلن أن ثمة سفينة قد اشتعلت فيها النيران ، وبرغم ذلك فإن هذه السفينة^(١) لم تتوقف عن صب مدافع أجنابها بينما تتلاعب بهما الأمواج مظهره مؤخرتها تارة وجانبها تارة أخرى ، كانت تشتعل بينهما هنى تقاتل ، وظلت

(١) كانت هذه السفينة تسمى لوريان l'orient ، أى الشرق ، وهى مكونة من ثلاث طوابق ، وكان يقودها الأميرال بروى Brueye .

على هذا الحال نحو ساعة ، حتى قفزت عالياً في الهواء عندما وصلت النيران إلى مخزن البارود . . وفي حياى كلها ، لم تر عيناى مشهداً يبعث كهذا المشهد على الروعة والرعب فى وقت معاً ، ولتتصوروا حزمة كبيرة من النيران ترتفع من وسط البحر داخل دائرة من سحب الدخان والأنقاض الملتهبة ، إن انفجار بركان لا يمكنه مطلقاً أن يقدم مشهداً أكثر روعة وفى نفس الوقت أكثر رهبا . وفى واقع الأمر ، فإنك ما أن تتخيل مجرد تخيل أخطار معركة بحرية فسوف ترتجف على الفور : فكل شىء هناك يتواطأ على هلاك الإنسان : البحر الهائج والرياح المزججة والنار المهلكة المدمرة .

لنحو عشر ساعات من الليل كفت أصوات المدافع عن أن تسمع ، ولكن ما كادت أصوات المؤذنين فى اليوم التالى تنادى الناس إلى الصلاة من فوق المآذن^(١) حتى عادت المعركة تلثب من جديد ، وعندما يكون المرء بالغ التأثر لحد عميق ، وعندما تأكله الأفكار والهموم والقلق فإنه يخلع على الأشياء الخارجية ذلك اليأس الذى يستبد بنفسه هو ، ذلك أنه لم يسبق لى مطلقاً من قبل أن رأيت نداء هؤلاء المؤذنين وهو الذى هلى يتم الدوام فى نغبات مقبورة ، حزينا هذه الدرجة من الحزن والأسى . وأسرعت إلى حصن أبى منصور . كانت ثمة سحب من الدخان كما كانت هناك ضجة مكنومة تعلن أن المعركة تدور بضراوة ، وبعد ذلك لاح منظر شبيه بالمنظر الذى رأيته فى المساء : سفينة^(٢) أخرى تشتعل فيها النيران وهى تقفز فى الهواء . . لنسكف الآن عن الحديث عن هذه المعارك القاتلة

(١) يدعو المؤذنون للصلاة خمس مرات فى اليوم ، فى الصباح قبل شروق الشمس ، وفى الساعة التاسعة (كندا) ، وعند الظهر ، وفى الساعة الثالثة ، وعند غروب الشمس .
(٢) هذه السفينة هى الفرقاطة l'Artémise ، التى كان يقودها السكابتين ستالى .
وعندما لم تطاوع قائدها نفسه على الاستسلام ، أضرم النار فى سفينة ، بعد أنه قاتل حتى النهاية . وقد أنزل كل بحارته على البر ، وكان هو نفسه فى أمان ، لكنه حين لاحظ أن النار لا تدمر فى السفينة بالسرعة السكافية ، عاد إلى سطح السفينة ، وجمع اثنين من البحارة ، كانا مغمورين فى العذر ، وهرع بهما إلى قاربه . وأشعل بنفسه النار فى كل مكان ، وانصرف ، وبعد لحظات لم يكن للسفينة من أثر .

والخزنة فلم يكن النصر حليف الفرنسيين هذه المرة، ولم يكن لهذا النصر أن يقدم لهم مباحجه إلا بعد عام كامل، وفي نفس مكان تلك المعركة الشهيرة : معركة أبي قير^(١)، حيث سحق الفرنسيون جيشاً تركيا بأكمله يتكون من ١٥-١٨ ألف جندي، ألقى بكثير منهم في البحر، ووقع الباقي أسرى، دون أن يتمكن رجل واحد منهم من الهرب .

وطيلة إقامتنا في رشيد كنا نتابع جولتنا إلى خارج المدينة، وعبنا المراهي التي تقع إلى الشمال من المدينة تجاه البحر، وتروى هذه المراهي قنوات ضيقة تغذيها بالمياه — في الوقت الذي لا تمتلئ فيها هذه القنوات بشكل طبيعي — سواقي سوف نتحدث عنها بعد قليل بشيء من التفصيل، وعندما يقترب الماء أكثر فأكثر من البحر، تصبح التربة في شكل مستنقعات ولا يعود الشاطئ نفسه يتسكون إلا من رمال .

لم نستطيع أن نقاوم طويلاً رغبتنا في زيارة جزيرة وارسى الواقعة أسفل مدينة رشيد، فقد كان منظرها البهيج يستحثنا على زيارتها. عرجنا على قرية يثى مظهرها بالبؤس، فبيوتها عبارة عن أكواخ فقيرة، دائرية الشكل تعلوها أبراج الحسام، وسقف هذا النوع من الأكواخ مصنوع من جذوع النخل وتمتلئ الفراغات فيما بين هذه الجذوع بقش البوص، ويغطي ذلك كله بالطين. لكن ما يعوضك عن مشهد هذه البيوت البائس، هو ما يغطي الجزيرة كلها من خضرة يانعة، بالإضافة إلى أشجار الجنين الخضمة التي يجد في ظلها المسافرين، بين مسافة وأخرى مأوى من لطيف الشمس كما يجدون فيها مشهداً ساحراً .

وفي نفس الوقت، فإن الأشجار المنتشرة في هذه الجزيرة، وفي ذلك الجزء الموازي لها من الدلتا تكاد تنحصر في أشجار النخيل والتوت. وقد شاهدنا في

(١) حدثت هذه المعركة في السابع من ترميدور من العام السابق (٢٥ يولية ١٧٩٩) .

الدلتا عن قرب - حقول الأرز التي تصنع ثروة هذه البلاد ، ويقوم الفلاح باغراق هذه الحقول بمياه النهر التي يرفعها إما بيده « الشادوف » وإما بواسطة ماكينات هيدروليكية « السواقي » ، ويصنع الفلاح سدوداً صغيرة من الطين حول مربعات مزروعة بالأرز ، وعندما يريد إدخال المياه إليها يقوم بقطع هذه السدود ويحدث هذا دون جهد يذكر . وتقطع الأرض في هذه المناطق المناطق ترعة رئيسية صغيرة توزع المياه بعد ذلك عن طريق ترع أكثر صغراً « المساقى » .

وقد جذبت بساتين رشيد ، وهى على الدوام تحظى بالإعجاب ، انتباهنا . وكانت هى فى معظم الأحيان الهدف الممشود من زياراتنا ، وكنا فى كل مرة نزور حديقة « جنينة » إبراهيم بك التى أصبحت نتيجة لأحداث الحرب عقاراً فرنسياً . ولا ينبغي عليك أن تأمل فى العثور فى مثل هذه الجنائن على المشاهد والاستعدادات التى تراها جميلة فى حدائقنا ، فمجموعة اختلافات كبيرة فى الواقع بين هذه وتلك ، تماثل تلك الاختلافات فى التقاليد والطباع التى توجد بين المصريين والفرنسيين ، إذ يظل هؤلاء على الدوام نقيض أولئك . فقلنا يغير المصريون من مساكنهم بل أنهم لا يعرفون مطلقاً معنى أن تريض ، وعلى العكس من ذلك فخيوية الفرنسيين ونشاطهم يجعلانهم على الدوام فى حركة دائمة .

وتحتوى جنينة إبراهيم بك على كمية هائلة من أشجار الفاكهة ، لكنها مبعثرة بلا فن ولا ذوق كما لو كانت فى داخل غابة ، وترى هناك عدداً كبيراً من أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والطويلة التى يبدو نسيجها وكأنها صنعت يد الإنسان ، كما يرى المرء هناك كذلك أشجار البرتقال والليمون والريحان والمان بوفرة . ويظهر العنب فى آلاف الأماكن المنفرقة يلف سيقانه المرنة حول جذوع الأشجار والشجيرات ، وترتفع أشجار الجوز هنا وهناك كما لو كانت ملوك

الأشجار المتوجسة لتعاو فوق كل هذه الشجيرات التي تنشر شذاها إلى مدى بعيد .

يقطع جنيئة إبراهيم بك عدد كبير من قنوات الري الصغيرة التي تصلها المياه بفعل ماكينات سوف نصفها بعد قليل . وثمة حجرة عند مدخل الجنيئة كان البسكوات يأتون إليها طلباً للراحة وتلسم الهواء . وهى مرصوفة بالرخام ، وفى وسطها حوض مشتمن الزوايا وعميق بعض الشيء ، وهو يمتلئ بالمياه . وتوجد حول الحوض منصات مرتفعة كانوا يجلسون عليها القرفصاء على طريقة المصريين . هذا كان إبراهيم بك يستقبل المقربين إليه ، وينصت باهتمام بينما هو يدخن نارجيلته ويشرب قهوته للحكايات التي كان يقصها عليه متملقوه لتسليمته ، أو للأمور الجادة التي جاء رجاله ليضعوها رهن إشارته ، ورغم ذلك فليست هذه الحجرة على الدرجة المفترضة من النظافة ، وهى من هذه الناحية مثل كل الحجرات من هذا النوع ، والتي أتيح لنا أن نراها منذ نزلنا إلى مصر .

وقد يتهيا المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد لأن يترك لخياله العنان، وأن يدع نفسه مع أحلامه ، لولا أن الاضطرابات وانعدام الأمن الذى يسيطر على هذه المزروعات سرعان ما يحطم هذا الحلم . ورغم ذلك فإنك لا تستطيع إلا أن تستسلم للبهجة التي تصنعها الروائح التي تشذو من كل مكان ، وللمشهد الأخاذ لزهرة الرمان ذات اللون الأرجواني ، ولزهرة الريحان ذات اللون الأبيض الباهر ، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التي تنشر الماء والغناء فى كل مكان والتي تحمل مياهها الموحلة طمياً ماثلاً للسواد . . هل يمكن لها أن تدخل فى مقارنة مع نهير اتنا الرائعة ، التي تتسلل وسط غاباتنا وحدائقنا ، حيث تنشر وتروى هذه الأبسطة من الحضرة التي لا نلمح لمثلها أثراً فى أى مكان من حدائق رشيد ، وبلا جدال فإن ثمار التين التي لا تحصى والتي تغطي شجرة الجيز تروح عن النفس ، كما أن أسبطة البلح الضخمة والمدلالة من أشجار النخيل

تبحث المرء حشاً على تذوق ثمارها ، ثم أن تلك الرمانات الضخمة تعدد بانعاش
صحي ، أما عن ثمرة الموز فلا بد أن المرء سيجدها في الغالب لذينة الطعم . ولكن ،
أستطيع هذه الفواكه أن تتفوق على الفواكه التي تلتجها فرنسا بتنوع ووفرة
شديدتين ؟ لكن تلك مسألة لا يمكن أن يحسمها سوى الذوق والاعتبار .

ويزرع في جنين رشيد الشام والبطيخ ، وهي فواكه تبدو رائعة في بلد
تشتد فيه درجة الحرارة .

وتقع كل بساتين رشيد هذه على وجه التقريب على حافة الصحراء وتشكل
سياجاً يحدد مساحتها ، وكذلك فإن الأشجار التي تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز
تحدد عن المدينة رمال الصحراء فتتراكم حولها « أي حول الأشجار » .

وإذا كان لنا أن نتخاضى عن كل الأشياء الواقعة إلى خارج رشيد ، فإننا
لا نستطيع أن نلزم الصمت إزاء مدافن المراتى . وتقع هذه المدافن غير بعيد من
البساتين التي تحدتنا عنها للقو ، إلى الغرب ، وعلى بعد مسافة قصيرة من المدينة .
وتمثل مباني هذه المقابر أنماطاً خاصة برشيد حيث لم نجد مثيلاً لها لا في أبي قير
ولا في الاسكندرية ، على الرغم من أنهما لا تبعدان كثيراً عن رشيد . وقد
رسمنا واحدة من هذه المقابر في اللوحة رقم ٨٢ « الصورة رقم ١٢ » بالمجلد
الأول - الدولة الحديثة . وهو يشكل نمطاً بالغ التأثير وبخاصة في لعبة الظلال .
ويبدو أن هذا القبر قد أنشئ لعائلتين متصاهرتين .

وقد استخدم الخشب بشكل رئيسي في بنائه ، وتبدو الشرائط المخصصة
للحفاظ على بواكيه مكشوفة بلا غطاء ، بل إنك تلاحظ وجود الخشب كذلك
في أجزاء كثيرة من المبنى حيث زال جزء كبير من الملاط الذي يغطيه ، أما العمدة
التي تحمل القائمة الوسطى فهي من الرخام . أما فوق المقابر الأكثر بساطة والتي
توجد في المقدمة ، فيلاحظ وجود حفرة مربعة الشكل يبلغ عمقها حوالي
١٤ - ١٥ سم ويوضع بها كمية من التراب يمكن أن تزرع فيه بعض النباتات ،

١٢٢ -

وتبعث أرضية المقابر على الحزن فهي بيضاء اللون فاتحة ، وهنا وهناك تتبعثر قطع الأحجار الصغيرة ونادراً ما تلمح فيها أثرا للنبات ، ويشكل الرسم رقم ١١ من اللوحة المئزر إليها مقبرة لا يمين منها إلا جزؤها الأعلى بالنظر إلى أنها تظهر من فوق سور المدافن . وتدخل المقابر الموجودة إلى الأمام في نطاق هذا السور ، وهي تبدو مقوسة من الداخل ويبدو أن الأجساد توضع فيها في جزئها الأمامي تحت الأرض .

وتتقضى السورة أيام الذكرى السنوية ، للمتوفين النهار كما هو معروف في المدافن ، فيحضرن معهن طعamen ويزرعن سعف النخيل أو الورود في تلك الحفر الصغيرة التي نفذت فوق المقابر ، وتلك عادة تماثل كثيرا العادة التي تتبعها هذه الأيام في مناطق عديدة من فرنسا ، بل وفي باريس ذاتها .

الفصل الثالث

الماكينات المستخدمة في الزراعة والرى

أخذت هلى عاتق أن أتناول في دراسة مستقلة ، مختلف الأدوات المستخدمة في الرى والزراعة التي رأيتها خلال جولاتي المتعددة ، لذلك فإن أتناول هنا هذا الموضوع إلا بشكل موجز ، مادمت قد قدمت في مكان آخر دراسات أكثر شمولا عن هذه الأمور ، وبخاصة تلك التي شاهدها في عاصمة مصر .

وتنقسم الماكينات المستخدمة في الرى في رشيد وضواحيها إلى ثلاثة أنواع ، هي تلك التي تسمى الشادوف^(١) والمنطال ، والعجلة ذات الثقب المجهوفة ، والعجلة ذات القواديس .

ويتم الرى بواسطة الشادوف عن طريق رجال يتخذون أماكنهم في طوابق

(١) أنظر الغنون والحرف ، اللوحة ٦ ، الشكل ١ ؛ المجلد الثاني ، الدولة الحديثة .

يختلف هدهما بحسب ارتفاع الأرض المطلوب زراعتها بمياه النهر ، وفي كل طابق من هذه الطوابق يرتفع جداران صغيران من الطين وأحياناً يسكتني بغرس شجرتين في الأرض ، يوضع عليهما بشكل عرضي جذع شجرة ، تعلق عليه بشكل رأسى عند ربع طوله من جهة الطرف الغايظ سلة طويلة . وعند طرف الذراع الأطول لهذه الرافعة يعلق حبل تدلى منه سلة مستديرة من سعف النخيل ، أو حقيية من الجلد ، أما في الذراع الأقصر للرافعة فتتمرر حلقات من الطين مهمتها أن تقوم بدور المقاومة . ويقوم الفلاحون الموجودون في الطابق الأكثر انخفاضاً أي عند مستوى النهر بنزع المياه ثم يرفدونها إلى الطابق الأول ، وتؤخذ المياه مرة أخرى بنفس الطريقة لرفع من الطابق الأول إلى الطابق الثاني ، ثم من الثاني إلى الثالث . وهكذا حتى تصل إلى أعلى حيث تصب في خزان توزع منه على قنوات الري .

أما طريقة الري المسماة منطال^(١) فهي تتم عن طريق فلاحين نصف جالسين على كومة من الطين المرتفع على شاطئ النهر ، ويمسك كل منهما بكل يد من يديه حبلاً تتدلى منه قفة أو نوع من الجردل المصنوع من سعف النخيل ، ويقذفان بهذه الجردال في النهر حيث تمتلئ ، وعن طريق الحركة التي يحدثنها يارتدادهما إلى الخلف ينتزعان الجردال من النهر ويفرغانها في خزان صغير في مستوى جداول الري .

أما الماكينة^(٢) المستخدمة في الري فهي العجلة « الدولاب » ذات الثقوب المجرقة « الساقية » . وهي تستخدم في الأماكن التي لا تصلها مياه النيل بشكل طبيعي وعندما لا يتجاوز ارتفاع الأرض المزروعة من منسوب المياه بـ ٢-٣ أمتار فقط . وهذه الماكينة عبارة عن شجرة موضوعة بشكل أفقي أقيمت

(١) أنظر الفنون والحرف ، نفس اللوحة ، نفس الشكل .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣ ، نفس المجلد .

عليها عند منتصفها وبشكل رأسى ، العجلة ذات الثقوب المجوفة وثبتت محاورها في الجدران الجانبية لخزان مياه صغير ، توجد فيه المياه مباشرة أو تسرب إليه من النهر . وهناك عجلة مسننة ، تلتصق بالعجلة ذات الثقوب المجوفة ، تشتبك بعجلة أخرى أفقية مسننة هي الأخرى ، ومثبتة على شجرة أفقية وتشعب هذه الشجرة في جزئها الأعلى لتقوم بدور نقطة الارتكاز لذراع الرافعة الطويل ، الذي يعلق فيه ويدور به حصان أو جمل أو بقرة أو جاموسة . وبفعل الحركة تقوم العجلة ذات الثقوب المجوفة بنزع مياه الخزان عن طريق الثقوب التي نفذت عند سطحها ، فتمتلئ الفراغات بالماء ، ثم تخرج المياه التي نزحت بفعل حركة العجلة وعن طريق نفس الثقوب ، لتسقط من جديد في خزان صغير تذهب فيه بعد ذلك إلى قنوات الري المعدة . ومن نافلة القول أن نذكر أن طول قطر العجلة ذات التجاويف يحدد بالعمق الذي توجد فيه المياه في المسكان الذي يراد إقامة الماكينة فيه . ولكن من المفيد أن نلفت النظر هنا ، إلى أنه من الممكن أن يرتب الأمر ، بحيث يرفع أو يخفض مدار محور العجلة المسننة التي تلتصق بها العجلة ذات التجاويف ، فهي مصممة بدقة بالغة ، لكن هذا الأمر لا ينطبق على العجلات المسننة « الأفقية » التي تحدث الحركة .

وحيث أن ارتفاع منسوب المياه في آبار رشيد لا يعاني مما يعانيه في أي مكان آخر في مصر أثناء إرتفاع أو انخفاض النيل ، وحيث أن إرتفاع أو انخفاض النهر هنا أقل منه في المناطق المرتفعة في مصر ، لدرجة لا يمكن معها عقد مقارنة ، لذلك نرى أن استخدام العجلة « الساقية » ذات التجاويف يقتصر على هذه المنطقة « رشيد » ، لكنها في نفس الوقت تستخدم في دمياط وهي التي تعيش في نفس ظروف رشيد فيما يختص بمنسوب النيل . أما في المناطق الأخرى فقد تعود الناس استخدام الطريقة الثالثة في الري والتي أشرنا إليها .

أما العجلة ذات القواديس ^(١) التي تستخدم في ضواحي رشيد ^(٢) فهي

(١) أنظر الفنون والحرف ، الأبحاث ٤ ، ٥ ، نفس المجلد ، مع شرح هاتين اللوحين .

(٢) أنظر اللوحة ٧٨ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

— شأنها في ذلك نفس شأنها في كل أنحاء مصر — عبارة عن حبل بالغ الطول يمر على عجلة تتحرك بنفس طريقة العجلة ذات التجايف ، ويمكن للمرء أن يطيل أو يقصر من تدلى الحبل حسب مذهب مياه النهر ، وتعلق القواديس في هذا الحبل ويمكن زيادة أو انقاص عددها حسب القوة المحركة التي يعتمد عليها وحسب المقاومة التي تبديها الحركة .

وقد واثقنا الفرصة أكثر من مرة أثناء جولاتنا إلى حصن أبي منصور أن نقوم بزيارة طاحونة يضرب فيها الأرز ، وهذه الماكينة^(١) عبارة عن مدقات دائرية من الحديد المجوف مثبتة في طرف روافع متحركة في خط رأسي ، وتحركها شجرة أفقية مسلحة بحملة « مساك مزلاج » تمارس ضغطا على ذراع الرافعة الأصغر . وتحرك الشجرة نفسها بفعل عجلة مسننة شبيهة بتلك التي سبق أن بيناها . والحبل والأبقار والجمال هي القوة المستخدمة في ذلك . ويوضع الأرز في ثقب مرتبطة بالمدقات لكي يتم ضربها ، وثمة عامل يخلص في مقدمة الماكينة يللم تحت هذه المدقات الأرز الذي يتناثر قبل إتمام ضربه^(٢) . وقد زرنا في رشيد طاحونتين شبيهتين بتلك التي انتهيت من وصفها .

وفي أثناء إقامتنا في رشيد أيضاً جمعت رسومات لآلة لدرس الحب تعرف في هذه البلاد باسم النورج ، ويمكن أن نرى في اللوحة التاسعة من الفنون والحرف تصميم وتركيب النورج ، وقد قدم المرحوم المسيو كونتيه صورة لما كينة مشابهة في اللوحة الثامنة الصورة رقم ٢ في نفس مجلد الفنون والحرف . ويمكنني مجرد النظر إلى الصورة ، للحصول على فكرة دقيقة عن هذه الماكينة

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٩ ، الأشكال ٥ ، ٦ ، ٧ مع شرح هذه اللوحة .

(٢) لمزيد من التفاصيل ، انظر دراسة المسيو جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة في مصر (المجلد الرابع من الترجمة العربية) .

التي تضم في جوفها الأسفل عجالات خشبية مثبت عليها بشكل رأسى عند المحور، سكاكين دائرية من الحديد ، ويحرق الآلة ثور بقر يقوده طفل ، وبمرور النورج وتوالى مروره فوق حزم القمح يتكسر القش وتنفصل عنه الحبوب. والسكى يعزل كل منهما عن الآخر « الحب والتبن » يرفع التبن بمذراة فيبقى الحب ، وتحتتم العمالية بتنظيفه بتعريضه للهواء لتحمل الرياح الأجزاء الخفيفة ، وبهذه الطريقة تتم عمالية التذرية .

وتوجد في رشيد طواحين للقمح ، ويضم كل بيت في العادة واحدة منها ، وليست ثمة اختلافات بين هذه الطواحين فيما عدا أن طواحين الأغنياء تدار بواسطة الحيوانات بينما تدار طواحين الفقراء بواسطة سواعد الرجال ، وتتم الحركة في طاحونة الميسورين بأيسر السبل . وهذه الطاحونة عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقي ومعشق بها فانوس ، ويخترق كلا من شقي الرحى محور الفانوس ، وشقة الرحى العليا أصغر من الشقة السفلى وتتحرك الشقة العليا بفعل القوة المحركة ، وتوضع الاثنتان في وضع مائل حتى لا يتمكن الدقيق عند خروجه من النفاذ إلا عن طريق فتحة في الشقة السفلى الرحى ، ويستقبل الدقيق في سلة أو قفة .

أما الطواحين ذات الأذرع فتتكون من شقين من الجرانيت أخذنا في العادة من أحمدة المنشآت القديمة . وقد قطع الشق الثانى الرحى بطريقة تجعل في مركزها نوعا من عجلة صغيرة ناتئة تدخل في ثقب منفذ عند مركز الرحى المتحركة ، وحول هذه العجلة النباتة تحدث تلك الحركة الدائرية .

الفصل الرابع

البيوت في رشيد ، عمارتها وشكلها الخارجى

شوارع مدينة رشيد ضيقة ومتعرجة ، وهى فى معظم الأحيان مليئة بالنفايات ، كما أنها ليست مرصوفة ، لكن أسواقها أكثر إفساحاً وأكثر تهوية من أسواق الاسكندرية . وثمة مشهد يبدو بالغ الغرابة ، هو ذلك العدد الهائل من الكلاب الضالة التى يقابلها المرء فى الشوارع ، وبخاصة فى ميناء رشيد ، وهو نفس المشهد الذى تلقاه فى كل مدن مصر ، لكنه أصابنى فى رشيد بما يشبه الصدمة لأننى رأيته هناك للمرة الأولى وكونت عنه انطباعى ، والكلاب هناك من النوع المسمى الكلاب الذهبية ، ويبدو أنه لا الأهالى بل ولا السلطة ، يشغلون أنفسهم بأمر إطعام هذه الكلاب ، على الرغم من أن هذه الحيوانات تقدم إليهم خدمات جليلة وبخاصة فى حراسة الميناء . وفى أثناء الليل تطلق هذه الكلاب عوامها المرعب ويبدو أن سكان رشيد ، عندما يعودون إلى بيوتهم بعد انتهاء اليوم لا يلقون كبير بال لهذه الضجة .

وإذا مضى المرء نحو الأحياء المتطرفة من المدينة فسيقابل هناك عدداً كبيراً من الناس يقعون بلا حراك بينما مبسم الأرجيلة فى فهم . وقد شاهدنا كذلك كثيراً من الأطفال والنساء ، ولم يكن هؤلاء النسوة سوى نساء من الشعب ، يرتدين قصائناً زرقاء غير نظيفة ومشقوقة من الأمام فى جزئها الأعلى ، مما يتيح رؤية صدورهن مدلاة ، وثمة حجاب قدر مثل ثيابهن يغطي كل الوجه فيما حدا العينين .

وللعلم ضحايا كثيرون فى رشيد ، ويبدو أنه أكثر شيوعاً بين النساء منه بين الرجال . وثمة مشهد يلفت بشدة انتباه الأجانب القادمين إلى رشيد ، هو ضعف بنية أطفالها ، وهم يمشون وحدهم فى وقت مبكر لكن أطرافهم هشة ودقيقة ،

وقد يعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن المرأة ترعى عدة أطفال في نفس الوقت .
وتحمل الأمهات هؤلاء الأطفال - متباعدى الساقين - على أكتافهن . وحيث
تعوز هؤلاء الأطفال القوة التي تسكني لاحتفاظهم باستقامة أجسامهم فانهم
ينكفئون منهجنين . وعندما لا يكون المرء متعوداً على مثل هذا المشهد فانه
يرتجف خوفاً من أن يصيب هؤلاء الأطفال حادثاً ما .

وفي المساء ، عندما ينادى المؤذنون الناس من فوق مآذنه للصلاة ، فليس
ثمة ما هو أكثر روعة من منظر مدينة رشيد ، فالناس يتوجهون جموعاً وفي
صمت إلى المسجد ، ويذهب العدد الأكبر من هؤلاء ، بمن لا يملكون وسيلة
للوضوء في بيوتهم أو جنائهم ، إلى شط النيل لأداء هذا الواجب ، فينسلون
لحيثهم ثم يؤدون صلاتهم متخذين قبائهم الكعبة المقدسة ، ويعني الذين
يحوزون سجاجيد منهم ، وهؤلاء عدد بالغ الضلالة ، بدسطلها على الأرض لأداء
هذه الفريضة الدينية ، أما أولئك الذين لا يملكون سجاجدات فيسعيضون عنها
بالعمامة التي تغطي رأسهم .

وما أن ينقضى وقت الصلاة ، أى ما أن يقدم الليل ، حتى يعود السكان إلى
بيوتهم . وبعد ذلك لا يمكنك أن تقابل في الشارع فرداً واحداً .
وتضى المدينة أثناء الليل فوانيس معلقة فوق مداخل البيوت .

وقد زرت أحياء من رشيد كانت مهجورة تماماً فلم تعد سوى «مقالب»
للقامة والنفايات . وقد اعتاد السكان ألا يجروا أية ترميمات لبيوتهم ، وهم
يهجرونها ما أن يبدأ يتساقط منها بعض الأتربة (أمارات البلى) ليستنوا
لأنفسهم مساكن جديدة في مكان قريب أو في حى آخر من أحياء المدينة .
وفي المنطقة التي تجاور الصحراء من مدينة رشيد ، ثمة بيوت خربة قد غزتها
الرمال بالفعل . وكنا نرى في معظم الأحيان في هذه الأحياء المهجورة نساء من
الشعب منهنمكات في إهداد روث الماشية فيشكن منهن أقراصاً صغيرة^(١)

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٨٢ ، الشكل رقم ١ ؛ وكذلك شرح
هذه اللوحة .

مستديرة الشكل وغير سميكة ، ويخلطنها بالقش المهروس ثم يعرضنها للشمس بوضعها على الأرض أو يلصقنها في غالب الأحيان على جدران المساكن . وتكاد هذه الأقراص تكون هي الوقود الوحيد الذى يستخدمه السكان للحصول على النيران اللازمة للطهى . ومن المعروف أن المصريين يستخرجون من السناج ملح النوشادر .

ويقوم على حراسة بيوت الأثرياء نوبيون سود البشرة ، وهم معروفون بأمانتهم وإخلاصهم الذى يصمد لكل اختبار ، كما يعهد إلى هؤلاء كذلك بحراسة أخشاب الوقود وأخشاب البناء التى تملكها بها الميناء .

وأثناء عبورنا المدينة ، مررنا عدة مرات بمدارس عامة ، ويمكن للمرء أن يسمع ضجيج هذه المدارس بعد أن يكون قد ابتعد عنها بمسافة طويلة ، وأطفالها عند قراءتهم ، أو عندما يحفظون عن ظهر قلب ، يهتزون إلى الأمام وإلى الخلف ويغنون ما يحفظونه أو ما يقرأونه ، وينتج عن ذلك مشهد بالغ الغرابة . . والمدارس في رشيد كثيرة العدد ، وهو ما يتناقض كثيراً مع الجمالة التى كان من المعتاد افتراضها في سكان مصر .

وكل بيوت رشيد مبنية من طوب ضارب إلى الحمرة ، غامق اللون ، ويعود ذلك إلى درجة احتراق هذا الطوب ، وقد لاحظنا أن البيوت في الاسكندرية مبنية كلها من الحجر الرملى وموانئها من الجير والرمل ، وتزهزع الحجارة في هذه البيوت بفعل الطقس البحرى الذى يتلف هذه المدينة بينما لا تمس الموانئ ، ويختلف الأمر عن ذلك في رشيد اختلافاً بيناً ، فالطوب في رشيد يقاوم تقلبات الهواء ، لكن الأسمنت الذى يثبتته هو الذى يتساقط .

وفى أثناء جولاتنا بالمدينة لاحظنا وجود بيوت بدا أنها من الداخل أفضل من بيوت الاسكندرية ، ولكن في رشيد ، كما هو الحال في الاسكندرية ، تزين الأعمدة البيوت بشكل بالغ الغرابة ، وهذه الأعمدة مأخوذة من المباني

الأثرية ، ويلاحظ فقدان الذوق بالمثل في استخدامها فتوضع قبة العامود في مكان قاعدته أو يحدث العكس .

وقد جعلتنا جولتنا المتعددة هذه في وضع يسمح لنا بتشكوين فكرة عن داخل بيوت بعض الأثرياء ، وقد تظان في البداية أنها تستخدم كمأوى للحيوانات دنسة وليست كمساكن لادميين : فالحجرات معتمة سيئة الإضاءة ، والجدران عارية من أية زينة ، مغطاة بالأتربة القذرة . . وذلك هو مشهد البيوت المعتمة التي تشغلها الطبقة الميسورة بعض الشيء في رشيد ؛ وسوء النظافة هناك أمر عام لحد يمتد معه إلى المباني العامة ، وفي هذا الخصوص فإن المساجد ليست بأحسن حالا من البيوت .

وفي مصر ، يطلق أحيانا كنوع من التباهي ، اسم القصر على البيوت بالغة التواضع سواء في اتساعها أو في مبنائها ، لكن هذه البيوت تسكتسب أهميتها من أهمية أولئك الذين يقطنونها . وفي أثناء عيد ١٤ يولية الذي احتفلت به الحماية في رشيد جاء المفتي إلى الحى الكبير ليقسم بأنه لن يقوم مطلقاً بفعل أى شيء ضد الجيش الفرنسى . وتلقى من الجنرال مينوتا كيداً بأن يمتلكات السكان سوف تحترق . وبعد الحفل عاد المفتي إلى قصره الذى لم يكن مظهره يختلف في شيء عن مظهر بيوت فلاحينا في فرنسا .

وقد حاولنا أن نأخذ فكرة دقيقة عن المسجد الرئيسى في رشيد ، أفضل من تلك الفسكرة التي تسمح بتشكوينها انطباعاتنا عن البلد ، حيث لم يكن محولا لنا على الإطلاق دخول المساجد . ترتفع مئذنة الجامع برشاقة وسط الفضاء ، وهى تتكون من أربع طوابق من الدرابزين ، والمسجد بالغ الاتساع لكنه في تقسيمه لا يتبع شكلا منتظما ، وثمة صفوف من أعمدة صغيرة إلى جانب أعمدة ضخمة تزينه من الداخل ، وكل صحن الجامع مغطى بالحصر . وفي بناء ملحق بالمسجد توجد أماكن لقضاء الحاجة وأحواض يتوضأ فيها المتعبدون المسلمون

قبل أداء الصلاة ، وثمة أحواض أخرى مخصصة لنفس الغرض والماء الذى يملأها ليس شديد النظافة ولا يبدو مطلقاً أنه يتجدد فى معظم الأحيان ، ونوافذ المسجد مزخرفة بتقنيات حديدية جميلة ، مصنوعة بشكل متقن وهى مجلوبة من القسطنطينية .

وتكاد تكون كل بيوت رشيد قد بنيت على نفس النمط ، ومن الطوب كما سبق أن ذكرنا ، وكلها باستثناء فروق ضئيلة ، لها نفس المظهر الخارجى . وقد حرصنا على أن نقوم بعمل عدة رسومات لواحد من أهم بيوت المدينة^(١) وأحسنها موقعاً وكانت إحدى واجهات هذا البيت تطل على النيل ، وقد قيل لنا أن هذا البيت كان يخص أحد البكوات . وكانت واجهة البيت المطلية على الشارع الرئيسى فى رشيد تشكل فى الطابق الأرضى باب مدخل كبير وكذلك باين آخرين أقل حجماً ، وثمة أربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية مقامة على قواعد تشكل نوعاً من الزينة شديد الغرابة ، ويبنى مدخل الباب الرئيسى^(٢) كله وكذا الواجهة من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء وتظهر أحياناً بالعرض وأحياناً لا يظهر منها إلا أطرافها، وفى بعض الأحيان تردان هذه القطع الخشبية بالرسوم والحفر . وفى الجزء الأدنى من الباب بارتفاع العنود توجد أعمدة صغيرة من الخشب المضاع محشوة فى زوايا البناء .

والقوس الذى ينتهى به الباب الكبير هو هنا قوس دائرى ، وفى بعض الأحيان يكون هذا القوس على شكل نصف دائرة بل وأحياناً على شكل قوس على النمط القوطى . وتغلق النافذة الوحيدة أو الشباك الوحيد الموجود فى الطابق

(١) نفس الاوحد ٨٢ ، الشكل ٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

(٢) نفس الاوحد ، الصورة ١٠

الأرضى تقفيمصة من الحديد^(١) . ويقسم بقية الارتفاع ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكيل نوعاً من الزينة . وهذه الطوابق الناتئة عالية ، وتبرز عن واجهة الدور الأرضى بقدمين أو ثلاثة أقدام . ويتكون هذا التتوء من ألواح خشبية رئيسية تتجاوز البناء • وتسند أطرافها دعائم أو أفرز ، ويغطي الجميع بالواح خشبية تتجمع الى بعضها البعض لتشكيل في مجموعها سطحاً أملس .

وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلقها تقفيمات من الخشب مربعاتها كبيرة ، وتوجد فوقها فتحة أصغر ، تغلقها هي الأخرى تقفيمصة صغيرة المربعات ، ولبعض الشبابيك تقفيمات (مشربيات) أكثر أناقة وتوضع ناتئة فوق الواجهة العارية ، وفي هذه الواجهة توجد فتحات لكي تسمح بتوية الحجرات ، وثمة فتحات كذلك في الجوانب لكي تجعل من الميسور الرؤية عن بعد في الشوارع ، حتى ترضى فضول النساء اللاتي يستطعن بهذه الطريقة أن يرين دون أن يراهن أحد . وتعطى هذه المشربيات الناتئة كذلك الفرصة لوضع قلال المياه لترطيبها ، وهذه القلال عبارة عن آنية صنعت في صعيد مصر من نوع من الصلصال المائل للبياض والمعجون جيداً ، وهي تحرق في النار نصف حريق وهذا ما يحتفظ لها بطبيعة مسامية تدين لها هذه القلال بخاصية التبريد التي تتميز بها . وأشكال هذه الفزازات (القلال) لا ينقصها الجمال . ويملأ الناس هذه القلال ويعرضونها لتيار الهواء فتتبخر المياه التي تتسرب من خلال المسام مما يتسبب في برودة الماء الموجود في داخل القلة . وتنخفض درجة حرارة مياه القلة على الدوام حوالى ٤ ٥ درجات.

(١) تقفل التوافد السفلى للبيوت في رشيد عادة بواسطة أسياخ حديدية متينة ومتقنة ، وهذه تصنع في القسطنطينية ، وقد سبق أن أشرنا إلى مثيل لها عند حديثنا عن جامع رشيد الكبير .

— ٥٤٤ —

وثمة طابق رابع يرتفع على جزء من المنزل الذى نحن بصددده ويشكل نوعاً من الأكشاك ويؤدى دون صعوبة إلى شرفة المبنى ، ومن هذه الشرفات يستطيع السوء أن يروح عن أنفسهم دون أن يراهن أحد . ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهم عن طريق المؤذنين الذين يدعون الناس للصلاة من أعلى المآذن ، لكن الناس قد احتاطوا لهذه الصورة حيثة تتفق مع خطوط التقاليد الإسلامية ، إذ لم يكونوا يختارون للقيام بعمل المؤذنين إلا رجلاً من العميان .

وليس لواجهة البيت من جهة النيل سوى طابق واحد ، ونتيجة لذلك فإن التعقيد هنا أقل ، فثمة ثلاثة أبواب ، أحدها رئيسى يؤدى إلى الطابق الأرضى الذى ينفذ إليه الضوء عن طريق نوافذ صغيرة ومشربيات ذات مربعات كبيرة ، وثمة عمودان فى الزوايا يحملان ركائز ناتئة بعض الشيء فوق الجدار العارى ، وفى واحدة من هذه الزوايا يوجد سبيل يحتوى على جرار مليئة بالمياه وأناة للعب منها ، وهى بذلك تقدم للمارة الوسيلة لرى غلتهم . ويعنى صاحب البيت بالجرار على الدوام فيأمر بملئها بالمياه ، وفى بلد يمثل هذه الدرجة من الحرارة يمكنك أن تتصور قيمة مثل هذه المنشآت ، لذلك فهى كثيرة العدد . وثمة بيوت تقدم المياه للمارة بطريقة مختلفة ، إذ يوجد فى داخل هذه البيوت قادوس (زير) يعنى به على الدوام ويملاً بالمياه ويوضع بالقرب من الجدار الخارجى ، وثمة مصاصته ينغمس فرعها الأطول فى القادوس أما فرعها الأقصر فيخترق الحائط لينتهى بصنبور يأتى المارة ليضعوا عليه أفواههم ، ويمتصون المياه حتى يرتووا . وفى المساجد وبيوت الأثرياء يخترق هذا الصنبور فصداً من الرخام نقش عليها آيات من القرآن (١) .

ويتكون الطابق الوحيد السكان فى الواجهة المطلة على النيل من ثلاثة أفنية

(١) أنظر الآلية الفخارية والأثاث والأدوات ، اللوحة F. F ، الدولة الحديثة ،

المجلد ٢ ، من وضع ريبوتيه Rebouté .

أمامية تفصلها ردهتان ، وينير كل واحد من هذه الأفنية نوافذ تغطيها مشربيات ذات مربعات كبيرة ، توجد فوقها نوافذ أصغر تحيط بها هي الأخرى مشربيات . وينتهي أعلى البيت بشرفة بنيت أرضيتها من ملاط شديد البياض ، وتظل أطراف دعائمها إلى الخارج وتشكل كما سبق أن لفتنا الأنظار نوعاً من الزينة (١) .

أما الواجهة الجانبية (٢) لهذا المسكن فأقسامها ماثلة لتلك التي انتهينا من وصفها فيما عدا أنها في جزء منها تزيد طابقاً واحداً عما سبق وصفه ، ويمكن أن نلاحظ فيها مساقط نور صغيرة وكثيرة العدد لإضاءة حجرات الطابق الأرضي . وعلى العموم فإن الطابق الأرضي كله مخصص لاسطبلات الخيول والجمال ، ولماخازن الأعلاف ، ولحجرات منفصلة تودع بها سروج الخيول ، وللمطبخ والسكرار ، وللمسكاتب ، ولرعى القمح ، كما تخصص بعض حجراته أيضاً لخدم البيت ولغيرهم .

ولن تكون فكرتنا عن داخل بيوت رشيد دقيقة إذا ما تصورنا أن ألواح الأرضيات الخشبية لها نفس المستوى ، وأن الإنسان يمكنه أن ينتقل بسهولة من حجرة لأخرى ، إذ ينبغي على المرء - على العكس من ذلك - أن يصعد أو يهبط سلمة وأحياناً اثنتين أو ثلاثاً لكي ينتقل من جناح لآخر . وليس ثمة سبب ظاهري على الأقل لمثل هذا الوضع ، وإلا لأمكن تفادي هذا الوضع الغريب والذي لا يمكن أن نجد تفسيراً له إلا في عادات أهل البلاد .

وتسكني التفاصيل التي ذكرناها للتو لكي تعطى فكرة عن عمارة بيوت أثرىاء رشيد ، ويمكن لنا أن نحصل على مزيد من الأفكار التي قدمناها إذا

(١) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٣ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

(٢) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكل ٤ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

ما اطلعنا على الرسوم الموضحة في اللوحة رقم ٨٢ الشكلا ١ ، ٢ واللوحة ١٠٢ الأشكال ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ومن خواص نوافذ البيوت التي يوضح الشكل رقم ٢ مقدار ارتفاعها أنها تغلق بمصراعين أيضاً بخلاف المشربية . ويمبغى أن نضيف هنا أن نوافذ بيوت الأثرياء في رشيد تغلق من الداخل على الدوام بواسطة شيش زجاجى . أما غالبية البيوت الأخرى فلا يوجد مثل هذا الشيش الزجاجى وهكذا ينفذ الهواء الخارجى بحرية إلى داخل الحجرات .

وعلى العموم فإن شرفات البيوت في رشيد مائلة ، ولها مزاريب تسهل تصريف مياه الأمطار التى تسقط على رشيد بوفرة وغزارة في بعض الأحيان في فصل الشتاء .

وتختلف الديكورات الداخلية للبيوت كثيراً تبعاً لاستخدام الحجرات ودرجة راء وطبقة المالك . فالحجرات ترصف بمربعات من الطين المحروق ، أما الجزء الأول من حجرات الاستقبال الفخمة وكذلك دورات مياه السادة وحجرات الحمام ، فهى مرصوفة بالرخام .

ويكتفى بتغطية الجدران بطلاء أملس للغاية ناصع البياض ، وتنقسم كل حجرة في إرتفاعها إلى قسمين متساويين على وجه التقريب ، عن طريق حزام من خشب دقيق للغاية لكنه بارز ويدور بدائر الحجر ، ويمتلىء الجزء الأسفل من الحجرة بدواليب كبيرة ، تشكل مصاريعها المرسومة بأشكال متعددة نوعاً من الزينة . وثمة دواليب أخرى ذات أحجام متنوعة وهناك كذلك كثير من التجهيزات المزدانة بأشغال خشبية تستكمل نظام الديكور لمختلف الحجرات . أما الأثاث فعبارة عن أرائك موزعة بدائر الحجر تشكل مقاعد منخفضة ، واسعة ، ومريحة ، وتتكون هذه المقاعد من حشيات وخدات ضخمة من القطن ، وتبسط هذه الحشيات على بنوك يبلغ إرتفاعها ١٥ - ١٨ سم وهى إما مصنوعة من ألواح خشبية أو من مجرد أقفاص من الجريد ، وتغطى هذه

- ٢٤٨ -

الحشيات والمخدرات أقمشة تتفاوت قيمتها ونوعها بحسب مكانة ودرجة ثراء المالك . وتخصص أئمن هذه الأقمشة لتغطية أرائك الشرفات أو النوافذ الأمامية التي تحدثنا عنها من قبل . وهناك تستريح الدسوة في معظم الأحيان ويستنشقن الهواء المنعش الذي لا يتوفر في الأنحاء الأخرى من حجراتهن .

ولا يمكن لك أن تجد فراشاً في أى مكان بالبيت أثناء النهار . وينام الرجال والنساء على هذه الأرائك أو على مفروش يبسطونه وسط الحجرة ، وفي بعض الأحيان لا يكون الفراش سوى حشية بسيطة مغطاة بسجادة ، وثمة ناموسية من الحرير الشفاف أو الكريب تحمى من حشرات الفراش أو من الناموس ، ولكن في أثناء النهار تطوى كل هذه الأدوات وتوضع في صناديق .

وينام الكثير من الناس رجالاً ونساء دون أن يخلعوا ملابسهم ، كما ينام الخدم بكامل ملابسهم أيضاً ولكن على حصر بسيطة .

وقد أتت لنا فرصة الدخول إلى بيت واحد من أغنى رجال رشيد ، كان قد لاذ بالفرار هند اقتراب الجيش الفرنسى . ينقسم هذا البيت إلى جناحين أساسيين : جناح المالك ، وجناح الحریم ، وفي جناح المالك كانت الشبايبك منفلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات ، أما هذه المربعات في جناح الحریم فكانت أصغر ، وليس ثمة أى إتصال بين الجناحين إلا عن طريق سلم صغير وكذلك عن طريق كوة دائرية تستخدم في إيصال الطعام إلى الحریم . وفي كلا الجناحين كانت الغرفة الرئيسية عبارة عن حجرة واسعة مزينة بطريقة ماثلة لتلك التي سبق لنا أن مرصناها ، مع اختلاف واحد ، هو أنه توجد في أعلى الدواليب في جناح الحریم نوع من المقصورات التي تحيط بها قضبان ، بحيث يمكن الاستنتاج بأن النساء كن معتادات على الجلوس فيها . ويضم هذا البيت مطابخ وحمامات وأفراناً وشرفات ، وعموماً كل ما يمكنه أن يضمه مسكن

وأحد من أثرياء الخاصة . أما المراحيض فمغطاة بمربعات كبيرة من الرخام ،
حفرت بها فتحات طويلة وضيقة .

وقد سبق لنا القول بأن مختلف الطوابق في بيوت رشيد تكون أما ناتئة
أو بارزة ترتكز على دعائم بعضها فوق بعض ، ويتيج عن ذلك أن البيوت
بعد ارتفاع الطابق الأرضي تصبح متقاربة لحد كاف من بعضها البعض حتى
تكاد تتلامس الشرفات بطريقة لا يعود يفصل بينها إلا مسافات جرد ضئيلة ،
ويؤدي هذا الوضع إلى تغطية سماء الشوارع المخصصة للأسواق ، أو الأسواق
نفسها ، بشكل شبه تام بحيث تجعلها في حى من أشعة الشمس .

ولشكل بيوت رشيد فيما عدا بيوت الأثرياء من أهلها سلم خارجى مبنى في
معظم الأحيان من الحجارة لكنها محاطة بفواصل كبيرة - بدلا من الدرابزين -
وذلك لحجب رؤية النساء عند خروجهن من البيت أو دخولهن إليه .

وقد ترددنا كثيراً على الأسواق العامة في رشيد ، وافت انتباهنا هناك
بشدة ذلك الصمت الذى يخيم على المسكان والذى يشكل تناقضاً لافتاً للنظر
مع الضوضاء التى تليق من أسواقنا ، ذلك أن أهل هذه المدينة يتكلمون
قليلاً ، ولهجتهم على الدوام جادة وقورة ، لكن حديثهم لا يمنعهم من تدخين
الأرجيلة أثناء الكلام ، وهم يجلسون أمام محلاتهم بلا حراك ، وكأنهم مجرد
علامات قياس .

وتجار رشيد - كما بدوا لنا - متشككون ، ويخشون على الدوام أن
يخدعوا من قبل الغير ، لذا فهم لا يسلون البضائع التى اشترت منهم إلا إذا
حصلوا الثمن مقدماً .

وفى الأسواق أكثر من أى مكان غيرها تواتيك الفرصة لملاحظة عادات
السكان فى بلد ما . ويبدو سكان رشيد للوهلة الأولى مختلفين لحد تستطيع

معه أن تتعرف بسهولة على التركي أو القبطى أو الرومى أو الاسكندرانى . .
ويعرف الاروام هللى وجه الخصوص ببشرتهم البيضاء وذقونهم الحليمة .

ومقامى رشيد - كما هو الحال فى الاسكندرية - أماكن بالغة القذارة
لا يمكن لك أن تقترب منها دون أن تشعر بالاشمئزاز . وهى عبارة عن صالة
واسعة ترتفع بدائر جدرانها ، وفى وسطها ، منصات مبنية (مصاطب) تغطى
بالحصير . على هذه المنصات يأتى الناس ليشربوا القهوة ويدخنوا الأرجيلة التى
لا تفارقهم مطلقاً . وينعسون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل أو إلى
حكايات يروها حاك لا يمل الحكى ويستمتع الناس إليه على الدوام بلذة متجددة .
وقد لاحظنا من بين هذه المباني مقهى يستحق عنده وقفة خاصة بسبب نظافته
الظاهرة وجمال موقعه .

تقع هذه المقهى عند الميناء بالقرب من شاطئ النيل . وطول مبناها^(١)
يبلغ على وجه التقريب ضعف عرضه ، وهى تنقسم من الداخل إلى قسمين ،
ويوجد فى وسطها ممر يؤدي إلى باين خارجيين موجودين على واجهتهما ، ويقود
الباب الرئيسى إلى النهر ، ويصل الضوء إليها عن طريق شبك مزدوج يعلوه
قوس على النمط القوطى تستند قاعدته على ثلاثة أعمدة خشبية ، وفوق هذين
الشباكين يوجد عمود آخر أصغر لكنه مستطيل الشكل ، وترتفع فى وسط
المبنى منصتان يوجد حولهما أنواع من المقاعد المبنية بطريقة مشابهة وتؤدي
لنفس الغرض . وسقف المبنى نائق ليحمى من لهب الشمس ، لكن أصحاب
المقهى يحتاجون للأمر زيادة على ذلك بشكل أفضل عن طريق سقيفة من
البغدادلى تدور حول مبنى هو بمثابة سرير تمتد فوقه تسكيمات العنب المزروعة
أمام الواجهة فتخلفه من كل جانب بأغصانها الطويلة المرنة . أمام هذه العرائش

(١) أنظر اللوحة ٨٢ ، الشكين ٦ ، ٧ ، المجلد الأول ، الدولة الحديثة .

تأتى العوالم — أو الرقصات العموميات .. والموسيقيون والمنشدون والشعراء
ليجذبوا انتباه شاربي القهوة لاستخلاص بعض قطع النقود منهم .

ويندج المترددون على الملهى فى لعب أدوار شطرنج أو أدوار منقطة (١) .
وهؤلاء المترددون أناس يهتمون للطبقة المتوسطة ، ذلك أن الأثرياء يعدون قهوتهم
فى بيوتهم ولا يترددون مطلقاً على هذه الأماكن .

بقى علينا الآن أن نتحدث عن بعض المباني التى أقيمت فى رشيد بقدر
لا بأس به من الفخامة ، وتلك هى الوكالات (وكالة) التى يجذب الناس فيها كل
أنواع البضائع . ويبلغ طول المبنى من هذه الوكالات أربع أو خمس مرات
قدر عرضها ، وهى تضم فناء توجد حوله ممرات تدعمها أعمدة ، وتعلو هذه
الأعمدة أقواس على النمط القوطى . وتوجد المحلات داخل هذه الأروقة
وينفذ الضوء إلى هذه المحلات عن طريق ثقوب تعلو الأبواب . ونجد فى الطابق
الأول نفس التقسيم الذى وجدناه فى الطابق الأرضى ، وينير الدهليز الذى
يحل محل الرواق فى الطابق الأرضى والذى يودى إلى مداخل المحلات عدد
كبير من النوافذ ، كما هو الحال فى الأرواق ، مع فارق بسيط هو أن نوافذ
الدهليز تعلوها فتحات مربعة صغيرة . ونفس الأمر بخصوص الطابق الثانى
غير أن فتحات الدهليز المطلة على الفناء مستطيلة الشكل وأكثر عدداً . ويقدم

(١) تتكون المذلة من اوجنتين ، بكل واحدة منهما سعة ثقوب ، ويلعب الدور
شخصان . وفى البداية يضم كل لاعب فى الثقوب التى أمامه ٦ قطع من الزلط أو الحجارة ؛
ويبدأ أحدهما اللعب بأن يأخذ الزلطات من ثقوب يختارها ليضعها بعد ذلك واحدة واحدة
فى الثقوب ، بادئاً من اليمين ، ومواصلاً بنفس الطريقة حتى ينتهى بمسما معه من زلط . ولذا
كان رقم الثقب الذى وضع فيه زلطته الأخيرة زوجياً : ٢ ، ٤ ، ٦ . . تتكون هذه الزلطة
له ، ومنها كل الزلطات الموجودة فى الثقوب المجاورة وهو ينتج إلى الخلف وعندما لا تبقى
أية زلطة فى الثقوب ، يبدأ اللاعبان العد ، ويكسب الدور من يكون منهما قد حصل على أكبر
عدد من الزلطات .

أنظر :

Voyage en Arabie par Niebuhr tom I, Planche XXV, et p. 139.

- ٢٥٢ -

الشكلان ٩ ، ١٠ من اللوحة ١٠١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثاني ، فكرة دقيقة عن هذا التقسيم . وهذه الدهاليز والأروقة التي توصل إلى المحلات تستخدم وقت الحاجة لتهوئة البضائع التي تخزن فيها .

ولقد صدمتنا قناعة سكان رشيد ، وهي قناعة نلاحظها في بقية أرجاء مصر . وتبدو ثمرات النخيل (البلح - التمر) باعتبارها غذاءهم الرئيسي ، وبما يكون معها في نفس الوقت قليلا من الخبز المصنوع بدون خميرة وعلى شكل أقراص صغيرة مستديرة ورقيقة . ويحتفظ هذا الخبز الذي أنضج في أفران توقد بواسطة روث الماشية وبخاصة الجمال والذي جهز بالطريقة التي سبق أن شرحناها - يحتفظ بقدر من رائحة غير مستحبة بالنسبة للأجانب . ولست أستطيع أن أنسى على الإطلاق أنني كنت في الأيام الأولى من إقامتي بمصر أشم رائحة الجمال في كل ما كنت آكله .

الفصل الخامس

الصناعات اليدوية والحرف

كنت أنتوى أن أدون في هذا الفصل تلك الملاحظات التي جمعتها عن الصناعات اليدوية والحرف التي يمارسها السكان في رشيد ، لكنني وجدت أن الفرق ضئيل بين الصناعات والحرف التي تمارس هنا وذلك التي تمارس في العاصمة والتي عولجت في مكان آخر ، لذلك فقد اكتفيت أن أورد هنا بعض تفاصيل موجزة للغاية .

لاحظت باهتمام حرفة الخراطين ذات الإنتاج الواسع الانتشار حيث تقوم هذه الحرفة بإنتاج كل التقيفيات التي تستخدم في البيوت . وتحاط هذه التقيفيات في البرج بأطر خشبية لكن هذا أمر من صنع النجار . وليس ثمة ما هو أبسط من تلك الآلة التي يستخدمها الخراط ، فهي عبارة عن لوحة

كبيرة أقيمت بشكل أفقي ترتفع فوقها لوحتان عموديتان ، إحداهما ثابتة والأخرى متحركة ، وثمة محوران حديديان بين هاتين اللوحتين ، مهمتهما تثبيت القطعة التي يراد خرطها . ويتكون المثقب الذى يمررونه حول هذه القطعة من ذراع خشبية طويلة يتدلى من طرفها سير جلدى عريض بعض الشيء . ويحرك الخراط المثقب بيده اليمنى ، ويقرب ويدير الآلة القاطعة باليد اليسرى والقدم اليمنى وهى تتكئ على قضيب من الحديد موضوع هو نفسه على لوحتين رأسييتين ، ويكفى ثقل هذه المعارضة الحديدية فى معظم الأحيان لحفظ العروسة وللتحكم فى تلك الدمية المتحركة . ومحل الخراط هو أبسط المحلات التى يمكن أن يقابلها المرء ، وهو يحتوى فقط على ثلاث آلات قاطعة وثلاث أدوات للحفر ومثقب وزجاجة صغيرة بها بعض الزيت لترطيب الأجزاء التى يحدث حولها الثقب ، وقفة أو سلة توضع بها الأشياء المصنعة^(١) . وهذه المحلات باللغة الصغرى ويبلغ طول أى من أضلاعها مترين على وجه التقريب ويمكن أن نرى صورة لذلك فى اللوحة رقم ٨٢ - الشكلين ٨ ، ٩ الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

ولا تزال النجارة هى الأخرى فى طور الطفولة ، فالنجار يعمل وهو راكع على ركبتيه ، أو وهو جالس . وهو لا يستخدم إلا عدداً ضئيلاً من الأدوات أهمها الفارة كما يستخدم بلطة يطلق عليها اسم قادوم^(٢) .

وصناعة الأقفال فى مصر ليست سوى فرع من النجارة لأن الأقفال هناك تصنع من الخشب «ضبة» ، ويتكون القفل من قطعتين من الخشب موضوعتين

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٥ ، الشكل ٤ ، الدولة الحديثة ، ج ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٣٠ ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، مع شرح هذه اللوحة .

في الزاوية اليمنى . كل منهما فوق الأخرى ، وتحتوى القطعة الرأسية على تجويف تخلفه قطعة صغيرة من الخشب مكعبة الشكل ، تخترقها عدة ثقوب توضع فيها أسنان حديدية يتزايد سمكها في جزئها الأعلى ، ويتساوى عدد هذه الثقوب بالضبط مع عدد مماثل من ثقوب أخرى منفذة في قطعة الخشب الأفقية والتي تتحرك على نحو تسقط فيه الأسنان الحديدية بفعل ثقلها الخاص في الثقوب السفلى - وذلك عندما يكون القفل في مكانه - دون أن تتمكن هذه الأسنان في نفس الوقت من الإفلات من الثقوب العليا : عندئذ يقفل القفل . ويستخدم المرء لفتح مفتاحاً ليس سوى مسطرة خشبية مزودة في أحد طرفيها بقطع صغيرة من الحديد من نفس العيار ، مصفوفة على نفس نظام الثقوب ، بحيث ترفع الأسنان الحديدية للقفل عند إدخال هذا المفتاح في التجويف المنفذ في القطعة الخشبية المتحركة من المفتاح ، وعندئذ يجذب المرء كلا من المفتاح والقطعة المتحركة من القفل وينزاق السلك بلا عائق ويفتح القفل .

وتعتبر صناعة النحاس أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، وتصنع الألوان في رشيد من النحاس مثل الكاسرولات والصدواني والطشوت والماقد .. إلخ مع شيء واضح من الدقة وخصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار الأدوات التي يستخدمها عمال هذه الصناعة حيث كتب عنها بإفاسة في مكان آخر^(١) .

لكن الصناعة التي يمكن القول بشأنها بأنها قد بلغت درجة يشهد معها لهذه الصناعة بالدقة ، فهي صناعة الأرجيلات . ففي بلد يدخن فيه الجميع غنيهم وفقيرهم فإن الأرجيلات تصبح ضرورة أولية ، لذلك فهي تصنع هناك بكميات ضخمة وبأشكال متنوعة . فهي تصنع هناك من نوع من الطين الخزفي معجون بعناية فائقة ، ويتكون من جزئين هما الجسم واليد ويصب كلاهما في قالب مليء ،

(٧) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٩ ، الشكل ٢ ، مع شرح هذه اللوحة .

وحيث يتم صب هذين الجزئين بشكل منفصل فأنهما يجمعان بعد ذلك بينهما
لا يزالان طازجين تماماً ويصنع الثقب الذى يلغى أن ينفذ منه الدخان بحيث
لا يسقط الرماد إلى قاع الأرجيلة . وشكل هذه الأرجيلات ليس ثابتاً ويمكننا
أن نرى نماذج متعددة لها فى لوحات الآنية والأثاث والأدوات^(١) . وحين
يكون الطين لا يزال رطباً ترسم على الجسم واليد زينات تنم عن ذوق راقى فى
بعض الأحيان ، وقد يلصق على هذه الزينات فى بعض الأحيان بعض من ماء
الذهب لتصبح أكثر جاذبية .

ولثقب خرطوم الأرجيلة يستخدم العسامل ما كينة صغيرة^(٢) على شكل
طوق يثبتها بين قدميه ، وهى مزودة بخيط سميك من النحاس الأصفر ، ويدخل
هذا الخيط عن طريق مثقاب يندفع رأسه باستمرار حتى الطرف الآخر .
وتنظف خرطوم الأرجيلات هذه بعد ذلك بالآفشة الحجرية التى تزينها أشرطة
رفيعة أو شرائيب ، وهى تلتهى بمسح من السكرمان ثمين القيمة لجسد كبير فى
بعض الأحيان .

ونأتى صناعة القنف^(٣) من حيث الجودة بعد صناعة الأرجيلات ويتكون
نسيجه من سعف النخيل ، وهذه الشجرة «النخل» مصدر بالغ الأهمية فى مصر ،
فهى تعطى بوفرة بالغة ثماراً حلوة المذاق يتخذ منها السكان طعامهم الرئيسى ،
كما تستخدم جذوعها فى عمليات البناء ، وتصنع من أغصانها الأقفاص التى يقام
فوقها الفراش أو توضع عليها الأرائك ، أما السعف أو الأوراق الصغيرة

(١) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٦ ، الدولة الحديثة ، حيث رسمت مجموعة
من الأرجيلات .

(٢) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ١٧ ، الشكل ١ ، التى رسمها المسيو كوفتيه
Conté فى القاهرة ؛ وكذلك شرح هذه اللوحة .

(٣) أنظر الفنون والحرف ، اللوحة ٢٠ ، الشكل ٢ ، وشرح هذه اللوحة .

التي توجد بطول جانبي الأخصان فتستخدم في صنع جداول، تخاط بعد ذلك لتصنع منها القفف أو السلال، وهى تخاط بمهارة وسرعة بواسطة أحبال رفيعة صنعت هى كذلك من ليف النخيل . وتستخدم القفف بكثرة في رشيد وهى تستعمل في تغليب كل أنواع البضائع والحبوب كما تستعمل في نقل الأرز .

تحدثنا للتو عن الأقفاص التي تصنع من فروع النخيل . ويمسك صانعاها بمثقب يحدث به كل الثقب اللازمة في فروع النخيل لكي تجمع بعد ذلك الأجزاء التي تكون القفص . وتشبه تلك الأقفاص مستطيلة الشكل التي يستخدمها سكان مصر تلك الكراسي المصنوعة من الخيزران التي نستخدمها في فرنسا .

وفي بلد مثل مصر، حيث يعتمد الناس جميعاً شرب البن، كان لابد أن تنشأ مهنة خاصة لإعداد هذا البن لكي تحصل عليه كل طبقات المجتمع، لذلك توجد في رشيد محلات يحمص فيها البن وتنزع عنه قشرته، حيث توضع صواني كبيرة من النحاس على سطح موقد فتحمص حبوب البن وتطحن بعد ذلك بواسطة هاونات من الجرانيت، وأيديها من النحاس . ويسبب استخدام هذه الهاونات في بعض الأحيان بعض المساويء فقد يحدث في بعض الأحيان أثناء عملية الصحن أن تنفصل أجزاء صغيرة من الجرانيت لتختلط بالبن وقد لمسنا ذلك بنفسى .

وتمارس في رشيد كذلك حرفة صياغة المجوهرات، وفي هذه المدينة حتى مخصص لهؤلاء الصاغة . وكنت بعد دخولى المدينة أمنى النفس بأننى سوف أرى محلات هؤلاء الصاغة باعتبارها أجمل محلات المدينة، لكننى كنت مخدوعاً في ذلك. فهى مجرد محلات معتمة صغيرة وقذرة لا يرى فيها من أثاث إلا منفاخ دائرى الشكل يعمل باليد وموقد فقير وبعض البوتقات الحجرية تشبه ما لدينا إلى حد كبير . . ذلك هو كل ما يحتوية محل الصائغ ومع ذلك فلا بد أن نضيف

أن في حوزتهم شواكيش ومطارق مصممة بشكل جيد وهم لا يعرضون في محلاتهم شيئاً من إنتاجهم بعكس ما يحدث عندنا ، ويبدو أنهم لا يصنعون إلا حسب المقاس وحسب الطلب ، وقد شاهدتهم بعيني يصنعون خاتماً بشكل منفر خال من الذوق ، بحيث بدا شكل الخاتم وكأنه سبيكة من الذهب .

الفصل السادس

عن سحرة الشعابيين

لم تتح لي أثناء إقامتي في رشيد أن أشهد العيد الكبير الذي يقام هناك كل عام احتفالاً بسيدى إبراهيم ، ولكن من المعروف أن المرة يشاهد في العرض ، الذي يشكل جزءاً من الاحتفال بهذا العيد ، كل طوائف الحرف التي تصطف كل منها تحت رايات محمد التي تحمل في شكل أقواس نصر ، يتبعهم الشيوخ وهم في هذه البلاد بمثابة القسس عندنا ، ويغطون رؤوسهم بأغطية رأس طويلة تشبه تاج الأسقف ويسير هؤلاء خلف مواكب الطوائف بخطى وثيدة وهم يلشدون بعض آيات من القرآن ، وبعد هؤلاء جميعاً يأتي الحواة الذين يلتهمون الشعابيين الحية . وقد قص علينا سافارى Savary هذا المشهد العجيب بالتفصيل^(١) وقد كان هو شاهداً عليه ، وليس من هدفنا هنا أن نعيد ذكر أشياء معروفة ، لكننا لا نستطيع أن نمسك عن الأفضاء هنا ببعض الوقائع ، تلك التي حدثت تحت بصرنا أو تلك التي نقلها إلينا أشخاص جديرون بكل ثقتنا . وهذه الوقائع تخص حواة الشعابيين ، أو سحرة العصر الحديث .

توجد في مصر فئة من الرجال يسكنون دون أن يلحق به أذى بالشعابيين والحيات والعقارب ، هؤلاء هم الحواة ، شعوب الأحباش ، الذين كانت لديهم

حسبما يذكر سترالون Strabon القدرة الغامضة على حماية أنفسهم ضد لدغات الثعابين .

وتعتبر الثعابين والعقارب عادة في مصر زواحف ، مؤذية يمكن أن تؤدى لدغاتها إلى أوحش النتائج وهى فى أغلب الحالات تفضى إلى الموت . وقد سر الجيش الفرنسى نفسه فى بعض الأحيان بهذه التجربة المحزنة . ينبغى إذن أن ننظر إلى الرجال الذين كرسوا أنفسهم لتخليص البلاد من مثل هذا الخطر باعتبارهم أناساً خبيرين ، وبمعنى آخر فإن مثل هذا الهدف الأخير يتم جزئياً على يد نوع من السحرة ، يستطيعون بأعمالهم هذه إلى أن يطمئنون من روع السكان .

ويمتلك السحرة المحدثون قدرة غامضة على تخايص المساكن من الثعابين التى قد تكون بداخلها ، كما يدهون كذلك القدرة على تأمين الناس ضد خطر لدغات هذه الزواحف ، وكذا لدغات العقارب ويجوب صائدو الثعابين هؤلاء شوارع مدن وقرى مصر وهم يعلنون بصوت جهورى على الناس ، أنهم هل استعداد لتخليصهم من الثعابين التى قد تكون كامنة بمساكنهم ، وهم يحملون فى ذرايعهم سلة يضمنون فيها ما اصطادوه من ثعابين ، ويحيطون على الدوام أعمالهم تلك بضروب من السحر .

ولكى يعرفوا إن كانت ثم ثعابين فى مسكن ما فإنهم يبدأون أولاً بإعمال بصرم والإتيان ببعض الحركات ، ويتخذون هيئة منجم ويديرون أبصارهم بشكل غامض فى كل أركان الحجرة ، وينتهى الأمر بأن يتوقفوا عند المسكن الذى تختبئ فيه الثعابين بالفعل ، ويتشممون كما لو كان ليتأكدوا عن طريق حاسة الشم من وجود هذه الزواحف ، ثم يمسكون بعصا عرافة ويألفون ببعض النصائح والمواظ مع تغيير وإطالة فى نغاتهم وبصوت ممطوط ويستغرق الأمر ما يقرب من خمس دقائق ، ثم يبصقون على الأرض وينحنون فجأة لينهضوا على الفور ، وهم يشيرون إلى ثعبان كان مختبئاً لوقت قريب فى أحد الشقوق بعد أن حملوه على عصاهم العرافة تلك . وقد يظن المرء أن هذه الجملة ليست

إلا نتيجة لبعض من أعمال الدجل ، لكننا نستطيع أن نؤكد أن ليس ثمة شيء من ذلك على الإطلاق، فنحن هنا نعرض وقائع كناشهود عيان عليها، وقد جردناها من كل سحر أو من كل أمر غير عادي يمكن أن نكون واقعين تحت تأثيره، وبإمكان القارئ أن يثق بأننا هنا إنما نعرض الحقيقة عارية .

ومع ذلك فنفس هذه الوقائع في النهاية ، إذا ما خضعت للنقد والتحصيل ، لا تقدم شيئاً لا يمكن تفسيره بشكل طبيعي إذا ما قارناها بوقائع أخرى كنا شهوداً عليها كل يوم . ألا توجد في الواقع آلاف الظروف التي نستمتع فيها إلى تلك التبديلات والتحويلات المختلفة في صوت الإنسان لجذب إليه الحيوانات المستأنسة بل وحتى المتوحشة ؟ وعندما يجلس الإنسان على حافة نهر ويختبئ وسط أوراق الشجر ويختفي عن كل النظرات ألا يهرع عند سماع صوته المخادع كل ذى جناح في الغابة ؟ فلماذا إذن لا تنجذب الثعابين هي الأخرى بفعل تحويرات معينة في صوت الإنسان وتغادر بالتالي مكانها ؟ أما هن التعرف عن أماكن وجود الثعابين فإن من المحتمل دون ريب أن يكون الحواة يستدلون عليه عن طريق الشم ، ذلك أنه قد ثبت عن طريق بعض الوقائع التي كانت موضع دراسة من علماء الطبيعة ، وجود رائحة مسكية تعلق بهذه الحيوانات ، ويستطيع من تدرب على الأمر أن يستدل على وجود هذه الحيوانات عن طريق هذه الرائحة .

أما الطرق التي يستخدمها السحرة لتأمين الناس ضد لدغات الثعابين والعقارب فتسبقها وتبناها ممارسات غامضة من شأنها أن تبهر آلاف الناس الذين يسهل خداعهم . وهذه العملية عبارة عن وضع قليل من الماء في إناء ثم يضاف إلى الماء الزيت والسكر ويجهد السحرة في تكوين شراب من هذا الخليط ويتمتعون أثناء ذلك ببعض الأدعية ، ثم يبصقون في النهاية في المشروب الذي انتهوا من تجهيزه ، ويأمررون الشخص الذي يطلب العهد ، ضد لدغات الثعابين والعقارب

بأن يتجرع هذا المشروب ، ثم يعلقون في أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانها ، ويتركونهما هكذا لمدة ربع الساعة، وعندئذ تلتهى العملية ويدفع المريد من كيس نقوده ثمن الخدمات التي أدبت له، ثم ينصرف وهو مقتنع بأنه سيكون في المستقبل آمناً من لدغات العقارب والثعابين .

هل يمكن الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يقومون بهذه الأعمال دون أن تلدهم الثعابين مجرد دجالين ؟ هذا بالتأكيد ما لا يمكن لشخص واع أن يحاول الاعتقاد فيه . لكن يمكن القول إنهم قد حصلوا على هذه النتائج بسبب أن شعورهم بالخوف قد ضعف لحد كبير ، فهم يتجرأون على هذه الحيوانات لأنهم — كما يمكن القول — قد ألفوها .

لذلك فهم يستطيعون نتيجة لما لهم تلك أن يقربوها بثقة بل وعن طيب خاطر ، وحيث أنهم لم يعودوا يخشونها فهم يحاذونها بنوع من الطمأنينة لا تشي بأنهم من جانبهم يلتصقون بهذه الحيوانات شراً ، وهو سبب كاف لئلا تسبب لهم هذه الزواحف أى أذى ، إذ من المعروف جيداً أن كثيراً من الحيوانات لا تضر بالإنسان إلا إذا اقترب منها بكثير من الحذر ، مما يجعلها تظن فيه نوايا عدوانية نحوها . ومع ذلك فكيف يمكن في الواقع أن نفسر كيف أن أناساً يستطيعون — كما يفعل هؤلاء السحرة — أن يحملوا في ثيابا ملابسهم بل وعلى صدورهم أنفسهم زواحف مختلفة يلتصقون بها كيفما اتفق دون أن يقع لهم حادث مزعج ، وأن يضعوا العقارب تحت طربوش همامتهم دون أن تلدهم ؟ أيا كانت الإجابة فهذا هو ما شاهدناه في كل مدن مصر ، وإن يكون بذي جدوى أن نفسر هذه الظواهر عن طريق افتراض أنهم قد نزعوا أسنان الثعابين أو قطعوا فكى العقارب ، فقد أمكننا أن نتأكد بأنهم لا يخضعون هذه الحيوانات لأى نوع من البتر ، كما قد علمنا عن طريق أناس جديرين بكل ثقتنا وتصديقنا، بأن نفس هذه الحيوانات التي لا تضر هؤلاء «المأذونين» كثيراً ما سببت للآخرين أحياناً بشعة (*) .

(*) انظر دراسة مشابهم لذلك ، في المجلد الأول من الترجمة العربية : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر الحديثين ، الملاحق ، « في الأفاعي أو سحرة الثعابين » .

الفصل السابع

الرحيل من رشيد إلى القاهرة

بعد أن مكثنا في رشيد لمدة ما يقرب من ستة أسابيع ، أبحرنا في الأول من فريكتيدور من العام السادس ١٧٥٠ أغسطس ١٧٩٨ ، في حوالى الساعة السادسة ، على ظهر سفينة كانت مخصصة للقيام بعمليات الاتصال مع القاهرة ، لكن الليل الذى لم يلبث أن طوانا في عتمته لم يمكننا على الإطلاق بأن نستمتع بمشاهدة شواطئ النيل ، ومع ذلك فقد واثقنا الفرصة ، في أثناء اللحظات القليلة التى أبحرنا فيها ولما يزل في الأفق ضوء الغسق ، أن نلم في الدلتا بمناظر طبيعية كثيرة التنوع وبالغة الجمال في نفس الوقت . وقد أعطى أفول الشمس لأشجار النخيل ملامحاً غامقاً كما أظهر مجموعات الأشجار المختلفة التى كانت تلوح لناظرنا بشكل أكثر كثافة ، وإذا كانت الريح هادئة فقد قطعنا خلال الليل مسافة قصيرة فقط من الطريق ، بحيث لم يفتنا الكثير من مشهد شواطئ النهر .

وفي اليوم التالى رأينا عدداً أكبر من القرى ، ومررنا على التوالى أمام مطويس وديروط وهما قريتان كبيرتان لحد ما ، ثم وصلنا في الحادية عشرة إلى ميناء فوه ويتمرض النيل لعدد هائل من التعرجات^(١) فيما بين هذه المدينة ومدينة رشيد . وقد بليت كل هذه القرى التى لفتت انتباهنا من الطين^(٢) بطريقة تبدو معها وكأنها أكوام من الطين المجفف ، ويبدو أن بيوت هذه القرى قد بنيت من الطوب . ومنازل هذه القرى واطئة ، وقلما ترتفع فوق الأرض لأكثر من اثني عشر قدماً . وتعلو بعض هذه البيوت أبراج حمام بليت بشكل هرمى

(١) أنظر الأوراق ٣٦ و ٤٠ من الخريطة الكبرى لمصر ، التى حجم لى ٤٧ ورقة .

(٢) أنظر الورقة ٧٩ ، الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

وتتجمع داخل هذه الأبراج أعداد لا حصر لها من الحمام . وفضلا عن ذلك فيبوت القرى مجرد أكواخ قدرة قبيحة المنظر يخرج من جوفها في دمن، حرارة الصيف الشديدة سكانها ، وهم نصف عراة لينهمكوا في أعمال الزراعة المرهقة، فيبقى بعضهم إلى جوار جاموساتهم التي تدير السواق ذات القواديس^(١) التي تنهض على ضفاف النيل والتي تسمع عن بعد ضجتها الزاعقة والرتيبة في وقت معاً ، ويقود البعض الآخر حيواناتهم التي تجر المحراث والتي تعلق بنيره ، ويمكن القول بأن المحراث لا يفعل إلا أن يخدش سطح الأرض ، ويجلس عدد كبير من الفلاحين في وضع متدرج على شاطئ النيل يروون الحقول المزروعة بصعوبة بواسطة الدلو « الشادوف » تحت إشراف المالك أو المزارع . وقد شاهدنا في مكان آخر رجالا لا يعملون إلا بالصيد، ويقف هؤلاء وهم عراة - كما ولدتهم أمهاتهم - على شواطئ النهر معرضين أجسامهم للهب أشعة الشمس، ويحملون في أيديهم قضبان طويلة معلقة فيها شباك ، ويلتظر الصيادون في صبر وأناة حتى تأتي السمكة من تلقاء نفسها لتدخل في شباكهم . لكن مياه النهر العسكرة تمنحهم الثقة منذ بداية الأمر أنهم سوف يحصلون على ثمن صبرهم وأمانهم تلك .

وليست أشجار النخيل وحدها هي التي تشكل زينة لشواطئ النهر ، فشمة أشجار الجوز وهي تعطى للشهد تنوعاً محبوباً وتمتد إلى بعيد ظلها المرتجى، وقد لاحظنا أن أغصان هذه الشجرة الجميلة تتحرك كلها في نفس الاتجاه وهو اتجاه الرياح الشمالية الغربية التي تسيطر معظم الأوقات على البلاد .

وقد بليت فوه في واحد من أجمل المواقع على شواطئ النيل ، ويصنع أحد أذرع النيل جزيرة فيما قبل هذه المدينة ويشكل الفرع الرئيسي الذي يتجه نحوها

(١) أنظر نفس الفوحة ؛ وكذلك اللوحة ٧٨ ، الشكل ١ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

بشكل شبه عمودى ترعة واسعة أو قل إنه نوع من لسان البحر الذى يبدو وكأنه قد امتد إلى هنا عن عمد ليقدم مثل هذا المشهد الرائع . وكانت فوه فيها مضى وكما سبق لنا القول هى المكان الذى ترسو فيه كل سفن أوربا ، لكن المزايا التى كانت تعود إليها، قد انتقلت كلها إلى مدينة رشيد وذلك منذ أن ابتعد عنها مصب النيل نتيجة لامتداد الدلتا ، ومنذ أن ردمت أو سدت الترعة التى كانت تربط ما بينها وبين الاسكندرية . ولقد تضاءلت فوة اليوم لتصبح فى وضع قرية لا تتميز عن بقية قرى الدلتا إلا بجملها وتنوع أشكال مآذنها ومساجدها العديدة . وشوارع فوة بالغة الضيق ، ويسكن العوالم أحد أحياء هذه المدينة ، وهن أولئك الراقصات اللاتى يتمتعن برقعاتهن الشهوانية والخليعة التى تدور على أنغام موسيقى منفرة ، أرياء أهل البلاد وكذلك القبايعات فى معازل الحريم .

وما أن غادرنا فوة حتى وصلنا بعد قليل إلى ما بين قريتي الشرفا(*) وسرتباي اللتين تواجه كل منهما الآخر على شاطئ النيل، ثم اجتزنا دسوق وهى قرية كبيرة تقع فى داخل الدلتا ، وبعد مسافة قصيرة من هناك بلغنا مرتفع الرحمانية، حيث تلوح تلك الترع التى تتفرع عن النيل لتحمل المياه إلى الاسكندرية .

وعندما كنا نقرب من القرى كان الأهالى يهرعون بفعل فضولهم إلى الشط تملموهم الثقة ، وقد لاحظنا من بينهم كثيراً من الأطفال ، والفتيات الصغيرات على وجه الخصوص ، وهؤلاء كن عاريات تماماً ، وهو تناقض يبعث على الغرابة مع تلك العادة الصارمة التى سترغبن فيها بعد هل أن يحتجبن بعناية شديدة ، وبشرتن غامقة اللون بل تسكاد تسكون سوداء . وفى بعض الأحيان كنا نصل إلى القرب من بعض القرى دون توقع من أهاليها، عندئذ كانت تسارع تلك المسورة، اللاتى كن على شط النيل ليغترفن المياه واللاتى كنا سافرات الوجوه ثقة منهن

(*) لعله يقصد قرية الشراك أو الأشراك وهى إحدى قرى مركز شبراخيت .

أنهن وحدهن، يسارعن ما إن كننا يلحظنا برفع ذيل ملابسهن ليخفين وجوههن^(١) تاركات بذلك نهياً للرؤية أجزاء من جسم المرأة تخفيها النسوة في أما كن أخرى بعناية بالغة . ياله من اختلاف يبعث عل الدهشة بين عادات أوروبا وعادات أفريقيا ! وقد هيأت لنا هذه الأمور برغم ذلك الفرصة كي نرى تلك القامة المشوقة والجذابة للنسوة الطبقات الشعبية ولتأمل جمال تكوينهن ، وهو ما يتناقض بشكل غريب مع ملامح وجوه ، فبشرة النساء شأنها في ذلك شأن بشرة الرجال تميل للون الفحاسى الغامق .

ويحب المصريون الاستحمام حياً شديداً ، وهو ميل طبعى في بلد على مثل هذه الدرجة من الحرارة ، وقد شاهدنا ونحن في طريقنا عدداً كبيراً منهم يهرعون إلى النهر ويعومون بمهارة لاتصدق ، وكثيراً ما كانوا يخرجون من الماء ليعطوا أجسامهم بالتراب ، ويظلون لفترة معينين أجسامهم للأشعة الحارقة ، ثم ينهضون ليعمسوا من جديد أجسامهم في النهر .

ومع مواصلة طريقنا إلى أعلى النيل كننا نلمح مشاهد طبيعية كانت قشداً أعيننا أكثر فأكثر لتغيرنا على التطلع ، فقد كنا نرى أما كن شاسعة أرضها قاحلة وليس بها بشر ، ولقد رأينا في الدلتا على وجه الخصوص سهولاً شاسعة غير مزروعة ، يغطيها السكّاء وأعشاب لاجدوى منها ، ولا تحتاج هذه السهول كي تكون منتجة إلا لأيد نشطة وعاملة ، لأن الأرض هناك خصبة وجيدة ، كما أن المياه اللازمة لإيمانها غير بعيدة عنها .

وفي أثناء مرورنا أمام قرية صا الحجر لحنا سوراً هائلاً وتلالاً من الانقاض

(١) أنظر الملابس والوجوه ، لوحة A ، وسجد رسماً لإحدى أسماء الشعب اللاتى فتجدت عنهم هنا .

ثمرفنا فيمأعلى أطلالسايس القديمة^(١). وعن طريق سايس وصلنا إلى مرتفعات
الفرستق عند فتحة ترعة كبيرة تسمى ترعة شبين الكوم، وهي تصل ما بين فرعى
رشيد ودمياط خلال المنطقة الوسطى من الدلتا .

وفي بعض الأحيان ينحصر النيل داخل مجرى شواطئه العمومية ليرتفع في
أثناء فترة الفيضان التي وصلنا خلالها إلى ما بين ٦-٧ أقدام فوق مستوى سطح البحر،
وفي أحيان أخرى لا يعود النهر يعرف لنفسه حدوداً ويمتد إلى بعيد ، وهذا
ما أمكننا أن نراه على وجه الخصوص ابتداء من الفرستق حتى قرية نادر عند
فتحة ترعة منوف الكبيرة، التي يمكن اعتبارها بمثابة نهر^(٢) يربط خلال الجزء
العلوى من الدلتا ما بين الفرعين الرئيسيين لنهر النيل .

وفي هذه الفترة من العام والتي قمنا خلالها برحلتنا هذه كان أكبر عدد من
الجزر وكتل الرمال يشاهد في نفس هذه الفترة حقولاً كاملة من البطيخ الذي
امتدحه كثير من الرحالة وهم يحقون في ذلك ، فهذا البطيخ قد أنقذ منذ وقت
قريب حياة عدد كبير من الفرنسيين في أثناء زحفهم العسير من الإسكندرية إلى
القاهرة . أما محصول الذرة فكان في قمة ازدهاره في حقوله التي تمتد حول
شواطئ النيل .

وقد جنح قاربنا مرات عديدة في تعرجات النيل حين كانت تأتي الرياح
معاكسة لاتجاهنا . عندئذ كان كل البحارة - بعد أن يخلعوا ملابسهم - يلقون
بأنفسهم في المياه ويمجرون القارب بالحبال . وطيلة طريقنا كانت تصدنا قناعة
الناس ، فلم نشاهد منهم مطلقاً يأكلون إلا خبزاً جافاً أسمر اللون ، يغمسونه في
بعض الأحيان في ماء مغلي ، وهو ما يشكل نوعاً من الحساء غليظ القوام
يأكلونه بأصابعهم .

(١) أنظر رحلة إلى أممات الدلتا ، المجلد الثاني ، ص ١١٦ ، الدولة الحديثة (الدراسة
الراهمة من هذا الكتاب من الترجمة العربية) ؛ وكذا العصور القديمة الفصل ٢٥
(٢) أنظر رحلة إلى أممات الدلتا وكذلك الأطلس الجغرافي .

وبين مسافة وأخرى كنا نلج على شواطئ النيل أكوأخاً صغيرة كان يأتي إليها الرجال والنساء للراحة والاحتباء من لهب الشمس، وهي عبارة عن أربعة من فروع الأشجار مغروسة في الأرض وتوضع فوقها أغصان جافة، كما كانت تدهشنا تلك الأعداد الكبيرة من قطعان البقر والجاموس التي كنا نلحها على الشاطئ الآخر. ونحب الجاموس الماء كثيراً وتبقى فيه لمدة طويلة حيث تغمس أجسادها حتى رأسها. ومن المشاهد التي تبعث على الفضول أن ترى قطعاناً بأكلها من الحيوانات تعبر النيل أو تستحم فيه، وكثيراً ما شاهدنا رجالاً وأطفالاً صغاراً يتسابقون في عبور النهر وكانوا يمسكون تحت أبطهم بحزمة من القرع لتحملهم، وكانوا يعتقدون ملابسهم حول رأسهم كما كانوا يستخدمون أيدهم كمجاديف لتغيير الاتجاه.

وبعد أن استمتعنا بكل هذه المشاهد المتنوعة وبكل ما يلفت الانتباه وصلنا إلى بطن البقرة، وهي النقطة التي ينقسم عندها النيل إلى قسمين ليشكل فرعى دمياط ورشيد. ويبلغ اتساع النهر هناك مداه حتى ليظن المرء نفسه يسبح وسط بحر.

كنا قد لحنا بالفعل الأهرام الشهيرة عندما كنا ما تزال بعد على مسافة أكثر من ثمانية أو عشرة فراسخ، وما إن كنا نتقدم حتى كانت تبين أكثر فأكثر تلك الهضبة التي تنهض فوقها الأهرام، ثم ظهرت الأهرام نفسها بمشهدها الطاقى. وفي أثناء رحلتنا هذه نزلنا في بعض الأحيان من قاربنا وذهبنا نلتمس البطيخ من القرى المجاورة. وقد استقبلنا الفلاحون بحفاوة، وباعونا بلهفة تلك الفاكهة التي وجدناها لذيذة للغاية في بلد يكاد يحرقها لهب الشمس. وفي أثناء جولتنا تلك خارج قواربنا لمسنا كم أن الشمس حارقة، كما وجدنا السماء ملتهبة وخائفة بسبب ما كان يقابلنا من لفحات هواء، بدا لنا ساخناً، كما لو كان يصدر من فتحة فرن.

وفي أثناء ذهابنا من بطن البقرة إلى القاهرة لحنا على الشط الأيمن رجالاً

وامرأة راكبين فوق ظهر جمل وكان يسير خلفهما أهلها وأصدقاؤهما، وهؤلاء بدورهم يركبون الجمال التي كانت بالإضافة إلى ذلك تحمل الأمتعة . لقد كانت زوجة جديدة وكان زوجها يصحبها إلى مسكنه ، وبدأ لنا وكأننا نرى ربيكا^(١) تسير خلف الخادم المعجوز لإبراهيم، والذي جاء يصحبها لتصبح زوجة لابن سيده^(٢) . وفي كل خطوة في مصر سوف تجد هكذا تلك التقاليد والعادات كما جاءت في نفس شكلها الساذج والبسيط في سفر التكوين .

وأخيرا وصلنا إلى بولاق في الثالث من فريكتيدور في حوالى الساعة الخامسة مساء ، ويمكن اعتبار هذا المكان بمثابة ميناء للقاهرة ، عاصمة مصر ، والتي سوف تكون بعد قليل موضع فضولنا الذى لا يشبع .

(١) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٥١

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح ٢٤ ، الآية ٦١

(۱۰)

دراسته موجزة عن
تريكة الاسكندرية
”لانكرية - شايروك“

يتفرع فرع رشيد^(١) ، عند اقترابه من الرحمانية ، إلى ذراعين أساسيين مشكلا سلسلة متتابعة من الجزر ، يبلغ طولها في مجموعها ١٨٠٠ متر ؛ وأهم هذين الذراعين هو الذراع الأيمن ، الذى يظل على الدوام صالحاً للملاحة ، أما الآخر - وقد كان يظل يحتفظ ، حسب شهادة أبناء البلاد بالمياه طيلة العام - فقد غص بالطمي منذ ما لا يزيد على اثني عشر عاماً على أكثر تقدير ، لدرجة يظل معها هذا الذراع ، منذ ذلك التاريخ ، جافاً لمدة ثمانية أو تسعة أشهر في العام .

على شواطئ هذا الذراع توجد قرية الرحمانية ، ومن هذا الذراع كذلك ، وعلى بعد ١٢٠٠ متر إلى الشمال من الرحمانية ترفد ترعة الاسكندرية ، حيث تدخل إليها المياه عن طريق فتحتين ، تعلو كل فتحة منهما بمقدار ٢,٨ من الأمتار فوق منسوب أدنى مياه النهر ، كما تبعد كل منهما عن الأخرى بنحو ٦٠٠ متر . وأدنى هاتين الفتحتين هي في نفس الوقت أقدمهما ، لكنها قد أهملت لأن أهمال التطهير المتعاقبة قد رفعت من جسورها حتى أن الرياح (اللازمة لتسيير المراكب) لم تعد بقادرة على الوصول إلى القلاع ؛ وهكذا أنشئت الفتحة الثانية كي تقوم مقامها .

وليست ترعة الاسكندرية ، في الفرسخ الأول من مجراها^(٢) ، سوى ما يشبه حفرة يبلغ اتساعها ٥ إلى ٦ أمتار . وقد حفر هذا الجزء من التربة لربطها بفرع رشيد حين انسد ذلك الجزء من الفرع الكانوبى ، الذى كان يشكل فيما مضى

(١) قرئت هذه الدراسة بالجمع العلمى بالقاهرة ، في الأول من نيفوز من العام الثامن (٢ ديسمبر ١٧٩٩) .

(٢) الفرسخ الذى تقدر به المسافات الكبيرة والذى ورد في هذه الدراسة هو الفرسخ الذى يبلغ طوله ٢٤٠٠ قامة (وتساوى القامة ٢ ياردة) .

يجرى هذه التربة الأصلية ؛ ثم يلتقى هذا الجزء (من التربة) بالفرع السكاني القديم على بعد ٢٥٠ متراً من قرية كفر محلة داود ، ولا يفصله عن التربة إلا جسر يبلغ سمكه في هذه المنطقة أربعة أو خمسة أمتار .

وبمجرد أن نتقدم إلى ما بعد هذه النقطة ، تصبح التربة أكثر اتساعاً ، ويصبح شكلها كذلك أكثر استواء ؛ واستمر القرى على هذا النحو حتى قرية سماديس ، حيث يبلغ متوسط اتساعها خمسين متراً ، وتظل تحتفظ بهذا الاتساع إلى ما وراء قرية أفلاقة ، أي لمسافة تبلغ نحو الفرسين ونصف الفرسين . وترتفع قمم شواطئ التربة لأكثر من أربعة أمتار فوق مستوى قاعها ، في حين لا يبلغ عمق هذا القاع في حقيقة الأمر سوى متر واحد أدنى من مستوى أرض السهل . ويحمل هذا الجزء من التربة كل خصائص وسمات الماضي القديم ، إذ نجد عليه مراحى نصف دائرية ، يبلغ اتساعها ٨٠ متراً ، الأمر الذي لا يمكن أن نشك معه أن كانت تتحرك في هذه المنطقة أعداد كبيرة من القوارب بالإضافة إلى حركة تجارية بالغلة النشاط ، وفي الواقع ، فإن هذا المكان هو ما يمكن أن يقع عليه اختيارنا اليوم حين نرغب في تجميع منتجات ولاية البحيرة لكي نرسلها إلى الاسكندرية ؛ فضلاً عن ذلك فهذا المكان يقع بالقرب من قرية كبيرة ، منذ وقت طويل ، ونعني بذلك دمنهور ، التي تشغل اليوم فيما يبدو - موقع هرموبوليس بارفا القديمة^(١) .

وبعد ذلك لا تقدم التربة شيئاً متميزاً خلال الفرسين التاليين فيما عدا أن قرينى زاوية غزال وقايل قد هجرتا التربة القديمة إلى ترعة حفرت حديثاً بعمق منتظم ، كما أنها قد شقت في شكل خط مستقيم .

(١) تمر ترعة الاسكندرية إلى شمال دمنهور بنحو ١٢٠٠ - ١٥٠٠ متر ؛ وتحصل هذه المدينة على مياه النيل من طريق ترعة خاصة تخصي لنتهي إلى ترعة الاسكندرية ، إلى الجنوب قليلاً من قرية أفلاقة .

وبعد قابيل نجد أنفسنا في قرية جد مختلفة عن تلك التي تجاوزناها للتو ، حيث لانعود نمضى في سهل خصيب ، مزروع وعامر بالترى ، بل في أرض غير مزروعة ، وقرى خربة ، ومدن مهجورة ؛ وقد يكون هذا المشهد أبعث على الرعب من مشهد الصحراء لأننا لانسى أنه كان فيما مضى على حالة من الازدهار لم يعد لها وجود .

ويصبح متوسط اتساع ترعة الاسكندرية ابتداء من قابيل ولمسدة أربعة فراسخ متوالية عشرين مترا ، وتغدو جسورها في بعض الأحيان قليلة الارتفاع ، وفي أحيان أخرى تعلو هذه الجسور لتبلغ أكثر من ثمانية أو عشرة أمتار ؛ وهذا الجزء من التربة هو أجمل أجزائها وأكثرها تماثلا وانتظاما سواء من ناحية العرض أو ناحية العمق ؛ وتحفظ التربة في الفرسخ التالي ، أى عند اللوح (٥) بنفس العرض ونفس التماثل والانتظام الذي كان لها قبل ذلك على وجه التقريب ، لكن السهل المحيط بها يأخذ في الانخفاض شيئا فشيئا بحيث يصبح قاع التربة على نفس مستوى سطح هذا السهل ، بل إننا نجد القاع في أماكن عدة يرتفع عن منسوب سطح السهل نفسه ، ولا تعود الزراعة لتصبح تحت مستوى سطح السهل إلا قبل الاسكندرية بنصف الفرسخ .

وبعد اللوح مباشرة تتسع التربة بشكل مفاجئ لمسافة تبلغ نصف الفرسخ ، فيبلغ عرضها مائة إلى مائتين بل ثلاثمائة وخمسين مترا في حين لا يكاد يبلغ ارتفاع جسورها المترين ؛ وهذه الجسور ضعيفة لحد أن المياه تتسرب من خلالها ؛ وتضيق التربة بعد ذلك كثيرا فلا يعود يبلغ عرضها عند المرور بالبيضا أكثر من خمسة أمتار ، وهناك تهدد الجسور التي يبلغ ارتفاعها أكثر من سبعة أمتار ، والتي تغطيها رمال متحركة ، بطمس التربة بشكل تام . وفي هذا المكان ، تسير

(*) ، لوحا أولوها Leïôha ويذكر القاموس الجغرافي لوصف مصر أنها قرية خربة ومهجورة كما سبق لنا القول . [المترجم] .

الترعة على مسافة تبلغ في المتوسط نحو المسافة متر من بحيرة أبى قير ، ثم تبعد عنها بعد ذلك ، لتتخذ ولمدى فرسخ واحد نفس الانتظام والاتساع اللذين كانا لها عند اللوحا ؛ ثم تقترب الترعة من البحيرة عند طرفها الغربى ، وتضغط عليها عن قرب حتى لا يعود يفصلهما سوى جسر حجيرى يبلغ سمكه من ستة إلى سبعة أمتار . ويقوم حائط سميك آخر ، يبعد عن الأول بخمسين مترا ، بدور الجسر من جانب السهل ؛ وهذا المكان الذى يعرف باسم البوصة بسبب تلك الكمية الهائلة من البوص (الغاب) الذى ينمو فيها بكثرة ، هو أكثر مناطق الترعة انسدادا لأن الأتربة الناتجة عن عمليات التطهير السنوية كانت تلقى على الدوام ذات اليمين وذات الشمال فى داخل الجسور ذاتها .

وبدأ من طرف البحيرة ، تجتاز الترعة أرضا تقطعها مستنقعات مالحة ، تغطيها طبقة من المالح يبلغ سمكها ١٠ - ١٢ سم ، ثم تمر بعد ذلك وسط دغل من أشجار النخيل يمتد لمسافة نصف الفرسخ ، تاركاً عن يمينه عددا كبيرا من الآبار ، يحمل بعضها طابع البناءات اليونانية أو الرومانية ، وإن كان معظمها قد شوهته الترميمات التى أدخلت عليه فى الأزمنة الحديثة ؛ وتحيط بهذا الجزء من الترعة ، وهو الجزء القريب من الاسكندرية ، من جهة اليمين ، أكوام تغطيها بيوت خربة ، هجرها منذ سلتين أو ثلاث سنوات ، العرب ، وقد كانوا آخر سكانها ، وهناك نجد بالمثل جذوعاً عديدة لأعمدة من الجرانيت بالإضافة إلى قطع من الفئات والحطام ، تنتمى لعبارة الإغريق الذين أنشأوا ، وجملوا فى الوقت نفسه ، هذه المنطقة من أرض مصر .

ويصبح عمق الترعة على مسافة نصف فرسخ من الاسكندرية أكثر انخفاضاً بتقليل عن مستوى سطح البحر ، لكنها تبدأ من هذا المكان ، وحتى سور العرب تمر بمنحدر عكسى ، أى أنها ترتفع مع اقترابنا من هذا السور .

وفى النهاية تستدير ترعة الاسكندرية ، وقد بلغ اتساعها الآن ٢٠-٢٥ مترا ،

حول سفح قل ينهض فوقه عمود سفيروس ؛ وبعد ذلك مباشرة تصبح بالقصة الضيق ، ثم تمر من خلال سور العرب (*) لتبلغ نهايتها في الميناء القديم ، في شكل مجرى أو مجرور .

ويبلغ الفرق بين أعلى وأدنى مياه النيل عند مدخل ترعة الاسكندرية ، نحو أربعة أمتار في السنوات المعتادة ؛ كما يبلغ متوسط عمق المياه في هذه التربة ، حينما تصل إلى أقصى ارتفاع لها نحو ١,٦ مترا .

وتصبح الزيادة السنوية لمياه النيل محسوسة عند الرحمانية ، فيما بين ١٠ و ٢٠ يولييه ؛ ونحو نهاية الشهر التالي تبلغ هذه الزيادة مدخل ترعة الاسكندرية وتستغرق المياه شهرا كاملا لكي تقطع هذه التربة ، إذ يبطل من مسيرة المياه عدم الاستواء في انحدار التربة ، وكذلك ، وبصفة خاصة بسبب تعرجاتها العديدة ، لذلك يبلغ طول امتدادها عشرين فرسخا ، على الرغم من أن المسافة بين طرفيها لا تصل لأكثر من خمسة عشر فرسخا ؛ وهكذا لا تصل المياه إلى الاسكندرية إلا في نحو العشرين من سبتمبر ؛ وحيث يلاحظ انخفاض مياه النيل عند الرحمانية ابتداء من الخامس من أكتوبر ، فإنه يترتب على ذلك أن الملاحضة في التربة لا يمكن لها أن تدوم لأكثر من عشرين أو خمسة وعشرين يوماً .

و حين تصل المياه إلى الاسكندرية ، تدخل في أربع قنوات تحت أرضية ، تتوزع مداخلها بطول نصف الفرسخ الذي يسبق مصب ترعة الاسكندرية . وتمضي المياه عن طريق هذه القنوات إلى خزانات ، وترفع منها عن طريق السواقي إلى مجار هندسية تتولى توزيعها على آبار وخزانات المدينة المختلفة . وتدار هذه السواقي ، ويصل عددها إلى ٧٢ ساقية ، بواسطة خيول وثيران

(*) أنظر دراسة عن مدينة الاسكندرية ، تأليف جراتيان لوبير ، وهي الفصل الأخير من كتابنا هذا .

تلتزم ولاية البحيرة بتوفيرها كل عام ، لهذا العمل^(١) .

ومنذ زمن ليس بالبعيد كان عدد الخزانات التي تستقبل المياه يصل إلى ٣٦٠ خزاناً ، لكننا الآن لا نجد أكثر من نحو ٣٠٨ خزان ، وقد ينخفض هذا العدد سرياً لأن بناء هذه الآبار يعود إلى زمن ضارب في القدم ، كما أنه لم يجر أى ترميم لها منذ زمان طويل ، كذلك كان يوجد عدد أكبر من القنوات الفرعية ، سكنها بعضها قد انسدت ، في حين لا يفيض بعضها الآخر إلا إلى بعض الحدائق الخاصة .

ولا يقفل مصب التربة مطلقاً في الميناء القديم أثناء العمل على ملء الخزانات . ذلك أن المنحدر العكسي الذي تحدثنا عنه ، يحول دون تدفق المياه عن طريق هذا المنفذ بكميات أكثر مما ينبغي ، أما المياه التي تفيض عن ذلك فتستخدم في تموين السفن .

وعندما تكون كل خزانات مياه الإسكندرية قد امتلأت على نحو كاف ، فإنه يسمح لسكان القرى الواقعة على ضفاف البحيرة بقطع جسورها ، لرى أراضيهم أو ملء خزاناتهم ، على حد سواء .

ويعتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر ، الفلاحون الذين يقطنون القرى الواقعة على شط التربة الآمن في جزئها الأعلى ، والذين تروى حقولهم ترع أخرى ، لكي يقطعوا جسور ترعة الإسكندرية حتى يصرفوا إليها على وجه السرعة المياه التي ظلت فوق أراضيهم وحق يحففوها على وجه السرعة ، وفي الوقت الذي نجد فيه هؤلاء مضطرين لتصرف هذه المياه إلى التربة ، فإن هذه المياه نفسها سوف

(١) ينبغى رفع المياه لارتفاع عشرة أمتار حتى تصل إلى الخزانات الموجودة ناحية باب رشيد ، ولارتفاع خمسة أمتار فقط لكي تصل إلى الخزانات الواقعة بالقرب من الميناء القديم .

تستخدم في رى الاراضى الواقعة في الجزء الأدنى من التربة والتي لا ترويه مياهها بالقدر الكافى . ولا تسمح الفيضانات الكبرى إلا برى جزء من الاراضى ، أما في حالة الفيضانات العادية فتبقى الأرض دون زراعة ، ويهجر الفلاحون مقارهم لكي يذهبوا باحثين عن عمل في المدن أو القرى الكبيرة ، منتظرين إلى أن يروى النهر حقولهم كي يعودوا إلى قراهم .

لقد حفرت هذه التربة دون شك بأقل قدر من العناية ؛ ويدبغى لنا أن نلصق حجر شواطئها إلى ضالة كميات المياه التي تعملها التربة كل عام ، ذلك أن الأرض هناك قابلة للزراعة لحد كبير ، فربما هي نفس التربة في بقية أنصحاء مصر ، وإن كانت الرمال — للحقيقة — تعطيها في بعض أنصائها ، وقد كان ذلك نتيجة لعزلة هذا الإقليم ، وليس سبباً لها .

وتحت حكم المماليك ، كان يعسكر أحد الكشاف من حامية ولاية البحيرة ، على شواطئ التربة ، ابتداء من اللحظة التي تدخل إليها فيها المياه ، وحتى الوقت الذي تمتلئ فيه خزانات الإسكندرية ، وكان الهدف من ذلك ، هو منع عربان الصحراوات وكذا الفلاحين ، من إحداث قطوع في جسورها ، ولكي يقوم هذا الكاشف بنفسه بإصلاح هذه الجسور إذا ما أُنذرت كميات المياه الكبيرة للغاية بقطع بعض أجزاء من الجسر . وحالما تمتلئ خزانات الإسكندرية ، كان يدخل (هذا الكاشف) المدينة لكي يتأكد من حدوث ذلك ، ويقوم بذلك ، وبناء على طلب منه ، كل من قائد المدينة والقاضى والعلماء ؛ وبعد ذلك كانت تملأ جرة من مياه هذه الخزانات ، وتقبل بواسطة الذين أشرفوا على هذه العملية ، وترسل إلى حاكم القاهرة ، وبرفقتها حجة تؤكد لهذا الحاكم أن المياه في حالة طهية ، وأن الخزانات قد امتلأت .

وبعد أن تعرفنا على ما يسمى اليوم بتربة الإسكندرية ، وعلى النظام الذى تخضع له مياهها ، فسوف نتناول بإيجاز حالتها القديمة ثم نلقى بنظرة سريعة

هلى صلاتها بالتجارة والزراعة ، وفى النهاية سوف نتحدث عن الإصلاحات التى تتطلبها والتى لا بد منها ، وعن التحسينات التى يمكن إدخالها عليها .

لم يبق من أثر يدل على أن ترعة ماقد حملت مياه النيل من بحيرة ماريوتيس إلى المنطقة التى تشغلها الإسكندرية . ويبدو أن سكان حواشى راكوتيس ، وكذلك الحامية التى كان ملوك مصر يحرسون على وجودها هناك ، كانوا يحصلون على المياه الصالحة ، وبالتقدر السكاكى من الحفر التى كانوا يحفرونها هناك على شاطئ البحر . ومن المعروف أن قيصر ومعشوقته ، حين كانا محاصرين بالإسكندرية ، قد اقتصرا لوقت طويل على هذا المصدر الوحيد للمياه . وقد يكون بالإمكان اللجوء إلى هذه المياه ، فى أيامنا هذه ، إذا اقتضت الأحوال ، وقدمت (بالفعل) تجارب للتأكد من صلاحيته .

ومع ذلك ، فإذا لم تكن شواطئ بحيرة ماريوتيس تزرع قبل الإسكندرية ، فإننا لانستطيع أن نشك فى أن جزءاً من السهل الواقع بين الإسكندرية ودمهور كان يروى ويزرع بصفة مؤكدة على يد قدماء المصريين ، إذ لا يزال المرء يجد هناك فتات كتابات هيروغليفية تدل على أنهم أقاموا المنشآت هناك ، فتجد فى قرية أفلاقة ، كما فى قرى أخرى ، أن باب إحدى الطواحين يزدان فى تناسق بثلاثة أحجار منحوتة ، ويحمل أكثر هذه الأحجار أهمية ، رسماً لإيزيس وهى منسكئة ، بحجم يبلغ ست ديسمترات ؛ تغطى رأسها بجلد نسر ، وتمسك بيدها تلك العصا التى تلتهى بزهرة اللوتس . وقد حفظت هذه الشقفة من الحجر الجيرى بأ كبر قدر من العناية ؛ وقد نقش هذا الرسم بحروف بارزة فوق التجويف ، بنفس العناية ، وبنفس التفاصيل التى نجده عليها فوق جدران معبد دندرة (١) .

(١) انظر المجلد الخامس ، مجموعة العصور القديمة .

أما الرأى القائل بأن هذه الترععة إنما هى نفس الترععة التى حُفرت بعد تأسيس الإسكندرية ، حينما تقدمت المدينة وازدهرت بشكل عام ، فنحن نعتقد أن علينا أن نجرى حول هذا الرأى أبحاثاً عديدة .

نعرف عن طريق الشهادات الموضوعية لسترابون ، أن المرء عند خروجه من الإسكندرية عن طريق باب كانوب ، كان يجد عن يمينه ترعة تحمل هذا الاسم ، توازى شاطئ البحر ، وعلى مسافة قريبة منه . ولقد كان لهذه الترععة منفذ على بحيرة ماريوتيس فى الوقت الذى لم يكن لها فيه بالتأ كيد مثل هذا المنفذ بالقرب من كانوب الواقعة على شاطئ البحر ، لكن هذه الترععة كانت تحصل على مياه النيل عن طريق ترعة ترفد عن الفرع السكونى بالقرب من شديا ، وعلى مسافة قصيرة من فم النيل ، ماذا يمكن إذن أن يكون ذلك الدافع الذى حدا بالمهندس المعمارى دينوكراتوس لى شق ترعة يبلغ طولها ١٨ فرسخاً فى حين قد كان بمقدوره الحصول على المياه من جوار كانوب عن طريق ترعة لا يتجاوز طولها ستة أو ثمانية فراسخ ، فقط ؟

وبلا جدال ، فلقد كانت ترعة كانوب هذه ، هى الترععة الوحيدة التى تحمل إلى الإسكندرية المياه المخصصة للشرب ، ذلك أننا لو افترضنا أنه كان من الضرورى — وقد أصبحت هذه المدينة أكثر مدن مصر ازدحاماً بالسكان — شق ترع أخرى ، بدءاً من قمة الدلتا ، كى تزيد من كمية المياه الصالحة للشرب فى الإسكندرية ، لكان علينا كذلك أن نقر بأن هذه المياه لم يكن بمقدورها الوصول إلى المدينة إلا بعد أن تتجمع إلى المياه التى كانت تحملها ترع شديا أو كانوب ؛ وبمعنى آخر ، فقد كان على هذه المياه أن تبحر بحيرة ماريوتيس ، حيث كانت بالضرورة سوف تفسد .

ومع ذلك فاعل ذلك الجزء من الترععة الحالية ، الواقع بين قرية السكريون والمستنقعات البحرية التى تحدثنا عنها ، هو ما تبقى من إحدى هذه الترع التى

كانت تهدف إلى زيادة كمية المياه في ترعة كانوب . وهذا الجزء بدور حول الموقع القديم لبحيرة ماريوتيس . كما أن قاعه أعلى بكثير من مستوى سطح السهل . وهكذا ، فيما يبدو لنا ، يحتمل أن يكون القوم قد أنشأوا بالقرب من المياه المالحة ، ترعة خصصت لنقل المياه اللازمة لاحتياجات الحياة .

ومن جهة أخرى ، فقد كان يهمل إلى بحيرة ماريوتيس ، طبقاً لشهادة سترابون ، عدد كبير من الترع أو القنوات التي رفدت عن الأجزاء العليا من النهر ؛ وكانت واحدة منها تمر بهرموبوليس بارفا ، وقد سبق لنا أن لاحظنا أن التربة تجعل طابع الماضي في المنطقة المجاورة لهذه المدينة التي تسمى اليوم دمنهور . وهكذا فلسنا نشك أن العديد من الترع القديمة كان يتصل ببعضه البعض على التوالي ، لتتكون في النهاية تلك التربة التي بقيت حتى اليوم ، ويمكن لذلك أن يفسر لنا سر الالتواءات الغريبة والكثيرة وسبب كثرة مرات عدم الاستواء التي تعاني منها هذه التربة ، في حين أنها تخترق أرضاً يمكن لها فيها أن تتخذ شكل الخط المستقيم ، مع أكبر قدر من الانتظام والاستواء .

ويقودنا تاريخ ترعة الإسكندرية إلى التصدى لموضوع آخر ، ليس غريباً عن ذلك الذي نعالجه .

نحن نعلم عن طريق قصة حرب قيصر في الإسكندرية أن جزءاً من هذه المدينة كانت تعبره ترعة تفي مياهها باحتياجات جزء كبير من شعب الإسكندرية ؛ ذلك أن أثرياء المدينة والذين يرتبطون بهم لم يكونوا ليكتفوا بمياه الخزانات أو الآبار . وقد ظن بعض النقاد أن هذه التربة كانت هي نفسها التي تربط — في ذلك الوقت — بحيرة ماريوتيس بميناء كيبوتوس ، دون أن يأخذوا في اعتباره ، أنه حتى بافتراض أن مياه هذه البحيرة قد أصبحت صالحة للشرب عن طريق هذا العدد الهائل من الترع النيلية التي تصب فيها ، لكانت هذه المياه تميل بالضرورة لللوحة في التربة التي تحملها إلى البحر ، ذلك أن هذه التربة كان

لا بد لها أن تكون واسعة مادامت قد كانت صالحة للملاحة . وفضلا عن ذلك فقد كان التعبير الذى أطلقه هيرتيوس^(١) Hirtius ، والذى أطلق فيه اسم نهر النيل على الترعَة التى كان الناس يشربون منها لم يكن مما يجبذه أولئك الذين يعتقدون أن هذه الترعَة إنما كانت ترفد عن بحيرة ماريوتيس . هكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى الاعتقاد بأن المياه التى كان يستعملها القوم إنما كانت تستمد من ترعة كانوا ب هذه ، والتى تحدثنا عنها فيما سبق .

وقد نضيف بأن هذا رأى لا يتعارض مطلقاً مع رواية هيرتيوس حول وضع قيصر حين كان محاصراً بالإسكندرية ، والذى لم يكن - كما هو معروف - يسيطر نفوذه على الحى الذى تخترقه الترعَة المسماة نهر النيل ، فهذه الترعَة التى نحن بصدددها ربما لم تكن - فى واقع الأمر - تمر بحى القصور التى يملكها قيصر ، ولا بد أن هذه الترعَة كانت تخترق المدينة بين سورها الجنوبي والشارع الطويل ، كما لا بد أنها كانت تصب مياهها عن طريق فتحة ضيقة فى تلك الترعَة التى كانت تربط بين بحيرة ماريوتيس وميناء كيبوتوس .

وهكذا نرى من وصف ترعة الإسكندرية أنها لم تعد محاطة فى الجزء الأكبر من مجراها إلا بخراب وصحراوات ، ومع ذلك فلما تسكد تمضى أكثر من ٢٠ عاماً منذ ذلك الوقت الذى كانت لاتزال هذه المنطقة فيه تتجلى بكل ثروات مصر . وأنقل هنا فقرة عن السكاتب العربى أبى الفداء الذى كان يعيش فى هذه الفترة ، حيث يقول فى البداية عند حديثه عن الإسكندرية :

« ويحب إليها القمح من الخارج ، فالحقول المحيطة بها قاحلة لأن أرضها مشبعة بالملح ، .

ثم يقول في الهامش :

« تقع الإسكندرية داخل جزيرة رملية ، شكلها كل من البحر وترعة الإسكندرية ، وهذه الجزيرة التي يصل طولها لأقل بقليل من مسيرة يوم واحد ، مزروعة بالكروم ، ويزدان بالحدائق ؛ وعلى الرغم من أن الأرض لا تكون إلا من الرمال فإن مظهرها مع ذلك لا يخلو من جمال . وتقوم التربة التي تحمل مياه النيل إلى الإسكندرية بمظهر أمتعشاً ؛ ويزدان مجراها بالحدائق والبساتين على جانبيها . »

ولسكنى تفهم هذين النصين من أبي الفداء ، واللذين يبدو أن متعارضين لأول وهلة ، فلا بد أن نلاحظ أن النص الأول يتعلق بذلك الجزء من السهل الذي يقع على يسار التربة ، والذي يتيح بالفعل بالملاح البحري ، حيث كان يقع فيما مضى ، تحت مياه بحيرة ماريوتيس . أما النص الثاني ، فإنه ينطبق على كل الفراغ فيما بين الشط الأيمن للترعة والبحر ، ولم تكن هذه الأرض — في معظمها — في ذلك الوقت تغطيها المياه ، كما هي اليوم ؛ لأن بحيرة أبي قير ، التي لا يصح أن نخلط بينها وبين بحيرة إدكو (المعديّة سابقاً) التي لم تكن قد نشأت بعد^(١) .

ولا يمكن للمرء الشك في أن شواطئ ترعة الاسكندرية لم تكن بالغة الازدهار حتى وقت سيطرة العرب على هذه المدينة . وتدل القناطر الأربع التي

(١) لم توجد بحيرة أبي قير بشكلها الحالي إلا منذ عام ١٧٧٨ أو ١٧٨٠ ، وقبل هذا التاريخ ، كان ثمة سد حجري ، لا يزال جزء منه باقياً حتى اليوم ، كان يمنع المياه من التوغل داخل الأراضي ؛ ولذا قطع هذا الجسر دون أن يسمى القوم لإصلاحه فقد غمرت مياه البحر كل السهل الأدنى من منسوبها هي ، وتكونت بحيرة أبي قير ؛ وقد فرق كثير من القري نتيجة هذه السكافة .

وعند حوالي بداية القرن الأخير قطع هذا الجسر بفعل لعصار ، كما يقص علينا بول لوكاس Paul Lucas ، لسكنه أصح بعد ذلك بقليل .

شيدوها بطول الفرسخ الذى يسبق الاسكندرية — على أن الحاجة للاتصال بين شط وآخر، فى زمنهم ، كانت ملحة. وقد خربت القنطرة الأقرب إلى السور العربى ، وقد شيدت الثلاث الأخريات على نفس النمط ، فهى تتكون من قوس واحد على النمط القوطى ، شاهق العلو ، بسبب احتياجات الملاحة .

وقبل أن نتحدث عن الأعمال التى تتطلبها ترعة الإسكندرية ، سنعرض للدوافع الأساسية التى يلغى أن نحثنا على صيانتها .

تعد ترعة الاسكندرية أكثر تلك النزع التى لا بد أن يشغل بها حكام مصر، أهمية ، بعد ترعة السويس ؛ إذ تغدو حلقة لا غنى عنها لتلك التى قد تربط البحر الأحمر بالنيل ، ذلك أنه أيا كانت النقطة التى ستمتدحى إليها التربة الأخيرة ، فليسوف يكون من اللازم أن تصل السفن التى تبحر فيها إلى الاسكندرية ، وسيكون من الحرص أن نجعل هذه السفن تصل إلى هناك عن طريق أروع داخلية ، بدلا من أن نسلها فى معظم الأحيان إلى بحر هائج ، أو أن نعرضها فى أوقات الحرب لعمليات العدو ؛ وقد أدرك الإغريق كل هذه الأسباب ، ولذا كانت تتم التجارة فى عهدهم عن طريق بحيرة ماريوتيس ، التى كانوا يفضلون موافقها على موافق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك فإن ترعة الاسكندرية — بعيداً عن مشروع قناة السويس — تتمتع فى حد ذاتها بأهمية كبيرة وتستحق أن نوليها القدر الأكبر من الاهتمام ؛ وفى واقع الأمر ، وهما تـكـن الوسيلة التى قد ترسل بها سلع الهند والبحر الأحمر إلى مصر عن طريق السويس أو القصير ، فلا بد أننا ندرك أن على هذه السلع أن تتجه على الدوام إلى الاسكندرية لى تشحن من هناك على سفن توزعها على كل أوروبا . وبمعنى آخر ، فإن الأسباب التى ذكرناها للتو عن ضرورات النقل الداخلى ، تحتم كذلك أن تغدو ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة طيلة العام ؛ وفضلا عن ذلك فسوف يكون هذا المشروع مصدر ازدهار لمصر ، فليسوف يعود إلى الزراعة جزء

هام من أرض أفقدها إياه الإهمال الإجرامى من جانب حكامها ، ولسوف نرى من جديد شواطئ هذه التربة — وهى اليوم جافة ومهجورة — وقد استعادت خصوبتها التى كانت لها فيما مضى ، ولسوف تفى هذه الظروف بشكل يدعو للإعجاب بالاحتياجات الجديدة للاسكندرية التى سيزيد نشاطها مع زيادة عدد سكانها ، والتى لن تمتص — مع ذلك الجزء الأكبر من منتجات مصر فى الوقت الحاضر .

ومهما تكن المضاربات التى سوف تستهدف التربة التى نتحدث عنها ، فإن مدينة الاسكندرية ضرورية للغاية لمصر وللحد الذى لا يمكن معه أن تترك حتى تفقد اتصالها بالنيل ، ولو للحظة واحدة .

وقد سبق لنا القول بأن ثمة جسراً حجرياً عند طرف بحيرة أبى قير ، يباغ سمكه من ٦ إلى ٧ أقدام ، يفصل البحيرة عن البحر ، وعلى الرغم من أن هذا الجسر قد بنى حديثاً ، إلا أنه قد بنى بشكل متين بعض الشيء ، وإن كان لا يلقى أى قدر من العناية ، لذا فإنه يتدهور ، وسوف تترقب على تصدعه سلسلة من الأحداث الخطيرة ، فلو أن مياه البحر أكثر إنخفاضاً من مياه التربة ، فإن مياه التربة ستصرف كاية إلى البحر ؛ وأكثر من ذلك ، فلو جاء هذا التصدع نتيجة لإعصار يمكن أن يحتاج الجسر الثانى للتربة ، فإن مياه بحيرة أبى قير عندئذ سوف تزحف على كل السهل الذى كانت تشغله فى الماضى بحيرة ماريوتيس ، والذى لا يزال — حتى اليوم — أدنى من مستوى سطح البحر ، وبذلك سوف تجد الاسكندرية نفسها ذات يوم فوق برزخ بالغ الضيق ، كما كان حالها عند وجود هذه البحيرة ، ولكن مع فارق واحد ، هو أنه لن يكون بالمستطاع إيصال مياه النيل إليها^(١) .

(١) تحقق هذا التصور للأمر بفعل الأحداث ، وذلك عند حصار الإنجليز والأتراك للاسكندرية فى عام ١٨٠١ ، حين قطعوا جسور التربة ، فزحفت إلى البحر القديم لبحيرة ماريوتيس ، مياه بحيرة أبى قير والبحر الأبيض المتوسط .

يلبغى إذن إعادة إنشاء الجسور التي تفصل البحيرة عن الترععة ، بل لابد من بناء جسور جديدة في كل المناطق التي يمكن لها أن تروحي ببعض المخاوف ؛ بل ربما كان من الأحوط والأيسر أن نبعد الترععة عن البحيرة . وإن يكون الأمر في هذه الحالة باعظ التكاليف ، فحيث أن السهل الذي تخترقه الترععة بالغ الانخفاض ، كما سبق لنا القول ، فقد يكون كافياً أن نقيم الجسور فتتكون الترععة وأخيراً ، فإننا إذا أعدنا إقامة الجسر الذي يفصل البحيرة عن البحر ، أو على الأقل ، إذا حرصنا ألا يتهدم لأكثر مما هو عليه الآن ، فلن يكون علينا أن نخشى الأحداث التي يمكن أن تتسبب فيها التحركات الكبرى للياه

وبلا جدال ، فإن يكون بالإمكان ، في سنة واحدة ، القيام بكل الأعمال اللازمة ، لكى يمكن أن تظل ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة بشكل دائم ؛ وإن كان من المستطاع إدارة هذه الأعمال بحيث يمكن لها - منذ السنة الأولى - أن تعود بفوائد جمة . وهكذا يتيسر خلال عام واحد تسيير الملاحة لمدة ثلاثة شهور في العام التالي ، وقد يكفي لإتمام هذا المشروع مبلغ لا يتجاوز ٢٦٠ ألف فرنك . وإليك كيف يمكننا الحصول على هذه النتيجة .

لقد أوضحنا لنا عمالية تفدين تمت للفراسخ الثمانية الأول من الترععة بدءاً من الرحمانية ، أن انحدار الترععة في هذا الجزء كبير للغاية بحيث لا تعاني الترععة بعد ذلك من أى انحدار في بقية مجراها . وهذا الانحدار هو نتيجة لترسيبات الطمي السفوى ، وهى كبيرة للغاية عند الرحمانية ، في حين تقل عن ذلك كثيراً بالقرب من الاسكندرية ؛ لذلك فقد يكفي أن يتم العمل في الثمانية فراسخ الأول ، بالحفر لعمق مترين ونصف المتر عند مدخل الترععة مع إنقاص هذا العمق بشكل يتناسب مع المسافة التي نكون عليها من هذا المدخل ، بحيث نصل بعد هذه الفراسخ الثمانية إلى نفس مستوى قاع الترععة ؛ وبتنفيذ هذه العملية ، بعرض يبلغ عشرة أمتار ، يكون علينا أن نرفع ٤٦٨ ألف متر مكعب من التربة ؛

فإذا أضفنا إلى ذلك ١٣٢ ألف متر مكعب أخرى لأعمال تقتضيها بعض أجزاء التربة وبخاصة أقرب هذه الأجزاء إلى بحيرة أبي قير ، يكون جملة الركام الذي علينا أن نرفعه هو ٦٠٠ ألف متر مكعب ، تتكلف مع تقدير تكاليف رفع المتر المكعب الواحد من الركام ١٢ مدينى ، شاهة كل المصاريف اللازمة ، ما جملة ٢٦٠ ألف فرنك ، أما الوقت اللازم لتنفيذ هذا العمل فسوف لا يزيد عن ١٥٠ يوماً إذ سيكون بالإمكان جمع ٢٧٠٠ عامل ، يرفع كل منهم دون شك أكثر من متر ونصف المتر المكعب فى اليوم الواحد ؛ فضلاً عن ذلك فلن يكون بمقدور الفلاحين أن يتفرغوا لذلك العمل لأكثر من ١٥٠ يوماً خلال الفترتين الواقعتين بين موسمى البذار والحصاد ، ثم بين موسم الحصاد والفيضان .

لن ندخل فى كل التفاصيل المتعاقبة بالشروط التى لابد من توفيرها فى مناطق بعينها من التربة كى تصبح الملاحة فيها أكثر يسراً ، لكننا قد نلاحظ فقط أنه ينبغى أن نفعل كل ما يلزم حتى يكون من المستطاع صعود التربة وهبوطها على حد سواء وفى كل الفصول — مع ملاحظة أن المجرى العام للتربة يتجه بصفة عامة من الشرق إلى الغرب وأن الرياح التى تسود فى هذه المنطقة تنجه على الدوام من الشمال إلى الجنوب مما يقتضى منا أن نحصر على ألا يمضى أى من انحناءات التربة داخل الاتجاه الأخير . أما عن فتحة التربة ومصبتها فلا بد من إحداث تغييرات لا مقر منها ، وهذا ما نحن بسبيلنا إلى توضيحه .

لعل التغيير الذى ينبغى أن ندخله على منبع التربة هو أن ننقله قريباً من معقل الرحمانية؛ فهذا الموقع، الذى تظل المياه فيه على عمق ثلاثة أمتار ، فى الوقت الذى يقل فيه هذا العمق عن ذلك فى أماكن أخرى ، قد يصبح بقليل من الجهد مرفأً واسعاً ومناسباً ؛ كما سيكون قريباً من جزيرة قد نجد لها موانئاً للغاية .

لإقامة المخازن الضرورية لمثل هذه الملاحاة . أما العقبات التي ينبغي تجنبها بأكثر قدر من العناية في تلك المسالك الجديدة التي نسعى لتقديمها للملاحاة فهي عمليتا الشحن والتخزين المستمرة والتي تسبب في حدود تأخيرات على الدوام، والتي تقتضى كذلك إنشاء الجمارك وفرض المكوس على السلع نتيجة لذلك . ولهذا السبب فقد يلزم أن تتصل التركة بالبحر حتى لا يضطر لأن ننقل برا هذه السلع التي نحتاجها عن طريق التركة، ولكننا قبل أن نتبين موقع المرفأ الذي سيغدو مناسباً أن تلتهى التركة إليه، فإننا نعيد إلى الأذهان أن القوم حين عمل الاسكندرية على ربط جزيرة الفنار بالأرض العصابة، وأعطى الاسكندرية بذلك مينائين، قد لمسوا الحاجة إلى جعل هذين المينائين يتصلان فيما بينهما حتى تستطيع السفن أن تخرج في كل الفصول على وجه التقريب، فتركوا لهذا الغرض فتحتين عند الهبتستاديوم Heptastadium، وقد أقفلت هاتان الفتحتان حين اتسعت الهبتستاديوم بفعل أعمال الردم، حتى شملت المدينة الحديثة فيما شملت، وكما هو معروف، موقع هذا الطريق أو الممر القديم .

وحيث تظل الحاجة إلى وجود اتصال فيما بين المينائين هي نفسها على الدوام، فنحن نظن أننا حين نحدث قطعاً واسعاً يربط بينهما، فلا بد لنا أن نجعل تركة الاسكندرية تنتهى إلى هذا القطع نفسه بطريقة تجعلها مرتبطة بالمينائين، بحيث تخترق المدينة الحديثة باتجاه طولى .

ومن جهة أخرى فإن الوجود الدائم لمياه النيل في الاسكندرية سوف يغدو في حد ذاته ذا ضرورة مطلقة في حالة اقتراس ازدياد حجم سكانها، إذ أن كميات المياه التي تحويها كل خزانات المدينة لا يمكنها أن تكفى - على أكثر تقدير - إلا لمدة عام ونصف العام، للعدد الحالي من سكانها .

وفي الحقيقة، فإن مصباً جديداً لمياه النيل قد يضعف الحد كبير فرع رشيد،

الذى تختلط فيه بالفعل مياه البحر (بمياه النيل) لمسافة أربعة أو خمسة فراسخ إلى جنوب مصبه ؛ ومع ذلك فإلى جانب أن بمقدورنا على الدوام أن نزيد من (اندفاع) مجرى للنيل بتضييق فتحات مصابه على البحر ، فسوف نتحكم على الدوام فى مجرى الترععة بحيث لا نعطيها سوى كميات المياه الكافية لاحتياجات الناس ولمراعاة المتطلبات الصحية ؛ كما أن هويساً يقام عند منتصف طولها وآخر عند طرفها نحو الميناء ، قد يكفينا لمنع ضياع المياه الزائدة (عن الحاجة) ، بل إن الهويس الموجود عند الطرف قد يكفى وحده للوفاء بنفس هذا الغرض ، وإن كان ينبغي أن تكون أبوابه بالغة الارتفاع ، كما لا بد أن تكون الجسور بالمثل شديدة العلو ، مما يلزم أن تكون قمتها أفقية بطول الترععة كلها .

لكننا ان نأخذ على عاتقنا أن نمضى لأبعد من ذلك فى مناقشة الوسائل التى تجعل ترعة الاسكندرية صالحة للملاحة طيلة العام ، ولا فى تعداد الأعمال الفنية التى ينبغي أن تعاضدها ؛ ولربما كان أهم ما فعلناه هو أن قدمنا تقييماً عنها حيث كان من المستحيل أن نقيم ولو بطريقة احتمالية كل ما يمكن أن ندخله تحت اسم : بناء ، فى حين أن بمقدورنا أن نفعل ذلك بخصوص رفع وإزالة الأتربة .

ولقد أوردنا بالفعل أن ٢٦٠ ألف فرنك قد تكفى لجعل الترععة صالحة للملاحة لمدة ثلاثة شهور ؛ ومع ذلك فقد لا يحق لنا أن نستنتج أنه بضرب هذا الرقم فى أربعة سوف نحصل على المبلغ اللازم لجعلها صالحة للملاحة طيلة العام ، إذ يلتجئ عن قانون حركة مياه النهر أنه إذا كان علينا فى الحالة الأولى أن نخفض مدخل الترععة بعمق مترين ونصف المتر ؛ فإنه ان يلزمنا فى الحالة الثانية أن نزيد العمق إلى متر واحد و ٣ من المتر ، أى بحيث يصل لإجمالى

العمق في المرحلتين ٣,٨ من الأمتار، وفضلاً عن ذلك ، فإننا حين نقدر عرض التربة على الدوام بعشرة أمتار ، في الوقت الذي يبلغ امتدادها فيه ١٩ إلى ٢٠ فرسخاً ، وفي الوقت الذي نجد فيها في عمق كاف بالقرب من الاسكندرية ، فإننا نجد أن علينا أن نزيل عنها ١,٧٣٠,٠٠٠ متر مكعب (من الأتربة) ؛ أى ما يمكن أن يتم ، طبقاً للتقديرات السابقة ، خلال سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر ، وبتكاليف لا تتجاوز ٧٥٠ ألف فرنك .

(۸۸)

دراسته عن مدينة
الاستاذ كندرية
"جرائد لوبير"

« لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
وأضحت مذابح الآلهة مرتعا للزواحف الدنسة . .

آه !

كم من مجد أفل نجمه ،
وكم من المدشآت قد اندثر !
هكذا تفتى أعمال البشر ،
وهكذا . .

تغرب شمس الأمبراطوريات والدول . .

فولني Volney من كتابه :

« تأملات حول سقوط الأمبراطوريات ،

أصبحت الإسكندرية في عهد البطلمة ، خلفاء الاسكندر ، مؤسسها الذي منحها اسمه ، عاصمة لمصر ، ومركزاً لتجارة الهند ، وارتفعت في عهد الامبراطورية الرومانية إلى مرتبة المدينة الثانية في العالم ، وظلت تحتفظ بمكانتها ، مع ما ظل لها من مجد وعظمة ، كأغنى مستودع للعارف الإنسانية . ومنذ استقرار المسيحية ، وحتى عصر الامبراطورية الواطئة ، كانت كنيسة الاسكندرية ، أولى كنائس الشرق ، واحدة من مدن المسيحية الحصينة في هذه المنطقة ؛ لكن السطوة التي كانت لها ، والتي تزعمت على يد القنصل العام الثاني قد سلبت منها كلية ، على يد القنصل الثالث ، لتنتقل منها إلى القسطنطينية ، على الرغم من معارضة البابوات ، وأخيراً سقطت الاسكندرية ، بعد أن عانت طويلاً من التمزقات ، في قبضة العرب الحديدية حملة الدعوة الإسلامية ، ولم تتوقف منذ ذلك الحين عن الانحدار نحو الهاوية ؛ وإذا كانت لا تزال بها اليوم بقية من حياة ، فيمكن القول بأنها قد تضاعفت - بعد أن عانت طويلاً طيلة اثني عشر قرناً - في عهد الامبراطورية العثمانية ، فلم يعد يعيش بها سوى شعب صغير ، لا يزال يقيم وسط خرابته وتراب مقابره ، ونحن نكتفي هنا بأن نستعيد ، باختصار ، أهم العهود والتطورات التي مرت بهذه المدينة الشهيرة ، في حواريات العالم .

في العام ٤٢٢ من تأسيس روما ، الأول من الألفية الثانية ، والعام ٣٣٢ قبل الميلاد ، لم يكن أمام فاتح آسيا والهند ، إلا أن يستولى على مصر ، لكي يحكم سيطرته على هذه المنطقة ، وأن ينشئ فيها المدينة الجديدة التي حملت اسمه ، والتي صلت وتدعمت بعظمة لمدة ثلاثمائة عام في عهد الحكام البطلمة ، خلفائه .

وفي العام ٧٠٦ من تأسيس روما ، أي السابع والأربعين قبل الميلاد ،

استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية ، واعمل فيها الحديد والنار ، انتقاماً من دفاع سكانها العنيد .

وفي العام ٧٢٣ من تأسيس روما ، وهو العام الثلاثون قبل الميلاد ، مر بمصر أوكتافيوس أغسطس ، ليطارد أنطونيو وكليوباترا ، واستولى على المدينة ، وتحت أسوارها قضى إلى الأبد على عدوه الذى لم تكن تفقر له همة .
وفي عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث ، كان على هذه المدينة أن تتحمل قترق حصار طويلتين وبأستين ، وذلك فى عهد الامبراطورين : كلود الثانى ، وأورليان .

وفي عام ٢٩٨ جاصر الامبراطور دقلديانوس Diocletien المدينة واستولى عليها ، ولقد كان يجد فى الحصول عليها ، على الأقل لتعويض خيماته .
وفي عام ٦١٥ استولى الفرس على الاسكندرية ، واندفعوا نحو أفريقيا من طريق البلتابول (*) الليبي .

وفي العام العشرين من الهجرة أى ٦٤٢ هـ من العصر الحديث ، قام مبعوث الخليفة عمر ، وهو عمرو الرهيب ، وبعد أربعة عشر شهراً من الحصار والقتال العنيد بين كلا الجانبين ، باقتحام المدينة وقلبها رأساً على عقب .
وفي العام ٥٦٢ من التقويم الهجرى أو السنة ١١٦٧ ميلادية حاصر الأفرنج المدينة واقتحموها ، لكن السلطان صلاح الدين طردهم منها فى العام التالى .

(*) Pentapolis وهو الاسم الرومى المقابل لكلمة أنطابولس Antapulus العربية ؛ ويعنى هذا الاسم : المدن الخمس ؛ وتذكر كتب القبط أنه يعنى المدن الخمس جهة الغرب ؛ ويطلق جغرافيو العرب على مجموعة المدن الخمس المذكورة اسم إقليم برقة ، ويظن بعضهم أن برقة أو أنطابولس اسم مدينة ، والصواب أنه اسم لإقليم يشتمل على خمس مدن ، هى : بنغازى Berénice ؛ طوقرة Tokhira ؛ طلميته Tolimaïs ؛ قرناه وهى الآن قيرينا Cyréne ويسمونها باريقشى أى بارس ؛ درنه Adirnai .

أما القرية التى يطلقون عليها اسم برقة فهى قرية المرج الواقعة بين هذه المدن الخمس فى منطقة أراضي الجبل الأخضر ببرقة الذى يسميه الفرنجة Cyrénaique نسبة إلى Cyréne التى كانت قاعدة له قديماً .

[المترجم ، نقلا عن قاموس الجغرافى للأستاذ محمد رمزي ، الجزء الأول ، البلدان المفدوسة] .

وفي سنة ١٢٠٢ ميلادية استولى البنادقة على الاسكندرية ، واستعادت المدينة تحت سيطرة هذه الجمهورية ، التي كانت قوية في ذلك الوقت ، بعض اردادها بسبب التجارة التي قامت بها عن طريق البحر الاحمر والمحيط الهندي.

وفي سنة ١٢٤٠ ، وبينما كان لويس التاسع يتباحث في أمر اقتداء نفسه من سلطان مصر ، استولى ملك قبرص من جديد على هذه المدينة وخرّبها .
وفي العام ٧٦٧ من الهجرة أو ١٢٦٧ ميلادية ، غزا الفرنجة المدينة من جديد واتمبوها .

وهلبي الرغم من هذه الكوارث الجمة ، فقد ظلت الاسكندرية مزدهرة حتى نحو نهاية القرن الرابع عشر ، حسبما يذكر أبو الفداء ، الذي قام بزيارة لها في هام ١٣٨٣ .

وفي هام ١٥١٧ ، استولى السلطان سليم على هذه المدينة من يد حكام مصر وسوريا الذين كانوا مستقلين عن الباب العثماني ، ومنذ هذه الفترة ، يبدأ تاريخ أكبر تغيير جلب الانحدار والخراب الكامل إلى هذه المدينة .

وفي الرابع عشر من ميسيدور من العام السادس لتأسيس الجمهورية الفرنسية (٢ يونيو ١٧٩٨) أي العام ١٢١٣ الهجري ، استولى الفرنسيون من جديد على الاسكندرية تحت قيادة بوناپرت ؛ فلم يسكد هذا القائد ينزل على الساحل الأفريقي حتى تقدم للهجوم على المدينة ، ولا بد أن أسلافنا ، سوف يصعب عليهم أن يصدقوا أن ثلاث ساعات فقط كانت كافية لكي يتمكن ثلاثة آلاف من الفرنسيين أن ينتصروا ، وأن يستولوا على هذا المسكان ، الذي كان الباب العثماني ينظر إليه باعتباره الطريق لأمبراطوريته في أفريقيا ، ومع ذلك ، فمع اهترافنا بأن جدران أسوار هذه المدينة لم تعد منذ وقت طويل سوى مجرد أثر من آثار قوتها في الماضي ، فإنني أعيد إلى الأذهان بأنه ، قبل ذلك باثنين وعشرين يوماً ، لم تصمد عاصمة لجزيرة اشتهرت منذ القدم بأنها عسيرة الغزو ،

والتي لا يمكن في الحقيقة قهرها بسبب حصونها ، هي جزيرة مالطة ، سوى يوم واحد أمام الهجوم المفاجئ لجيش بحري كان وجود قائده مدياً في انتصاره ، وبعد سيطرة القائد المظفر على هذا المكان ، الذي يعد مفتاحاً لمصر من جهتها الغربية ، غادرها بعد عدة أيام قضاها في استعدادات حربية لاستكمال حملته . وكانت إحدى هذه الاستعدادات تقتضى من مختلف فرق المهندسين في الجيش (الفرنسي) التعرف على المدينة ، و عمل خريطة لها . وهنا نستطيع بمحق أن نقول بأنه بعد البطل العبقري الذي أسسها ومنحها اسمه ، قد جاء اسكندر آخر بعد واحد وعشرين قرناً ، ليعيد إليها ازدهارها القديم .

ذلكم هو موجز تواريخ الاسكندرية ، ورغبة منا في ألا نؤذي عيون القراء بالصفحات الدائمة من تاريخ اضطرابات هذه المدينة ، والتي اقتصرنا على تسجيل أبرزها ، فسوف نقدم هنا وصفاً لحالة المدينة كما وجدها عليها الفرنسيون بينما القرن الثامن عشر يوشك على نهايته .

ولكي نفهم هذا الوصف ينبغي أن يكون تحت أبصارنا الخريطة العامة للاسكندرية التي ألحقها المسيو لويير ، أخى الأكبر ، بدراسته عن القناة التي تربط بين البحرين^(١) وإلى هذه الخريطة الطوبوغرافية التي يسمح بقياس رسمها

(١) انظر الخريطة العامة للمدينة والديمانين ، الدولة الحديثة ، المجلد الثاني ، اللوحة ٨٤ ، وكذلك تلك الدراسة عن القناة التي تربط بين البحرين ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، من ١٣٨ ، ١٣٩ ، والذي رد فيه المؤلف إلى السادة المهندسين ، المدنيين والعسكريين ، وبالأسم ، الفضل في الجزء الذي قاموا به في هذا العمل المبني الذي قام به الفرنسيون في مصر . وهذه الخريطة التي عملت بأكبر قدر من العناية في كافة تفاصيلها ، والتي رسمت بدرجات مختلفة ، قد رسمت بقياس ٠.٠١ من السنتيمتر لكل ١٠٠ متر أى ٠.٠٠١ على الطبيعة . أما الخريطة العامة لخليجان والموانئ والمدن التي قت برسمها لفهم هذه الدراسة (انظر اللوحة ٣٢ من المجلد الخامس) فقد رسمتها بقياس رسم ٠.٠٤ ملليمتر لكل مائة متر ، أى ٠.٠٠٤ = $\frac{1}{10000}$ = $\frac{4}{100000}$

من الحجم الطبيعي . وسنرى أني بتجميع كل المعطيات الناتجة عن العمليات الجرافية لمهندسي الجيش الفرنسي كنت أسعى إلى إعطاء هذه الخريطة التي يعود تنفيذ رسمها الراعي إلى عناية المسيو كولان M. Collin كل التفاصيل مع كل ما تحتويه من فائدة .

بثبين الآثار القديمة لهذه المدينة ، ظننت أن من الواجب هلى أن أضيف
بمقياس رسم أصغر ، تخطيطاً ، أو بالأحرى خريطة عامة تقدم فى نفس الإطار
خليجها ، ومينائها ، وأحياءها ، وضواحيها .

إذن فبمعمونة من هاتين الخريطتين ، سوف نسمح موقع هذه المدينة القديمة
ولسوف تمتد هذه الأبحاث لتشمل كل الآثار التى يجدها المرء هناك .

وحقى نعالج الأمر بنظام ووضوح فسأقسم دراسقى إلى جزئين
أو قسمين :

الجزء الأول : وسيكون وصفاً مبسطاً للأماكن فى حالتها الحديثة ،
أى فى الحالة التى وجد عليها الجيش الفرنسى هذه المدينة عند استيلائه
هلى مصر .

أما الجزء الثانى : فسيكون مناقشة مقارنة ومدعومة عن الحالة الحديثة
والحالة القديمة ، وسنحدد فى هذه المناقشة الآثار التى ستكون فى نفس الوقت
شاهدة على ثراء وعظمة هذه المدينة القديمة : إذ ترتبط هذه المناقشة بالآثار
شديدة الشهرة ، وسنهى هذه الدراسة بلمحات عامة حول إمكانية ترميمها .

الجزء الأول

الحالة الحديثة لمدينة الاسكندرية تحت

حكم امبراطورية الباب العثمانى

١ - تقع مدينة الاسكندرية ، وهى التى تسمت باسم مؤسسها الاسكندر ،
عند الطرف الشرقى للساحل الأفريقى ؛ وقد بنيت فوق كتلة من الرمال ربطت
القارة بجزيرة فاروس القديمة ، وهذه الجزيرة التى أدت عمليات الردم إلى
تحويلها إلى شبه جزيرة تحمل نفس الاسم القديم ، تشمل المدينة من الجنوب

— ٤٠٤ —

الغربي إلى الشمال الشرقي ، ومينائها الطبيعيين ، وهما الميناءان الوحيدان اللذان
تمتلكهما مصر — وذلك لمسافة ستين فرسخاً من سواحل البحر المتوسط .

والىكم موقع المدينة تبعاً لمعلومات قدمها السيدان نوى Nouet وكسنو
Quesnot الفلكيان بجيش الشرق :

خط الطول (شرق خط زوال باريس) ٣٠° ٣٥' ٢٧"

خط العرض (شمالاً) ٥° ١٣' ٣١"

وتحد أرض الاسكندرية التي تلامس في الشمال البحر الأبيض ، جنوباً بحيرة
ماريوتيس القديمة (مربوط) والتي كان حوضها الواسع قد جف تماماً في المدة
التي استولينا فيها على مصر ، بينما تغزوه الآن مياه البحر . وقد ربط من جديد
تدفق مياه البحر هذه والتي تعود كارتها لمجهودات تلك القوة الأوربية ، غريميتنا
في السلم ومنافستنا في مجال العلوم والفنون ، كما هي عدوتنا الأبدية في الحرب
(بريطانيا) — ربط من جديد وبطريقة لا لبس فيها أرض هذه المدينة بشبه
الجزيرة التي تكونها سلسلة متتابعة من الحجر الجيري ، والتي تمتد من رأس
أبي قير في الشرق إلى ما وراء برج العرب على بعد ثمانية ميرا مترات ، إلى
الجنوب الغربي .

٢ — وأول مينائي الاسكندرية ، الذي تقابلة السفن القادمة من جهة الشرق
عند وصولها إلى هذا الجزء من الساحل الأفريقي ، هو الميناء القديم ، ويقع في
جنوب خليج فسيح يتكون من سلسلة من صخور تخفي جزئياً تحت المياه
وتظهر جزئياً على سطحها ، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية منذ رأس الشيخ
(المسمى) حتى رأس التين الواقع على أقصى نقطة إلى الغرب من شبه جزيرة
فاروس حيث الفناء ، بطول ٨٣٠٠ متر (٤٢٥٨ قامة و ٣ أقدام) .

ولهذا الخليج ثلاثة ممرات طبيعية ، أسهلها وأعمقها ، على الرغم من تعرضه

وعدم استواء قاعه ، هو الممر المسمى بالأوسط ، ومع ذلك فإن الجزء الذى يقع منه ناحية الشيخ لايزيد عن ثلثه ، ويبلغ عرض هذا الممر حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر ، ويبلغ عمقه فى أكثر أجزائه ضخامة من ٥ إلى ٦ باعات (الباع = ١٦ م) ، وهو الوحيد القادر على استقبال الفرقاطات والسفن البحرية بدون بطارياتها ، وقد ظن ضباط بحريتنا أن كل سفينة لايزيد غاطسها على ٢٣ قدماً بعد إنقاص تباينها إلى الصفر ، يمكنها أن تدخل الخليج عن طريق هذا الممر فى حالته الراهنة ، وبدون أية تجهيزات . ومنظر نقرأ على الدوام بشغف ذلك الكتاب الذى أرسله الأميرال برووى Brueye إلى الحكومة الفرنسية ، قبل عدة أيام من معركة أبى قير البحرية . ونورد هنا ، فى الهامش ، هذا الكتاب الذى يحتوى من حيث علاقته بموضوع دراستنا ، على معلومات من المهم الإلمام بها لخبر الملاحة (١) .

(١) كتاب الأميرال برووى Brueye ، قائد الأسطول الفرنسى فى حملة مصر ، والموجه إلى حكومة الإدارة للجمهورية الفرنسية :

من ظهر سفينة المرق L'orient ، بخليج أبى قير ، فى ٢١ ديسمبر من العام السادس (٩ يوليو ١٧٩٨) :

« فى التاسع عشر من ديسمبر ، وبعد أن عرفنا أن السفن لا تستطيع أن تدخل الميناء بسبب ضخامة المياه عند مدخله ، رفعت أشرعتى ومعى ٩٣ سفينة وثلاث فرقاطات كى تلقى رواسينا فى خليج أبى قير . وهذا الموقع هو أكثر المواقع التى يمكن الحصول عليها منعة فى خليج مفتوح ، حيث لا يكون بمقدور أحد أن يقترب من الأرض لحد يكفى لإقامة البطاريات ، وحيث لا تستطيع سوى سفينتين معاديتين أن تصلا إلى المسافة التى تناسبهما وأنه لأمر مرعب ألا يكون للاسكندرية ميناء تستطيع السفن أن تدخل إليه ؛ فالميناء القديم الذى حظى بمديح الكثيرين ، تغلفه شعب الصخور البارزة فوق سطح المياه أو المنخفضة تحته لتشكيل مداخل بالغة الضيق لايزيد اتساع أى منها عن ٢٣ إلى ٢٥ أو ٥٠ قدماً من المياه . والبحر هناك فى العادة عال ، ومن هنا نرى أن سفينة مزودة بـ ٧٤ مدفعاً ستكون معرضة تمريراً شديداً للخطر بحيث تعطلهم بسد الساعات من إصابتها . واستجابة من لرفعات القائد العام فقد عرضت ١٠ آلاف فرنك لأى ملاح من أهل البلاد يستطيع أن يمرر الأسطول ، لكن أحداً لم يشأ أن يتعهد إلا بالسفن التى يبلغ غاطسها ٢٠ قدماً على أكبر تقدير ؛ ومع ذلك فاني أكمل أن نتوصل إلى ممر نستطيع عن طريقه أن ندخل سفننا ذات الـ ٧٤ مدفعاً ، ولن =

أما الممران الآخران المساعدان فيبلغ عمق مياههما ٣ إلى ٤ باعات لكن اتساعهما وغمقتهما غير مستويين ، واتجاههما متعرج ، وقاعهما مليء بالأعشاب الصخرية مما يجعل الرسو فيها صعباً ؛ وثمة ممر أخير ، يقع إلى أقصى الشرق ، وهو غير صالح إلا لدخول الزوارق والسفن الصغيرة التي تقوم بالتجارة بين مدن السواحل .

أما الرياح التي تسهل أكثر من غيرها الدخول إلى الممرات ، فهي تلك التي تهب فيها بين غرب الجنوب الغربي وشرق الشمال الشرقي مارة بالشمال ، وحيث أنها رياح شبه دوارة فهي تؤدي إلى حدوث دوامات تجعل من مغادرة الممر أمراً شاقاً ، وفي الواقع فإنه يحدث في بعض الأحيان ، أن تضطر السفن إلى الانتظار ، وبخاصة في موسم الرياح العنيفة ، أشهراً بأكملها حتى يمكنها مغادرة الخليج .

وعندما نلتقي البصر على هذا الخليج ، الذي يسمح له عمقه واتساعه أن يستقبل الأساطيل كبيرة العدد ، فإننا لنأسف لأن الطبيعة التي فعلت الكثير كي تزوده بشاطئ وطيء لا يمكن الوصول إليه من أية نقطة أخرى من الساحل ، لم تكمل صنعها فتوسع من ممراته التي يمكن الدفاع عنها دون كبير عناء .

أما الصخور التي تشكل قاع هذا الخليج فهي من طبيعة جيرية ، ويمكن ببعض الجهود الفنية التوصل إلى إعطائها اتساعاً أكبر وعمقاً

= يكون ذلك لا ثمرة لجهودات بالغة الصعوبة ، وبعد ذلك قد نستطيع أن ندخل دون أخطار كبيرة ، وقد يزيد عمق القاع عند الشعب الصخرية إلى ١٥ باهاً ، ومع ذلك فسيظل المخرج على الدوام بالغ الصعوبة ويستغرق وقتاً بالغ الطول .

وعلى هذا ، فإن هذا المكان بالنسبة لأية سفينة هو مكان بالغ السوء .

أكبر^(١)، ويستطيع المرء أن يتصور أية أهمية تعلق على إنجاز مثل هذا العمل الذى سيوفر لمصر حماية لتجارتهما عن طريق إنشاء بحرية عسكرية ، ذلك أن هذا الخليج ، على الرغم من الحماية الطبيعية المنوفرة له ، يمكن أن ينال حماية أكبر عن طريق أرصفة حاجزة للأمواج ، وعن طريق منشآت أخرى على شاطئانه ، بل وكذلك على نقاط مختلفة على خط الشعب الصخرية التى تحيط بمدخله ، وبوسع الطبيعة الجيرية للسلسلة التى تمتد بطول الساحل الجنوبي الشرقى ، أن تسهل إنجاز مثل هذه الأعمال الأخيرة .

وتجعل صعوبات ممرات الخايج مما لامناص منه للجوء إلى معونة المرشدين الساحليين لكل سفينة تريد الدخول إليه ، ومع ذلك فإن الطقس القاتم واضطراب البحر الذى يمتدج عنه لا يسمحان فى معظم الأحوال للمرشدين البحريين بالاستجابة لنداء الإشارات . ويمكن علاج هذا العيب بإنشاء منارات على الشاطئ ، ويتمثل ذلك فى بناء بعض الأبراج المرتفعة لحسد يكفى كي تلمحها السفن على بعد فرسخين وهى فى عرض البحر ؛ ويمكن لهذه الأبراج أن تستخدم فى نفس الوقت كمنارات ونقاط حصينة وفنارات ، ذلك أن الحاجة ماسة لمضاعفة الضوء المخصص لتأمين الملاحسة أثناء الليل ، حيث أن الساحل منخفض وخطير بسبب الترسبات التى تتم على شاطئه .

٣ — أما الميناء القديم ، الواقع عند الطرف الشرقى للخليج فيحده الفضاء الدائرى الواقع بين رأس التين والساحل فى الجنوب ، وتجعله مرتفعات شبه

(١) يعتقد أنه عن طريق بعض الجسور العائمة المساحة ببطارية ذات أجراس ، وسلطة بمطارق معدنية وتقام فوق قطع طويلة وقوية من خشب البلوط ، والمساحة إسبائك من الحديد المدبب والقاطع ، يمكن التوصل إلى تقويم وتحطيم والمقاسات ونوءات الصخور البارزة تحت خط الشعب الصخرية فى الممرات .
كما يمكن بطريقة أسهل أن نزيل وأن نرفع أنقاض وركامات هذه الصخور لتطهير قاع الممرات بواسطة جهاز لأغواصين ، يسمح استخدامه لثلاثة أو أربعة من العمال أن يعملوا معاً لمدة أربعين إلى خمس ساعات متتالية على عمق ٣٠ أو ٤٠ قدماً تحت سطح الماء .

جزيرة الفنار كلية في حى من نواكب رياح الشمال الغربى وكذا رياح الشمال والشمال الشرقى ، تلك التى تهب بهنئ وانتظام ، على نحو ما ، على شواطئ مصر ، وهذا الميناء فسيح وعميق ، والرسو مضمون فيه ، وتستطيع أكبر السفن التجارية أن ترسو هناك على مسافة من الأرض تعادل نصف طول قلسها (حبالها أى حوالى ١٠٠ متر فقط) ، وفى نفس الوقت ، فقد يكون من السهل ، من طريق بعض الأعمال الفنية وبعض المنشآت البحرية الأخرى ، جعل هذا الميناء ، واحداً من أصلح الموانئ ، مثل ما هو ، طبيعياً ، واحداً من أجمل موانئ العالم ، وقد عرفنا عن طريق المجسات أن الفرقاطات والسفن الحربية تستطيع الرسو فيه ، وقد كان دخوله فيما مضى محرماً على السفن الأوروبية ، ونحن نأمل أن يكون الباب العالى الآن أكثر استنارة وإدراكاً لمصلحته ، فيأمر بفتح هذا الميناء منذ الآن لتجارتنا ، وكذلك لتجارة الدول الأوروبية الأخرى^(١) .

٤ - ويتكون الميناء الجديد ، أو الميناء الشرقى ، من خليج صغير شبه دائرى تبلغ فتحته من جهة الشمال ١٧٨٩ متراً (٩١٧ قامة و ٥ أقدام) ، وهو بالمثل محصور بسلسلة من الشهب الصخرية أو الصخور التى لا تبلغ مستوى سطح الماء ، ويقلل هذا من إتساع الممر القابل لمرور السفن إلى حوالى ٥٠٠ متر ، وحيث هو مفتوح كلية أمام رياح الشمال والشمال الشرقى فليس بإمكانه أن يستقبل إلا بعض الفرقاطات والسفن الحربية الصغيرة .

ويبدأ بحر هذا الميناء على مسافة قلس (القلس هو جبل السفينة ويبلغ طوله ٢٠٠ متر) إلى الشرق من حصن الفنار ومن الصخرة فى المقدمة ، والتى تسمى الزمردة والتى يمكن الاقتراب منها بشدة (دون خطر) ، ويبدأ الرسو عند

(١) لتعرف على موانئ الاسكندرية يمكن الرجوع الى الم ٢٢ لوحة من أرقام ٨٥ الى ٩٦ وذلك بخلاف ورقدين للخرائط . انظر الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ،

هذه المسافة مع الاتساع إلى جنوب الجنوب الشرقى للفنار ؛ وتضطر السفن التجارية التي لا تستطيع أن تلتقي رواسيها إلا عند هذه السلسلة، إلى الحصول على هلبين لكي تقاوم دفع رياح الشمال والشمال الشرقى، وهذه كما سبق القول كثيرة الهبوب ، وكثيراً ما يؤدي عنف هذه الرياح إلى تحطيم السفن التي تقاومها لتهوى إلى القاع ، وفي حالات الطقس المثلث والمقام في الشتاء ، لا تستطيع السفن أن تحتفظ بتوازنها فتضطر للذهاب إلى الميناء القديم لترسو فيه .

ويبدو الميناء ، الذي يسهل الدخول إليه والجري منه للوهلة الأولى فسيحاً ولكنه على وجه العموم ضيق العمق ، تحده شعاب من الصخور في مستوى سطح الماء توجد حتى منتصفه ، وهو فضلاً عن ذلك يغص بالرمال والأحجار التي تلتقي به منذ قرون السفن التي ترسو هناك ، كما أن قاع الميناء الصخري يجعل من الرسو أمراً خطراً بعض الشيء ، وتضطر السفن فيه أن تبقى كابلات رسوها عائمة حتى لا تتعرض للقطع بواسطة القاع الصخري أو الحجري التي يسير موازياً كل خط الرسو ، ويعود انسداد هذا الميناء ، وهو الذي قد كان فيما مضى رائع العمق ، على نحو كبير إلى الرمال التي تنقلها إليه دون إنقطاع تيارات البحر التي تتنوع تبعاً لضعف واتجاه الريح ، وكذا إلى تيارات مياه الفرع الغربى للنهر في أوقات الفيضان ، كما تم كذلك بفعل تفتت الصخور الجيرية للساحل الغربى ، الأمر الذي يحدث بفعل الحركة المدمرة للبحر .

٥ - حركة مد البحر وجزره ليست ملموسة ، كما أنها ليست دورية على الإطلاق على سواحل الاسكندرية كما هو شأنها في كل البحر المتوسط ، وهى ترتبط بالرياح أكثر من ارتباطها بأى شيء آخر محسوس ودائم ، ولا يبلغ أقصى ارتفاع لهذه الحركة التي تتم عند محاور الرياح القادمة من الغرب والشمال الشرقى لأكثر من ١٨ إلى ٢٤ بوصة (٤٩ - ٦٥ سم) .

وبعد أن ذكرنا كل ما ينبغى أن نعرفه عن الممرات والرسو في الخليجان

وفي مينائى الإسكندرية ، سنتناول الأرض ، ونجتاز خرائب المدينة التى سقطت من جديد ، وربما لعدة قرون ، بين تراب مقابرها ، حين أفلتت من سيطرة الفرنسيين ، تلك السيطرة التى كان يمكن لهذه المدينة فى ظلها ان تأمل فى بعث جديد .

٦ - يحصى مدخل الميناء الجديد ، الذى لم يكن مسموحا للسفن الأوربية قبل حملتنا بالرسو إلا فيه وحده ، حصنان بنيا فوق الروس التى ينتهى بها شكله شبه الدائرى ، هما حصن الفنار فى الغرب ، وحصن المنارة pbarillon فى الشرق .

أما حصن الفنار ، فعباره عن سور محصن تحصيناً حديثاً ، ويضم برجاً مربع الشكل^(١) بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة ، تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار ليلاً^(٢) ، وقد شاهدت فى الحجرات شديدة الارتفاع من هذا الحصن كواماً من السيوف والأسلحة الأخرى التى هليت تماماً بفعل

(١) انظر ارتفاع هذا الحصن باللوحة ٨٥ ، الدولة الحديثة ، المجلد ٢ . ويقدم هذا المنظر الذى لىدين به المسيو سيسيل Cécile دقة كبيرة فى التفاصيل .

(٢) حدد علماء الفلك القابعون للجيش الفرنسى من فوق حصن الفنار موقع مدينة الاسكندرية . ويعود الى هؤلاء الفلكيين أنفسهم نتائج الحسابات التى قامت على أسس حساب المثلثات والتى استخدمت فى تشكيل خرائط الاسكندرية ، ولما يكتمل هذه النتائج :

المسافة من الفنار] الى الشيخ (العجمى) ١١٧٢٨ م
الى العمود ١٠٩٣٦ م

المسافة من الشيخ (العجمى)] الى خط الزوال ٩٢٢٨ الى الغرب .
الى الرأس ٧٢٤٠ الى الجنوب .

أما ملاحظاتهم على البوصلة فقد أدت الى النتائج التالية :

درجة الميل الى الغرب ١٣ °
زاوية الميل ٤٧ °

ملحوظة : عبرنا عن بحسبات الموائى ، التى يعود الفضل فى الحصول عليها الى عنابة السادة ضباط البحرية ، ومهندسي الطرق والكباري ، بحسب مقياس التدمم الفرنسى ،

الصدأ ، والتي جعلتنا أشكالها والعلامات التي تحملها نذكر بأنها تعود إلى الصليبيين ، وبلا جدال ، فإنها تعود إلى صليبي حملة لويس التاسع البائسة .

ويتم الاتصال بالفنار عن طريق جسر ضيق تحميه طرق مغطاة ، ومقامة عليها متاريس ، وطولها ٥٥٠ متراً . ويكاد هذا الجسر الذى بنى فوق سلاسل صخرية يستوى فوق سطح الماء وعلى صخور ضخمة وقطع مفتتة من الأعمدة الجرانيتية، رميت وتكدست بشكل أفقى ، وتخترقها بعض القناطر الصغيرة التي نفذت بعرض الطريق، والتي تؤدي إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج التي تندفع لتضطرم بها في عنف، بواسطة رياح الغرب والشمال الغربي ، لكن هذه الفتحات الصناعية يعيها أنها ، عندما تترك مياه العرض تندفع إلى الميناء الجديد ، تسمح بمرور كمية كبيرة من الرمال إلى الميناء ، مما يساهم في الإسراع بإغلاقه (نتيجة تكدس الرمال فيه) .

٧ - أما الزسردة ، أو الماسة ، فهي صخرة بمستوى سطح الماء ، تقع بالقرب من حصن الفنار وإلى الشمال منه ، وتكون مكشوفة في الأوقات الهادئة ، ويلاحظ أن على سطحها آثار مبان قديمة ، وتحيط بها قطع من الحجارة شذبتها يد الإنسان ، وقد فسر ذلك بعض الرحالة بأن هذه الصخرة كانت تستخدم في الأصل كقاعدة للفنار القديم ، وإن كان سطحها لا يبدو مطلقاً أنه كان ممتداً لهذا الحد ، وقد عرفنا مما أوضحته المجسات أن مياه البحر في كل مكان من حول هذه المنطقة ، شديد العمق لحد كبير .

٨ - أما شبه جزيرة الفنار ، والتي تسمى بالعربية روضة التين - إذ كانت تزرع هناك بنجاح كبير أشجار التين التي تنتج أفخر الثمار - فتغطي الميناء القديم بطول يبلغ ٢٦٥٠ متراً بالاتجاه نحو الجنوب الغربي ، وترتبطها المالحية الفاصلة ليست سوى صخرة جيرية يهر ويؤذى العين لونها الأبيض الذي يجعله الشمس باهراً على الدوام ، وكل شبه الجزيرة هذا محاط بشعب صخرية في مستوى سطح الماء ،

وبخاصة إلى الغرب من جسر حصن الفنار . وترى هناك كذلك بقايا مصانع قديمة ومبان أخرى من الطوب والأسمنت أمكنها أن تقاوم تسكس أمواج البحر ، في الوقت الذى أمكن لهذه الأمواج أن تحدث دماراً فى صخور هذه الشعب .

ويدافع عن الرأس الواقع إلى جنوب غرب شبه الجزيرة هذه ، والذي لا يمكن الاقتراب منه ، بطارية قريبة تسمى باسم رأس التين ، وهناك حصنان آخران لها طابع عربى يحميان المينائين من الداخل . ويوجد بالقرب من الميناء القديم وإلى الشمال الغربى منه لسان من المياه المالحة ، ينتج بشكل طبيعى ملحاً شديد البياض ، وإن كان له مذاق أكثر لذوة من مذاق الملح البحرى من العادى .

وهذا الجزء من شبه الجزيرة الذى يتوازى مع أرض المدينة الحديثة مخصص فقط لمقابر المسلمين . وقد بحثنا على الخريطة ، بواسطة خطوط صغيرة سوداء ويمثلة المدافن الخاصة بالعائلات ، وهذه تشكل أضرحة من الرخام الأبيض أو من الحجر الجيرى ، بنيت فى بساطة تتفاوت درجاتها ، وتتفاوت كذلك درجة تزيينها بالرسوم والكتابات .

٩ - وبعد أن يجتاز المرء حى المقابر هذا ، ينفذ إلى داخل المدينة الحديثة التى تفصل بين المينائين . وقد بنيت هذه المدينة فوق كتلة من الرمال تكونت حديثاً وتنتجت عن تراكم الرمال الذى سبق أن تحدثنا عنه . يقول المسيو دي ماويه M. de Maillet الذى أقام بمصر أربعين عاماً بوصفه قنصلاً لفرنسا : « هكذا كانت تتم هذه الترسيمات^(١) ، بحيث أنه فى ظرف مدة ٢٦ عاماً ، أى من ١٦٩٢ إلى ١٧١٨ ، أصبح ارتفاع هذه الترسيمات يبلغ أربعين قدماً

(١) وصف مصر ، الجزء الأول ، ص ١٨٧ ، طبعة لاهاي .

أمام منزل القنصلية الذى كنت أقيم فيه حتى أن الناس قد ابتنوا لأنفسهم بيوتاً فوق تربة هذا الشاطئ الجديد . وقد امتدت حركة الترسيب هذه لأبعد من ذلك بكثير داخل الميناء، حتى أصبحت الرمال تهدد بغزوه كلية فى مدى أقل من قرن واحد .

ولا تضم هذه المدينة أى مبنى له أهمية ، وتمتلى مساجدها الرئيسية التى يبلغ عددها من ٢٥ إلى ٣٠ مسجداً ، وكذلك الوكالات والمناجر العامة والبيوت الخاصة ، والأرصعة هناك ، بأذن من أعمدة من الحجر الجيرى أو الرخام أو الجرانيت أو الألبستر . وتوجد عليها نقوش قديمة ، وهى مأخوذة من قصور قديمة خربة . وقد اكتفينا بالإشارة بالحروف فقط كي نبين على الخريطة مكان المنشآت المتصلة بخدمة البحرية والإدارات العامة ، وليس هناك من بين كل هذه المنشآت ، منشأة واحدة تستحق وصفاً خاصاً . وإذا ما استثنينا تصميم الوكالات ، فإن البناء والتوزيع الداخلى للبيوت بالغ السوء ويستعصى على الفهم . ولا تشكل واجهات البيوت إلا واجهات ملساء تميل للبياض وتخترقها نوافذ صغيرة تغطيها تفتيفصات من الخشب ذات مصليات ضيقة . أما شوارعها الضيقة ، غير المرصوفة ، التى ليس بها أى مجرى لتصريف مياه المطر فتظل متربة أو موحلة حسب الطقس . ولا نشاهد هناك حركة إلا باتجاه الأسوار أو الأحياء التجارية ؛ وباختصار ، فكل شئ يساهم فى إعطاء المدينة مظهرأ حزيناً وطابعاً رتيباً فى ناظر كل أوروبى ، تجذبه إلى هذه المنطقة من العالم ، التجارة أو حب السياحة .

وهذه المدينة محرومة بشكل طبيعى من المياه الحلوة كما سنوضح ذلك فيما بعد . وتستطيع آبار المدينة ، التى تمتد بالمياه التى ترتبط بمساجدها العشرين أن تحتوى على ١٥٠٠٠٠ حمولة جمل ، وتقدر حمولة الجبل الواحد بـ ٢٠٠ بلمة (البلمة بـ ٢٦٨ ر من اللتر) زن ٤٠٠ لبرة أو ١٩٥ ك ج و ٨٠ ديكاجرام (ديكاجرام = ١٠ ج) ، ويمكن لهذه الكمية أن تسكن الاستهلاك لمدة ١٢٨ .

يوماً أو أربعة أشهر لثمانية آلاف نفس يشكلون تعداد سكانها عادة ، وتمتلى هذه الآبار سنوياً حتى نصفها عن طريق مياه الأمطار التى يعتمد عليها ، أما النصف الآخر فيجىء عن طريق نقل المياه .

وفضلاً عن هذه الخزانات العامة ، فإن لكل منزل خزانه الصغير ، يعمل المالك على ملئه بواسطة القرب المحمولة على ظهور الجمال أو البغال أو الخير ، كما توجد هناك أيضاً آبار قليلة العمق ، تستخدم مياهها التى تتفاوت درجات ملوحتها فى الأعمال المعتادة . وتقدم بعض هذه الآبار مياهاً صالحة للشرب ، ويضطر أكثر الأهالى فقراً ، وهم أولئك الذين لا يمتلكون فى منازلهم آباراً أو خزانات للمياه ، للذهاب للحصول على المياه اللازمة لاستهلاكهم اليومى من الخزانات السكبرى فى المدينة القديمة .

ولا توجد فى هذه المدينة أية طاحونة تدار بالمياه ، وثمة طاحونة هواء تقع على شط الخليج إلى الشمال من شبه جزيرة الفنار، بليت منذ حوالى ٢٠ إلى ٣٠ عاماً على يد واحد من أبناء رودس ، وهى الطاحونة الوحيدة من نوعها فى كل مصر . وقد أنشأنا نحن طاحونتين من هذا النوع فى ضواحي القاهرة . ولتفادى سموات هذه الماكينات يمتلك كل فرد غنى فى بيته طاحونة تدور بواسطة الخيول أو الخير ، وتخصص بعض هذه الطواحين للخدمة العامة . ويملك أكثر الأهالى فقراً لاستعمالهم الخاص طواحين ذات ذراع (رحاة) تديرها عادة نسوة لا يقمن عادة بأى عمل آخر ، وهن يقمن بعملهن هذا حتى وقت متأخر من الليل .

١٠ - لا يمكن تحديد فترة بعينها أنشئت فيها هذه المدينة الحديثة ، فقد بنيت وسكنت من جهة بمجرد أن شكلت أكوام الرمال ما يبلغ مرحلة الردم ، ومن جهة أخرى ، عندما كانت الحروب المدنية والدينية ، أو تلك التى تشنها الدول الأجنبية ، تلشب التسبب فى المدينة القديمة دماراً يدهو إلى هجرها بشكل جزئى ، ولا يعود أكبر اتساع حدث بالنسبة لهذه المدينة إلا إلى منتصف القرن

السادس عشر ، بعد بضع سنوات من هزيمة مصر على يد سليم الأول .
ويلبغى أن نختتم ذلك بمقتطف من عند جان ليون الأفريقي Jean Léon d' Afrique^(١) .

١١ - ويوجد على شاطئ المينائين بعض الجدران وبعض الأرصفة البحرية لتسهيل عمليات الإبحار ، وقد بنيت هذه المنشآت في الجزء الأكبر منها من أجزاء من أعمدة مكدسة ، أما المحال والمباني الأخرى المرتبطة بخدمة ورش إصلاح السفن ، فإن حالة الإهمال والخراب التي توجد عليها هذه المنشآت ، لتجعل المرء يتعرف على روح اللامبالاة من جانب الحكومة التركية ، التي تركت كل شيء يتآكل وينهار دون ترميم أو صيانة .

١٢ - وقد بنيت في الإسكندرية بعض السفن التجارية الكبرى ، وسفن الكرافيل (مركب سريع بثلاثة صوار أو أربعة) وهي نوع من الفرقاطات التركية المزودة بـ ٤٠ إلى ٥٠ مدفعاً ، والمراكب التجارية التي تقوم بتجارة الشط (أى نقل البضائع بين المدن الواقعة على الشط) بين رشيد ودمياط عن طريق مصبي النهر^(٢) . أما طبقة السكان التي تعمل في خدمة البحرية فتسكن شواطئ المينائين وبالذات الشواطئ الواقعة إلى الجنوب من شبه جزيرة الفنار والمخصصة

(١) يقول جان ليون الأفريقي الذي كان في جولة في مصر عام ١٥١٧ وهي نفس السنة التي هزمت فيها على يد سليم الأول أن المدينة العربية ، وهي التي تشغل جزءاً من موقع المدينة القديمة ، كانت في هذه الفترة لا تزال مزدحمة بالسكان . ويضيف هذا الرحالة بأن كل بيوتها كانت تنهض فوق خزانات . وكان يطلق على الميناء الجديد اسم مرس السلسلة . ويوجد بالمدينة جبل مرتفع شبيه بغير طبيعي ، وهو مغطى ببقايا فخارية ، ويوجد على قمته برج أو مرصد

(٢) نستطيع أن نرى في دراسة عن القناة التي تربط بين البحرين مقالا عن الملاحه في النيل (ج ٢ فصل ٦ ، الدولة الحديثة ، الحج. لد الأول ، ص ١٢٣) ، ونجد فيه وصفاً لمختلف أنواع السفن التي تبني في مصر .

للإنشاءات البحرية . أما أهل الإسكندرية الذين يعملون بالصيد أو بتجارة الشط
فهم بحارة شديدي المراس ، وهناك من بينهم سباحون مهرة ، وكذلك
- بصفة خاصة - غطاسون ذوو مهارة كبيرة ، وتروى عنهم حكايات تثير
الدهشة .

١٣ - كان تعداد شعب الإسكندرية أثناء فترة سيطرتنا على مصر ، يبلغ
حوالي ثمانية آلاف نفس، وقد تناقص إلى سبعة آلاف نفس فقط عند جلائنا .
ويتكون هذا الشعب من مصريين خلص ، ومن أتراك وعرب ومغاربة
وأروام وسوريين ويهود ، ومن بعض المسيحيين من الأوروبيين . وإنه لآمر
مثير للفضول حقاً ، أن تنظر في ظل الأسواق أو في الأحياء التجارية ، إلى تجمع
حشد كبير من الناس ، يلتمون إلى جنسيات مختلفة ، تجمعهم في سلام مصالح العلاقات
التجارية ، لتفرقهم - هي نفسها - في ضجة عشر مرات وربما عشرين مرة في اليوم
الواحد . إن المرء لا يمكنه إلا في لوحة حية أن يقدم العناصر التي لانهاية لها ،
والتي هي بصمات الطبيعة على المكان بمثل ما لها من بصمات كذلك على حركة جسم
الإنسان ، وفي هذه اللوحة الحية فقط يمكن أن تبين كذلك الاختلافات
الخلقية والخلقية ، التي يضيفها الطقس والتعليم والدين ، إلى طابع الإنسان
وإلى آرائه ووجوده .

لئن لم أحاول هنا أن أقدم هذه اللوحة ، فلسوف تكون مثل هذه اللوحة
ناقصة طالما ظلت محرومة من الألوان التي يتطلبها مثل هذا النوع من اللوحات ،
ذلك إن أقوى الخطوط لن يكون بمقدوره أن يعوض غياب الريشة ، ولو أنني
حاولت مجرد المحاولة لخرجت عن الإطار الذي ينبغي أن أحصر نفسي
بداخله .

١٤ - وسأمسك كذلك عن الحديث عن الإدارة المدنية وعن القوة

العسكرية للحكومة التي تسهر على حماية أمن ووجود سكان هذه المدينة، وسأكتفى بالقول بأن المؤسسات التي كانت تشغل على وجه الخصوص بالإدارة المدنية لمصر، كانت ترتبط بالدين فيما مضى، وإن الأمور بهذا الخصوص قد ظلت هلى حالها، فلا يزال القرآن حتى اليوم بالنسبة للمفتين (مفتى) والقضاة ورجال الدين هو الكتاب المقدس، الذي يشكل مجموعة القوانين ويضع قاعدة التقاليد والعادات. أما عن القوة العسكرية، فهذه لم تكن فى معظم الأحيان سوى سند للساوى الظالمة السائدة، إذ لم يكن يسودها اعتدال عاقل، كما كانت تفتقد - على وجه الخصوص - إلى النظام الصارم.

١٥ - ويمكن القول بأن تجارة الإسكندرية اليوم لا تشتمل على تصدير الحبوب والأرز والنطرون من مصر، فى مقابل بن الجزيرة العربية وبعض بضائع من الهند تصل إليها عن طريق البحر الأحمر. وعن طريق موافى هذه المدينة تتبادل مصر وإثيوبيا الأصواف والحراير والآنية الزجاجية وأشياء أخرى، من مارسيليا وليغورنيو والبندقية والقسمطنطيدية وموافى الشرق الأخرى.

وقبل مجيئنا، كانت الإسكندرية، التي ينبغى ألا ننظر إليها اليوم إلا كمستودع للبضائع، تضم حسبما يذكر الميسو أوليفيه Olivier :

٨٨ مسجداً من بينها ٣٦ مسجداً من الدرجة الأولى و ٤٢ من الدرجة الثانية.

٢٠٠ نول لصنع المنسوجات الحريرية الخفيفة والخاصة بملايس الطبقة الميسورة من كلا الجنسين.

٤٠٠ نول للنسج قماش التيسل المسمى مغربين لصنع القمصان التي يرتديها أبناء الطبقات الشعبية.

٥٠ نولا لصنع منسوجات صوفية خشنة للملايس العربان.

٣٠ مصنع صابون تستورد الزيوت اللازمة لها من المورة وكريت وسوريا، ويصنع هناك أيضاً الجلد المراكشي الأحمر ، وهذه جلود ثمينة بالغسة الجودة وتحظى بإقبال كبير في القاهرة ومدن مصر الأخرى وفي داخل أفريقيا .

١٦ - وطقس الاسكندرية صحى إلى حد كبير ؛ وعلى الرغم من شدة حرارته صيفاً فإنه يكون معتدلاً عن طريق نسيم الليل ؛ أما ندى المساء ، وعلى وجه الخصوص في فصل الرياح الشديدة فيحدث في هذه المدينة ، وذلك شأنه في كل مناطق مصر الساحلية ، رطوبة ملحجية تخترق مسام الأجسام . وشتاء الاسكندرية غزير المطر ؛ وفي هذا الفصل الرطب تظهر الأمراض الموسمية بدرجات متفاوتة^(١) ، ويقول سترابون وهو يتحدث عن طقس هذه المدينة :

(١) كان على الجيش أن يلاحظ بمزيج من الدهشة والقلق تلك الحسارة التي لحقت بنسا والى كافتنا ١٦٥٠ رجلاً من حامية الاسكندرية في أثناء الشهور الثلاثة لأول شتاء قضيناه في هذه المدينة أى في ديسمبر ١٧٩٨ ويناير وفبراير ١٧٩٩ في حين لم يصب الطاعون إلا عدداً ضئيلاً من السكان . ويرى بعض الرحالة وهم يتعدون عن أسباب تأمل الطاعون في مصر ، أن هذا المرض ليس متوطناً على الإطلاق في مصر ، وأنه لا يأتي إليها إلا عن طريق سفن قادمة من القسطنطينية أو أنه يأتي من داخل أفريقيا ، وأعتقد أن كبار الأطباء الضباط في الجيش وهم السادة ريجينيث des genettes ، كبير الأطباء ، ولارى Larry ، كبير الجراحين ، وسافارسي Savaresy ، وفرانك Frank ، وبالم Balme وهم ضباط أطباء عاديون . . وكذلك آخرين من الذين عالجوا هذا المرض في مصر ، والذين نشروا عنفسه دراسات هامة لا يشاطرون هؤلاء الرحالة هذا الرأي . لما إذا لا ننق رأى سترابون Strabon الذى نجد فيه الأسباب معروضة بطريقة واضحة ، وبسيطة ، وطبيعية للغاية . فهل العقل الانسانى لا يسير في انسق منتظم فيكون عليه أن يقبل على الإطلاق آراء في قرن ما ليهدها وينقضها بآراء جديدة في القرن الذى يليه ؟ ومع ذلك فيمكننا أن نتفق ، بعد أن نكف عن تعميم الأمور ، على أن ركود المياه والرطوبة التى تنتج عنها ، هى هنا ، كما هى في كل البلدان الحارة ، بذرة كل الأمراض المتوطنة والوبائية التى تسيطر هناك باستمرار . فلنتذكر مثلاً تلك البلاد التى تمارس فيها هذه الأمراض دمارها : غيانا ، سان دومنجو ، مصر ، هولندا . . الخ ، وفرانسا في الأجزاء الرطبة منها مثل : جافلين gavelines وروشفور RoChefort ، وسوف نكون على يقين تام بأن هذه الأوبئة قد انتشرت في كل هذه البلاد عن طريق أبخرة الطاعون ، التى تحدثها الشمس في المياه الراكدة فتترك بعد تبخرها أراضي موحلة ، من يستطيع إذن أن يشك في أن الأوبئة التى تحتاج الحيوانات ليست

فيلاحظ بوضوح أن هواء المدينة صحى ، ويعود بعد ذلك إلى موقعها حيث

سوى أنواع من الطاعون تنتج من المياه الراكدة التى تشربها ماشيتنا فى أوقات الجفاف؟ وقد يتعرض البعض بأن الطاعون يظهر أيضاً فى سميد مصر حيث لا تسكاد الأمطار تسقط على الإطلاق ، وحيث لا توجد مستنقعات ، وهذا صحيح ، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطاعون لا يحدث هناك إلا بعد فيضان غير عادى للنهر ، ويكون ذلك بلا جدال بفعل رطوبة الأرض الشديدة ، الناتجة عن بقاء المياه فترة طويلة ، وعندئذ يصح أن الطاعون ذا قوة وكثافة مرتعنين ، لمذ يدمر قري بأكملها كما حدث فى نفس العام الذى جاوننا قيسه عن مصر ، أى فى عام ١٨٠١ . وبلاحظ أن الطاعون فى هذه الحالة يهبط مع النهر إلى مصر السفلى ، بينما يحدث فى نوبات الوباء الاعتيادية أن يتخذ الوباء مساراً مناقضاً أى أنه يتجه من البحر إلى الداخل ، نحو الجنوب .

وبنفس أن نأخذ فى اعتبارنا أيضاً أن هذا التتابع الدائم بين الحرارة الشديدة أثناء النهار ، والرطوبة الشديدة أثناء الليل ، وبخاصة فى فصل الأمطار وفصل الفيضان ، يحدث ارتباطاً كاملاً فى توازن الأمزجة ، وأن آثار هذه التغيرات النعاجية والمتكررة تؤدى إلى تحلل الدم ، وهو الذى قد أضعفه إلى حد كبير العرق الغزير والمتكرر ، وفى مثل هذه الحالة ، فإن الجسم — وهو مستعد والأمر كذلك لاستقبال أشد المؤثرات ضارة بسبب الطقس الثقيل فى المساء والماء بالأبخرة الأكسنة فى النهار — يسربه عن طريق كل المسام ، ذلك أن الدم مثله مثل الهواء والماء ، إنما هو سائل ذائب يفسد ويتحلل بسبب الركود . وفى نفس الوقت فائى أبعد ما يكون عن أن أسكر أن الطاعون يمكنه فى بعض الأحيان أن يأتى إلى مصر من الخارج ، وبخاصة من داخل أفريقيا ، ذلك أنه ، إذا كان هذا الوباء يحدث فى كثير من الحالات نتيجة للاحتكاك ، فلا بد إذن أن نوقن أن الرياح ، وهى المركبات التى تركبها الأبخرة الضارة والمهلكة التى ينص بها الجو ، تنقله سريعاً من منطقة لأخرى ، وينبئ ألا تدع سرعة انتشار هذا الوباء ، التى حصلت فى فترات عديدة سنوات ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٥٢ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٧٤٧ ، ١٠٠٦ ، ١٣٤٨ من العصر الحديث ما يقرب من ثلث السكان فى أوروبا ، وهددت بقية الكرة الأرضية ، ينبئ ألا تدع مجالاً للشك حول هذا الموضوع ، فن الممكن أن ينتقل واحد من هذه الطواعين ، وبخاصة إذا كان قادماً من داخل أفريقيا مع سرعة الرياح إلى مصر وسوريا ، ومن ثم ينتشر فى أوروبا . لذن فائى أوافق على أن الطاعون متوطن ووبائى فى وقت معاً ، أو يأتى من تلقاء نفسه حسب حالة الطقس ، فى مصر بالذات . لمن ما رآه سترابون هو الذى قادنى إلى الوصول لهذه الاعتبارات الفيزيكية عن الطاعون ، كما أنه يتطابق مع رأى الذى سبقته هنا تبعاً للملاحظات التى قت بها والتى كنت فى وضع يسمح لى بالقيام بها ، فى المراتين اللتين أصبت فيهما بهذا المرض فى مصر ، واللتين لم أفلت منهما إلا بفضل الطاقة والحوية اللتين يهيئهما صغر السن ، وكذلك بفضل طبعى المتفائل وكذلك بفضل نوبات العرق الغزير التى كانت تأتينى فى الوقت المناسب .

تلامسها المياه من جهتين ، كما يعود كذلك إلى الفوائد التي تجنيها من فيضان النيل ، ذلك أنه في كل المدن الواقعة على شواطئ البحيرات ، لا يستلشق الإنسان أثناء حرارة الجو الشديدة إلا هواء ثقيلًا وخانقًا ، يمتج عن الأبخرة التي تحدثها الشمس ، كما أن الأحوال تظل لمدة طويلة على حواف البحيرات مما يؤدي إلى انبعاث روائح مستنقعية تملش في الطقس بذور الأمراض ويتولد عنها الطاعون ، أما في الاسكندرية فإن النيل الذي يفيض في كل عام في بداية الصيف يقوم برفع مياه البحيرة ، وبذلك لا يدع الأجزاء الموحلة مكشوفة فلا تصعد منها أبخرة ضارة ، وعندئذ تجلب الرياح العنيفة التي تهب من الجزء الشمالي ، من أعلى البحار ، الدسيم المنعش إلى سكان الاسكندرية فيمضوا الصيف على نحو طيب .

وبالنسبة لي ، فليس بالإمكان أن نقول شيئاً أكثر من هذا تحديداً ودقة ، وعلينا أن نضيف قبل أن نختم هذه الفترة للجغرافيا الإغريقية أن امتلاء بحيرة ماريوتيس (مربوط) يظل داخل حدود صحيحة ، طالما هو يغطي الأجزاء الموحلة من حوضها الجاف ؛ وكما سبق أن قلنا في دراستنا عن البحيرات المصرية ، الجزء الخاص ببخيرة مربوط ، فإن هذا الامتلاء هو صاحب الفضل في المباحث الصحية التي كانت تنعم بها هذه المدينة قديماً . لقد قلنا قديماً لأنه يبدو أن الأوبئة التي تخرب في معظم الأحيان هذه المدينة ، كما تدمر مصر بشكل عام ، كانت في ذلك الوقت أقل تردداً أو أنها كانت أقل انتشاراً عنها الآن ، ومنذ أن سقطت المنطقة تحت سيطرة شمم تجعل منه معتقداته الديلية من القدر الذي لا فسكاك منه بخصوص مصير الإنسان ، لا يتخذ أدنى حيلة أو ووقاية .

وبعد أن عالجنا كل ما يهم أن نعرفه عن المدينة الحديثة ، نواصل الآن مسيرتنا ودراستنا ونحن نطالع بعيوننا خريطة موقعها القديم .

١٧ — عندها نترك أرض الروم في المدينة الجديدة لكي نصل إلى القارة

القديمة ، فاننا ندخل عن طريق أبواب عالية إلى سور واسع حصين لم يعد يضم سوى بقايا الاسكندرية القديمة . وهذه الأطلال الأثرية تجذب عموماً فضول الناس ؛ ويبدو أن النفس تجد في ظل الآثار القديمة للأجيال الماضية بعضاً من جمال الذكريات المليئة بالشجن تذكر بها هذه المباني ، فظهرها الصامت يث في الروح انفعالا خفياً يمزها ويتسامى بها ، كما أن الإنسان يجب أن يتأملها فيفارقها بصعوبة ويعود إليها بشوق ، لكن آثار الاسكندرية على العكس من ذلك لاتؤمى إلا بحزن مرير وعميق ، إذ هي لاتقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته . وفي الواقع ، ففي فراغ فسيح ، يحيط به سور مزدوج ، تعلوه أبراج عالية ، فان الأرض لاتعطيها إلا أطلال المباني القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض ، والأعمدة وتيجان الأعمدة الممهشة أو المقلوبة ، وقطع متناسكة من جدران منهار ، وقباب مدفونة ، وتكسيات الجدران التى تأكلت أحجارها الشواهى بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر . . فى كل مكان يجد المرء آبار وخزانات نصف مطموسة ، أو حفراً عميقة يستخرج منها السكان أحجاراً جيرية لاتزال تحمل آثار عمل الإنسان ، والتي حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ؛ فى كل مكان لايسير المرء إلا على بقايا نثار ، وزجاج ، ومخلفات معدنية ، وإلا هلى فتات من كافة أنواع الرخام ، ووسط أتربة تميل للبياض ترفعها الرياح وأقدام المارة لتدور بها فى شكل دوامات . . وسط هذه الفوضى يبدو هذا البعض من المساكن المنعزلة ، والتي بها المقابر ، وكأنها لم تنهض وسط هذه الخراب إلا لتغطى بظلالها ماوى الموت ، وهذه المقابر التى تتكون من كهوف صغيرة ، تضم جثثاً ترقد فوق أرض ترابية ، ترابها هو آخر بقايا الإنسان الهش . . فى داخل هذا الفناء تتأثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة ، نبحث عنها دون جدوى ، ونختبط نحن وسط أسوارها .

١٨ - وأول ما يظهر لعيون المسافرين ، فى حقل الخراب هذا ، مرتفعان يسمح علوهما ، الذى يبلغ من ٥٠ إلى ٦٠ متراً ، بأن يستخدمهما هؤلاء المسافرون

نقطتى استرشاد عند الإقتراب من ميناء مصر الوحيد . ويحمل أول هذين المرتفعين ، وهو الذى يقح إلى أقصى الشرق ، اسم هضبة سانت كاترين ، وهو الاسم الذى خلعه عليها الفرنجيسة أو مسيحيو هذه البلاد ، أما الآخر فيقع إلى الغرب ، وتنتهى قمته ببرج صغير يستخدم مرصدا . ولا يتكون هذين المرتفعين إلا من أنقاض آنية فخارية وأنقاض أخرى يحملها إلى هناك كل يوم سكان المدينة ، وتتوج قمتى هذين المرتفعين ، حيث يستطيع البصر أن يمتد إلى بعيد فوق الأرض وفوق الماء ، بحصن صغير من سلسلة الحصون التى تلتف حولها وتحصى أطراف المدينة^(١) ومن الضروري ألا يكون هذان المرتفعان قد تسكونا إلا منذ أقل من ربع قرن ، ويبدو أن المرتفع الغربى ، حسبما يذكر ليون الأفريقى الذى سبق أن أوردنا ما قاله قبل ذلك ، كان موجودا أيام ساييم (الأول) فى عام ١٥١٧ ، إذ من المعروف أن هذا السلطان ، لى يعالج الآثار الضارة لجبال الأنقاض التى يبدو أن القاهرة وبقية مدن مصر كانت توشك أن تدفن تحتها ذات يوم ، قد أصدر أمرا بنقل كل مخلفات المدن برا أو نهرا إلى مصبات

(١) كرم القائد العام الجنرال بونايرت ذكرى اثنين من كبار ضباط الجيش المهندسين ، ماتا فى ساحة الشرف ، وذلك بأن أطلق اسميهما على هذين الحصنين فأطلق على الحصن الشرقى اسم حصن كريتان Fort Crétin ، وهو اسم كولوبيل مهندس قتل فى موقعة أبني قيد فى يولية ١٧٩٩ . أما الثانى فقد سمي حصن كافاريللى Fort Cafarelli ، وهو قائد فى نفس الجيش مات متأثرا بجراحه فى واحدة من عمليات حصار حصن عسكا فى سوريا فى ٢٧ أبريل ١٧٩٩ ، وقد كان كافاريللى ، وهو ضابط شجاع بقدر ما هو مهندس بارع ، يحتفظ على الرغم من الحسارة التى كلفته إحدى سافيه فى بداية حصار مدينة مايانس Mayence فى أكتوبر ١٧٩٥ ، بنشاط يدعو إلى الدهشة . وفى نفس الوقت فقد كان مشهودا له بأعلى الصفات الروحية وبمعارفه المتنوعة والواسعة فى العلوم الفيزيائية ، وفى الأخلاق والسياسة ؛ لذلك فقد سبب موته أعظم الأسى للجيش ، كما بكاه القائد العام ، وكذا الجنرالات والجنود وأعضاء جمع العلوم والفنون الذى كان كافاريللى بمثابة أب وصديق له فى نفس الوقت فى مصر . وليس ما أقول هنا هو مجرد عاطفة تذكر فى ذكره كنوع من الوفاء والعرفان ، لىكنه شهادة عدل شاء رئيس أركان حرب الجيش ، عن طيب خاطر ، أن يقدمها لتلك المميزات العظيمة لهذا الجنرال الذى كان أفضل ضباط جيش حملة مصر .

النيل ، وسوف نتحدث عن الجانب المفيد الذى قد يكون لهذه التلال (من الانقراض) والتي تحمل الرياح منها على الدوام أجزاء تسقط فى معظم الأحيان كأمطار من تراب فوق المـسـدن التى تشرف هذه التلال عليها وتغضى جزءاً كبيراً منها .

١٩ - هناك شىء يجذب إليه المرء بأكبر قدر من الإهتمام ، ذلك هو تلك المسئلة التى يلجأ المرء عند شواطئ الميناء القديم ، وقد دفنتى قبتها المرتفعة فى شكل سهم والتي تجذب انتباه المسافرين لأبدأ وصفى لهذا الأثر ، وهو الأثر الأوحـد ، أو الأكثر كما لا وسلامة من بقايا المدينة القديمة .

إلى الجنوب ، وقرىبا من أحد أبراج السور ، الذى يسمى برج الرومان ، وهو يطل على الشاطئ الشرقى للميناء الجديد ، توجد مسلتان من الجرانيت ، جرى العرف على تسميتهما مسلتى كايوباترة ، باسم تلك الملكة الرائعة ، آخر سلاطة البطالمة التى اضطرت بعد أن اعتلت وحدها عرش خلفاء الإسكندر ، أن تهجر مقاليد الحكم ، وأن تتخلى عن مباهاج حياة وهبتها لغيرهم أغسطس (أكتافىوس) ، وأن تقتل نفسها ، بعد معركة أكتيوم .

ومسلات كايوباترة ، هى مسلتان من الجرانيت الشرقى ، إحداها مقلوبة ، أما الأخرى فقد ظلت تنهض على قاعدتها ، وحجما هاتين المسلتين يتماثلان على وجه التقريب ، ولكل منهما وجوه أربعة مليئة بالنقوش الهيروغليفية . وقد رسمت نقوش واحد من الوجوه الأربعة للمسئلة التى كانت مقلوبة .

ويلاحظ المرء من بين علامات هذه الكتابة الرمزية ورسوما مقلدة بشكل بالغ الدقة ، وممنقوشة بحروف بارزة وجوها لبعض الحيوانات منها : الثور ، الشبان ، الجعران ، البومة ، البومة الصلعاء ، السحالى ، طائر أبى منجل ، طائر الملقط ، البط ، وطيور أخرى وحشرات ذات أجنحة لا نعرف عنها الكثير ،

وبين هذه النقوش الموضوعة داخل إطارات تمثل لوحات ميمتقراطية لا يمكن للمرء أن يخطئ الأعضاء الجنسية للإنسان . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : إن سينوستريس قد أمر بحفر هذه النقوش تحقيرا للشعوب التي كان قد هزمها وجللها بالعار ، وذلك عندما أخضعها بدون قتال .

أما مقاييس المسلة المقلوبة التي قمت بقياسها فهي :

الارتفاع حتى القمة الهرمية = ٥٧ قدما (١٨٥١٦ م)

عرض الضلع = $\frac{٤}{٧}$ (٢٣٨٢ م)

وعلى الرغم من أن زوايا قاعدة هذه المسلة قد تشبعت بل وتشوهت فقد

حسبت أن عرض الضلع الأدنى لهذا الوجه الذي رسمته كان ١٠ ٦ (٢٢٢٠ م)

بينما يبلغ عرض الضلع للوجه الملاصق ، والذي قام بقياسه المسيو بلزك ٥ ٥ ٧ (٢٤٢٠ م) ، وهذه الاختلافات في عرضي الوجهين المتلاصقين لوجوه المسلات الرباعية تبدو موجودة بشكل عام في هذه المسلات كما تبدو في جوانب الأهرام ، وبلاحظ في الزوايا الأربع لتصميم قاعدة هذه المسلة أربع فتحات للتعشيق عرضها من ٢٠ إلى ٢٥ سم وهو نفس طول عمقها ، وكانت هذه مخصصة لإشك ، كما هو الحال في المسلات الأخرى ، لكي توضع بها السنة التعشيق التي ينبغي أن تدعها عند قاعدتها .

ومن المعروف أن أباطرة من الشرق ومن الغرب قد نقلوا في عصور مختلفة مسلات مختلفة إلى روما وإلى القسطنطينية^(١) . وقد حصرت في الرحلة التي

(٢) أنظر A ، المجلد الخامس ، الأوجتين ٢٢ ، ٣٣ . وقد ذكر في مؤلف ولسون أن لورد كافان Cavan عندما كان يقول القيادة في الاسكندرية ، قد أمر بعمل اللازم لنقل المسلة المقلوبة في هذه المدينة إلى لندن ، ثم اعترض تنفيذ هذا المشروع عقبات مختلفة . ويذكر مستر ولسون أن مصاريق النقل قد قدرت بـ ١٥ ألف جنيه استرليني (تاريخ حملة الجيش الإنجليزي على مصر في عامي ١٨٠١ ، ١٨٠٢ تأليف روبرت ولسون ، لندن ، ١٨٠٣ ، في مجلدين ، الفصل الثامن) .

— ٣٢١ —

قمت بها إلى روما عام ١٨١٠ حوالي ١٠ - ١١ بين هذه المسلات ارتفعت
بزهو لتحدث عن أجماد روما ، ومع ذلك فينبغي أن نلاحظ أن المهندسين الذين
أقاموا هذه المسلات قد بددوا مالها من تأثير عظيم في النفوس حين أقاموها فوق
قواعد لم تحافظ على النحافة التي كانت لها ، في حين أن المصريين القدماء كانوا
قد نصبوها كما نشاهد ذلك حتى الآن في هايوبوليس وطيبة . فوق قاعدة
صغيرة يبلغ ارتفاعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم على الأكثر فوق الرصيف أو فوق
الأرض المحيطة به . وبنفس الطريقة فقد حجبتنا جزئياً الأثر الرائع لأعمدة
قصورنا حين أقمناها فوق قواعد نزهت منها - حين قللت من قوة الدعم
أو الثبات البنائي الخاص بها - طابعها المزدوج : طابع الجراة وطابع الأناقة
التي ينبغي أن تبدو عليها .

ويصل وزن المسلة المقلوبة التي يبلغ طولها ، بما في ذلك قمتها الهرمية التي

== وحيث أن مسلة الاسكندرية كانت قد أزيلت من حولها الأناض تماماً وقد أمكن قياس
أطوالها بكل دقة ، وكانت كما يلي :

ل	ب	ق
—	—	٦١
—	٣	٧
—	٣	٦٨

الجزء الأعلى ابتداء من فجوة اللسان
الجزء السفلي تحت فجوة اللسان وداخل القاعدة الخشبية
إجمالي الطول
ولذا ما راعينا طول القدم الإنجليزي بالنسبة لطول القدم الفرنسي فافتنا نجد أن الطول

ل	ب	ق
١٦	٦٠	٦٣

الإجمالي لهذه المسلة بالقدم الفرنسي
أما العرض فكان كما يلي :

ل	ب	ق
٧	٧	٧
١١	١	٥

العرض عند القاعدة

العرض عند أضيق نقطة عند القمة

(نفس المثلث ، الجزء الثاني ، ص ٦٢) .

وهذه المقاييس تتطابق لحده كبير مع المقاييس التي حصلت عليها وقدمتها عن نفسي
هذه المسلة .

ب ق

بتر طرفها المدب ٦ ٦٣ ، أى ما يعادل ٢٠.٢٢٧ م^(١) حوالى ٤٦٩ ر ٤٥١ لبرة و $\frac{٨}{٣}$ من اللبرة أى ما يساوى ٢١٩ ر ٠٦٨ ك ج و $\frac{٢}{٣}$. وفى رأى أنه يمكن الاكتفاء بسفينة حملتها ٢٢٠ إلى ٢٥٠ طناً لى تنقل مثل هذه المسلات ، ولا بد لنا أن نستنتج أنهم قد استخدموا لنقل المسلات الموجودة فى القسطنطينية وروما جسوراً عائمة أو طوافات لمعاونة السفن الشراعية أو السفن ذات المحاديف التى قامت بهذه المهمة .

وأكتفى بهذا القدر من الحديث عن تلك المنشآت التى تتطلب وصفاً خاصاً وبالذات عندما يكون ذلك داخل إطار الحديث عن مجموعة المسلات المصرية ؛ وأنفحص الآن الأطلال باللغة الأهمية والتى يحتوئها السور .

٢٠ - لا يحتوى سور هذه المدينة المهجورة والذى قويت أجزاء منه بسور ملاصق يعلوه أكثر من مائة برج من أشكال مختلفة ، إلا على جزء من المدينة الإغريقية أو الرومانية القديمة التى يشار إليها من زمن طويل باسم فناء مدينة العرب إذ يظن أنها من عمل حكام هذه الأمة التى ضمت لامبراطوريتها ، الاسكندرية ومصر كلها من اثنى عشر قرناً . وفى الواقع فإن هذا السور الذى يبلغ محيطه ٧٨٩٣ متراً (٤٠٥٠ قامة) كان فى جزء منه من عمل العرب فى القرن التاسع ، وتبدو جدرانه بشكل عام بحالة سيئة . وهذه الجدران مليئة بالثقوب (الطاقات) الصغيرة ، وعدد كبير من هذه الأبراج العالية جيد البناء ، كما يلاحظ أن بعضاً منها ، وبالذات تلك التى تطل على البحر هند المينائين أو بالقرب من

(١) يقدر وزن القدم المكعب من الجرانيت المصرى المسمى بالشرقى ١٨٦ لبرة زنة مارك أى ٩١ ك ج و ٥ ديكاجرام (٥٠ ح) . ويزن المتر المكعب وهو الذى يحتوى على ٧٩ ق و ١٧٤ م ، ٥٤٢٦ لبرة و $\frac{٣٦}{١٠٠}$ من اللبرة زنة مارك أى ٢٦٥٦ ك ج و ٢٤ ديكاجرام . أما مكعب هذه المسلة فيبلغ ٧٧٣٩ م بما فيها ٢٧٧ م هى حجم قبتها الهرمية ، وقد قد قدرنا حجمه المذكور قبل ذلك بواقع ٤٩٠ جم لبرة زنة ١٦ أونصة (أوقية) .

المدينة الحديثة ، يعود تاريخها إلى القرون الأولى من تاريخ الاسكندرية . وهكذا شامت المقادير أن يكون أحد هذه الأبراج ، وهو المطل على الميناء الجديد ، من صنع الرومان ، ولا يزال يحمل اسمهم . ويقع هذا البرج إلى الشمال وبالقرب من مسلات كليوباترة . وهناك برجان آخران يلفتان النظر بضخامتهما ولونهما الحائل ، ويقع الأول عند الميناء الجديد مطالا على داخل الفناء (الساحة) حيث يصب بجرى ماء هندسى ، أما الآخر فيقع إلى أقصى الغرب ، ويطل على الميناء القديم ، ويضم بداخله برجاً آخر مركزياً وهذا البرج المزدوج الذى تتلامس جدرانه داخلياً عن طريق قبة حلقيية (دائرية) شديدة الاتساع ، كما أن بناءه بالغ الفخامة . وكان من الضرورى على الأبراج الأخرى أن تخزن المياه الاحتياطية فى أجزائها السفلية ؛ وفى أحد الأبراج التى تشرف على الجانب الأوسط من المدينة الحديثة خزان جميل .

وقد رمم الحصن الواقع عند الزاوية النائية (إلى خارج المدينة) إلى الجنوب الغربى من السور ، ووضع فى حالة دفاع يخشى معها بأسه لحد كبير . ويشار إلى هذا الحصن باسم الحصن المثلث ، نسبة إلى الشكل الذى يميزه . وقد دمر هذا الحصن كلية بسبب النيران التى شبت بمخزن البارود فى حوالى نهاية ١٨٠١ . ويقول المستر ولسن الذى ذكر هذه الواقعة فى تاريخه للحملة الانجليزية على مصر ، حيث كانت الاسكندرية فى هذه الفترة تحت سيطرتهم ، بأن أحداً لم يستطع معرفة سبب هذا الحادث .

وترتفع أبراج السور المبينة على نمط التناكتيك العسكرى القديم ، بعظمة فوق الجدران التى كان عليها أن تدود عنها . وكل هذه الأبراج متوجة بطوار بارز تمنع بفعل مزاميتها من الاقتراب من محيطها . ويكاد يكون لكل الأبراج الموجودة فى الخط الخارجى أبواب سرية أو أبواب خروج تؤدي إلى خنادق . وتخفى هذه الأبواب السرية اليوم ، وهى التى ترتفع عتبتها إلى مترين فوق قاع الخنادق ، تحت أكداس من فتات الارصفة وقطع البناء .

ويلاحظ المرء في جسم جدران السور ، وبخاصة في أسفل جدران معظم الأبراج هداً كبيراً من الأعمدة الرخامية والجرانيتية أقيمت بها بشكل أفقى ، ويرى أحد أطرافها مطالا إلى الخارج ، وسوف أقدم في الجزء الآخر من هذه الدراسة رقم ٨٩ - الملاحظات التي سأوصي بها بخصوص هذا الاستعمال الشاذ لهذه الأعمدة داخل هذه الكتلة الصلبة في مباني جدران السور . وقد كانت بعض أجزاء واجهات هذه الجدران ، وبخاصة من جهة الجنوب ، مغطاة بطلاء من ملاط الجص بقصد حماية طلائها من أثر الرطوبة البحرية ، ومن التلف الذي ينتج عن سقوط الندى المتواصل على الجزء الساحلى لمصر ، وكذلك على هذه الواجهة لجدران السور بالقرب من الزاوية النائية إلى جنوب باب رشيد حيث نرى آثار تفتت هذه الأحجار الجيرية (١) .

٢١ - ويبلغ هدا الأبراج المنفذ في جدران هذا السور خمسة أبواب هي : اثنان يطلان على واجهة المدينة الحديثة ، واحد يقع إلى الشرق ويسمى باب رشيد ، وآخر يقع إلى الجنوب ويسمى باب العامود ، وخامس يقع إلى الغرب ويؤدى إلى الميناء القديم عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى

(١) وجوه حجارة هذه الجدران مغطاة في جزء منها بتخاريب سوس محفورة بشكل بالغ الانتظام في كل اتجاه حتى ليعتقد المرء لأول وهلة أنها عمل غير عادى من صنع الانسان ، ولكن عندما تفحصها جيداً وباهتمام فانتا تدرك أنها تخاريب طبيعية نتجت فيما يقال عن طريق ديدان تقرض الحجارة ، يمثل ما يوجد نوع منها يقرض الخشب في الهواء أو في الماء . وتقليداً لذلك ، يلاحظ على سطح بعض الأحجار الجيرية أن نوع الحفر المعروف باسم نخر السوس Vermoulure قد اقتبس واتباع في نمط العمارة الريفية rustique يمثل ما نراه منفذاً في أسفل الجدران وعلى الأعمدة والأعمدة النائشة في قصرى التويليرى والووفر في باريس . انظر فيما يتعلق بطبيعة الديدان التي تقرض الحجارة Les Journal des Savants لسنة ١٦٨٨

الغرب من السور (١) .

وقد أقيمت هذه الأبواب في الأبراج التي تعلو السور ، وقد طمسَتْ جدران الأبراج منافذها ، وتستخدم هذه الأبواب للإرشاد والدفاع عن الموقع على طريقة الأبواب السرية في أجنحة حصوننا ، ويغشى الواجهة الخارجية لمصرعى هذه الأبواب ، وهي مصنوعة من هيكل قوى من خشب الجوز ، بهيكل حديدية مثبتة بمسامير مدببة الروس ومتعددة الأشكال وإن كان حديدتها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح في حالة من التفتت التام بينما يكاد يكون الخشب قد ظل على حاله ، بل وكأنه يكتسب المزيد من الصلابة بمرور الزمن ؛ ويمكننا أن نستنتج الأزمنة التي بنيت فيها هذه الأبواب عن طريق الشكليات العربية المكتوبة بخط الكوفة على واجهاتها .

٢٢ — ومن بين المباني التي عثرنا عليها مبعثرة داخل السور العربي الواسع ، كانت توجد قرية مجاورة لباب (بوابة) رشيد ، وقد دمرت هذه القرية عن آخرها نتيجة للحرب التي دارت في الستين الأولى والأخيرة لاحتلالنا لهذه المدينة . أما بخصوص المباني الأخرى المبعثرة إلى الجنوب الغربي والتي لم تعان مطلقاً من أحداث الحرب ، فقد ظلت على العكس من ذلك تتمتع في مساحة واسعة بل ازدادت مساحتها اتساعاً بفعل خرائب المباني التي تحدثنا للتو عنها .

٢٣ — وقد عثرنا بين كثير من الخرائب على ديرين ومعبد يهودي ، هي أطلال منشآت أسستها تلك المذاهب العديدة التي سببت في هذه المدينة الكثير من الانشقاقات والثورات والآلام والتعاسة في أثناء القرون الأولى للمسيحية .

(١) لست أدخل في عداد أبواب هذا السور بابين جديدين فتحهما الفرنسيون ؛ الأول بالقرب من الحصن المثلث المسمى حصن باب المقابر ، وهذا ليس سوى ثغرة في جسم السور ، والآخر في الاستحكام البارز بكونه مبنية ملحقة بالحصن الأخير بالقرب من الباب الذي يطل على مساحة الباب الجديد ، وقد أقيمت هذه الكورتينة الحصينة للدفاع عن المدينة الحديثة أثناء حصار الاسكندرية على يد الجيش الانجليزي — التركي في عام ١٨٠١ .

أما اليهود الذين ينبغي ذكرهم على الدوام ، وفي المقام الأول ، في أحداث الحروب الدينية فيحفظون هناك بمعبد يقع بالقرب وإلى الجنوب من مسلات كليوباترة ، وتقع مقابرهم إلى ما وراء المدينة العربية ، إلى الشرق من برج الرومان ، ولا يستطيع المرء إلا أن يدرك مدى ارتباط وتعلق هذا الشعب الدائمين بعبادته القديمة حتى في الأحجار التي يستخدمها في المباني التي تغطي مقابر هذا المدفن .

وبالقرب ، وإلى الشرق من هذا المعبد يوجد دير يوناني ، هو مقر بطريرك الأقباط (الروم) أى المطران الأول لهؤلاء المسيحيين الذين تشبهوا بوجودهم في مصر بحكم أصلهم المصري ، بعد أن آلت هذه المنطقة إلى سيطرة العرب والمسلمين .

وإذا ما اتجهنا نحو وسط المدينة العربية من جهة الباب الشمالى الذى يطل على ساحة الميناء الجديد ، نجد ديراً آخر للمسيحيين السكاثوليك من طبقة الدعاة أى من رجال الدين القادمين من الأرض المقدسة . ولدخول هذا الدير الذى زرته ، يصعد المرء أولاً فوق أكوام من الأنقاض تحيط به ، ويضطر المرء بعد ذلك للهبوط عدة سلالم قبل اجتياز الباب . ويكاد يعتقد المرء أنه يدوس فى داخل هذا الدير على الأرض المبدئية للاسكندرية ، ولست أعرف ما إن كان ثمة أشخاص آخرون يمكنهم أن يقدموا تفاصيل أكبر من داخل هذه الأديرة ، وقد واثقنى الرغبة والفكرة أكثر من مرة للذهاب إلى هناك لقضاء ١٥ يوماً فى هذه العزلة لكي أغترف من هناك معلومات هامة . وإننى لأشعر بشديد الأسف لأننى لم أتصل فى هذه المدينة ، كما فعلت فى القاهرة ، بهؤلاء الرهبان القائمين بأعمال البر والذين استبقاهم حبهم لدينهم — وهو حب يختلف أشد الاختلاف عن هذه الحماسة العمياء التى كانت لهؤلاء الناسك الزاهدين فى أديرة صحراوات النظرون والصعيد — استبقاهم ولا يزال ، فوق نفس أطلال

مدينة المسيحية العتيقة والقوية، وبين شعب لم يعد يحتفظ من بغضائه القديمة إلا بازدرأ ماس بالمسيحيين .

٢٤ - نميز من بين المساجد أو معابد الديانة المحمدية والتي بقيت داخل الحى العربى مسجدين ، يقع أحدهما بالقرب من الباب الذى يقع إلى أقصى الغرب ، ويحمل هذا المسجد منذ وقت طويل اسم مسجد (جامع) السبعين ، لأنه قد حدث هنا ، حسبما يقول الأثر ، منذ ثلاثمائة عام قبل المسيح أن بطليموس بن لاجوس قد أمر بترجمة التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بواسطة السبعين مترجما الذين أرسلهم السكاهن الأكبر إليعازر ، ويضم هذا المسجد ذو الشكل المربع والذي تبلغ أبعاده أى من واجهاته ١١٧م × ١٢٦م ، فى داخله رواقه صفان من الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية ، وهى من بقايا مبان قديمة خربة ، وحيث لم تعد تقام فى هذا المسجد منذ وقت طويل الشعائر الإسلامية ، فقد رمت جدرانه وأقيم به مريض حصين لمُدفعيتنا^(١) .

٢٥ - ويقع المسجد الثانى ويسمى جامع سانت أنثاز عند منتصف المدينة على بعد ٢٥٠ مترأ إلى الشرق من الدير المسيحى الذى تحدثنا للتو عنه ، ويستمد هذا الجامع اسمه من اسم مؤسسه ذلك أنه قد حل محل كنيسة مسيحية ، هى واحدة من الكنائس التى بناها سانت أنثاز فى مدينة الاسكندرية عند نحو منتصف القرن الرابع ، وتبلغ أطوال الواجهة الواحدة من واجهاته ٥٤ × ٦٢ .

ومن المعروف أن سانت أنثاز ، بطريك الاسكندرية ، الذى اضطر فى عهدده سان مكاريوس وانسحب إلى صحراوات بحيرات النطرون حيث بنى بعض المغارات (الأديرة) التى تحمل اسمه ، قد أصدر فرماناً كدسيا ضد آريوس زعيم المذهب الهرطقى للأريوسيين فى السنة ٣٦٤ من الميلاد ، وفى عهد هذا البطريك تسببت الانقسامات الدينية للدوناتييين والأريوسيين لهذه

(١) أنظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨ .

المدينة الباسمة في انشعاقات طويلة ودامية بنفس القدر الذى أحدثته انقسامات
الـ Guelphs والـ Gibelins (٥) التى روعت إيطاليا عند حوالى منتصف القرن
السابع (١) .

ويحتوى محراب هذا المسجد الذى لم تطأ أرضه أقدام المسيحيين ، فى
وسطه ، على رواق بالغ القيمة مبنى من منشآت وآثار مصرية قديمة ، ولم يكن
يلزم أقل من جيش منتصر حتى يمكن اجتياز عتبة هذا المسجد ، وحتى يمكن
انتزاع هذا الأثر من هذا المكان حيث ظل مجهولاً ومفقوداً لفترة طويلة من الزمن ،
لأنه حوض من الرخام الصناعى الأخضر ، تحمل كل وجوهه الخارجية والداخلية
كتابات ورسوم هيروغليفية ، وله شكل شبه منحرف ، أما أطواله كما قسمتها فى كتاب
يل : ٢٩٠ م لطول كل من الواجهتين الكبيرتين حتى زاوية اتكاء الرأس ، كما أن
عرض كل منهما ههذه النقطة يبلغ ١٦٠ م فيما بين طرفى قوسه الخارجى ، إذ أن
شكل الرأس مقوس ، أما أطوال الواجهتين الصغيرتين فهى ٩٣ م و ١٢٤ م .
وهو محفور من الداخل بشكل مواز لشكله الخارجى على عمق يبلغ ١٠١ م
فى حين يبلغ هذا العمق من القناع إلى قمة قوس الرأس ٢٤٠ م ، أما سمك
جدران هذا الحوض فيبلغ ٢٣ م ، ولا بد أن وزنه يصل إلى ١٢ إلى ١٣ ألف
أبرة زنة مارك ، أى حوالى (٦٢٦٣ إلى ٥٨٧٤ ك . ج) . وهذا الأثر هو
واحد من أكثر الآثار التى بقيت من الحضارة المصرية القديمة مدعاة لافضل ،
وقد كان واحداً من تلك الآثار التى كلفت بنقلها إلى فرنسا مع اثنين من
زملائى (٢) لكن ما قدرته مسيرة الحرب كان أمراً مغيراً .

(*) حزبان قويان أحدثا انقساماً كبيراً فى إيطاليا ابتداء من القرن السابع حتى القرن
الخامس عشر ، وكان الأولون يتبعون البابا بينما يتبع الآخرون الأباطرة الألمان . (المترجم)

(١) انظر تصميم هذا المسجد فى A من المجلد الخامس ، لوحة ٣٨

(٢) كان القائد العام كبير قد عين ثلاثة أعضاء هم السادة : نويه الفلـكـى Nouet ،
ديكوسـتيل Des-Costils ، وأنا . وقد سافرت من القاهرة فى السابع والعشرين من
يناير من العام الثامن أو ١٦ فبراير ١٨٠٠ لى نهر مع هذا الأثر الجميل لجام سان =

وإذا كانت الأحداث العسكرية الأخيرة التي أدت إلى جلائنا عن مصر قد حرمت فرنسا من إحدى المغنمات التي كان يمكنها أن تثرى متحف العاصمة ، فليس للآداب والفنون أن تأسى ، نخسارتها لم تكن تامة ، فهذه الغنيمة تظل بفضل عزميتنا التي لا تلبث في متناول أيدينا ، إذ يستطيع العلماء والفنانون أن يذهبوا لتأمل هذا الأثر الذي لا يقدر بثمن بالنسبة للفنون والتاريخ ، في متحف لندن .

٢٦ - تجاه جامع أثناز وبالقرب منه ، يلاحظ المرء كذلك ثلاثة أعمدة من الجرانيت الأحمر واقفة ، ويمكن أن يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢ - ١٣ مترًا × ١٤ سم هو قطرهما الأوسط ، ويوازي هذا الصف من الأعمدة الجميلة التي يفصل بين كل واحد منها ١٠ - ٢٠ خطوة ، الشارع الذي يفضى إلى بوابة في الاتجاه القادم من الباب الغربي للبناء القديم . ويرى المرء بالمثل ، من ٧ إلى ٨ أعمدة ضخمة واقفة كذلك ، وملتصقة بجدران الواجهة الداخلية للبيوت الواقعة إلى اليمين عند الوصول إلى القرية المتاخمة للبوابة الشرقية للسور ، وهذه القرية اليوم محطمة عن آخرها ، وفي عام ١٦٩٢ أحصى المسيو دى مايبه Maillot القنصل الفرنسى عددا كبيرا من هذه الأعمدة توازي أيضاً هذا الشارع القديم .

== أثناز بالإضافة إلى حوضين آخرين من القاهرة ، عرف أحدهما لوقت طويل باسم حوض أو نافورة العشاق ، وكان يوجد أسفل سلم جامع ابن طولون مطلا على أكبر شوارع القاهرة . أما الآخر فقد نفذ على شكل جسم إنسان وكان كذلك مسلفان صغيرتان من الحجر الأسود يبلغ طول كل منهما من ٣ إلى ٤ أمتار ، وكذلك حجر ذو كتابات ثلاث وقبة أحد التماثيل الضخمة من نفيس ، وقطع مفتحة من أحواض وتماثيل أخرى وقد نسخت النقوش المبروغرافية من على المسلتين الصغيرتين المصنوعتين من البازلت ، كما قمت برسم تصميم ومقاطع للنافورة التي على شكل جسم إنسان . أنظر التفاصيل التي قدمها السيدان جومار Jomard ورائينو Raffeneau ، في A من المجلد الخامس ، الألواح ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥

٢٧ — أما الخرائب الهائلة التي نراها على بعد ١٦٠ متراً إلى الشرق من نفس هذا المسجد، والتي تشكل بقايا جدران ضخمة لمباني قديمة من الطوب الأحمر، فتعود، مثلاً مثل تلك التي تقع على بعد ٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرق من جامع السبعين، إلى قصور قديمة، حيث لا يزال نلمح فيها حتى اليوم أقواس قناطر وبقايا أحواض أو خزانات مياه؛ ويستخلص من فحص هذه الأطلال، أن هذه المباني كانت تشتمل على حمامات ونافورات عمومية، وقد اكتسبت كتل الاسمنت الأحمر التي تغطي الطوب الأحمر المسطح، الكبير الحجم، المستخدم في هذه الأبنية السميك والضخمة - اكتسبت بمرور الزمن تماسك العنخور وصلابتها الشديدة.

٢٨ — وقد تناقص اليوم عدد الحمامات — وقد كان فيما مضى هائلاً — إلى حمامين أو ثلاثة في كل هذه المدينة، وثمة واحد من بينها مفتوح للعامة، يقع في ظهر خرائب القصر بالقرب من جامع أثناس. وإن أقدم هنا وصفاً خاصاً لهذا الحمام، إذ هو يشبه كل الحمامات المفتوحة للعامة في القاهرة ومراكز المدن المصرية الأخرى، وقد نيط بآخرين غيرى أن يضيفوا رسوماً إلى التفاصيل الوصفية ليقدموها في وصف مصر.

٢٩ — أما المجرى الهندسي للمياه والذي تحمل قنسطاره العالية المياه من المدينة العربية إلى البرج الضخم عند البوابة الشرقية والذي يطل على ساحة الميناء الجديد، فإما أنه بناء حديث وإما أنه يعود إلى القرون الوسطى، وقد هدم هذا المجرى بسبب أعمال التحصينات الجديدة التي قام بها الفرنسيون.

٣٠ — أما المباني التي أفلتت — جزئياً على الأقل — من تغريب الزمن فهي خزانات المياه المخصصة للتهوين السنوي للمدينة. وهذه الملتصقات تحت الأرضية والتي بليت فوقها المدينة تشكل قباً تدعّمها عواميد على شكل قناطر مقوسة من طابقين أو ثلاثة طوابق، جدرانها الداخلية مطلية بطبقة سميكة من

الاسمنت الاحمر المسمط ، الذى لاتنفذ من مسامه المياه ، وقد أنشئت هذه الخزانات على قيمان متفاوتة الارتفاع ، ولكنها على الدوام أدنى من سطح البحر بحوالى ٥ - ٦ أمتار ، وهى واسعة وعميقة ومتعددة الفتحات ، وتمثل الزوايا آباراً شبه دائرية على الحواجز الرأسية ، التى نفذت فيها حفرات يستخدمها العمال سلام يضمنون عليها أقدامهم عند الهبوط أو عند الصعود ، عندما يقومون بأعمال الإصلاحات التى يستدعى الأمر تنفيذها ، لتطهير الآبار من الطمي الذى يرسبه فيها مياه النيل كل عام .

إن خريطة للمدشآت تحت الأرضية لمدينة الاسكندرية ستكون مثيرة للفضول بقدر ما تكون هى مثيرة للاهتمام حين نربطها بخريطة الاسكندرية وموقعها^(١) ، ذلك أن هذه الخريطة سوف تسهل لنا مهمة دراسة أحوال المناطق والأماكن القديمة حين توضح لنا اتساع وكثرة مصادر المياه التى أنشأها لنفسه شعب كبير العدد ، لإشباع واحدة من أهم الاحتياجات الأولى لحياة .

كان عدد الخزانات لا يزال حتى بضع سنوات يصل لحوالى ٣٨٠ - ٤٠٠ خزان ، لكنه الآن يبلغ بالكاد ثلاثمائة وثمانية خزانات ، ومن المهم أن يتناقص هذا العدد بسبب الإهمال فى صيانة الآبار والعناية بها ، حتى تكفى على الأقل احتياجات الشعب الحالى للاسكندرية ، ولتنفى كذلك باحتياجات البحرية لعامين متتالين . إن المرء ليستطيع أن يحزم بأن عددا هائلا من الخزانات تحت الأرضية القديمة مطمورة الآن تحت أنقاض المدينة .

ولقد تناقص عدد الخزانات الصالحة للاستعمال إلى ٢٠٧ ، تبلغ طاقتها بعد

(١) عهد بتصميم الخريطة تحت الأرضية للاسكندرية لى المسبو فای Faye مهندس الطرق والكبارى ، والذى كان مكلفاً بالأعمال الهيدروليكية الميناء ، ولأنى أقدم هنا هذه التفاصيل تبعاً للمقاييس والمعلومات التى توصل إليها هذا المهندس .

طرح ٢١ من سماتها، وهو تقديرنا للحجم أعمدة ودعائم القباب والقناطر المقوسة،
 ٣٨٤٣٨ مترًا مسكماً ، بمتوسط قدره ١٦١ م^٢ للخزان الواحد، ومن جهة
 أخرى ، فإذا كان المنز المسكب من المياه الحلوة يزن ٢٠٤٢ ليرة و ١٧٣ ر^١
 أو ٢٠٠٠ رطل من زنة مارك أى مايساوى ٩٧٩ ك . ج وديكا جرام واحد
 (١٠ ج) من العدد الدائرى مثل الطن البحرى ، حيث أن ٧٠ رطلا تساوى
 ٣٤ ك ج ٢٧ وديكا جرام هى زنة القدم المسكب من المياه الحلوة ، فإننا نحصل
 على كمية تبلغ ٦٦٨٧٦٠٠٠ رطل ، تعطى عندما نقسمها على ٦ أرتال هى
 وزن ثلاثة بذات (*) من المياه - نصيب الرجل ، الواحد فى اليوم -
 ١١٨٤٦٠٠٠ نصيباً أى مايسكنى لاستهلاك ٢٠ ألفاً من الرجال ، يدخل
 فيهم نصف حامية الاسكندرية ، فى حالة الحصار لمدة تبلغ ٥٥٧ يوماً ، أى
 مايقرب من عام ونصف العام ؛ ولا يوضع هذا الإحصاء فى اعتباره الخسارة التى
 تلحق بفعل البحر ونقل المياه ، ذلك أن هذه الخسارة التى لا يمكن تفاديها ،
 تعوض بشكل مجز عن طريق مياه الأمطار ، وكذلك مياه الآبار التى تتفاوت درجة
 صلاحيتها للاستعمال ، والتى نجدها فى كثير من البيوت فى المدينة الحديثة ، كما قلنا
 من قبل ، كما تعوض هذه الخسارة كذلك عن طريق مصادر أخرى سلتناولها
 فيما بعد .

٣١- وبخلاف هذا العدد من الخزانات فإننا نحصى هناك أيضاً ، داخل
 الحى العربى ، ٧٣ مجروراً يبلغ عمقها من ١٥ إلى ٢٠ متراً ، تستقبل مياه النيل
 عن طريق جداول سفلية تتفرع من الخنايج ، سلتحدث عنها فيما بعد . وهذه
 المجורות الواسعة ، ذات الشكل الدائرى ، والتى يبلغ عمق قاعها ١٠-١٢ متراً
 تحت مستوى سطح البحر ، تستخدم فى تغذية الخزانات أولاً بأول للاستهلاك ،
 كما تساهم فى رى الحدائق التى تزرع داخل المدينة . وتستخرج منها المياه بواسطة

عجلات ذات قواديس ، على شكل سبحة (ساقية) . وتدور هذه الماكينات ذات التصميم الريفي بواسطة ثيران تلزم ولاية البحيرة بمد الإسكندرية بها كل عام .

٣٢ - ويعهد بصيانة الخزانات والعناية بها إلى خدمات ورقابة الشوربجي تحت إشراف الكاشف أو حاكم المدينة^(١) . ويرصد للتطهير السنوى لهذه الخزانات مبلغ لا بأس به . وهذه الأعمال - كما لا بد أن نتصور - بالغة الأهمية ، حيث تنوق على القيام بها حياة أهل الإسكندرية . لكن هذه الصيانة ، وكذا تطهير هذه الخزانات ، وبالمثل تطهير كل ترع مصر ، كان وسيظل لوقت طويل لسوء الحظ ، يتم بشكل ردى ، بل ويهمل كلية ، مادام يتم تحت رحمة هذا الجشع الإجرامى للجنود الذين يفتشون عليه .

٣٣ - وكما رأينا فى الفقرة الخاصة بترعة هذه المدينة ، فى الدراسة عن القناة التى تربط بين البحرين ، فإن المدينة لا تحصل على مياهها الحلوة إلا عن طريق

(١) تقارح المبالغ المخصصة سنوياً لمصاريف إصلاح الخرابات بالمدينة ، مثلها فى ذلك مثل مصاريف ترعة الاسكندرية بين ٢٠ إلى ٢٥ ألف قرش (يساوى القرش ٤٠ مدينى) أى ما يبلغ من ٧١٤ر٢٨ جنيهاً و ١٠ سول إلى ٧١٤ر٣٥ و ٧ سول من العملة التورية (لقد فرسى قديم مسكوك فى مدينة تور على الطراز الملكى) . وبواسطة هذه المبالغ يأخذ الحاكم على عاتقه مهمة التورين السنوى بالمياه لخزانات المدينة ، وتحرر حجة أصلية بهذه العملية ، وترسل حسب الأصول ، لى باشا القاهرة . وتحتوى هذه الحجة على محضر يثبت أن كل الخزانات قد امتلأت بالمياه اللازمة لاستهلاك المدينة أثناء السنة .

وبخلاف هذه المبالغ ، يحصل الشوربجي على أتعاب تبلغ ٣٥٨٠٠ مدينى أو ١٢٧٨ جنيهها و ١١ سول : ٨٥٠ منها عن طريق الكاشف و ٤٢٨ عن طريق الجمرى . وقد تحدث الميسيو أوليفيه Olivier عن هذا الموضوع بالتفصيل فى تقريره عن رحلته إلى داخل الأمبراطورية العثمانية ، مصر واليونان ، ج ٣ ، ص ١ ، ٧٨ ؛ كما يمكن أن نفود حول هذا الموضوع إلى الدراسة عن الترة التى تربط بين البحرين ، الجزء ٣ ، الفصل ٣ ، ص ١٢٩ ، فيما يتصل بترعة الاسكندرية ؛ وكذلك إلى دراسة الميسيو إستيف Estève عن مالية مصر ، ص ٣٧٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

الفرعة التي تأخذ مياهها من النيل ، عند الرحمانية ، وتعب من الشرق إلى الغرب .
لإقليم البحيرة بطول يبلغ ٩٣٥٣٠ متراً . ويعبر هذه الفرعة شديدة التعرج ،
أربعة قناطر عند ضواحي الإسكندرية ، وهى القناطر الوحيدة التى نَجدها
فوق مجراها (١) .

وهذه القناطر ، وهى عبارة عن أقواس معلاة ، ومبنية على الطراز القوطى ،
هى من إنشاء العرب ، وهى كذلك فى حالة سيئة بعض الشيء . ولم تعد هذه الفرعة
التي أفاض المؤرخون العرب فى وصفها وامتدادها ، سوى امتداد لحفرة ، لم
تزل على الرغم من أنها توشك أن تكون شبه مردومة ، تتجه إلى المدينة ، حيث
توزع مياه النهر على كل المجرورات ، من طريق أربعة جداول سفلية . وأقصى
هذه الجداول من جهة الغرب هو نفس امتداد الفرعة ، التي تذهب لتصب فى الميناء
القديم على شكل مورد للسفن (المسكان الذى تتزود فيه السفن بالمياه العذبة) .
وإلى هذا المورد ، الضرورى للغاية لمشاة بحرية ، والذي يشبه بالنسبة لهذا
الميناء خزان مياه حقيقى ، تذهب السفن للتزود بالمياه ، أوقات فيضان
النيل (٢) .

(١) يمكن أن نشود إلى خريطة القناطر والحاجان فى الإسكندرية لنرى بداية هذه
الفرعة التي تجمع عندها الانجليز والأتراك وقاموا بقطعها ؛ وبسبب ذلك فقد حدث ، فى شهرى
أبريل ومايو من سنة ١٨٠١ ، أن صب البحر ماءه فى حوض ماربوتيس (مربوط) عن
طريق بحيرة المعدية ، فأغرقت ما يقرب من ثلاثين قرية فى منطقة لا يلبى أن تروىها سوى
مياه النيل وحدها ، كما كان يحدث وقت وجود هذا الإقليم القديم .

(٢) حددنا مربعات مرسومة بخطوط منقطعة فوق جداول ترعة الإسكندرية ، فتحات
هذه المجارى الهندسية ، وكانت هذه فتحات لادخال الضوء والهواء إلى هذه المجارى تحت
الأرضية ، ولتسهيل عمليات التطهير والصيانة السنوية اللازمة .

ويحدث المسيو دى مايبه ، الذى سبق الإشارة إليه ، عن قنوات أخرى تحت أرضية
كانت فى عصره (١٦٩٢ — ١٧٣٢) تنقل مياه النيل ، محاذية الساحل كله من الإسكندرية
حتى أبى قير إلى الشرق ، أى بطول يزيد عن ٢٠٠٠ متر ، وما يقرب من ٠.٠٠ =

٣٤ - ووسط الخرائب التي انتهينا من عبورها، لا يجد المرء ما يمكن أن يجذب ناظره أو يوقف خطو المسافر المحزون سوى خضرة بعض شجيرات النخيل في الحدائق القائمة حول المساكن المنعزلة والتي تحيط بها . وبخلاف أشجار النخيل يجد المرء في هذه الحدائق أشجار التين، والنوت، والرمان، والمشمش، والبرتقال، والعناب، والحنطة، وشجيرات أخرى . ومن بين الخضروات يزرع هناك الباذنجان والكرنب، والخس، والهندباء، والقنبيط . . . إلخ؛ وفضلاً عن ذلك، فإن التسميم الذي يستمتع به المرء في هذه الحدائق سيئة التنظيم، يجعل الطقس مناسباً لدرجة كبيرة حتى ليغامر المرء بأن يصل إليها، من خلال أترية بيضاء مألوفة في أرض مألوفة .

٣٥ - وعندما نخرج من هذا السور لنجتازة إلى خارجه، فإننا لا نقابل سوى مبنى واحد تستطيع بسبب ارتفاعه، وإذا ما اعتايناه، أن نبهر ما يدور في أعالي البحار . وأود أن أتحدث هنا عن هذا العمود الضخم الجدير بلفت أنظار المسافر الذي يتجه إلى مصر عن طريق الإسكندرية . يقوم هذا العمود، الذي نلمحه إلى جنوب سور المدينة العربية، فوق ارتفاع يبلغ ١٢-١٥ متراً، نلاحظ فيه كتلا هائلة من مبان قديمة . فوق هذا المرتفع أقيم هذا العمود الأثري من الجرانيت الشرقي، ويبلغ ارتفاع جذعه ٣ ١ ٦٣ أو ٢٠٥٠ متراً على محيط أوسط يبلغ ٢٠٥٦ م ويزن ٧٣٠٧٣٠ رطلاً من زنة مارك أي ١٢٨ و ٢٨١ ك م و ٧٠ ديكاجرام (٧٠٠ ج)، غير شامل قاعدته وأساسه وقته التي

== إلى ٦٠٠٠ متر بجذع المقابر إلى الجنوب الغربي، ويقول هذا الفصل الفرنسي الذي أقام أربعين عاماً « من التربة تحت الأرضية، التي كانت تمتد إلى الشرق، كانت واسعة حتى ليستطيع رجل أن يعبرها وافتقاً بكامل راحته » . وهذا ما يلاحظه المرء، في الواقع، في الجداول الأربعة المنجّهة إلى الجنوب . ويمكن الظن بأن التربة التي تحدث عنها المسيو دي ماييه، هي التربة القديمة المكشوفة، والتي يحتمل أن تكون قد غطيت بمرور الزمن؛ وكانت هذه تنجّه من الاسكندرية إلى كالوب وهيراكلي، أي إلى أبي قير حالياً .

— ٣٣٦ —

يلعب ارتفاعها ٩ ٤ ٢٥ أى ٨٥٢ م ، وهو ما يجعل الطول الإجمالى للأثر : ٦ ٨٨ أى ٢٨٧٥ م . ويبدو أن هذا العامود ، الذى كان يسمى حتى هذه اللحظة على نحو غير دقيق عامود بومبى ، قد أقيم على شرف الامبراطور سبتيموس - سيفيروس^(١) . ويمكن القول بأنه يشبه برجاً ، كان الهدف من إقامته أن يستعمل دليلاً للسفن التى يمكنها أن تلمح على بعد يزيد عن فرسخين فى المساء ، فى الوقت الذى تختفى فيه عن الأنظار الأبراج المقامة فى الحى العربى فى أرض سواحل مصر المنخفضة والمتعرجة . ونرى أن جذع هذا العامود يزيد فى وزنه عن وزن المسلة المقلوبة بحوالى الريح ، وهى المسلة التى تعد لنا هنا من قبل ، والتى كان يلزم لنقلها سفينة تبلغ حمولتها ٣٠٠ طن . ولن

(١) جاء أبو الفداء ، أمير سوريا ، والمؤرخ الجغرافى العربى لى المدينة عام ١٣٨٣ . ويقول هذا المؤلف لى العامود فى زمنه كان يحمل اسم سبتيم — سيفير — Septime Sévère) كما أنه قد أقيم على يد أهل الاسكندرية اعتباراً منهم بالمكاسب التى حصلوا عليها من هذا الامبراطور الذى زار مصر سنة ٢٠٠ ميلادية ، وبما لا جدال فيه أن الكتابات اليونانية التى كان يصعب قراؤها فى زمن أبى الفداء ، والتى لم يعد من الممكن قراؤها الآن ، كانت فى ذلك الوقت لا تزال تشهد على هذا الحدث التاريخى ، ويدعى عالم الانجيزى ، أمكنه فيما يقال أن يفك رموز هذه الكتابات بعد رحيلنا ، لأنها تحمل فى الواقع على الاعتقاد بأن هذا العامود قد أقيم على شرف سبتيموس — سيفيروس . ويقدم المسودى شاتوبريان Chateaubriand الذى زار المدينة فى أكتوبر وديسمبر ١٨٠٦ هذا النص اليونانى الذى ترجمه كما يلى : لى امبراطور الاسكندرية البالغ الحكمة ، دقلديانوس أوغسطس ، حاكم مصر ، لكن هذا النص لا يهدم فى رأى الشهادات التى تنسب لإقامته لى سبتيموس — سيفيروس . أثار :

L'itinéraire de Jerusalem à Paris, Par M. de Chateaubriand
t. III Pag. 100 etc.

ويمكن أن نرى الوصف الخاص الذى قدمه عن هذا العامود المسودى Norry ، المهندس المعمارى ، وعضو مجمع العلوم والفنون فى مصر ، فى مجلدات المصور القديمة ، وصف مصر ، فصل ٢٦

ويقول المستر ولسون ، فى الجزء الثانى من مؤلفه ، ص ١٤٩ « من بين الآثار القديمة التى عثر عليها الانجليز ، بلغت الأنظار حجر على شكل مائدة كبيرة عليها نقوش هذه ترجمتها : لى كل من يهيمه الأمر ، أقيم هذا العامود على شرف سبتيموس سيفيروس على يد جنود الفيلق الحادى عشر . وهذه المائدة طرف الجنرال كوت Coët » .

أواصل الحديث عن هذا الأثر ، الذى يمكن أن نشاهد قامته وتفصيله فى ٨ من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٤ .

٣٦ - ولسكى نتابع بانتظام ، الأبحاث الأخيرة التى كان علينا القيام بها ، شأننا فى ذلك شأن المسافرين الذى يعد خطواته حتى لا يعود أدرأجه من جديد ، فإن علينا أن نعود إلى الميناء الجديد ، وأن نعبر ، من الشرق إلى الغرب ، الخراب الأخرى التى توجد خارج هذه المدينة .

عندما نخرج من السور العربى ، عن طريق برج الرومان المؤدى إلى الميناء الجديد ، نجد فى كل خطوة - إذا ما سرنا بحذاء الشاطئ - بقايا وآثار من مبان قديمة ، مثل الحمامات ، والبواكى التى نتعرف على كتل بنائها من الطوب الأحمر والأسمنت وكتل من الأحجار الضخمة ، وأجزاء من أرضية كانت جزءاً من ميناء ، وخراب أخرى . ويمكن القول بأن هذا الجزء الشرقى للميناء الجديد ، هو الآن مهجور تماماً ، بدءاً من برج الرومان حتى رأس المنارة Pharillon ، وملئ بأنقاض المباني القديمة ، التى قلبتها يد البشر رأساً على عقب ، أكثر مما فعلت أمواج البحر التى كانت تضرب سفوحها بلا انقطاع .

٣٧ - والـ Pharillon (المنارة) هو هذا الحصن الصغير الذى سبق أن تحدثنا عنه ، والذى يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار ، وهو مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تقفل مدخل الميناء الجديد الذى يقوم الفنار بالدفاع عنه . أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير ، فهو بنفس مستوى مياه البحر التى تغطيه فى أيام الطقس المعتم (الشتوى) . وهذا الحصن الصغير ، ليس اليوم سوى برج مربع الشكل تحول إلى خراب . وقد شاهدت هناك بعض قطع ضخمة من موقع حديدى ، حولته الأكسدة التى تسببها الرطوبة المالملة ، الناتجة من مياه البحر ، إلى مثل هذه الحالة من التفتت ، حتى أن الحديد يتساقط إذا لامسته النصال أو أية قطع معدنية .

٣٨ - ووسط الخرائب الموجودة على الشاطئ إلى الشرق ، لا نجد سوى خرائب فناء واسع تغلقه جدران يبلغ ارتفاعها ٧-٨ أمتار ، وواجهات هذا السور ذى الجوانب الأربع ، والمفتوحة من بعض الجهات والتي تعلوها بعض الأبراج الصغيرة ، يمكن أن يبلغ طولها من ١٢٠ إلى ١٤٠ متر ؛ وجدران هذه الخرائب الضخمة التي تسمى بلغة البلاد : قصر القياصرة ، ذات سمك كبير ، ويشكل بناؤها ، وهو من الحجارة التي تميل إلى اللون الأبيض ، ومن النوع الجبرى ، وكذلك من الطوب الأحمر ذى الأحجام الكبيرة ، الطبقة المميزة من الطبقات الأفقية والمنفصلة لارتفاعات مختلفة ، على طريقة المصانع والمحلات الرومانية . وفوق المرتفعات التي تحيط بخرائب هذا القصر ، الذى يبعد بمسافة ٤٣٥٠ متراً إلى الشمال الشرقى من بوابة رشيد ، دارت معركة ٣٠ فتتوز من العام التاسع (٢١ مارس ١٨٠١) بين الجيش الفرنسى من جهة ، والجيش الإنجليزى التركى من جهة أخرى .

٣٩ - ولا يعود الإنسان يقابل على شبه الجزيرة الطويلة والضيقة والتي تمتد إلى الشمال الشرقى حتى أبى قير ، إلا بعض الخزانات والبيوت المنفرقة ووسط أشجار مزروعة أو غابات أشجار النخيل ، تحيط بها رمال الصحراء ومياه البحر إلى الشمال ومياه بحيرة المعديّة إلى الجنوب من كل اتجاه .

٤٠ - أما أبو قير ، الذى يعيد إلى الأذهان على الدوام أعظم ذكرياتنا من انتكاسات وانتصارات الجيش الفرنسى فى مصر ، فهو رأس متقدم فى البحر ، يشغل قته أحد الحصون ، وتبلغ المسافة بينه وبين حصن القنار فى خط مستقيم ، ٢٢١٠ مترًا كما تبلغ ٢٠٧٠٠ م إلى الشمال الشرقى من ميناء رشيد . وقد دمرت القرية التي كانت تقوم تحت جدران هذا الحصن عن آخرها أثناء معركة أبى قير وحصار هذا الحصن نفسه ، من ٧ إلى ١٥ ترميدور من العام السابع (٢٥ يولية إلى ٢ أغسطس ١٧٩٩)^(١) .

(١) أنظر شكل هذا الحصن ، الدولة الحديثة ، مجلد ١ ، الصفحة ٨٣

٤١ - وقبل الوصول إلى أبي قير ، نجد على الشاطئ هلى مسافة حوالى ٢٤٠٠م إلى الجنوب الغربى لهذا الحصن ، مرتفعات تكونت من الانقراض التى تعود إلى كانوب القديمة (أبي قير حالياً) ، ومن بين قطع الجرانيت والرخام المبعثرة هلى الشواطىء ، نمين جذع الأعمدة ورؤوس بعض الأعمدة ، وكر ياتيد (*) ، وأهاول ، وتمثيل أخرى مشوهة أو محطمة ؛ وعند هبوطنا إلى الساحل ، نجتاز بعض منشآت تحت أرضية ترتفع مستوى أرضها به ٥ إلى ٦ أمتار فوق مستوى سطح الأرض ؛ ونرى هناك بقايا حمام محفور فى الحجر الجيري الذى يقفل ويحدد ساحل الاسكندرية حتى أبي قير ، حيث يتوقف لجأه كى لا يظهر بعد ذلك إلا هلى شاطئ سوريا فى الشرق . وينتهى هذا الحمام الذى يضم حجرات متنوعة موزعة بشكل منتظم ، وإلى الشمال ، بردهة نصف دائرية ، تصل منها مياه البحر عن طريق أربع فتحات تتصل بدهاين يدور بشكل مركزى على هيئة نصف دائرة ، وتخترق بواكى هذا الدهلين نفسه ، إلى الخارج ، أربع فتحات أخرى تصب فى البحر ، متخذة اتجاهها معاكساً للاتجاه الذى تتخذة الفتحات الأربع الداخلية ، وكل حجرات هذا الحمام ، وكذلك هذه الدهالين الدائرية منحوتة فى الصخور ، والفكرة من وراء هذا التصميم ، وهى واضحة تماماً ، تهدف كما يمكن لنا أن نستنتج إلى تسكير وإضعاف ضربات أمواج البحر حتى لا تدخل إلى الحمام إلا مياه هادئة وشفافة ؛ وقد تحممت عدة مرات فى هذه الحمامات ، أما حجراته التى يبلغ عددها سبع حجرات أو ثمانية ، فهى تنص بالرمال عن آخرها ، فيما عدا أكبر هذه الحجرات التى لا تزال تحتفظ بـ ٣ إلى ٤ أقدام من المياه ، عند مصبات الفتحات الداخلية الأربع للدهالين الدائرى ، ونصل إلى هذا الحمام عن طريق طرقات وحجرات سفلية ، وقد استوجب الأمر أن يكون حماماً مغطى ، ولا بد أنه كان تابعاً لأحد القصور أو المنشأة عامة على درجة كبيرة من الأهمية ، ونجد آثاراً مشابهة على كل ساحل المقابر

(*) تمثال لامرأة يقوم مقام الأعمدة . (المترجم)

في جنوب غرب الاسكندرية ، وقد كانت الحمامات بلا جدال ذات نفع عظيم كما كانت تشكل متعة كبيرة في هذه المناطق الساحلية ، ويمكن لنا أن نعتقد أنها كانت تساهم في مباحج تلك الأعياد الخليعة التي كان يتوجه إليها شباب الاسكندرية في شكل جماهير، والتي كانت تقوم في مدينتي كانوب وتابوزيريس، ولكن، فأنعد الآن إلى قصر القياصرة ، الذي لم يبتعد عنه إلا لالقاء الضوء في كلمات سريعة على الأرض التي تحد من جهة الشرق مدينة الاسكندرية .

٤٣ - إذا ما توجه المرء من قصر القياصرة نحو الجنوب وخارج سور المدينة فإنه سيقابل سهلاً منخفضاً ومالحاً ، حيث يغوص سطحه الرطب محدثاً شيئاً من الطقطقة تحت أقدام المسافرين ، كما لو كان يطاءً لملجأ متجمداً ؛ ثم وبعد أن يترك عن يمينه المرتفعات التي ليست - كما سبق أن قلنا - سوى أكوام من الانقاض ، فإنه يصل إلى القنطرة القصوى من جهة الشرق ، المقامة فوق الخليج أو ترعة الاسكندرية ، التي نجد على شواطئها عدداً هائلاً من الآبار وخزانات المياه . ولكني نتعرف جيداً على شكل هذه القنطرة ، وهي شبيهة بشكل القناطر الثلاث الأخرى التي لا تزال باقية حتى اليوم داخل سور المدينة باتجاه الغرب ، فإن علينا أن نعود إلى الرسوم التي قدمها لنا المسيو بلزاك^(١) ، ووجود هذه القناطر الأربع ، وهي الوحيدة التي بنيت في ضواحي الاسكندرية ، على كل مجرى التربة التي يبلغ طولها حتى الرحمانية ٩٣٠ و ٩٣٠ متراً ، يبرهن إلى أي حد كانت هذه المنطقة ولا بد مزروعة وآهلة في عهد الرومان ، وخلفائهم العرب ، وكان بمقدور المرء حتى يضع سنوات خلعت ، أن يرى بعض غابات النخيل على شواطئ هذه التربة ، وكذلك في شبه الجزيرة التي تمتد حتى أبي قير ، لكن هذه الأشجار ، التي يجد الناس في السعى إلى ظلالها الضئيلة ، والتي تعد ثمارها واحدة من أكبر

(١) انظر الأطلس ، الدولة الحديثة ، المجلد الثاني ، الصفحة ٩٩ .

مصادر الدخل في مصر ، قد اختفت مع مجيء الجيوش المتعادية التي دمرت ،
الجيش تلو الجيش ، ضواحي هذه المدينة فيما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١ .

٤٣ - بالقرب ، وإلى الجنوب من عامود سبتييموس سيفيروس ، وهي
تسميته أصبح من المناسب منذ الآن أن نطلقها على هذا المبنى ، يوجد مكان
فسيح ، لا يسمح مشكلة المستطيل الذي ظل يحتفظ به ، وكذلك تنوء شوكة
المقتطعة والمنحوتة في صخرة صلبة ، لا يسمح بأن يتسرب أى شك بأن هذا
ليس سوى بقايا مضمار (لسباق الخيل) قديم يبلغ طوله ١٧٠٥٥٤ م وعرضه
١٦١٠٥١ م ، أما طوله من الخارج من فوق المحور الكبير ، فيبلغ ٦١٤٠٦ م ،
وهو ما يدل على أن عرض المدرج المخصص للمتفرجين على الألعاب يبلغ
٣٠ متراً .

وتبعاً لهذه المقاييس ، فإننا نستنتج أن العربات التي كان يراهن عليها في ألعاب
السيرك كان عليها أن تعبر ٦٤ غلوة يونانية أو أولمبية^(١) وعند الطرف الغربي
من الشوكة ، نرى ثقباً عميقاً ، حيث كانت تلتصق - على الأرجح - ترعة تتصل
ببحيرة مريوط ، كانت تستخدم ، إذا صح هذا الاحتمال ، في إدخال المياه إلى
حلبة السيرك .

٤٤ - وبعد أن تعبر الترعة عند مرفقها الموجود في أقصى الغرب ، فإنك
تقابل مرتفعاً مكوناً من صخرة حجرية صلبة ، تجدد فيها مغارات مقتطعة على شكل
دهاليز أو كهوف تحت أرضية ، وتعرف هذه الكهوف المخصصة للدفن
باسم : المقابر .

ويلاحظ عند الحواجز الرأسية لهذه الدهاليز وحجراتها ثلاثة أو أربعة

(١) انظر رسم السيرك للمسيو بلزاك في A من المجلد الخامس ، اللوحة ٣٩

— ٣٤٢ —

صفوف من المقابر المحفورة في الصخر فوق بعضها البعض ، والتي لا يظهر منها بسبب هذه الطريقة في الحفر إلا الجزء الذى تنتهى إليه أقدام الجثث التى تدفن فيها ، ويختلف هذا الوضع - البالغ الفائدة من كافة النواحي - عن الوضع الذى نلاحظه في مقابر مالطة وروما ، التى زرتها ، الأولى في يونيو ١٧٩٨ والأخيرة في مارس ١٨١٠ ، والتي تحفر كلها على شكل اخصاص أو حجرات رسمية (مقابر) بالانجاء الطولى الدهاليز ، ويشعر المرء على الفور أن مثل هذا الوضع الذى يتطلب فراغا كبيرا لا بد وأن يضم عدداً أقل من الأجساد عما لو كان قد حفر على غرار مقابر الاسكندرية ، ومن جهة أخرى فإن التشابه القائم بين مقابر الاسكندرية هذه وبين مقابر روما ومالطة ينبغى أن يدفعنا للاعتقاد بأن مقابر الاسكندرية كانت تستخدم مقابر للمسيحيين الأوائل ، أثناء اضطهادات الكنيسة ، في عهد أباطرة الشرق .

٤٤ - — ويتردد أهالى الإسكندرية والعرب البدو على المسجد الذى يقع الى الغرب قريباً من هذه المقابر ، وهم يذهبون إلى هناك لأداء الصلوات وتقديم الصدقات في فترات معينة من السنة .

٤٦ - — يشكل الشاطئ الذى ينحدر إلى الجنوب محيطاً بخليج الميناء القديم ، صخرة جيرية تلطمها المياه وتفت فيها منذ قرون ، ويتراوح ارتفاعها من ٥ إلى ١٠ أقدام فوق مستوى سطح البحر ، وقد اكتشفنا على هذا الشاطئ أعداداً لا حصر لها من الكهوف تحت الأرضية ، كانت ملهقة دون شك بمدينة المقابر للإسكندرية القديمة ، وجزء من هذه الكهوف مكشوف ، وبعض منها تسده الرمال ، ونتيجة لذلك فقد أعطيت لكل هذا الجزء من الساحل اسم شاطئ المقابر .

وكل هذه المقابر تؤدي إلى البحر ، ولها حمامات يتفاوت حجم اتساعها ، أما أكثرها لفتاً للأنظار ، فهى تلك المقبرة التى تقع على بعد ٣٥١٠ متر إلى

— ٤٦ —

الجنوب الغربي من عامود سبتيموس سيفيروس ، وكان العامة يطلقون عليها ، وقد جازتهم الصواب في ذلك - اسم حمامات كايوباترة ؛ وقد أشرنا إليه على خريطةنا تحت اسم : معبد تحت أرضي ، ولا يمكن للمرء ، إلا بمشقة بالغة ، وبالاتماعة بمشاعل ، أن يدخل هذا المعبد نصف المطموس بفعل رمال الصحراء وأنقاض المباني التي تحيط به ، وهو فسيح ، ومنظم ، وعمارته بسيطة ، تتناسب مع الغرض من إقامته^(١) .

وتدل أكوام العظام ، وهي التي لا يمكن أن تكون إلا عظام خراف وجمال وخيل وماشية أخرى ، على أن مساكن الموت هذه كانت تستخدم كأوى لحيوانات متوحشة أو لكواسر جارحة كانت تجر إلى هذه السكوف جثث فرائسها ، ويلبغى على المرء أن يدلف إلى هذه المساكن السفلية بحذر شديد ، مخافة أن تفاجئه بعض هذه الحيوانات المتوحشة التي لا تخرج منها إلا للبحث في عتمة الليالي عن غذائها والذي تجده في معظم الأحيان في مقابر المدينة .

وكثيراً ما يقابل المرء في هذه المنطقة وفي ضواحيها ، كمية كبيرة من فتات وقطع الرخام من كل صنف ، مما يشهد بأن هذه الأماكن كانت تضم مباني جنازية على درجة من الأهمية ، ولا يلغى أن نولى بالالسا يحكيه العربان ، الذين يدعون بأن هذه المقابر تمر من تحت حوض مربوط وأن دهايزها السفلية تمتد حتى دهايز الأهرام ، فهذه خرافة بينة ، ومع ذلك فهذه الدهايز تمتد بالفعل لمسافة كبيرة ، ولا بد أنها تشكل ما يشبه اللابرننت (التيه) .

٤٧ — وعندما يواصل المرء مسيرته نحو الجنوب الغربي ، فإنه يجد فيما

(١) انظر تصميم هذا المعبد تحت الأرضي الذي رسمه بعناية السيدان فاي Faye ومارتان Martin ، مهندسا الطرق والكبارى ، A ، المجلد الخامس ، اللوحة ٤٢

وراء هذه المقبرة الأخيرة بقايا قناة لا بد أنها كانت تربط الترعثة ببحيرة ماريوتيس ، وتقع هذه القناة على بعد ٥٨٥٠ متراً من عامود سبتيموس سيفيروس ، ويبلغ طول شواطئها من البحر حتى البحيرة ١٤١٦ قدماً ، وهذه القناة مطموسة ، ولا يزيد ارتفاعها الآن فوق مستوى سطح البحر بأكثر من متر ، ويمكن لإعادتها إلى العمل ، القيام ببعض الأعمال البسيطة والميسورة للغاية ؛ وسوف يعود ذلك بأجل الفوائد إلى تجارة الاسكندرية وملاحتها .

٤٨ — ولا يشكل الجزء الباقي من الشاطئ حتى الشيخ الاصمراء ، ثم تبدأ السلسلة الصخرية ، التي تحيط به إلى وراء آثار القناة التي تهدأ عنها للتو ، تسمح لنا بأن نلقى نظرة غير متمكنة على المحاجر العديدة التي استغلت في الماضي ، والتي استخدمت حجارتها دون شك في بناء مدينة الاسكندرية .

ويزرع حول لسان المياه المالحة الذي نجده قبل أن نصل إلى الشيخ (العجمي) البعلخ والشمام من نوع رائع ، وتدعم هذه الزراعة الرأي القائل بأن مياه هذا اللسان تأتي في جزء كبير منها عن طريق المطر ، وتستخدم هذه المياه في ري هذه الحقول ذات الطبيعة الرملية .

٤٩ — أما الشيخ أو الضريح (العجمي) فهو حصن صغير أقيم على قمة السلاسل الصخرية التي هي في مستوى سطح مياه لسان إلى الجنوب الغربي من خليج الاسكندرية ، ولا يحمي هذا الحصن ، الذي تبلغ المسافة بينه وبين حصن القنار حوالي ١١٧٢٨ متراً ، إلا على نحو ضعيف منفذ مضيق الخليج ؛ وبالقرب من هذا اللسان قام الجيش الفرنسي بعملية انزال جنوده في ١٣ ميسيدور من العام السادس (أول يولية ١٧٩٨) .

٥٠ — ويجد القارئ في دراستي عن الجزء الغربي من ولاية البحيرة وعن بحيرة مريوط (*) ، وصف الجزء الباقي من الساحل والذي يمتد حتى برج العرب

(*) أنظر الدراسة الثامنة من المجلد الثاني من الترجمة العربية لوصف مصر .

إلى الجنوب الغربى وتنتهى معه أرض الاسكندرية ، ويبقى على الآن أن أتكمم عن الطبيعة الجدياء لهذه المدينة .

٥١ — لا تتكون أرض الاسكندرية ، وكذا كل أرض شبه جزيرة رأس أبى قير فى الشرق ، وحتى برج العرب فى الجنوب الغربى بطول يبلغ ٦ - ٧ ميريامتر ، إلا من صخرة جيرية ضاربة إلى البياض ؛ وتغطيها فى جزء منها كتبان رملية متحركة .

وعلى الرغم من أن هذه الأرض ذات طبيعة رملية ، قاحلة ومليحة ، فإننا نجد فيها فى نفس الوقت بعض المياه المالحة والتي تتفاوت درجة صلاحيتها للشرب ؛ ويتحقق ذلك بالنسبة لشاطئ شبه الجزيرة إلى الشمال الشرقى وإلى الجنوب الغربى ، بمجرد أن نخفض عدة أقدام فى رمال هذه الصحراوات ، وقد اضطر الجيش الإنجليزى التركى لاستخدام هذه المياه أثناء الشهور الستة التى حاصر خلالها الاسكندرية .

ومن بين النباتات البرية التى تتكاثر بشكل طبيعى على أرض الصحراء المجاورة نجد الـ nitraire والـ ficoides وأنواع مختلفة أخرى من الصودا (الاثنان) التى يجمع رمادها القلوى لينقل تجارياً إلى أوروبا ، حيث يستخدم فى صناعة الصابون^(١) .

٥٢ — قبل أن تغرق مياه البحر بحيرة مريوط ، كنا نرى على شواطئها

(١) نجد فى روايات سونيني Sonnini وأوليفيه Olivier اللذين سبقتهما إلى مصر الحملة الفرنسية بعدة سنوات ، تفاصيل هامة فيما يخص بتاريخ الاسكندرية ، وتجارتها ، وطبيعة الصحراوات التى تحيط بها . انظر :

Le Voyage en Egypte dans l'année 1778 par Sonnini, tome Ier, Chap. VII, VIII, IV et X, pag. 100 à 106 ; Le Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la perse, en 1792, par Olivier, tome. III, pag. 1 à 78.

هذه البحيرة التي يمتلئ حوضها بمياه المطر ، وبالمياه التي يصبها النهر أثناء فيضانه في الترع التي تتفرع عنه ، كنا نرى كما نرى الآن على شواطئ بحيرات أخرى في مصر السفلى أعداداً هائلة من الطيور من كل صنف مثل أبي قردان الأبيض ، وطار أبي منجل ، والنحام (طائر طويل الساق والعنق) والبطل البري ، والبطل المائي ، وزجج الماء (طائر بحري طويل الريش) ، والبجع ، وأنواع أخرى ؛ وفي تلك الأيام كان العربان يجلبون إلى الاسكندرية البطل ، والبطل المائي ، الذي يصيدونه بواسطة الشباك ، وهناك نوع آخر من الطيور التي تستهلك منها كمية كبيرة في هذه المدينة ، والتي لا يتطلب صيدها أدنى مشقة ، تلك هي طيور السماء ، وعصفور التين ، والقبرة ، وطيور أخرى مهاجرة ، تسقط بفعل الإعياء ، بعد الرحلة الطويلة التي قطعها فوق البحار والتي تقوم بها كل عام في شهر أكتوبر ، تسقط منهكة على أول شريط من أرض مصر ، لشقع فريسة في يد الإنسان . وقد حدث أثناء عودتنا إلى فرنسا ، في ٢٧ إلى ٢٩ سبتمبر ١٨٠١ وفي أثناء توجعنا من سواحل مصر أن كان بإمكاننا أن نلاحظ الهجرات الموسمية للطيور المسافرة ، وكانت هذه تسقط جماعات مصطدمة بصواري وأحبال شقيقتنا ، في حين لم تكن هذه الطيور قد عبرت بعد نصف المتوسط ، وكان بعضها يستريح للحظات على سطح الماء ، محاذراً ألا يدع نفسه يغوص بجناحية أكثر مما ينبغي ، وقد شاهدنا بعضاً منها لا تستطيع النهوض برغم المجهود الكبير الذي تبذله لتعاود تحليقها في الأجواء ، ذلك أنها كانت قد بللت أجنحتها أكثر مما يلزم .

٥٣ - وأخيراً ؛ فمن بين الحيوانات ذوات الأربع ، التي تقترب من ضواحي الاسكندرية ، والتي تجتاز أسوارها في غالب الأحيان ، نذكر ابن آوى ، والضئج ، وتتخذ هذه الحيوانات الضارية عادة مأوىها في قاع الكهوف والمغارات تحت الأرضية ، ولا تخرج منها إلا ليلاً ، كي تذهب لتبحث عن فرائسها في المقابر وأما كن رمى القاذورات ، وتجرها من مسافات

كبيرة حتى مخابئها . ويمكننا أن نجد أيضاً من بين هذه الحيوانات النهماء ،
الكلب المصرى ، على الرغم من أنه يقطن نهراً في سلام في القرى ، وضواحي
المدن الآهلة بالسكان ، فإنه يحيا طليقاً لا صاحب له ، في قطعان أو عائلات
متفرقة^(١) تنتشر في الليل وسط المساكن ، كي تبحث عن غذائها .

وكان كل الجزء الأول من الخليج ، فيما بين القناطر الأربعة ، بطول ٦٠٠٠
إلى ٧٠٠٠ م ، يزرع على يد العربان ، بواسطة المياه التي يحصلون عليها من الآبار
وخزانات المياه العديدة التي تحيط بحسور هذه التربة . وهكذا كنا نرى هناك
بعض حقول البرسيم ، والحلبة ، والشعير ، والقمح ؛ كما كانوا يزرعون أيضاً
بعض الخضروات ، مثل البقول التي نجدها أكثر كثافة في بساتين المدينة
العربية ، وعلى سبيل المثال :

الفوم ، والفول ، والباذنجان ، والخس ، والبصل ، وغيرها .

(١) ليست الكلاب في مصر ، على نفس حال مثيلاتها في البلاد الأخرى ، أى أنها
ليست حيوانات مستأنسة ؛ وبلا حظ أنها تعيش هناك وسط المدن والقرى ، حرة طليقة
بلا صاحب ، ولكن في شكل أسير متميزة ، تعيش في غاب الأحيان في هذا الحى أو ذاك
حسب اختيارها ، تطارد وتسمى بمعاملة الكلاب الأخرى التي تريد اقتحام حياها ، ومن
المعروف أنه توجد في مصر منشآت خيرية لتأمين غذاء الكلاب والطيور . وهذه الأخيرة
من النوع آكل الحبوب ، وكانت تجد الحب يومياً في أصص على شكل مضئيد صغيرة ،
كانت توضع في قمة أسهم مآذن المساجد ، وتعود هذه العادة إلى بقية من الاحترام المقدس
الذى كان قدماء المصريين يحملونه للحيوانات . وأذكر هنا ، أننا في الأيام الأولى من لافمتنا
في مصر ، كنا مضطرين أن نرسل ليلاً ، إلى الاسكندرية ، والقاهرة ، ورشيد ، ودمايط ،
وكذلك إلى مدن أخرى ، سرايا عديدة — كنا نفعل ذلك كما لو كان إجراءً حربياً وقائياً ضد
لمفاجأة وقتل هذه العصابات من الكلاب الجائعة والمتشردة ، والتي كان لباحها الخزين
والمرعب حقاً يبدو كما لو كان يستثير الناس ويحفزهم ليلاً للقتال ، ولم يكن يخطر على بالنا
في الواقع أن السكان كانوا سيسمحون مطلقاً ، قبل مجيئنا ، بترك هذا النوع من الحيوانات
غير المرغوب فيها ليتضاعف عددها ، أو أن هذه الحيوانات كانت معتادة على تمكيد هدوء
الليالى هكذا بنجاحها ، الذى لا يمكن — في رأينا — أن يسببه إلا نزح ، كان مجهولاً
قبل مجيئنا .

٥٤ - تلك كانت لوحة للحالة التي بدت عليها الاسكندرية للجيش الفرنسي ،
قرب نهاية القرن الثامن عشر ، وبعد ما يزيد على ألفي عام من تأسيسها .

وهنا ، أصل إلى ختام وصفي للحالة الحديثة لهذه المدينة ، ثم أمضى بعد ذلك
إلى القسم الثاني من هذه الدراسة ؛ تلك التي تهدف إلى معرفة حالتها القديمة ،
أيام مجدها وازدهارها تحت حكم الإغريق والرومان .

القسم الثاني

الحالة القديمة لمدينة الاسكندرية في عهد امبراطورية الإغريق
والرومان ، مع مقارنة هذه الحالة بحالتها الراهنة

٥٥ - بنيت المدينة التي أسسها في مصر ، فاتح آسيا وأسمها باسمه ، مكان
قرية كانت موجودة قبل ذلك بوقت طويل ، وكانت تقع على شواطئ البحر
المتوسط تجاه وبالقرب من جزيرة فاروس ، وكان بهذه القرية التي تسمى
راكوتيس^(١) معبد صغير لعبادة إيزيس وسيرايس Serapis ، وكان يقطنها
الصيادون والرعاة الذين كانوا يشغلون هذه النقطة من لسان ضيق ، تحيط به
مياه المتوسط أو بحر الإغريق من الشمال ، ومياه بحيرة ماريا Maréa من
الجنوب ، وقد قام الفرس ، ومن قبلهم فراغة مصر ، بتحصين هذه القرية ،
وكذلك جزيرة فاروس ، حتى يكونوا من مأمن من إغارات الإغريق ، وهكذا
كان سكان هذه الضاحية والذين يطلق عليهم اسم أبناء راکوتيس ، في حالة
تمسكهم من صد اعتداءات هؤلاء القراصنة ، الذين كانوا يروعون سواحلهم .
يقول سترابون في هذا الخصوص : « وحيث كان ملوك مصر الأوائل
يشعرون بالكفاية بما لديهم ، فإنهم لم يستشعروا كبير حاجة إلى استيراد
أشياء من الخارج ؛ ومن جهة أخرى فقد أقام هؤلاء الملوك ، حتى يرصدوا

(١) راکوتيس حسبما يذكر سترابون ، الكتاب السابع عشر ، وراخوني حسب
الكتابة القبطية .

حركات البحارة (المغيرين) وبخاصة الإغريق منهم ، أولئك الذين تدفعهم قحولة أراضيهم إلى الذهاب إلى مكان آخر للحصول على ، أو لسلب ما لا يجدونه عندهم ، حماية مهمتها الدفاع عن سواحل هذه المدينة ضد الأجانب ، ومع ذلك فلم تكن راكوتيس بالضرورة كبيرة في الوقت الذي ظهر فيه الاسكندر ، إذ أن هيرودت ، الذي زار مصر عام ٦٠ ق.م قبل ذلك بقرن لم يشر إلى هذه القرية في كتابه ، في الوقت الذي يذكر فيه مدن كانوب إلى الشمال الشرقي ، وماريا وأبيس إلى الجنوب باعتبارها مدناً كبيرة .

ويرجع المؤلفون العرب تأسيس هذه القرية إلى عصر مصر إيم ابن حفيد نوح ، ويرجعه آخرون إلى أمير اسمه شداد Chedad ، وهو سابق على مجيء الفاتح المقدوني بزم طويل ؛ وحيث كانت هذه المدينة مزودة بثلاثة أسوار حصينة ، فلا بد أنها قد دمرت ، وأعيد بناؤها في فترات مختلفة ، على يد الآراميين ، وأن شداد هذا لم يفعل سوى أن رمى ، ثم على يد الفرس بقيادة بختنصر ، وهو نفسه ملك الآشوريين الذي خرب ممفيس ، والذي يسميه سفر الكتابة نابوخذنصر ؛ ويقول المقريري^(١) ؛ إنه في عام ٣٥٦ بعد الطوفان ، العام ١٦٨٤ قبل تحطيم معبد أورشليم ، في السنة ١١ شمسية بعد هذا الحادث ، أنشأ الاسكندر بن فيليب ، وهو نفسه الذي هزم داريوس وسيطر على فارس ، هذه المدينة (الاسكندرية) ومنحها اسمه ، ونقل إليها مقر إمبراطوريته الذي كان قبل ذلك في ممفيس ، ويتفق كل المؤرخين لحد كبير على هذا الحادث ؛ فمن المعروف أن مصر كانت تئن منذ مائتي عام ، تحت سيطرة الفرس ، عندما تقدم الاسكندر ، بعد أن دمر صورته الرائعة ، نحو مصر التي استقبلته كمنقذ محرر ، وفتحت بيلوز (تل الفرما كما يسميها العرب ، وبالوظة الآن) مفتاح مصر ،

(١) يذكر المستشرق لانجليه Langlès ، الذي ترجم المقريري ، ذلك المؤلف العربي الشهير بجغرافيته التاريخية عن مصر ، في طبعة باريس ١٨٠١ عن رحلات نوردان Norden ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧ ، تفاصيل هامة ، رجعتنا إليها ، وستقابلنا مقتطفات منها في هذه الدراسة .

ومهندس التي كانت عاصمة لها ، أبوابهما للفتاح ، وبعد أن قدم القرابين إلى المعجل أيدس في مدينة ممفيس ، ركب الاسكندر النهر حتى كانوب (أبي قير) ، والتفت حول ماريوتيس (مريوط) إلى الشمال ، وتوقف عند راكوتيس التي أعجبه موقعها ، واسكنى يفيد من المميزات الطبيعية التي يقدمها هذا الموقع ، فقد قرر أن يؤسس هنا مدينته ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى دينوكراتوس Dinocrate ، المعماري المقدوني الشهير ، في نفس عام انتصاره دون شك ، أى في السنة ٣٢٢ من تأسيس روما ، السنة ٣٢٢ ق . م ، وقد حدث بعد هذه الإجراءات ، حسبما يذكر أريان Ariens^(١) أن رحل الاسكندر ، وهو الذي كان يرغب في إعلان نفسه ابنا لجوبيتر ، إلى معبد آمون ليدستشير وحيه .

وتبعاً لهذه الشهادات ، فإنه لا ينبغي أن ينظر لفتح آسيا باعتباره مؤسس الاسكندرية ، وإنما باعتباره فقط قد قام بتوسيعها وتحسينها وتجميلها ليتخذ منها مقراً لامبراطوريته الجديدة ، وحسبما يذكر ديودور وكيث كورس^(٢)

(١) أريان ، الكتاب الثالث ، الفصل الثاني . انظر بخصوص أريان ، الترجمة الجديدة لمؤرخ الاسكندر هذا ، والتي قام بها شوسارد Chaussard ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧

(٢) ديودور ، الكتاب ١٧ ، ص ٨٩ ؛ وكيث كورس ، الكتاب الرابع ، الفصل السابع ، ولا تزال هذه العادة متبعة حتى اليوم في مصر ؛ فارمى أساسات بيت أو منشأة ، يقوم المعلم ، أى البناء ، حيث لا يعرف هناك لامهندس معماري ولا حتى مهندس عام كما هو الحال في أوروبا ، بتخطيط التصميم على الأرض بواسطة الجرس أو بدرجة الجير ، وعندما تحدد الأسوار بهذه الطريقة ، وبدون تصميمات وبدون رسوم أو مقاييس تقديرية ، تقام الجدران الرئيسية ، وبعد ذلك يطلب المالك في معظم الأحيان من المعلم هذا المسكان أو ذاك ، وهذه الحجرة أو تلك حسبما يترامى له ، وعلى الطبيعة ، وينبغي أن ننسب إلى هذه العادة السيئة هدم التناسق في المباني ، وكذلك الأخطاء التي نلاحظها في مساكن العامة وكذلك قصور السكبار . وفي الواقع فشكل المباني مقسمة إلى حجرتين أو حجرات ثلاث كبيرة ، تحيط بها على الدوام حجرات صغيرة أرضيتها ليست على مستوى واحد . أما السالم التي يبلغ ارتفاع درجاتها من ٢٠ إلى ٢٥ سم ، فهي على الدوام ضيقة ومعتمدة وغير مريحة .

Quinte. Curce فإن السور الذى خطط لها ، والذى رسم فى جزء منه بالجير وفى جزء آخر بالديقيق ، كان يضم كل المساحة الواقعة بين البحر وبحيرة ماريوتيس ، وكان طول الجهتين اللتين تمتدان بطول البحر والبحيرة يبلغ ٣٠ غلوة ، أما الجهتان الصغيرتان الآخرتان اللتان تعبران اللسان بعرضه فكان طولهما يبلغ من ٧ إلى ٨ غلوات حسبما يذكر سترابون و ١٠ حسبما يذكر آخرون ، أما السور الذى يشبه سترابون شكله بشكل معطف مقدونى^(١) فقد كان طول محيطه يبلغ ١٥٠٠٠ خطوة ، أى ما يساوى حسبما يذكر دانفل d'Anville ١٢٠ غلوة ، وإن كان كيمت كورس لا يقدره بأكثر من ٨٠ غلوة وفى النهاية فإن المؤرخ يوسفوس Josephus (فلافيوس جوزيفوس) يقدر طول المدينة بـ ٣٠ غلوة وعرضها بـ ١٠ غلوات^(٢) ونحن فى هذا كله نميل إلى ترجيح معلومات سترابون ، حيث أن هذا المؤلف ، فضلاً عما يشتهر به من صدق ، قد خصص دراسة مفصلة لوصف مدينة الاسكندرية فى كتابه الجغرافى الذى تناول فيه مصر^(٣) .

٥٦ - يقول سترابون إن الاسكندرية كانت تغرقها من الشمال مياه البحر ، ومياه البحيرة من الجنوب ، ولم يكن من المستطاع الوصول إليها براً إلا عن طريق لسانين ضيقين يسهل الدفاع عنهما ؛ وكانت تغطيها جزيرة فاروس التى كانت تشكل بالنسبة لها ميناءاً طبيعياً فى منأى عن رياح الشمال والشمال

(١) Pline, Hist. nat. liv. V, chap. X, et Plutarque, vie d'Alexandre.

(٢) Josephus, De bello Jud. liv. II. ch. XVI.

(٣) سنكشف منذ الآن عن الإشارة إلى الكتاب السابع لسترابون الذى صرح به جالوس Elius Jalus فى ملته على مصر ، والذى نقل لنا فى هذا الكتاب ، الذى خصه لتاريخ هذه المنطقة ، تفاصيل خاصة عن مدينة الاسكندرية ونحن فى الواقع ، مدينون لهذا العالم الجغرافى ، بالمعلومات التى لدينا عن تاريخ هذه المدينة فى الأرملة القديمة .

الغربي ، وحتى تتم الإفادة من هذه الميزة الكبيرة فقد تم توصيل القارة بالجزيرة عن طريق جسر ضيق يبلغ طوله ٧ غلوات ، يسمى كما يذكر هذا الجغرافي هبتاستاديوم Hēptastadium ، ويقدر هيرتيوس Hirtius طوله بـ ٩٠٠ خطوة^(١) وكان هذا الجسر يتسكىء من جهة المدينة على ميدان كبير ، يقع عند سفح جدران يفصل عنها بواسطة قنطرة ، يحميها من الأمام أحد الحصون ، وعند طرفها الشمال يغطى حصن ثان قنطرة ثانية تتصل بجزيرة فاروس . وتتكون هاتان القنطرتان من أعمدة عالية ، مثبتة بالبحر ، وترتفع إلى حد ما فوق سطح المياه ، لتشكل ممراً حراً إلى السفن . ويقسم هذا الجسر الذي يتجه من القارة إلى الجزء الغربي من الجزيرة ، الميناء الطبيعي إلى قسمين ، يحمل القسم الغربي منها في عهد الرومان اسم Eunostus Portus ، بينما كان يحمل القسم الآخر ، الواقع إلى الشرق اسم Magnus Portus .

٥٧ - وعند الدخول إلى الميناء الكبير ، يجد المرء على يمينه برج الفئار ، وقد أنشأه Sostrate de Cnide في عهد بطليموس فيليب في عام ٢٨٢ ق م . وكان هذا البرج ، الذي شيد على ضخرة تلامها من كل مكان مياه البحر ، يرتفع لعدة طوابق ، يحيط بكل طابق منها دهليز يدعمه صف من الأعمدة ، ويحمل البرج هذا النقش «من سوستراتوس من أكينيدوس ابن ديكسيان إلى الآلهة الراحية للملاحة» وفي أثناء الليل يضيء هذا البرج ، الذي يبلغ ارتفاعه ٤٠٠ قدم ، شعلتين يراهما المسافر على بعد ٣٠٠ غلوة من عرض البحر ، ذلك أنه يصبح من الضروري ، حيث أن الساحل منخفض وخطر بسبب كثلة الرمالية وشعابه

(١) يقدر هيرتيوس طول هذا الطريق بـ ٩٠٠ خطوة أي بـ ١١ ميل الروماني ، أي ما يبلغ ٦٨١ قامة حيث يقدر الميل بـ ٧٥٦ قامة . ومن جهة أخرى فإن الهبتاستاد تساوي حسب الغلوة اليونانية ٦٦٥ خطوة وهو ما يبلغ حوالي نصف غلوة (ستاد) بالإشارة إلى الطول الذي يعنيه سترابون .

الصخرية ، وجود إشارة هائلة ترى من أعالي البحار لترشد السفن بأمان إلى الميناء^(١) .

وهناك أثناء النهار ، مرآة معدنية تلتقط صور السفن قبل أن تظهر في الأفق وكانت هذه السفن تضطر لكي تدخل الميناء أن تقترب بشدة من الفنار ، حيث لم تكن الصخور ولا الشعاب الصخرية الواقعة إلى اليسار تسمح لها بالاقتراب من هذه الناحية ، وهو نفس ما يحدث اليوم . وكان هذا البرج يستخدم كذلك بمثابة حصن .

٥٨ — وكان الدفاع عن شمال مدخل الميناء ، يتم عن طريق قصر حصين ، بنى فوق شناخ (أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر) يتوغل كثيراً داخل المياه ، وكان هذا القصر يحمل اسم لوخيلاس Lochias ، ولكي يضيق المدخل أكثر من ذلك كثيراً فقد أقيم أمام هذا الحصن رصيف حاجز ، ينهض فوق صخور في مستوى سطح الماء يطلق عليه اسم arcolôchias أى رأس لوخيلاس^(٢) وقد أشار إليها يوسفوس باسم الساق التي صنعتها يد الإنسان^(٣) . ويرى المسافر عندما يواصل طريقة على اليسار ، حتى القصور الذي يحيط به البحر . وعند بداية حاجز لوخيلاس ، كان ثمة ميناء صغير مغلق ، يخصر لسفن الملوك أى للبحرية الملكية ؛ ويحدد لها سترابون مكاناً آخر يقع تجاه جزيرة

(١) يلوح المرء على هذه المسافة ، التي تبلغ ٣٠٠ غاوة يونانية تساوى ٢٨٥٠٠ قامة أو ١٠ فراسخ بحرية ، أنوار الفنار ، ولم تعد هذه المسافة بذات بال بعد إقامة هذا البرج ، ذلك أننا استطعنا بسهولة ونجح في كاليه على شواطئ فرنسا أن نلمح أثناء الليل أنوار فناري ميناء دوفر Douvres على السواحل الإنجليزية ، وتبلغ المسافة التي تفصل هذين المينائين ٢١٣٦٩ قامة تساوى سبعة فراسخ بحرية ونصف القرشخ ، تبعاً لحسابات السيمين بيكار Picard ولاهير le Hire ، ويذكر أبو الفداء وبعض المؤرخين العرب ، أن المرأة التي كانت لا تزال موجودة في برج الفنار في العام ٩٢ من الهجرة (٧١٢ م) ، وهي الفترة التي افتُرعت منه .

Josephe, De bello Judaico lib. V.

(٢)

(*) السلسلة حالياً .

صغيرة تسمى Antirrhopos ، وكان لها هي الأخرى ميناء صغير به قصر ؛ وبمواصلة الطريق ، يقابل المرء المسرح الذى كان يتصل بالقصر عن طريق ممر يطاق عليه بوليب^(١) Polybe اسم Syrinx ، ويفصل هذا الممر ميدان الألعاب الرياضية عن المضمار (سباق الخيل) ؛ وبعد ذلك يرى البوزيديوم Posidium وبه معبد مخصص لعبادة نبتون Neptune (*) ، وهو مقام فوق لسان من الأرض يتجه إلى داخل الميناء ، وقد أمر مارك أنطونيوس بأن يذشأ فيه حاجز آخر أكثر توغلا في البحر ، ياتى القصر الذى أسماه تيمونيوم Timonium ؛ وبعد ذلك يأتى الكوزاريوم Coesarium (معبد قيصر ، وهى الرمل حالياً) والسباستيوم Sebasteum ثم قصر الملوك وقد أقيمت من قبله مسلتان وأخيراً يأتى الأمبوريوم Emporium والأبوستاذ Les Apostases ، أما بقية محيط هذا الميناء ، التى كانت تشغله المدينتان التابعة لترسانات البحرية ، فكانت تمتد حتى الهبستاديوم .

٥٩ — وفيما وراء الهبستاديوم يجد المرء الميناء الثانى الذى كان يحمل اسم أونوستوس Eunostos الذى كان الإقبال عليه أقل بكثير من الإقبال على الميناء الأول على الرغم من أنه أوسع منه لغير ما حد ؛ وكان يضم ميناء آخر يسمى كيبستوس Kiptos أى القوس وكان مزوداً بكل ما يتناسب مع الخدمة البحرية ، كما كان يستقبل مياه الترع التى كانت تعبر المدينة لتتصل ببحيرة ماريوتيس ؛ وفيما بعد هذه الترعه بقليل كانت تلتهم المدينة لتمتد تحت أسوارها مباشرة قرية نكروبوليس Necropolis مدينة الموتى أو الجبانة .

ويمتد ميناء أونوستوس^(٢) من الداخل بمسدود تام ، كما يسمح عمقه

Polybe, Excerpt. lib. V.

(١)

(٢) تتناسب تسمية Eunostos Portus ، أى « ميناء المود الحميد » على الدوام مع ميناء الاسكندرية القديم (الميناء القريب) ، الذى كان الدخول إليه بالغ اليسر ، بسبب رياح الشمال ، والغرب ، والشمال الغربى ، التى تود فى غالب الأحيان ، والذي يكون الخروج منه ، لنفس السبب ، بالغ المشقة لحد كبير ، حيث تكون هذه الرياح عكسية بشكل مباشر . (*) له البحار .

لأصنم السفن بالاقتراب من الرصيف ، أما الشعاب الصخرية التي تنكسر عليها الأمواج فتمنع الدخول إليه من جهة العرض .

٦٠ - وقد بنيت الاسكندرية في عهد بطليموس بأنقاض هليوبوليس ومفيس وطيبة ، كما زينت بأعمدة هذه المدن ومسلاتها التي نقلت إليها بتكاليف باهظة ، ويخترق الاسكندرية من الداخل شوارع مخططة بطريقة تسمح باستقبال نسيم رياح الصيف القوية ، أى أن الشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب ، ومن شمال الشمال الغربى إلى جنوب الجنوب الشرقى ، وتستطيع العربات أن تمر فيها بحرية ، كما يعبر المدينة بطولها وعرضها شارعان كبيران ، يبلغ عرض الواحد منهما ما يقرب من مائة قدم ، يتقاطعان بزوايا مستقيمة عند منتصفهما ، ويبلغ طول أكبرهما حسبما يذكر سترابون ٣٠ غلوة ابتداء من ملتصقه عند بداية كنوب ، حتى نهايته من جهة الغرب عند بوابة نيكروبوليس (وهو شارع طريق الحرية حالياً) . ويقدم يوسفوس نفس المقاييس وإن كان ديدور يقدره بـ ٤ غلوة ، ولكنه يضيف إليه دون شك امتداده إلى الضاحية الشرقية . أما الشارع الكبير الآخر ، الذى يعبر المدينة بعرضها ، فقد كان يبلغ امتداده ٧ - ٨ غلوات ، بادئاً من موانئ النهر في ماريوتيس ، لينتهى عند مباني الترسانة البحرية في الميناء الكبير (شارع النبي دانيال حالياً) .

وعند نقطة تقاطع الشارعين الكبيرين ، أى حوالى وسط المدينة ، نلاحظ ميداناً فسيحاً يقسمها إلى أربعة أقسام أو أحياء ؛ لسكن فيلون Philon ، معاصر سترابون ، يذكر أن الاسكندرية كانت منذ عهدده تنقسم إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الحروف الهجائية الإغريقية . وقد أطلق اليهود اسمهم على اثنين من هذه الأحياء ، حيث كانت توجد مساكنهم الخاصة بهم^(١) .

(١) فيلون ، كاتب يهودى ، كان يعيش في الاسكندرية من عام ٣٠ - ٤٠ م

انظر De pells Alex in Flaccum, p. 753.

ويقول يوسفوس^(١) إن اليهود كانوا يسكنون جزءاً من حي القصور على شواطئ البحر؛ وقد أطلقت أسماء أخرى على هذه الأحياء، التي كان أقدمها، وأكثرها أهمية، دوحي القصور أو حي بروخيون Bruchion وحي راكوتيس Rachotis أو سيرابيوم Serapeum .

٦١ - وكان حي: وكيون يشمل كل الحلاء الواقع بين الميناء والساحل إلى الشرق، ابتداءً من لوخياس Iochias (السلسلة) حتى بوابة كانوب؛ وكان يضم القصور والميناءين: الميناء الملكي، وميناء الجزيرة الصغيرة انترودس Antirrhodos، والمسرح والدهليز الخاص به، والبوزيديوم Posidium، والتيمونيوم Timonium والسكوزاديوم Coesarium، وميدان ألعاب الرياضة والمصارعة والمضمار (مكان ترويض وسباق الخيل) أو ميناندروز Menandros والمتحف والجنائز، وهو عبارة عن مبنى واسع تزينه الأروقة والأعمدة لمساحة يزيد طولها عن غلوة هر مخصص لدراسة العلوم. وترتبط هذه المنشأة بقصر الملوك، وتمتد حتى بوابة كانوب، وكانت ترى به المكتبة الضخمة، التي كان مؤسسها إمبراطور بطليموس سوتر (الأول) Ptolemé Soter وإمبراطور فيلادلفوس P. Philadelphé^(٢) وكانت ترى هناك كذلك معابد أخرى وغابات مقدسة. هنا صد يوليوس قيصر قوات البطالمة وأهل الاسكندرية، ومنذ ذلك الوقت حصن هذا الحي بسور خاص عزله عن بقية المدينة، وجعل منه شكلاً من أشكال القلاع، قد صمد لهجوم آخر في عهد الإمبراطور كلوديوس الثاني

(١) يوسفوس، كاتب يهودي، كان يعيش في الاسكندرية من عام ٦٠ - ٧٥ م.
(٢) تمكونت المكتبة على يد بطليموس فيلادلفيوس، وتوسعت على يد خلفائه، وكانت تضم ٤٠٠ ألف مجلد، وقد أحرقت جزئياً أثناء حصار الاسكندرية، على يد يوليوس قيصر في العام ٧٠٦ من تأسيس روما، العام ٣٧ ق. م، فقد وصلت ثيران السفن الراسية في الميناء إلى حي الملوك، وأحرقت جزءاً كبيراً منه، وكذلك من المكتبة.

ولا نفصل هنا المتحف عن الجنائز الذي لم ينشأ منه إلا مبنى واحد، على الرغم من أن سترابون، فيما يبدو، يفصله عنه لجعل منه مبنى قائماً بذاته.

Claude II في عام ٢٧٠ م ، ثم تحطم الحى تماماً على وجه التقريب ، منذ بضع سنوات في عهد أورليان في عام ٢٧٥ . ويذكر سان جيروم S. Jérôme أن الحى كان في عصره ، أى حوالى ٤٢٠ م منعزلاً عن المدينة وأنه كان يستخدم كماوى لبعض الزاهدين المنعزلين ؛ وبعد ذلك بقرن واحد ، في عصر سانت إبيفان S. Epiphane ، أصبح الحى خراباً تماماً .

٦٢ - وكان حى راكوتيس يشتمل على معبد سيرابيس Sérapis ، الذى أعيد بناؤه على يد بطليموس ابن لاجوس Lagus ، مكان معبد صغير كان مخصصاً لسيرابيس وإيزيس Isis معاً ؛ ويقول سوزومين Sozomène إن هذا المعبد كان يقع على ربوة صغيرة إلى الشرق من القرعة ؛ ويقول روفان^(١) Rufin الذى

(١) يقول روفان ، إن تيوفيل ، وهو فى سبيله للقضاء على الوثنية نهائياً فى كل مصر ، قد حصل فى عام ٣٩٠ م من الامبراطور ثيودوسيوس Théodose على مرسوم يسمح له بأن يدمر كل المعابد المصرية ، وبمعا لأمر من الامبراطور قسطنطين Constantine ، قام بطريك الاسكندرية بالتراجع تمثال سيرابيس عام ٣٢٨ م وكذلك المقياس الذى يستخدم فى ملاحظة مياه النيل ، وقد أحرق الوثن ، أما المقياس أو Separi فقد نقل إلى كنيسة مسيحية ، فى ذلك الوقت ، من كنائس المدينة إلى كنيسة سانت أنطاز التى بناها جريجوار الأروسمى Ga'goire l' Arien ، وعندما أراد الامبراطور جوليان Julien أن يعيد عبادة الأوثان ، فقد أمر أن ينقل إلى سيرابيوم ، المقياس الذى كانت بواسطته تحدد درجات فضان النيل ، وقد بقي المقياس هناك حتى سنة ٣٩٠ م ، وهو الوقت الذى حطم فيه تيوفيل نهائياً هذا المعبد ، حسب أوامر الامبراطور ثيودوسيوس .

ويطلق المصريون اسم سيرابيس Sérapis ، أو بالأحرى شيرابي Cherapi على المنشآت المخصصة للملاحظة السنوية لفيضانات النيل ، صانعة الحصوبة والوفرة اللتين كان المصريون يقدمونهما تحت اسم أيس .

ويقول جابلونسكى Japlonski ، إن اسم سيرابيس هذا يتكون من كلمتين مصريتين ، اختلفت بهما اللغة القبطية هما : سير Ser ، أو شير Cher ، أو سار Sar ومعناها ساها عامود ؛ وأيس Apis ومعناها مقياس .

وهكذا ، فقبل إنشاء الاسكندرية ، كانت لمقياس سيرابيوم أى معبد مخصص لأيس ، وكان ينهض فوق ربوة صغيرة تسمى سينوبى Synopi (أى المكان الذى يتم فيه المقياس) ، وكان المعبد مخصصاً لدفن البجل أيس .

(مأخوذ من مذكرات المسير لانجليه Langlès ،

(Voyage de Norden; Tome III, p. 236 et 241).

زاده قبل بضع سنوات من قيام تيوفيل Théophile بطريك الاسكندرية بتدميره نهائياً في عام ٣٩٠م ، إن هذا المعبد قد بنى فوق مرتفع ليس من فعل الطبيعة وإنما من صنع الإنسان ، وهذا المبنى الواسع ، كما يضيف روفان ، كانت تدعّمه شرفات مقدسة يصعد إليها عن طريق سلم تبلغ درجاته ما يزيد على المائة ، وكان داخله ، الذى تزينه الأعمدة والأورقة ، يضم حجرات مختلفة ، مخصصة للأسرار المقدسة وكذلك لمساكن الكهنة الموكلين بهذه الأسرار . وكان يوجد بهذا المعبد مقياس للنيل مخصص لسيرايس وكان يحمل اسمه ، وقد أمر قسطنطين بإقامته في عام ٣٢٨م ، لكنى ينقل بعد ذلك الى كنيسة الإسكندرية ، ولا تزال توجد بها حتى اليوم المكتبة الثانية التى أثرت بما تبقى من مكتبة المعبد (١) ، التى

(١) أقيمت المكتبة الثانية بعد وقت قصير من حريق مكتبة المتحف في عهد يوليوس قيصر ، وكانت تضم ٥٠٠.٠٠٠ مجلد ، عندما تحولت الى رماد ، تفتيحاً لأوامر عمرو (بن العاص) في العام ٢٢ من الهجرة (٦٤٢ م) ، فقد كتب الخليفة عمر الى قائده الذى استولى لنوّه على الاسكندرية (ما معناه) « لماذا كانت هذه الكتب لا تدمر لآ ما جاء به القرآن فاحرقها لآ لا حاجة لنا بها ، ولذا كانت تضم شيئاً مخالفاً فاحرقها لمخالفة ما تحتميه » . ويقول الفاريخ (٢) ، « لآ تبعاً لهذا الأمر الذى لا يتصور صدوره عن رجال متعصبين ، فقد بعثت كل كتب هذه المكتبة ، ووزعت على حمامات المدينة لاستخدامها في التدفئة ، وظلت تشعل لمدة ستة شهور ، وكان قد بنى منذ وقت طويل ، في مكان المعبد ، كنيسة تحمل اسم الامبراطور أركاديوس Arcadius والتي يظن بعض المؤرخين دون سند ، أنها اليوم هي الجامع المسمى جامع آلان محمود الذى يقول موروث البلاد لآه ترجمة لكلمة السبعين ووجود هذه المكتبة أمر يجادل فيه ، عن سوء نية ، بعض المؤرخين المحدثين ، فهذه قد تكلّفت من بقايا مكتبة المتحف ، وهى الأقدم ، وقد بينا أن حى بروخيون الذى كانت تقع فيه هذه المكتبة (الأقدم) كان قد تهدم تماماً منذ بداية القرن الخامس ، وقبل نهاية القرن الرابع بقليل .

وقد قدم المسيو لانجليه Langlès في النبذ الى ساقها ، والتي استخلصها من المؤرخين ، المعلومات التى من شأنها أن تثبت الوقائع (التى انتهينا إليها) .

أُنظر : Voyaye de Norden

(*) يحق لنا أن نستشهد هنا بما يسوقه حول هذا الموضوع مؤرخ فرنسى معاصر هو جاسمون فييت في كتابه :

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues, Tome II, par Gaston Wiet, l'Egypte musulmane, de la Conquête arabe à la Conquête ottonane — le Caire, 1932, p. 111—112.

— ٣٥٩ —

أحرقها من قبل يولوس قيصر Jules Césaa^(١) .

٦٣ — أما السوما Sôma^(**) التي كانت تتبع حى القصور حسبما يذكر سترابون ، والتي كانت تضم قبر الإسكندرية ، فكانت تقع حسبما يقول تاتيوس Tatius عند نحو مركز المدينة ، حيث كانت تعد جزءاً من حى يحمل اسمها .

== حيث يستبعد هذا المؤرخ تماماً ، تلك الرواية التي يوردها عبد اللطيف البغدادي عن أمر الخليفة عمر بحرق مكتبة الاسكندرية ، وهى الرواية التي بنى عليها كل المؤلفين في الغرب موقفهم في هذا الخصوص .

ويرى جاستون فبيت أنه على الرغم من أن هذا الحادث ممكن الوقوع أثناء الحروب القديمة ، ويستشهد على ذلك بحرق المذبح لمكتبة بغداد ، وحرق الفرنجة لمكتبة تونس ، فإن الرواية في حد ذاتها غير صحيحة ، ويرى أن الإمكان أهمالها كلية ، ويستند في ذلك على ما يلي :

١ — أن هذه الرواية لم ترد إلا عند عبد اللطيف البغدادي ، وبعد مرور ٢٠٠ (مائتى) سنة على الحادث المزعوم .

٢ — أنها لم ترد عند مؤرخين عرب ثقات مثل السكندى وابن عبد الحكيم والبزورى والطبرى والمسدوى .

وقد يكون هذا كافيأ لدحض ذلك الاتهام الذى يحاول المؤلف أن يصبغه بالعرب والمسلمين . (المترجم)

(١) بنى فوق معبد سيرابيس ، كنيسة كانت تحمل اسم أركاديوس ، بخرع من يوحنا المعمدان ، وقد افتتحت في احتفال مهيب .

(Histoire du Bas - Empire, tome per, liv. XXIV).

(**) السوما أو السبا ومعناها الجبابة الملكية وتقع كما يذكر محمود الفاكى في كتابه عن الاسكندرية القديمة عند تقاطع طريق الحرية مع شوارع النبی دانيال . (المترجم)

٦٤ — وفي أحياء أخرى من المدينة ، كان المرء يجد مباني عامة مختلفة لم تتحدد مواقعها بدقة ، مثال ذلك مبنى الاستاديوم Stadium والفوروم Forum حيث كان يتم التقاضي . أما البانيون Panium (*) الذي يقع على مرتفع يذهى بقمة مدبية ، فيبدو أنه صخرة طبيعية على الرغم من أنه من صنع الإنسان ، ويتم الصعود إليه من الداخل بواسطة سلم دائري لولبي ، ومن قمة هذا المرتفع يشرف المرء على كل المدينة ؛ وأخيراً نرى المدرج أو السيرك ، وكذلك بعض معابد تهدمت كانت مبنية عند نيكوبوليس Nicopolis .

٦٥ — أما القناة التي تربط بحيرة ماريا بيميناء أونوستوس Eunoste عن طرق الكيوتوس Kibotos (الميناء الصغير الداخلي) ، فتعبر الطرف الغربي من المدينة ، وكانت القناة تسمى ترعة ماريا ، وفيما بعد ترعة شديا Schedia ، وكانت هذه الترعة المتفرعة من الفرع الكانوبي عند قرية شديا (كوم الجيزة حالياً) ، تبعد عن الاسكندرية من جهة الشرق ، بـ ٤ شونات (١٢٠٠٩٦ قامة أى ٣٥٧٥٠٢٣ م) وكانت تنقل كما هو شأنها اليوم ، المياه العذبة إلى المدينة : يقول استرابون « عندما يغادر المرء الاسكندرية عن طريق بوابة كانوب ، يجد عن يمينه ترعة تصل إلى البحيرة وتؤدي إلى مدينة كانوب ، ويستطيع المرء أن يبحر عن طريق البحيرة نحو النهر ثم يتوجه إلى كانوب وإلى شديا ، وقبل أن يمضي إلى إيلبوزين Eleusine (***) يجد على يمينه ترعة تؤدي إلى شديا ، تبعد عن الاسكندرية بـ ٤ شونات (١) .

وكانت مياه النهر توزع ، بواسطة مشاريع هندسية تحت أرضية ، على الآبار والخزانات المحفورة تحت المدينة ؛ ويقول هيرتيوس Hirtius الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو يتحدث عن هذه الخزانات والآبار « يكاد يكون محفورا تحت الاسكندرية بأكملها خزانات سفلية ، تتلقى مياه النهر ، وتأتي لها هذه المياه عن طريق

(١) انظر دراسة عن القناة التي تربط بين البحرين ، القسم الثاني ، الفصل الأول ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٢٤ — ١٣٠

(*) البانيون ، تل صناعي أقيم تعظيماً للاله بان بحيث تشرف قمته على المدينة كلها ، وتحيط به حديقة جميلة . ويظن بأن بقايا هذا التل هي ما نعرفه اليوم باسم كوم الدكة . (المترجم)
(**) النزهة حالياً .

مسارب توزعها على خزانات بيوت الخاصة حيث تركد وتنقى شيئاً فشيئاً ؛ ولا تشرب المدينة مياهها أخرى ، إذ لا توجد بها مطلقاً أية عيون طبيعية . ويضطر العامة لاستخدام المياه التي ينزحونها من مجرى النهر أو الترعة ، ولكن فحيث أن هذه المياه عمكرة للغاية ، فإنها تسبب أمراضاً مختلفة ، ويطلق أوزون Ausone على الاسكندرية ، وهو يتحدث عن العدد الهائل من بها الخزانات أو الصهاريج المخصصة لحفظ المياه اللازمة لاستهلاك سكان هذه المدينة ، « بيت النهر » .

٦٦ - ويقول ديودور^(١) إن عدد سكان هذه المدينة يتناسب مع اتساعها إذ كانت قد بلغت في عهد أغسطس ما يزيد ٣٠٠.٠٠٠ مواطن حر ، الأمر الذي يفترض وجود شعب يبلغ تعدادة حوالى ضعف هذا العدد ، إذا ما أضفنا إلى هؤلاء عدد العبيد ، لكن هذا الرقم يبدو لنا مبالغاً فيه ، ومع ذلك فإن كليتوفون Clitophon يقول أثناء حديثه عن شعب الاسكندرية ، إنه « عندما يتأمل هذه الألوف من سكانها ، فإنه لا يستطيع أن يتصور أن من الممكن أن توجد مدينة كبيرة لحد تستطيع معه أن تضم هذا العدد الهائل ، كما أنه - من جهة أخرى - لا يستطيع أن يتصور وجود عدد ضخم من الناس لحد يستطيعون معه أن يشغلوا امتداد هذه المدينة الواسعة » .

٦٧ - كانت الاسكندرية هي وطن كل من أوريجين Origène ، إقليدس Euclide ، إيبان Appien ، هيروديان Hérodien ، فيلون Philon . إلخ وإلى مدارسها الأكاديمية الضليعة جاء مانيثون Manéthon وإيراتوستين Eratosthène الذى كان أول أمين لمكتبة المتحف التي أنشأها بطليموس إيفرجيتوس ، وكذلك جاء العالم الجغرافى بطليموس ، بالإضافة إلى آخرين جاء هؤلاء جميعاً لينهلوا من المعارف التي نقلوها إلينا في كتاباتهم ، ومن ناحية أخرى ، فقد وضع أتباع كل

(١) ديودور الصقل ، الكتاب السابع عشر .

من كليان Clément ، وجيروم Jérôme ، وجريجور ، وأغسطس ، مؤلفاتهم بالاسكندرية .

٦٨ - كانت جزيرة فاروس ، كما سبق القول مأهولة قبل مجيء الاسكندر بوقت طويل ، وقد حصنها البطالمة قبل يوليوس قيصر كما نعرف ذلك من تاريخ حربه في الاسكندرية حيث لقي الكثير من المصاعب لكي يستولى عليها ، وقد كان لقرية فاروس ، شأنها في ذلك شأن المدينة ، أبراج عالية تربط ما بينها أسوار تقفل القرية بسور منيع بعض الشيء ، وكان يقطن هذه القرية بحارة يمارسون القرصنة ، وكانت مياه النيل تأتي إلى كل مكان من هذه المدينة عن طريق مشروع هندسي مبنى بطول الهبتاستاد ، وقد تحطم هذا المجرى ، وكذلك قناطر الهبتاستاد ، بالإضافة إلى هذه القرية الرائعة ، أثناء حصار الاسكندرية على يد يوليوس قيصر .

٦٩ - وعتمد الخروج من الاسكندرية ، عن طريق بوابة كانوب ، يبعد المرء على يساره ضاحية اليوزين Eleusine (الزهوة) والتي يشطرها من طولها شارع كانوب الكبير والتي تقطع البحيرة والبحر ، والتي خططت شوارعها على غرار شوارع الاسكندرية ، ويقابل المرء بعد هذه الضاحية بحرى هندسيا يسير بطول الساحل ويتجه إلى كانوب ، وفيما بعد اليوزين ، كان ثمة سيرك أو هيبودروم Hippodrome ينتهى هند نيكوبوليس .

٧٠ - وتقع مدينة نيكوبوليس (ومعناها المنصر) على شواطئ البحر ، وتبعد عن الاسكندرية بـ ٣٠ غلوة حسبما يذكر مترابون ، وبـ ٢٠ غلوة حسبما يذكر يوسفوس ، وقد سميت كذلك نسبة إلى الانتصار الذي أحرزه أوكتافيوس أغسطس على مارك أنطونيوس ، وكانت تقام هناك احتفالات بهذه المناسبة ، مرة كل خمس سنوات .

٧١ — أما كانوب (أبو قير)، تلك المدينة التي اشتهرت بمعبدي سيرابيس المقام فيها، وبورعها وفجورها، فكانت تقع على بعد ١٢٠ غلوة من الاسكندرية، وكانت تقوم على ضفاف الترعة التي تؤدي إليها فنادق صغيرة، كان يطرقها على الدوام ألوف الرجال والنساء، الذين كانوا يتوجهون كل عام إلى هذه المدينة، للاحتفال بالأعياد التي يسودها المجون الجالح الذي يسود الأعياد الباخوسية عادة.

٧٢ — وإلى ما وراء كانوب، كانت تقوم هيرا كليوم Heracleum التي تقع عند رأس خليج أبي قير، والتي أطلق عليها هذا الاسم مرة أخرى على اسم معبد قديم كان مخصصاً لهيرقل.

٧٣ — أما فتحة كانوب التي كانت تلي مباشرة هذا الموقع الأخير، مشكلة بذلك النقطة الشمالية للقاعدة الغربية للدلتا، فكانت تقع حسبما يذكر بلين Pliny على بعد يساوي ٩٠٧٣ قامة أى ٣٦٦١ إلى ١٧٦٨١ إلى الشرق من الاسكندرية.

٧٤ — أما قرية نكروبوليس، أي مدينة الموتى، حيث كان هذا المكان مخصصاً لدفن موتى الاسكندرية، فكانت تبدأ من نفس جدران السور، وتمتد إلى الجنوب الغربي من البحر والبحيرة (*). ولقد كانت قرية بمعنى الكلمة، تحتوي على كثير من البيوت المزدانة بالحدايق، توجد تحتها أماكن سفلية نسميها مقابر.

٧٥ — وأخيراً، فقد كان يوجد بعد هذه «القرية» قصر الشرمونينز La Chersonèse، المبني على قمة رأس يقع على بعد ٧٠ غلوة من الاسكندرية، وقد حصن هذا القصر، وكانت له حامية، وهو نفس المكان الذي نطلق عليه اليوم اسم الشيخ (العجمي)، وهو الذي يقفل خليج الاسكندرية من جهة الجنوب الغربي.

(*) كانت هذه الجباظة الغربية للاسكندرية تشغل المفاصل التي تسمى حالياً: الأنفوشي، كقوم الشقافة الوريان (الترجم).

والآن، بعد أن قدمنا كل هذه المعلومات التي حصلنا عليها عن الاسكندرية القديمة، والتي كانت ضواحيها تغص بمساكن جديدة ونخمة، والتي تغطيها اليوم الرمال وكل قحولة الصحراوات الليبية، فإننا نمضي إلى الجزء الأخير من الدراسة والذي يقدم مقارنة مدعومة - حيث هو يتفرع عن القسمين السابقين - عن حالتى هذه المدينة العريقة .

القسم الثالث

فحص موثق عن حالة مدينة الاسكندرية بشكلها القديم
مع مقارنتها بحالتها في شكلها الراهن

٧٦ - بعد أن قدمنا في القسمين السابقين حالة مدينة الاسكندرية في عصور حياتها المختلفة، سوف نشير حسب المعلومات التي حصلنا عليها أثناء إنشاء الخريطة الطبوغرافية الملحقة بهذه الدراسة - إلى وضع أكثر الأماكن والمباني في هذه المدينة شهرة، وسوف يقودنا ذلك إلى فحص موثق، تدعمه بعض الأسئلة التاريخية والجغرافية، التي من شأنها أن توضح مدى صحة الرأى حول الانتقادات الموجهة حول قيمة المقاييس الطولية التي قدمها المؤرخون القدماء، والتي تدور حول إتساع هذه المدينة .

٧٧ - كانت تنقص الأبحاث العلمية، لكل من بونامى Bonamy ودانفيل d'Anville^(١) وهما اللذان قد عالجنا، كلاهما هذه المسألة، وقد فحصنا

(١) قدم السيد بونامى Bonamy عضواً أكاديمية النقوش والفنون الجميلة ثلاث دراسات عن مدينة الاسكندرية، نشرت في عام ١٧٣١ في مجلد دراسات هذه الأكاديمية، المجلد التاسع، ص ٤١٦. وقد رجعنا إلى النبد الدققة لهذا الأكاديمي، والتي ذكرنا بعضها في هوامش هذه الدراسة .

وفي حوزتنا بالإضافة إلى ذلك، دراسات عن مصر، ألّفها دانفيل، وقد ذكرنا مؤلفه هذا - الذي استخدم كدليل للجيش الفرنسي - كمصدر له احترامه في هذه الدراسة، ولأن كنت أعتمد أن بالإمكان على الأقل، استبعاد بعض آرائه .

أبحاثهما عند وضع تصميم دقيق لخريطة الاسكندرية ، ووجدنا أنه كانت تنقصهم على وجه الخصوص معرفة الأماكن ، وهى المعرفة التى توفرت لنا ، حتى يستطيعا أن يحددا بدقة الحالة القديمة للمدينة ؛ وقد بين دانفيل ، وهو المشهود بالنظر الثاقب فى بحورته الجغرافية ، أن الاسكندرية كانت ، بما لا يدع مجالاً للشك ، تشغل مساحة أكبر بكثير من تلك المساحة التى يحددها السور الحالى ، الذى يقول عنه إنه لا بد أن يكون قد بنى حديثاً ، ويتطلب هذا الظن من جانبه - ونحن نشاطره رأى قيمة - المزيد من الدرس والمناقشة .

٧٨ - أما الاختلاف الذى يوجد ، نسبياً ، فى أطوال هذه المدينة فى تقارير المؤلفين القدماء : ديودور ، سترابون ، بلين ، كينت كورس ، يوسفوس ،

ويعتدح دانفيل أبحاث بونامى ، لكنه يضيف بأن ذلك لا يعنى أنه يستطيع أن يعتمد على الخرائط الاسكندرية التى ألحقها هذا الأكاديمى - بونامى - لدراساته ، ويقول بونامى أنه قد حصل على هذه الخريطة من مكاتب البحارة ؛ ولذلك فلا بد أن تكون هذه الخريطة غير كاملة ، ولا يمكن القياس عليها بالمقارنة بتلك الخريطة التى قدمها دانفيل على اعتبار أنها الأفضل ، والتى ضمنها هذا الجغرافى فى دراساته المطبوعة فى عام ١٧٦٦

وقد قدم نوردان Norden ، الذى سافر إلى مصر فى عام ١٧٣٩ ، خريطة أقل شطاً . ويقول هذا الرحالة : إن هذه الخريطة قد تم إنجازها على يد فرنسى يأسف لعدم معرفته باسمه .

وفى الواقع ، فقد كان إنجازاً كبيراً فى ذلك الوقت ، أن يستطيع رحالة بوسائله البسيطة أن يقدم تخطيطاً متصوراً لمدينة مصر ، بل ومدينة شرقية أى الاطلاق .

وفى عام ١٨٠٢ ، أورد الميوسوشوسار Chaussard فى كتابه تاريخ الحملات على مدينة الاسكندرية Histoire des expéditions d' Alex. الذى ترجمه عن آربان المؤرخ الإغريقى فى القرن الثانى - أورد وصفاً موجزاً لحالات ثلاث متتابعة لمدينة الاسكندرية ، ويتطابق ما يقوله هذا المؤلف عن المدينة تماماً مع الرأى الذى قدمه دانفيل فى دراساته عن مصر صفحات ٥٢ إلى ٦٣ ، وقد رسمت الخريطة التى ألحقها الميوسوشوسار بكفاءة ، وهى الخريطة التى أصاب التلف بعض أجزائها ، رسمت تبعاً للخريطة التى أنشأها السادة المهندسون العسكريون والمدنيون التابعون لجيش الشرق ، والتى كن مقياسها ، وهى ملاحظة بهذه الدراسة ، ١٠٠ مليم لكل ١٠٠ متر .

وكذلك هذا التفاوت الهائل في المقاييس التي لم توضح بدقة في كتاباتهم، فإنه يلقى بالشك حول تحديدهم للأما كن نفسها .

وقد شاهدنا في القسم السابق أن معطيات هذه المقاييس تنوع كما يلي :

المقاييس				البيانات التي يقدمها المؤرخون القدامى
الطول	العرض	الواجهة	الحيط	
٤٠	١٠	٤٠٠	١٠٠	ديودور مقدراً بالغلوة . .
٣٠	٧ - ٨	٢٢٥	٧٥	سترابون مقدراً بالغلوة . .
٣٠	٧ - ٨	٢٢٥	٨٠	كيمات - كورس مقدراً بالغلوة
٢٠	١٠	٢٠٠	٦٠	يوسيفوس مقدراً بالغلوة . .
٢٠	١٠	٢٠٠	١٢٠	بلين مقدراً بالخطوة الرومانية

ويظل الأمر على نفس الدرجة من الصعوبة ، عندما نحاول أن نكتشف في هذه البيانات المختلفة طول المقياس المتخذ كوحدة ، حيث لم يحدد هؤلاء المؤلفون طول الغلوة ، فنحن مثلاً نعرف في دراسة سترابون عدداً كبيراً من الغلوات المختلفة ، وبمعنى آخر فإن كل المؤلفين القدامى الذين كتبوا عن الإسكندرية كانوا إما إغريقاً أو رومانين ، فهل كانوا على الدوام يستخدمون مقاييس بلادهم ؟ هذا ما قد نجازف بالأخذ به ، ومع ذلك فلم يكن هذا - فيما يبدو - هو ما يحدث على الدوام ، إذ كانوا في غالب الأحيان ، وبساطة شديدة ، يأخذون بالمقاييس المصرية ، كما يذكرها لهم علماء مصر ، أو أولئك الذين سبقوهم في رحلاتهم .

وإذا ما قبلنا ، مع المسيو لارشيه ، مترجم هيرودت الحاذق ، أن سترابون لم يتحدث إلا عن الغلوة الأولمبية ، فسوف نقبل كيف ستكون المسافات التي يقدمها

عن مدينة الإسكندرية ، وعن الأماكن المحيطة بها ، باللغة الضخامة لحمد مبالغ فيه^(١) . أما الثلاثون غلوة التي يعطيها ذلك الجغرافى للشارع الكبير الذى يبدأ من بوابة نسكر وبوليس لينتهى عند البوابة السكندرية فإنها تساوى ٢٨٥٠ قامة (= $\frac{7}{3} \times 504$ م) ، لكن الخريطة الكبيرة التى رسمت بمقياس ١:٢٥٠٠ رم لكل مائة متر لا تبين هذه المسافة ، ابتداء من البوابة الكبيرة على الميناء القديم وحتى بوابة رشيد إلا ٣٢٢٥ متراً أى ١٦٥٤ قامة وأربعة أقدام . وفى هذه الحالة يظل هناك فرق يبلغ ١١٩٦ قامة أى ١٢ غلوة فى أقل طول من أطوال المدينة .

ويقدر يوسفوس هذه المسافة نفسها بـ ٢٠ غلوة من نفس النوع أى ١٢٥ خطوة لكل غلوة أى ما يبلغ $\frac{1}{3}$ الميل الرومانى . وبذلك لا يبلغ طول هذا الشارع حسب تقدير هذا المؤرخ إلا ١٩٠٠ قامة أو $\frac{7}{3} \times 370$ متراً أى ما يزيد على طول المدينة الحديثة بـ $\frac{1}{3}$ غلوة أغريقية .

٧٩ - ومن هنا نرى أن هذه البيانات لا تتفق كذلك مع بقية المسافات ، وقد حاول دانفيل ، وهو يسعى إلى تدعيم الرأى الذى رجحه ، وهو أن السور الحالى لمدينة الإسكندرية أصغر لحدا كبير من سورها القديم ، وذلك حين لم يجد فى الخريطة التى كانت معه لهذه المدينة ، المقاييس اللازمة لكى يؤسس عليها ، حاول أن يعطى للغلوة الواحدة طولاً يمكن بمقتضاه توسيع حدودها . وفى هذا الصدد فإنه يحدد موقع الهبتاستاد، الذى كان لا يزال غير محدد ، فى المسافة التى توضحها

(١) يبين سترابون فى كتابه الثانى طول الغلوة الواردة بجغرافيته على نحو نستنتج منه أن طول الغلوة عنده يبلغ $\frac{1}{3}$ الميل الرومانى أى ١٢٥ خطوة ، أى أن الميل الرومانى يحتوى على ثمانية غلوات لأغريقية ؛ ومن المعروف أن الميل الرومانى يساوى عادة ٧٥٠ ياردة و ٤ أقدام وثمانية درجات ، ويقررها دانفيل لى ٧٥٦ ياردة أى أن الثمن يساوى ٣ قدم و ٩ ياردة (الترجمة هنا بتصرف واختصار) .

خريطته بين البرج الشمالى فوق الميناء القديم والبرج الواقع إلى الشرق من شبه جزيرة فاروس على الميناء الجديد . ويحدد هذا الجغرافى هذه المسافة بـ ٥٣٠ قامة، وبقسمة هذا الرقم على ٧ كما تعبر عن ذلك نفس تسمية الهبتاستاديوم . (أى الطريق التى يبلغ طوله سبعة ستاد أى سبع غلوات) فإنه يقدر بذلك قيمة الغلوة التى يلغى اتخاذها أساساً لتحديد الأطوال الدقيقة لهذه المدينة القديمة بـ ٧٦ قامة .

ويلغى الاعتراف بأنه ، إذا كان طول هذه الغلوة الجديدة ، لا يرتكز إلا على هذا الممطى لسكانات النتيجة خاطئة بقدر ما قد يعترى القاعدة التى تكون قد استخدمت فى تحديدها ، حيث أن الخريطة التى تحددها الطول على أساسها غير دقيقة ، ذلك أن جسر الهبتاستاد ، الذى يربط بين المدينة وجزيرة فاروس ، يظل مفقوداً بشكل تام ، وسط كتلة الرمال التى ترتكز عليها المدينة الحديثة .

كيف يمكننا إذن أن نتعرف فى واقع الأمر على طرفى هذا الطريق الذى يبلغ طوله كما يذكر هيرتيوس ٩٠٠ خطوة أى $\frac{1}{3}$ من الميل الرومانى أو ٦٨١ قامة ، والذى تفضى نهايتهما كلاهما إلى ميدان يحميه حصن وتقع أمامه قنطرة ؟ وقد يكون بمقدورى أن أعتقد أن أسوار الرصيف القديمة ، التى تحيط بمششحات البحرية فى الميناء القديم هى بقايا وأنقاض الهبتاستاد ، لكن هل كان هذا الجسر الذى يتجه إلى الجزء الغربى من جزيرة فاروس يتبع خطأ مستقيماً ؟ أم تراه أنه كان مقطوعاً مثل ذلك الجسر الذى يتصل اليوم بحصن الفنار ؟ هذا ما نجمله ، وفضلاً من ذلك فمن أية نقطة يلغى أن نبدأ فى تعداد الغلوات السبع ؟ هذا أيضاً ما لم تتمكن من معرفته طوال السنوات الثلاث التى احتل الفرنسيون خلالها مصر ؛ لكننا نستطيع هنا على الأقل أن نلاحظ أن المسافة التى تقدها الخريطة الكبرى للاسكندرية ، والتى رسمت بمقياس ٢٥ ر م لكل ١٠٠ م ،

— ٣٦٩ —

بين نفس الانقطعتين اللتين حددتهما دانفيل ، واللتيين أشرنا إليهما من قبل ، تبليغ ٦٦٥ قامة (أى ١٢٩٦٠ م) أى ٧ غلوات اغريقية ، طول الغلوة ٩٥ قامة أو ١٨٥٠ م .

٨٠ — أما إذا أخذنا أبحاثنا على أنواع أخرى من الغلوات لوجدناها تنطبق على الغلوة المصرية التي يقدرها دانفيل بـ ٥١ قامة أى ٩٩٠ م .

هذه هي النتائج التي يعطيها تطبيق هذه الغلوة الصغيرة على الامتداد الحالي للإسكندرية ، وقد شاهدنا من قبل أن طول الشارع الكبير ، بدءاً من بوابة الميناء القديم وحتى بوابة رشيد ، كان يبلغ ٣٣٢٥ متراً ؛ أما بخصوص متوسط عرض السور ابتداءً من باب البحر المطل على ساحة الميناء الجديد إلى باب العمود في الجنوب فيبلغ ١٠١٣ متراً . وهذه المقاييس تعطي طولاً قدره ٣٢ غلوة وعرضاً قدره ١٠ غلوات ، طول كل غلوة ٥١ قامة .

وأكثر من ذلك ، فإننا إذا أخذنا محيط السور الحديث بالتتابع ، وبأكبر قدر من التحديد ، بفتحات ثلاث مختلفة لبرجل ، أطوالها على التوالي ١٠، ٢٠، ٥٠ قامة ، كما فعلنا نحن على «كروكي» الخريطة الكبيرة لهذه المدينة ، لوجدنا امتداداً قدره ٢٥٠٤ قامة أى ٨٣ غلوة ، طول الغلوة ٥١ قامة .

٨١ — هذا الانضباط في تطابق العلاقة بين هذه المقاييس الأخيرة الموجودة على خريطة مضبوطة ، رسمت بمقياس رسم كبير هو ٠.٢٥ م لكل ١٠٠ م ، مع المقاييس التي طبقها سترابون على سور ندعى مع دانفيل أنه هو السور الحديث ، يبدو أنه ينهي المشكلة وأنه يحسم أن الغلوة التي حددها هذا الجغرافي اليوناني فيما يمس اتساع الإسكندرية هي الغلوة المصرية الصغيرة ذات الـ ٥٩ قامة وليست الغلوة الأولى ذات الـ ٩٥ ، وأخيراً ، فإن السور الحالي لهذه المدينة التي ننسبها للعرب سيكون هو سور هاني عهد الإغريق والرومان . ومن الواضح

أنه إذا كان هذا الاحساس ، وهو منتشر إلى حد ما^(١) لا يجد الأساس اللازم لتأكيد ، لأول وهلة ، وذلك فيما يتصل بالعلاقة الدقيقة للمقاييس التي للسور الحالى مع المقاييس التي قدمها بعض المؤلفين القدامى فإن المرء مع ذلك لا يستطيع كلمة ألا يستفيد مما يذكره المؤرخون العرب ، الذين يشهدون بأن عمرو بن العاص قد قلب هذا السور رأساً على عقب ، في حوالى السنة ٢٢ من الهجرة الـ ٦٣٢ من الميلاد ، وبأن ابن طولون حاكم مصر ، قد أمر بتشييد أسوار جديدة لهذه المدينة بعد ذلك بـ ٢٣٣ سنة ، وأن هذا السور الجديد قد قلص من اتساعها المبدئى إلى النصف^(٢) ، ونسعى الآن لكى نقيم الدليل على هذه الشهادات الأخيرة .

(١) استولى عمرو بن العاص ، قائد الخليفة عمر ، على مدينة الاسكندرية ، بعد أربعة عشر شهراً من الحصار ، فقد أثناءها ٢٣ ألف رجل ، ولم يكن لدى هيرقل امبراطور القسطنطينية ، الذى جمع قوات هائلة لتجدة هذه المدينة ، وكذلك لتجدة أورشليم (بيت المقدس) ، التى كانت فى نفس الوقت محاصرة بواسطة عمر (كذا ١) ، لم يكن لديه إلا الوقت الذى يكفى لكى يعطى خبر (مقوقس) الاسكندر سلطات مطلقة للتفاوض ، وبعد أن أنصت عمرو فى برود — وكان معسكراً فى ضواحي المدينة — إلى مقترحات المقوقس ، أجابه وهو يشير إلى عمود كبير كان أمامهما : « أترى هذا العمود ؟ لن نخرج من مصر إلا بعد أن تكون التهمة » . وقد كتب ، وهو الذى كان قد وقع فى قبضة أهالى الاسكندرية قبل ذلك ببضعة أيام فى إحدى جولاته الاستطلاعية وأفلت لحسن حظه بفضل مهارة الجندى الذى كان يرافقه ، كتب بعد أن استولى فى النهاية على الاسكندرية إلى الخليفة عمر أنه وجد فى هذه المدينة ٤٠٠٠ قصر ، وعدداً مماثلاً من الحمامات العامة ، و ٤٠٠٠ سرك أو ساحة للألعاب ، و ١٢٠٠٠ حديقة ، و ٤٠٠٠ ريهوى يدفعون الجزية ، وقد حطم هذا الغازى البغيض (كذا ١) المآب والمآب والكنائس وأمر بإحراق مكتبة سيرابيوم (راجع ما سبق أن أوردناه نقلاً عن جاستون فيبيت — المترجم) ودك الأسوار ونقل مقر الامبراطورية الجديدة (١) إلى القسطنطينية التى تسمى حالياً مصر العتيقة .

من كتاب :

Histoire du Bas - Empire, Tome XII liv LVIII et LIX.

وثمة كثير من المبالغات بالتأكيد فى هذا النص ، وعموماً فى كل تاريخ الشرقين فسيكفى يمكن أن نصدق على سبيل المثال وجود ٤٠٠ سرك أو ميادين ألعاب ، و ٤٠٠٠ حمام ومثلها من القصور ؟

(٢) فى العام ٢٦٠ من الهجرة (٨٧٥ من العصر الحديث) أمر ابن طولون كما يقول المسكين ببناء أبراج وأسوار للاسكندرية بالشكل الذى توجد عليه اليوم . وهذا الحاكم هو الذى أمر بتعميد الجامع الكبير والرائع الذى يحمل اسمه ، والذي يقع الى الجنوب من

— ٣٧١ —

٨٢ — وهكذا ، فإذا تبيننا نحن الغلوة المصرية ذات الـ ١٥ قامة ، فإننا لن نجد بعد ، هذا الاتساع الذى يلمسه إلى المدينة ، كل المؤلفين القدامى الذين اتهمنا من ذكرهم فى أبحاثنا السابقة .

يقدر سترابون المسافة الواقعة بين الباب الغربى للاسكندرية وبين مدينة نيكوبوليس الصغيرة^(١) (بولكلى) ، والتي حددنا موقعها فى مكان قصر القياصرة ، بـ ٦٠ غلوة ؛ ويعطينا هذا الرقم ٣٠٦٠ قامة أو ٥٩٦٤ مترا إذا كانت الغلوة تبلغ ٥١ قامة ، و ٥٧٠٠ قامة أو ١١١٠٩ مترا إذا كانت تبلغ ٩٥ قامة ؛ على أن المسافة الفعلية التى تعطيها الخريطة الملحقة بهذه الدراسة هى ٤٠٠٠ قامة أو ٧٧٩٦ مترا و ١٥ سم^(٢) .

ويلاحظ المرء أنه يوجد هنا وهناك فى هذا التقسيم اختلاف يجعل الغلوة المصرية أصغر بمقدار يتجاوز الربع ، بينما تظل الغلوة الأولمبية أكبر بنفس النسبة على وجه التقريب ، حيث سنحصل على أرقام ٧٨ غلوة مصرية ، و ٤٢ غلوة إغريقية .

٨٣ — وإذا قمنا بنفس الحساب لمسافة الـ ١٢٠ غلوة التى يذكرها نفس

القاهرة داخل سور قصر قديم كان يقيم فيه ، والذى لا يزال يحمل اسم قلعة الكباش ، وكان هذا القصر يحوى مدينة القسطنطين إلى الشمال ، وينبش الظن بأنه فى العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢٤١ من العصر الحديث) ، أمر السلطان صلاح الدين ، وهو الذى شيد قلعة القاهرة ببناء أسوار ضخمة لمدينة الاسكندرية .

(١) يحدد سترابون المسافة من نيكوبوليس إلى الاسكندرية بـ ٣٠ غلوة ، وعلى هذا ، فحينئذ كان لهذه المدينة الأخيرة نفس الطول من البوابة الكاوية إلى بوابة نيكوبوليس ، فإنا نضيف هنا هاتين المسافتين ، بقصد البدء من نقطة محددة ومعروفة ، وهى النقطة من الباب الغربى للاسكندرية ، فى حين يظل موقع البوابة الكاوية المقابلة ، عند الطرف الشرقى غير محدد .

(٢) هذه الخريطة للسواحل المتاخمة إلى الشرق وإلى الجنوب الغربى ، قد رسمت بمقياس ١/٠٠٥ م لكل ١٠٠ م ، ويعود الفضل فيها إلى المسير Tasquin ، الضابط فى البحرية الحربية فى جيش مصر .

هذا الجغرافى ابتداء من البوابة الكانوبية فى مدينة الاسكندرية حتى مدينة كانوب، فسنجد أن هذه الـ ١٢٠ غلوة تعطى ٦١٢٠ قامة بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، بينما يرتفع الرقم إلى ١١٤٠٠ قامة بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة للغلوة الواحدة؛ أو مع ذلك فقد سبق أن قلنا فى الفقرة ٤١ إن خرائب كانوب تقع على بعد ٢٥٠٠ متر أو ١٢٨٢ قامة، على الساحل، إلى الجنوب الغربى من خليج أبى قير، وإذا بدأنا القياس من بوابة رشيد، وجدناها تبعد بـ ٢٠٧٠٠ م أو ١٠٦٢٠ قامة وثلاثة أقدام؛ وعلى هذا فإن الـ ١٠٦٢٠ قامة تعطى حين نقص منها ١٢٨٢ قامة ٩٣٣٨ قامة أى ١٨٢٠٠ متر، وهى المسافة التى تعطىها فى الواقع خريطة هذا الجزء من سواحل مصر.

ونرى هنا أيضاً أن هذين النوعين من الغلوات ليسا قابلين للتطبيق على المسافة التى يشير إليها الجغرافى الإغريق، لأننا إذا ما قسمنا المسافة الفعلية التى تبلغ ٩٣٣٨ قامة من الاسكندرية حتى خرائب كانوب بـ ٥١ قامة للغلوة فسنحصل على ١٨٣ غلوة مصرية وهو رقم كبير لحد مبالغ فيه، أما إذا قسمناها بحساب الغلوة ٩٥ قامة، فسنحصل على ٩٨ غلوة، وهو رقم صغير لحد مبالغ فيه كذلك.

وإذا ما تابعنا نفس الحسبة لمسافة الـ ٧٠ غلوة التى أشار إليها بالمثل سترابون، من باب أنكر بوليس إلى شيرسونيسوس برومونتور يوم Chersonesus promontorium وهو خابج على الساحل، إلى الجنوب الغربى من الاسكندرية، الذى يشغل مكانه حالياً الحصن الصغير التابع للشيوخ (الدجى)، فإننا سنجد أن هذه المسافة تبلغ ٣٥٧٠ قامة تساوى بـ ٦٩٥٨ متراً، بحساب الغلوة المصرية ذات الـ ٥١ قامة، و ٦٦٥٠ قامة تساوى بـ ١٢٩١ متراً، بحساب الغلوة الإغريقية ذات الـ ٩٥ قامة؛ ولكن المسافة التى تعطىها نفس الخريطة تبين أن تلك المسافة

- ٢٧٣ -

التي بينت قبل ذلك تبلغ ٦٠٧٥ قامة تساوى $\frac{1}{11840}$ متراً بمحاذاة شاطئ الخليج .

وأخيراً ، فإننا نرى أن الغلوة المصرية ستكون أكثر صغراً من ذلك ، مادامت المسافة التي تعطى لها ليست إلا حوالى النصف من المسافة الفعلية مع تقريب يبلغ $\frac{1}{3}$ ، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن بعض الانحناءات والتعرجات التي كانت تزيد عن طول الطريق القديم بهذه النسبة .

٨٤ - بينت للتو في هذا الفحص ، أن الغلوة المصرية كانت بالغة الصغر وأن الغلوة الإغريقية كانت في المقابل بالغة الطول ، لحد لا نستطيع معه أن نجد في استخدامهما الامتداد الحقيقى للاسكندرية القديمة والمدن المحيطة بها ؛ كما سبق أن قلت إن دانفيل ، الذى يشاطرنا هذا الإحساس ، كان قد انطلق من قاعدة غير مؤكدة في أبحاثه حول متوسط طول الغلوة التي وجدها في نسبة ٣ : ٤ هل الأكثر أو على الأقل مع هذين المقياسين القديمين . وسأقدم في الجدول الآتى بيانات عن المسافات المقارنة في استخدام هذه الغلوات المختلفة :

١
٣٦
١

عدد الفلوات باختيار الفلوة تساوى			المسافات المختلفة للأماكن		العدد بالقامات للفلوات ذات		عدد الفلوات المدينة	بيانات عن المسافة الطولية للأماكن
٩٥ قامة	٧٦ قامة	٥١ قامة	بالتر	بالقامة	٩٥ قامة	٥١ قامة		
٣٢	٤٠ ١/٢	٦٠	—	—	٢٧٨٥٠	١٥٣٠	٣٠	القديمة الاسكندرية
١٧ ١/٢	٢١ ٢/٣	٣٢	٣٧٢٥٠ — ١٧٦٥٤٤	٣	٢٧٨٥٠	١٥٣٠	٣٠	الجديدة , نيسكو بوليس (بوليس)
٤٢	٥٢ ١/٢	٧٨	٧٧٩٦ — ٤٣٠٠٠ —	٣	٢٧٨٥٠	١٥٣٠	٣٠	من الاسكندرية إلى
٩٨	١٢٣	١٨٣	١٨٧٢٠٠ —	٩٣٣٨ —	١١٣٤٠٠	٦١٢٠	١٢٠	كاتب (أبي قير)
٦٤	٨٠	١١٩	١١,٨٤٠ —	٦٠٧٥ —	٦١٦٥٠	٣١٥٧٠	٧٠	شير سوريسوس (صحن المجدي)

وإذا ما قارنا هذه المعطيات فيما بينها ، ومع دلالات المسافات كما أمدنا بها المؤلفون القدامى ، فلن نجد سوى علاقات غير متوافقة ، وسوف نقنع ، كما بين ذلك المسيو جوسلان Gosselin ، في أبحاثه عن الجغرافية اليونانية ، أن سترابون لم يقدم عن الاسكندرية إلا مقاييس خاطئة ، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف قيمة الخلوات المختلفة التي قدمها في جغرافيته لمصر .

وقد أكون أكثر ميلا لتبني ، كتمقياس ، قيمة الخلوة كما يقدرها دانفيل أى بـ ٧٦ قائمة ، تساوى ١٨١٣ مترأ ، إذ يبدو لي هذا الطول وسطاً نسبياً ، بحيث أنه يقرب أطوال المسافات عن تلك التي أعطيت - على وجه التقريب - بشكل تخميني ، للاسكندرية القديمة ؛ ولكنني سأقف بأبحاثي عند هذا الحد ، إذ سيكون من التجاوز أن أسعى لكى أضع الأسس لخلوة جديدة ، في الوقت الذي يقبني فيه العلماء هذا العدد الكبير من الخلوات المختلفة ، وفي الوقت نفسه الذي ينقسمون فيه ، إلى هذا الحد ، حول النظام المتري للقدماء ؛ لكنني سأكتفي بملاحظة حول هذا الموضوع ، هي أن النص الذي انتقل إلينا من المؤلفين القدامى ، لا بد أن يكون قد أصابه بعض التحوير على يد المترجمين أو الشارحين ، بقدر ما ينبغي أن نقنع بذلك عن طريق القيام بفحص مدروس لجغرافية إراتوستينوس Eratosthène وبطليموس ، ومؤلفين آخرين أقل قدما .

٨٥ - يبقى هلى أن أبرهن على أن السور الحالى الذى ينسب إلى العرب ليس هو نفس السور في عهد الإغريق ، وهذا ما ذهب إليه - على عكس رأى المسيو دى توت M. de Tott ^(١) - كل من دانفل وبوكوك Pococke ونيبور

(١) يظن المسيو دى توت (Mémories sus les Turcs Tome II, p.180) أن السور الحالى المنسوب للعرب هو نفس سور الإغريق ؛ لكن دانفيل (Nemoire sur l'Egypte) ، وبوكوك (Voyage en Orient, t.1er, p 493) ، يذكرون على العكس من ذلك ، لأنه في العام ٦٠٠ من الهجرة (١٢١٢ م) أصر خلفاء صلاح الدين بإعادة إنشاء أسوار الاسكندرية ، ويقول نيبور (Voyage en Arabie) أن النقوش الكوفية ، الموجودة على الأبراج الرئيسية للسور الحالى لمدينة الاسكندرية ، تنسب بناءه إلى الحكام العرب .

Nicbuhr ، وسونيني Sonnini ، ومؤلفين آخرين محدثين أساطيرهم نفس رأيهم .

٨٦ — أما الخرائب الهائلة التي نجدها في ضواحي الاسكندرية ، وبشكل أساسي على طول الساحل الشرقي للميناء الكبير ، وكذلك في الشمال الشرقي وإلى الجنوب ، وفيما بين السور وشواطئ ماريوتيس ، فهي قرائن تشهد بأن المدينة كانت تحتل في الماضي مساحة من الأرض أكثر اتساعاً بكثير . وفي الواقع ، فثمة نقطة يتفق عليها كل المؤرخين ، هي تلك التي تحدد العرض الذي كانت تشغله المدينة ، أي فيما بين البحر والبحيرة ، إلى الجنوب . يقول كيمت كورس « كانت الاسكندرية تشمل في الواقع ، كل الفراغ الواقع بين البحيرة والبحر ، وعلى هذا ، فإذا كنا في وضع يسمح لنا بملاحظة امتداد مياه الاغراق الحديثة والقريبة من هذه البحيرة والتي تأتي عن طريق البحر ، وأن نلاحظ كذلك خرائب المباني الموجودة على شواطئها ، على الرغم من أننا لم نستطع معرفة أين كانت توجد حدودها الأخيرة ، وما إذا كان النهر ، كما حدث قديماً ، يصب فيها المياه التي تزيد من اتساعها ، فإننا على الأقل ، نستطيع أن نحددنا بربطها بخرائب الارصفة وأنقاض الحواجز والخزانات أو الصهاريج ، التي نجدها على حواف الشواطئ الجنوبية للخليج أو ترعة الاسكندرية .

وقد سبق أن قال سترابون ، قبل كيمت كورس « إن المرء لم يكن يصل إلى الاسكندرية إلا عن طريق برزخين ضيقين ، بينما لا يمكن الوصول إليها من جهة البحيرة إلا عن طريق موانئ النهر ، ويضيف هذا الجغرافي « أن النيل الذي يزيد فيضانه عن حجم بحيرة مريوتيس لا يترك للاسكندرية ، عند انجساره ، أي جزء من مساقطع يمكن أن ترتفع منها روائح كريهة وضارة ، إذن ، فالحق كانت البحيرة ، في حالة المياه المنخفضة ، تفرق الأسوار وأرصفة موانئ النهر ، وكذلك السور الجنوبي لهذه المدينة .

٨٧ - ويلبغى كذلك أن نكون أكثر ميلاً للاعتقاد بأن السيرك أو الهيبودروم Hippodrome ، وكذلك المرتفع الذى ينهض عليه اليوم عمود سبتيموس سيفيروس (عمود السوارى) ، كانت كلها تقع داخل المدينة ، اللهم إلا إذا كنا نفترض أن كل هذه المواقع والخرائب العديدة التى نقابلها ، كانت تشكل جزيرات متباعدة داخل مياه ماريوتيس .

٨٨ - وثمة دراسة أخرى ، يتفق عليها بشكل عام ، وهى أن كل الجزء الواقع إلى الشمال الشرقى ، خارج السور الحالى ، والمطل على الميناء الجديد ، والذى كان يسمى فيما مضى portus magnus (الميناء الشرقية) ، كان يشكل جزءاً من هذه المدينة القديمة ، ولا يدع وصف سترابون ، الذى يضع هناك حى بروخيون أو حى القصور ، وميناء الملوك ، وكذلك وصف هيرتيوس Hirtius الذى يعطيه له فى كتابه عن الحرب الأهلية فى الاسكندرية ، لا يدع كلا هذين الوصفين أى شك حول هذا الموضوع .

إن الخرائب الهائلة التى يعثر عليها ، والتي نذكر بقاياها بكل المباني التى تتطابق مع هذه الشهادات بنفس النظام والترتيب اللذين ينسبهما إليها جغرافيونا . يقول يوسيفوس ، الذى كتب تاريخ اليهود فى هذه المدينة ، فى حوالى السنة ٧٠ من الميلاد ، إن اليهود كانوا يسكنون فى زمنه جزءاً من حى القصور ؛ ويقول سان جيروم ، الذى كتب عن نفس المدينة فى حوالى عام ٤٢٠ ، إن نفس هذا الحى ، والذى كان منفصلاً فى ذلك الوقت عن المدينة ، قد أصبحت ملجأ لبعض النساك المنعزلين ، كما كان مهجوراً تماماً فى عصر سانت إيفان ، الذى كان يعيش فى نحو نهاية هذا القرن .

وينتج عن هذه الشهادات التى لا يمكن الطعن فى صحتها ، أن السور الحالى للمدينة سور حديث ، حيث أن كل الجزء الذى كان مأهولاً للغاية فى عهد البطلمة وحتى نهاية القرن الرابع ، والذى يستخدم اليوم كدفن خاص بالطائفة

اليهودية ، يظل مهجوراً كلية ، وخارج هذا السور نفسه الذى ينسب ببناءه إلى
الحكام العرب .

٨٩ - قلنا فى القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة رقم ٢٠ ، إن المرء
يلاحظ بدهشة ، ذلك الاستخدام غير المألوف فى أى مكان آخر ، لعدد كبير
من الأعمدة التى أدمجت فى بناء جسم أبراج وجدران هذا السور . وأن هذه
الأعمدة الموضوعة بشكل أفقى ، بين مسافة وأخرى ، تسمح برؤية أطرافها على
واجهات هذه الجدران ، وإليك الملاحظات التى يمكن استنتاجها من ذلك والتى
تأتى لتدعيم تحليلنا .

لا يتخيل المرء إلا أن بناء الاسكندرية قد استطاعوا أن يجلبوا بنفقات
باهظة ، من الصعيد ، ومن ممفيس ، وهايوبوليس ، بل ومن اليونان نفسها ،
وإيطاليا ، هذه الكميات الهائلة من الأعمدة من الحجر الرملى ، وكذا الأعمدة
الجرانيتية والرخامية ، التى تنتمى إلى أنواع أخرى^(١) التى يستخدموها فى بناء
الأسوار الحصينة ، التى التحمت بجميعها هذه الأعمدة ، هل هذا النحو الغامض ،
ذلك أنهم بالتأكيد لم يكونوا ليكلفوا خاطرهم كل هذه المشقة ولا أن يتكبدوا
كل هذه النفقات فى قطعها وصقلها - الأمر الذى لا يزال واضحاً حتى اليوم ،
أو الذى كان واضحاً فيما مضى ، حيث يتحدث كل المؤرخين القدامى عن هذه
القصور ، وهذه المعابد ، وهذه الأروقة ، وهذه الشوارع المزدانة بالأعمدة ،
والتي كانت مشار إعجاب كل من زار هذه المدينة ؛ كما لا ينبغي الاعتقاد بالمثل ، بأن
ألوف الأعمدة التى تراها مكدسة ، لتشكل أرصفة وحواجز بحرية فى مينائى
المدينة الحديثة ، قد قطعت مبدئياً لهذا الغرض . أليس من الطبيعى للغاية أن

(١) يقال إن من الضروري أن كثيراً من هذه الأعمدة المصنوعة من الرخام الأبيض قد جلبت
من اليونان أو من إيطاليا ، حيث أنه من المعروف أن كل المباني القديمة فى مصر العليا ،
لا تتعمل إلا على أعمدة حجرية أو جرانيتية ، وفضلاً عن ذلك ، فإننا لا نعرف محاجر للرخام
الأبيض فى مصر .

نظن أن هذه المدينة الرائعة التي أبنى عليها الزمن والتي دمرتها الحروب السياسية والدينية أثناء قرون المسيحية الأولى ، والتي انتهى عمرو البغيض (كذا !) بأن قلبها رأساً على عقب ، وحوث لم تعد تشكل إلا مدينة الانقاض والخرائب عند خلفاء هذا الغازى - قد أعيد بناؤها من نفس مواد أنقاضها ؛ وأن ثمة ألوفاً من الأعمدة المحطمة والمقلوبة ، والتي لم يمد لها نفع في تجميل معابد خصصة لعبادة اندثرت أو لتصور أخرى ومباني عامة ، سوف تستخدم منذ الآن في دعم وتقوية جدران هذا السور^(١) ، ونضيف إلى ذلك أن الطابع الذى تحمله عمارة الجدران والأبراج الجميلة فى الاسكندرية هو - وبشكل مطلق - نفس الطابع الذى تحمله الأجزاء التى ما تزال ظاهرة من السور ، وبخاصة قلعة القاهرة ، ونتيجة لذلك فإننا نقرر بشكل موضوعى أن سور عاصمة مصر الحديثة وقلعة هذه المدينة ، يعود إلى حكم مسلمين ، وبصفة خاصة إلى السلطان صلاح الدين الذى أمر ببنائه فى الجزء الأكبر ، فى السنوات الأولى من القرن الثالث هجرى .

٩٠ - وهناك ملحوظة أخيرة تأتى لتدعم افتراضنا ، تقوم على الشكل الدفاعى الذى للسور ابتداء من البرج المسمى بالبرج الرومانى إلى الميناء الجديد وحتى باب رشيد ، والذى يبلغ امتداده ١٥٩٠ متراً ٨ ٤ ٨١٥ ؛ وبلاحظ المرء فى الواقع أن نظام كل هذا الجزء هو أن يدافع عن نفسه دفاعاً دائماً ضد المناطق الخارجية التى تحتلها اليوم مقابر اليهود ، والتي تقع كما سبق أن بينا فى نفس حى بروخيون القديم أو حى قصر الملوك ؛ ومن جهة أخرى فنحن نعرف أن بوليوس قيصر كان قد قام بتحصين هذا الحى من بقية المدينة ، على نفس نظام

(١) لا بد لنا أن نلاحظ أن استخدام هذه الأعمدة التى وضعت على هذا النحو فى جسم الجدران كانت له غاية مفيدة ، هى منع أو إيقاف سقوط الأجزاء العليا من هذه الجدران فى الحالة التى تكون فيها الأجزاء السفلى قد تكسرت أو تقوضت بفعل المنجنيق أو أية آلات حربية أخرى ، كانت تستخدم فى ذلك الوقت ، أوقات الحصار .

قلاعنا ، أثناء الحصار الذى تحتم عليه القيام به ضد قوات البطالمة وأهل الاسكندرية ؛ لذلك لا يمكن للمرء على الإطلاق أن يستخلص فى هذه الحالة ، أن السور الحالى لهذا الجزء من المدينة ، كان جزءاً من مدينة الإغريق على أى وجه من الوجوه ، حيث أنه قد بنى بنظام الدفاع المضاد أى أنه يصارع ويحارب - على العكس - حتى الملوك القديم^(١) .

٩١ . ويمكن الاعتقاد ، تبعاً لما يقوله أحد المؤرخين العرب ، وهو ابن عبد الحكم والذى يورده الفرغان فى صفحة ١٥٩ ، أن هذه المدينة كانت مزودة بثلاثة أسوار بالشكل الذى كانت عليه كل المدينة القديمة على وجه التقريب ، ومن المحتمل عندئذ أن السور العربى الذى نحن بصددده هو السور الداخلى للحصن القديم الذى على أنقاضه ، قام الحكام المسلمون بإعادة بنائه ؛ لكن صمت المؤلفين القدماء عن موضوع هذه الأسوار الثلاثة لا يسمح بالتوقف كثيراً عند هذا الاحتمال ، الذى لا يمكن أن يعد سوى دعم ضعيف لما نحن بصددده .

٩٢ - وأنهى هنا هذه المناقشة التى تؤكد بشكل لا نزاع فيه ما قلته من أن السور الحالى ، الذى قلص إلى حوالى نصف الاتساع الذى كان عليه فى زمن الإغريق ، لا يمكن أن يكون فى الواقع إلا من عمل الحكام العرب أو ربما الأباطرة المشرق ، ذلك أنه يمكننا أن نستنتج من النص التاريخى الذى أوردناه من

(١) لا بد أن نكون على يقين من أن هذه المدينة قد قلبت رأساً على عقب ، وأن سورها الحالى الذى يعلوه مائة برج ، ليس فى جزئه الأكبر ، إلا عملاً بالغ الحداثة ، حتى أننا تعرفت عند باب رشيد ، فى الحفريات التى قام بها المهندسون العسكريون لفتح هذه الباب ، أثناء حصار هذه المدينة فى يولية ١٨٠٦ ، على حصن نصف دائرى تزدود عنه من الأمام حفرة ، كما أننا تعرفت على طريق مرصوف بالبازات الأسود على طريقة الشوارع الرومانية . وقد سبق هذا الطريق على عمق خمسة أقدام تحت نفس هذا الباب الحديث ، وهل هذا النهر كانت تزدحم شوارع روما كما نتعرف على ذلك اليوم فى عمود تراجان ، وفى قوس شبتيموس سفيروس وفى أماكن أخرى من عاصمة العالم القديمة هذه .

حصار الاسكندرية على يد عمرو ، أن هذا السور قد تقلص ، ولا بد ، في جزء منه عند نحو منتصف الثمن السابع إلى الإتساع الذي له اليوم من ناحية الجنوب ، لأن هذا الغازى كان ولا شك معسكراً إلى فوق مرتفع سبتيموس سيفيروس عندما أعطى هذه الاجابة البالغة الحدة لمقوقس الاسكندرية ؛ هل ترى هذا العمود؟ لن نخرج من مصر إلا إذا أكلته^(١) . ومع ذلك فلا بد أن هذه المدينة كانت قوية للغاية في هذه الفترة ، حيث فقد على أسوارها هذا القائد ٢٣ ألف رجل بعد حصار دام ١٤ شهراً ، وإني لأميل إلى الاعتقاد بأن أول إعادة لبناء سور الاسكندرية ، قد تمت قبل وقت قليل من انتهائات هذه المدينة تحت حكم الامبراطورين كلوديوس الثانى وأورليان فى عامى ٢٦٩ و ٢٧٥ من العصر الحديث .

٩٣ — وبعد أن أوضحنا أن المرء لا يمكنه أن يؤسس على معطيات المؤرخين القدماء ، فيما يخص الامتداد المبدئى (للاسكندرية) فى عصر امبراطورتيق الإغريق والرومان ، حين حلت الصحراء محل الجزء الأكبر من أرض هذه العاصمة القديمة لمصر ، فلا يبقى على سوى أن أبرز المواقع التى حددتها لبعض هذه المباني على الخريطة المرفقة .

ولن أضع فى اعتبارى هنا أن أقوم مناقشة جديدة سعياً للعثور على الشكل الذى كان عليه سور هذه المدينة ، والذي يقارنه بلين Pliny بمعطف مقدوني إذ ليس لذلك كبير أهمية ، وفضلاً عن ذلك فلا بد أن نفترض أن نقاشا كهذا سيكون فيه من الخلق أكثر مما فيه من الدقة والتحديد ؛ لا بد إذن أن أنبه مسبقاً أن الخط الذى يملته على الخريطة قد تأسس على تصور الأماكن فى حالة دمارها الحالى أكثر مما هو مؤسس على أبعادها التى قدمها عنها المؤرخون القدماء

(١) انظر الهامش السابق وروده مع الفقرة ٨١ من هذه الدراسة .

الذين يصعب أن نوفق بين مقاييسهم المختلفة ، ولا بد أن القارىء سيقنع بذلك حين يطالع على الأطوال المتنوعة للمقاييس القديمة والحديثة التى ينتهيا فى هذا الخصوص ، على هذه الخريطة .

٩٤ — قلت من قبل إننى أعتقد أن حصن الفنار ، كان يمثل موقع هذا المبنى القديم ، أحد أعاجيب الدنيا السبع ، وقد تأسس هذا الرأى على شواهد تاريخية ، وعلى البراهين الآتية :

ينسب المؤرخون العرب إنشاء الفنار^(١) إلى الفرعون العاشر مهرايم ابن بوسير ، وهو نفس الفرعون الذى أسس راكوتيس ؛ كما ينسبونه كذلك إلى الملكة دوليك Douleka وإلى دارا (داريوس) الفاتح وإلى بطليموس فيلادلفوس ؛ وإلى كليوباترة ، وما يقوله هؤلاء المؤلفون من هذه المقاييس هو بلا شك أمر مبالغ فيه . ومع ذلك ، فينبغى القول على الدوام بأن هذا المبنى جدير بأن يعد من عجائب الدنيا السبع ؛ وقد تحطم الفنار جزئياً عند حوالى نهاية القرن الهجرى الأول فى عهد الخليفة ولید بن عبد الملك ، حوالى عام ٧٠٥ من الميلاد ، بفعل خدعة من أحد الأروام كما يذكر المقريزى ، وقد أدت هزة أرضية ، حدثت سنة ١٧٧ هجرية أو ٧٩٣ م إلى انهيار جزء من قته ؛ وهكذا كان الفنار مبتوراً فى السنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) ، وفى حوالى ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) أسر أحمد بن طولون بتتويج الفنار بقبة خشبية . ونجد على الواجهة الشمالية ، وهى تلك التى تطل على البحر ، نقشاً يبلغ طول حرف من حروفه ذراعاً وبعرض يبلغ الشبر ، وهذه الحروف التى لم يقدم لها شرح ما ، كانت ولا شك هى حروف النقش الإغريق الذى أمر بتنفيذه هناك سوستراتوس من إكثيدوس Sostrate de Cnide سنة ٢٨٣ ق . م ؛ وقد أدى زلزال أرضى مرعب ، شعر به الناس فى بلاد البربر ومصر وسوريا ، إلى تحطيم جزء آخر منه . وفى العام

(١) Voyage d'Egypte et de Nubie, par Norden, t. III. édition de Langlès, p. 162 et 169, Paris, 1801.

٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) تقوضت أعمدة وسقوف الفنار ؛ كما أنهار مسجد بني فيه في عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) بفعل زلزال أرضى آخر ، أضر بالفنار وبعض أجزاء من جدران أبراج الاسكندرية ، حتى أنه لم يكد يبقى شيء من هذا المبنى ، وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون ؛ في السنة التالية ، بإعادة بناء المسجد ، الذي ظل موجوداً حتى زمن المقرينى ، في حوالى نصف القرن الخامس عشر .

ومن جهة أخرى ، فإننا نقرأ عند عبد الرشيد أن سليم (الأول) ، في عام ١٥١٧ ، قد أمر ببناء مسجد وقصر في نفس مكان الفنار ، الذى كان في ذلك الوقت قد تضرر تماماً ؛ ولا يزال المسجد والقصر موجودين حتى اليوم ، ويحملان نفس الاسم^(١) .

٩٥ -- وسوف ندرك بالتأكد ، تبعاً لتفاصيل هذه الأحداث ، أن الفنار القديم لم يستطع البقاء فوق الصخرة المسماة الماسية Diamant ، التى تحدثت عنها فى القسم الأول ، الفقرتين ٦ ، ٧ حيث أن أنقاض هذا المبنى الضخم ، الذى قوضته رأساً على عقب زلازل أرضية عديدة ، قد غرست البحر فى المناطق المجاورة ؛ كما يلاحظ المرء فى الواقع ضخامة المياه فيما حول حصن الفنار ، فى الوقت الذى لا نجد فيه على العكس من ذلك ، إلا مياهاً شديدة العمق حول الماسية .

٩٦ -- ولا يفوتنى عند الحديث عن الفنار القديم أن أتناول الجزيرة التى منحته اسمه ، والتى كان موقعها موضعاً لمناقشات طويلة بين المؤلفين والجغرافيين

Décade Egyptienne, t. Ier, p. 237 ;

(١)

وكذلك :

Mémoire sur l'Egypte, t. II, p. 54, Paris, 1800,

المحدثين ، ولن أتناولها هنا إلا لكي أحسم الأمر ، إن كان ذلك ممكناً ، تبعاً لما ذهب إليه سترابون ، وبفعل المعرفة السكاملة التي حصلت عليها عن مواقع الأماكن .

يقول سترابون Strabon ، إن هوميروس الذي كان قد سافر إلى مصر كثيراً ما كان يخلط الأساطير بتاريخه الشعري ، وفي الواقع ، فإنه يمكن الظن بأن هذا المؤلف قد استخدم الأساطير على هذا النحو ، في تلك الفقرة التي أدت إلى هذه المناقشات الطويلة ؛ يقول هوميروس : إن جزيرة فاروس كانت تبعد عن الشاطئ المصري بمسافة تساوى تلك التي تقطعها سفينة تدفعها ريح مواتيّة في يوم كامل^(١) ، إن هذا النص الذي ارتكز عليه خطأ كثير من المؤلفين المحدثين كي يتلمسوا تقدم ترسيبات الدلتا ، هو أبعد عن أن يكون قد توضح بدرجة كافية ؛ وهذا هو الفحص الذي يدعم رأي هذا الخصوص .

إذا لم يشأ المرء أن يفهم من كلمة فاروس، إلا أنها هي هذه الجزيرة الصغيرة التي كانت تقع بالقرب، وإلى الشمال الغربي، من راكوتيس ، تلك القرية البحرية التي بنيت عندها مدينة الاسكندرية ، فإنني في وضع يسمح لي بأن أؤكد أن هذا النص عار من كل دقة جغرافية ، حيث لم تكن تبعد هذه الجزيرة الصغيرة عن مدينة الاسكندرية إلا بمسافة ٧ غلوات ، وهو ما يساوى ٦٦٥ قامة أى ١٢٩٦ متراً؛ وبمعنى آخر ، فإن هذه المدينة قد بنيت فوق شبه جزيرة طويلة ، تمتد (أى شبه الجزيرة) من المصب الجنوبي عند الشرق إلى جنوب الجنوب الغربي ، لمسافة ١٠ ميريامتر أو ٢٠ فرسخاً ، حيث هي تتكون من سلسلة من الجبال متصل بمرتفعات يبدو أنها كانت تلتهى إلى البحر الفارغ

(١) هوميروس ، الأوديسا ، الكتاب الرابع ، الأبيات من ٣٥٤ إلى ٣٥٧
وقد جاء هوميروس بعد حرب طروادة بـ ٣٧٧ سنة ، وهي الحرب التي دامت حسبما يذكر هيرودوت في العام ٣٤٣٤ من العصر الجولياني أو ١٢٨٤ قبل الميلاد .



الاسكندرية في العهد الاغريقي والروماني



الاسكندرية عند الفتح العربي

في الصحراوات الليبية ؛ لكن هذه السلسلة ، التي ليست سوى صخرة متصلة من طبيعة حجرية ترتفع عادة من ٥ إلى ١٠ إلى ٢٠ متراً فوق مستوى سطح الماء ؛ وكانت شبه الجزيرة هذه وكذلك جزيرة الفنار موجودتين في زمن هوميروس ، حيث قد جعل هذا الشاعر بطله ميللاس ، الأمير الإغريقي ، يرسو في كانوب ، وهي المدينة التي كانت تقع نحو الطرف الشرقي لشبه الجزيرة هذه بالقرب من رأس هيرقل ، المسمى حالياً خليج أبي قير ، حيث كان ينتهي الفرع السكاني ويصب مياهه في البحر ؛ وهكذا فإن جزيرة الفنار أقل ارتفاعاً عن مستوى أرض كل شبه جزيرة الاسكندرية ، أما المسافة التي تفصل بينهما ، والتي تبلغ ٢١٧٢٠ متراً (١١١٤٤٤ قامة) محسوبة باستخدام حساب المثلثات ، وفي خط مستقيم مع خليج هيرقل ، فهي أقل بكثير جداً من الإبحار اليوم ، وهو الذي يقدر بـ ٥٠٠ غلوة أو ٦٠ ميلاً رومانياً^(١) ، أي ما يبلغ ٤٠٥٠٠ إلى ٤٧٠٠٠ قامة تساوي ستة عشر فرسخاً بحرياً ونصف الفرساخ .

إذن فعلى ما أن نبحت في مكان آخر من شبه الجزيرة هذه، ومن الاسكندرية حتى كانوب، بل وحتى المصب السكاني، عن الساحل الذي أراد أن يشير إليه الشاعر الإغريقي في هذه الإشارة الجغرافية الصرفة ، وإلى المسافة التي تفصل جزيرة فاروس عن الساحل المصري، ولذلك فإذا ما أريد أن يفهم - تبعاً للفسير الذي نوردته لبعض العلماء المدققين؛ نذكر من بينهم المسيو جوسلان - أن مسافة ابتعاد جزيرة فاروس التي تحدث عنها هوميروس قد قدرت على أساس ابتعادها عن أبيجتوس

(١) يقدر الإبحار اليوم كامل كما يذكر دولوميان Dolomien في ملخصه حول نفس الموضوع (Journal de Physique de 1793. t. XLII, p. 176) بـ ٥٠٠ غلوة أو ستين ميلاً رومانياً ؛ قال ٥٠٠ غلوة تساوي ٤٢٢٥٠ قامة ، ويقدر الـ ٦٠ ميلاً رومانياً بـ ٤٥٣٦٠ وهو ما يبلغ لـ ١٦ فرسخاً بحرياً ، ويساوي الفرساخ البحري ٢٨٥٣ قامة ، ويقدر الإبحار لنهار وليل بـ ١٠٠٠ غلوة أو ٩٤٥٠٠ قامة حسبما يقدر تيوفيل Théophile ، كما يذكر الأستاذ جوسلان Gosselin في كتابه : Navigation des anciens, t. II. p. 3 .

Aegyptus ، وهو الاسم الذى كان النهر يحمله فى ذلك الوقت ، وليس مطلقاً عن مصر التى كانت شواطئها فى ذلك الوقت ليست سوى أرخبيل ، فإننا نرى أنه ينبغى - والحالة هذه - أن يكون مصب النهر الموجود إلى أقصى الغرب ، وهو المصب السكائوبى ، كما كان يسمى زمن حصار طروادة ، فى ميتيليس Metelis أو فى هرموبوليس Hermopolis (حالياً فوه ودمهور) الواقعتين على بعد ١٤ و ١٦ فرسخاً إلى الجنوب الشرقى ، ومن العسير أن نفسر على خلاف ذلك ، نص الشاعر الإغريق ، الذى كان ، حسبما يذكر سترابون على علم ببرزخ السويس الذى كان موجوداً فى عصره .

ولكن ، هل كان لهرموبولس أن يسمى عند حديثه عن جزيرة فاروس هذه أن يتكلم عن شبه الجزيرة هذه ، الطويلة والضيقة التى تقع أمامه على بعد سبع غارات فقط ، وتضم مدن كانوب ، راكوتيس ، نيسى ، بلنتين (رشيد) ، ومدىلى تابوزيريس إلخ . إلخ ، اللهم إلا إذا لم يكن يعنى بهذا الاسم شبه الجزيرة هذه نفسها ؛ لكن هذا الصمت عن وجود شبه الجزيرة التى كان ينبغى أن يلحق بها كذلك بقية الجزر ، وكل الساحل الصحراوى المرتفع ، والذى ينتهى جنوباً ببحيرة ماريوتيس ، هذا الصمت لابد أن يحمل على الاعتقاد أن جزيرة فاروس التى تحدث عنها الشاعر الإغريق ، والذى قال إنها كانت تقع فى أعلى البحار ، لابد أنها قد غرقت ، أو بمعنى أصح أنها لم تكن سوى أسطورة أو جوح شعري ، ان لم نقل بأنها مبالغته ، حيث أننا لا نستطيع مطلقاً أن نعملها ، كما رأينا ، على أنها الجزيرة الصغيرة التى أمر بطليموس ، بعد أكثر من ستمائة عام بأن يشيد عليها هذا البناء ، أحد عجائب الدنيا السبع ، والذى عرف باسم فاروس ، وتوجد هذه الجزيرة الصغيرة اليوم ، وقد اتصلت بفعل عمليات ردم الرمال بشبه جزيرة الإسكندرية .

ويخيل إلى أن ما سقته الآن يحسم نهائياً هذه المسألة .

٩٧ - أعود الآن إلى الميناء الجديد الذى يحمى مدخله عند الشرق حصن صغير ، والذى أدى موقعه أمام وفى مواجهة حصن الفنار لأن يشار إليه باسم المنارة أو الموقد Pharillon ، ولست أظن أن هذا الحصن الصغير يشغل مكان حاجز الموج القديم الذى كان يعرف باسم أكرولوخيلاس (السلسلة حالياً) لأن هذا الحاجز ولا بد ، قد كان فيما مضى يتوغل كثيراً داخل البحر باتجاه الفنار ، إذا ما اعتمدنا فى ذلك على نص من لو كان 'Lucain' ؛ إذ يقول هذا الشاعر بأن كليوباترة عندما أرادت للبحاق بقيصر فى الاسكندرية ، قد دخلت إلى هناك عن طريق الميناء الكبير ، بعد أن أدركت حاكم الفنار ، الذى فتح لها سلسلة فناره وتركها ترسو فى ميناء حى الملوك حيث كان يسكن قيصر ، ويبدو أن مدخل الميناء الكبير ، كانت تقفله سلسلة كانت لا تزال تستخدم حتى عام ١٥٥٠ كما يذكر ليون الأفريقى ، الذى كان يطلق على هذا الميناء اسم مرسى السلسلة أى ميناء السلسلة ، وقد رأينا فى القسم الأول ، الفقرة ٤ أن فتحة هذا الميناء الذى يقع ق قامة بين الحصنين اللذين يذودان عن مدخله ، كانت تبلغ ١٧٨٩ متراً (= ٩١٧٥) ، ولسنا نتصور - دون شك - أنه ليسكن أن تمتد هذه السلسلة من حصن لآخر بعرض هذا الممر ، بل يمكننا أن نستخلص أن أكرولوخيلاس كان متقدماً بكثير نحو الفنار مع خط السلسلة الصخرية وخط أعماق المياه الضحلة ، كما أوضحناه على خريطة الاسكندرية .

٩٨ - وقد رأينا فى هذا القسم ، الفقرة ٧٩ ، أن المرء يظن أنه قد تعرف على إتجاه الهبتاستاد فى الخط الذى يمر بالبرج الشمالى لسور الميناء القديم ، والحصن الواقع فى الميناء الجديد ، بالقرب وإلى الجنوب الشرقى للطريق الذى يغطيه حصن الفنار ، وتماثل هذه المسافة التى تبلغ ٦٦٥ قامة مع تلك التى تبلغ سبع غلوات أولمبية ، لكن اتجاهها لا يتماثل مع ذلك الذى يقدمه سترابون ، حين يقول أن الهبتاستاد كان يمتدى من القارة ويتجه نحو الطرف الغربى



الاسكندرية وقت اطلالها القديمة

لجزيرة فاروس ، بحيث أننى أذهب لحد أن أعطيه نفس الاتجاه الذى للبرج الكبير المشرف على ساحة الميناء الجديد ، نحو الحصن الصغير الواقع فى مركز الجوين الذى تكونه جزيرة فاروس إلى الشمال الشرقى من الميناء القديم ؛ أما المجرى المائى الهندسى ، الذى تحطم اليوم ، والذى تحدثنا عنه فى القسم الأول ، الفقرة ٢٩ ، والذى قد يكون هو أنقاض ذلك المجرى الذى كان ينقل المياه ، حسبما يذكر سترابون ، إلى جزيرة فاروس عن طريق الهبتاستاد ، فيقدم بعض الدعم لهذا رأى ، ومع ذلك فكيف كانت مياه هذا المجرى تمرر المينائين اللذين كانا يسمحان بمرور السفن من خلال الهبتاستاد ؟ واضح أن هذا السؤال يقدم بعض الصعوبات التى سيكون علينا أن نفوض طويلا لنبحث فى صميمها .

٩٩ - ووسط الخرائب التى تحيط بالشرق الشرقى للميناء الجديد ، يعرف الإنسان ، حين يترك جسر الأكرولوخياس المحطم ، والمسمى حالياً بالمنارة Pharillon ، على حاجز بحرى ، لابد أنه كان جزءا من مدخل ميناء الملوك المغلق .

١٠٠ - لم نستطع العثور على آثار جزيرة أنترووس Antirrhodos التى كانت تحجب ، كما يذكر سترابون ، مدخل هذه الميناء ، اللهم إلا إذا كانت هذه الجزيرة قد احتلت موقع هذه الشعاب الصخرية التى توجد بحذاء سطح المياه ، والتى لا زال توجد عند مركز الميناء الجديد ، منعطفة نحو غرب الجنوب الغربى .

١٠١ - وبمحاذاة الساحل إلى الجنوب ، توجد بقايا حاجز بحرى آخر ، يلفت النظر ببليانه الحجرى الذى يتكون من أحجار بالغة الضخامة ، وتعود هذه الخرائب بلا جدال إلى هذا المرفأ أو الممر الذى يسميه بوليب : سيرنكس Syrnix ؛ والذى كان يؤدى إلى البوزيديوم posidium - ذلك الذى حددت

مكانه بين تلك الخراب الهائلة التي توجد في هذه المنطقة تحت اسم قصر خرب palais ruiné (في الخريطة) في هذه المنطقة أيضاً كان يوجد معبد لنبتون ، الذي أقام تجاهه مارك أنطونيو بعد أن هجره حزبه ، وهرب مع كليوباترة من خصمه اللدود أغسطس ، قصرأ أسماء تيمونيوم Timonium لكي يعيش فيه مديناً من العالم ، على غرار Timon تيمون الفظ ، كاره البشر (*) .

١٠٢ -- لا يمكن للمرء أن يخطئ موقع الكرازيوم Coes-arium أو قصر الملوك ، بسبب وجود المسلمين اللتين تحدثنا عنهما في القسم الأول الفقرة ١٩ ، حسبما يذكر بلين pline ، الذي يقول : « توجد مسلتان ومعبد لقيصر ، ويبلغ طول المسلة الواحدة أربعين ذراعاً ، وقد أخذتا من آثار الملك مسفيس Mesphees rex

١٠٣ -- وقد سبق أن قلت إن الطول الإجمالي لكل من هاتين المسلتين ، اللتين ذكر بلين أن ارتفاع كل منهما يبلغ أربعين ذراعاً ، يصل من القاعدة وحتى قمتها الهرمية ٦٣ قدماً أو ٦٢٧ م ، وإذا كانت هذه الإشارة من بلين pline دقيقة محددة ، وهذا ما لا نستطيع أن نعول كثيراً عليه ، فإن قيمة الذراع تصل في هذه الحالة إلى ١٩ بوصة تساوي ٥١٦ م من المتر .

١٠٤ -- وقد تصورت أنه ينبغي أن أضع الجنائز Gymnase في المكان الذي يجده فيه الممر الاطلال الهائلة لذلك القصر الحزب المطل على الشارع الكبير ، حيث أن الصفوف المتوازية من الأعمدة الضخمة ، التي لا تزال موجودة في تلك الجهة ، تذكر بالدهاليز المغطاة لهذه المباني ، والتي كان يبلغ طولها أكثر من خلوة .

١٠٥ -- يضع كل من بونامي Bonamy ودانفيل d'Anville السيرابيوم Serapeum تحت جبل الانقراض الواقع إلى الشمال الغربي من سور الميناء القديم ، والذي كان لا يزال مقاماً فوقه حتى هذه السنوات برج المراقبة ، وأظن أن على

(*) فيلسوف أغريقي من القرن الخامس قبل الميلاد .

أن أحدد مكان هذا المبنى ، الذى ذكر سترابون بأنه كان يقع إلى الشرق من التربة عند مرتفع صغير ، بالقرب وإلى الجنوب منه ، حيث يجعد المرء هناك خراب هائلة ، لمبنى نفخ مبنى بالطوب الأحمر يشبه طوب القصر الحذب بالقرب وإلى الشرق من جامع سانت أنناز (*) .

١٠٦ - وأضع على قمة عمود سبتيموس سيفيروس البانيوم panium الذى يضعه كل من بونامى ودانفيل تحت ربوة أو جبل سانت كاترين ، الواقع إلى الجنوب الشرقى للصور الغربى ، حيث أن هذا المرتفع الذى نجد فوقه بقايا بناء ، يتفق لحد كبير مع الوصف الذى يعطيه سترابون للبانيوم ، الذى كان عبارة عن مكان مرتفع ولكن ارتفاعه هذا ليس من فعل الطبيعة وإنما هو من صنع الإنسان ؛ ومن قمة هذا المبنى يستوعب النظر كل المدينة والموانى القائمة على البحر والبحيرة فى سهولة .

وأرى الآن مدفوعا إلى الاعتقاد بأن العمود الضخم ، عمود سبتيموس - سيفيروس (عمود السوارى) ، إنما هو واحد من تلك الأعمدة التى كانت تشكل جسرى الهبتاستاد ، واللذين من تحتها كانت ترى السفن القادمة Mangnus portus وذهابة إلى Euncestus portus ؛ وبما يرجح هذه الفكرة وجود تلك الأعمدة ذات الأحجام المماثلة له أو المتقاربة معه على الأقل ، والتى قال المسيو دى مايه Mailet إنه رآها فى البحر عند مدخل الميناء الجديد ، لأنه إذا كانت هناك أعمدة كبيرة على هذا النحو ، قد أقيمت فوق قاع البحر وتشكل كما يقول سترابون جسرين تمر من تحتها السفن عن طريق الهبتاستاد ، فلا بد أن يكون حجمها هائلا لحد غير معتاد .

(*) جامع سان أنناز = كنيسة بناها الأسقف ثيوفانس (٢٨٢ - ٣٠٠) بالقرب من الميناء الغربى ، ثم أعاد بناؤها وزاد من حجمها الأسقف اسكندر ، وبقيت حتى نهاية القرن الرابع الكنيسة الكبرى ومقر الأسقف ، وكانت هذه الكنيسة التى هاجمت فيها الحامية الرومانية لثناسيوس (سان أنناز) وهو على رأس المصلين وأخيرا حولها العرب إلى مسجد ، بعد أن كانت قد فقدت أهميتها بعض الشيء فى القرن السادس حين أصبحت كنيسة القيصرون (السكيزاريوم) هى الكنيسة الرئيسة . وسمى هذا المسجد بالجامع الغربى أو جامع الألف عمود . [المترجم]

١٠٧ - ويتحدث سترابون عن سيرك كان موجوداً عند مدينة نيكوبوليس الصغيرة (بولكلي) ، لكنني لم أتمكن أياً لذلك إلا بالقرب وإلى الجنوب من عمود مينيوس (عمود السواري) ، فهل كان ثمة خطأ في النص من جانب النساخ الذين ربما كتبوا نيكوبوليس على أنها نيسكروبوليس ! ذلك أن السيرك يوجد في الواقع عند بوابة هذه المدينة الأخيرة ، اللهم إلا إذا كان هذا السيرك قد بنى في الأزمنة اللاحقة ، كعمل من أعمال أباطرة روما أو سلاطين القسطنطينية .

١٠٨ - إذا كنا قد استطعنا أن نطبق كما ذكرنا في هذا القسم ، الفقرة ٨٢ ، واحداً من مقاييس الغلوات المصرية أو الألمية على مسافة ٤٠٠٠ م ، فقامت التي توجد بين الطرف الغربي لشارع الاسكندرية الكبير والموقع الحالي لقصر القياصرة حفت حددنا موقع نيسكروبوليس القديمة ، فلن يخالجنا أدنى شك حول قيمة الغلوة التي يشير إليها سترابون ، حين يقدر هذا الجغرافي نفس هذه المسافة بـ ٦٠ غلوة ، ومع ذلك ، فعلى الرغم من أننا قد رأينا أن طول كل من هذه الغلوة وتلك لا يتفق وهذا البيان ، فإننا لن نتردد في أن نحدد عند قصر القياصرة موقع هذه المدينة القديمة ، ويدهم رأينا تلك الخرائب الهائلة التي نجدها في هذا المكان ، وكذلك بعض التماثيل من الرخام الأبيض التي اكتشفناها هناك ، والتي استخرجناها من وسط أنقاضها .

١٠٩ - ويمكن أن نستنتج أن قصر القياصرة يعود إلى عصر جوستنيان Justinien ، فهو الذي أمر في منتصف القرن السادس ببناء عدد كبير من المنشآت ، في صحاروات سوريا وفي جبل سيناء وفي مصر وفي البلتابول الأفريقي ، ونقرأ عند Procopé de Césarée أن هذا الامبراطور قد أمر بإقفال مكان يسمى فيال phiale بحدران حصينة ، كانت تستخدم في احتواء مخزون الحبوب عن طريق ترعة شيريه Chérée التي كانت تحمل مياه بحيرة ماريا ، ويتفق هذا النص تماماً مع شكل وموقع هذا الحصن ، الواقع إلى الغرب من الاسكندرية ، والذي لم

يعد باقياً منه سوى جدران ذات سمك كبير^(١) ، كما سبق أن قلنا في القسم الأول من هذه الدراسة ، الفقرة ٣٨ .

١١٠ — أما المقابر التي تحدثنا عنها في القسم الأول ، الفقرة ٤٦ ، والقسم الثاني ، الفقرة ٧٤ ، فهي بلا جدال من انجاز شعب كبير العدد ينتمى لسلسلة طويلة من الأجيال ، ويقول المسيو أوليفيه Olivier بهذا الخصوص إن علينا ألا ننسب لا إلى الإغريق ، ولا إلى الرومان الذين جاؤا بعدهم ، الأعمال الضخمة لهذه الكهوف المقبرية حيث كان هؤلاء وأولئك يحرقون أجساد الموتي بدلاً من تحنيطها على طريقة المصريين . ويستخلص هذا العالم من هذا الرى أن مدينة الاسكندرية كانت ولا بد هائلة لمسد كبير قبل مجىء الفاتح الذى منحها اسمه ، مادام ينبغى ، تبعاً لرايه ، أن تلسب هذه الممشات إلى الشعب التي سكنتها قبل مجىء هذا الحاكم (الاسكندر) . وعلى الرغم من أننى قد قلت فيما سبق أن راكوتيس كانت بالضرورة قرية هلى درجة من الأهمية قبل فتح مصر على يد الاسكندر ، إلا أننى مع ذلك أذهب إلى عكس ماذهب إليه المسيو أوليفيه ، فأرى أن هذه المقابر تلسب إلى سكان هذه المدينة في عصرها الإغريقى بل وكذلك في عصرها الرومانى ، حيث ترك هؤلاء وأولئك — الإغريق والرومان — للشعوب التي أخضعوها عاداتهم ، وبخاصة احتفالاتهم الدينية والجنائزية .

ونحن نعرف ، فى الواقع ، أن الرومان لم يهتموا مطلقاً بنشر ديانتهم فى مصر ، بل إنهم هلى العكس من ذلك ، قد أقاموا فى روما معابد لإيزيس وإلهات مصريات أخريات ، وفضلاً عن ذلك فإن المعبد تحت الأرضى الذى يشار إليه على نحو غير دقيق باسم حمامات كلوباترة يرتبط بالنمط اليونانى

وليس بالنمط المصري في فن العمارة ، بهذا التناسق والانتظام في تصميمه ،
وبمخففة من الداخل حيث هو منحوت في الصخور .

١١١ - ويضم المسيو أوليفيه . دونما سند يدعم رأيه مدينة نكروبوليس
إلى الاسكندرية ، حين يذكر أن الفرعة التي كانت تتجه من بحيرة ماريوتيس إلى
الكيوتوس Kipôtos عبر الـ Eunostos Portus^(١) ، وليسمح لي هذا العالم أن
ألاحظ وجود صخرة قد اكتشفت على مسافة ١٠٠ إلى ١٢٠ متراً من مصب
هذه الفرعة القديمة في الخليج . . كانت تشكل نوعاً من ميناء كان يزود عنه
حاجز بحري ؛ وإذا كانت هذه الصخرة ليست صخرة طبيعية . فإنها لا تكفي
لدعم رأى سوف يعطى الاسكندرية ، في الواقع ، وبالشكل الذي يطلق عليه
هذا الاسم ، مساحة كبيرة لمسد لا نهاية له ، وذلك حين يؤدي ما يذهب إليه
المسيو أوليفيه إلى أن نضع مقابر هذا الساحل دون جدال في ذلك الجزء من
المدينة القديمة ، المسماة نكروبوليس أو مدينة المقابر .

وهنا أجد من الضروري أن أنهي الأبحاث التي قمت بها أو عرضتها في هذا
القسم ، لأنها تكفي بوضوح كي تبين صعوبة التوفيق بين تقارير القدماء عن
اللاتساع الحقيقي لسور هذه المدينة القديمة .

ملخص

١١٢ - لقد أوضحت على التوالي في ثانيا هذه الدراسة :
(١) أن مدينة الاسكندرية الحديثة ، والتي قدمنا وصفاً لها ، قد بنيت فوق
كتلة من الرمال انتهى بها الأمر أن ربطت القارة القديمة بجزيرة فاروس ، وهي

(١) نشر المسيو أوليفيه ، الطيب ، وعضو المجمع العلمى الفرنسى في عام ١٧٩٤
رحلته في داخل الامبراطورية العثمانية ومصر وفارس Voyage dans l'Empire
ottoman, l'Egypte et la Perse. في ثلاثة مجلدات ، وقد خصص في مجلده الثالث
وصفاً مفصلاً لمدينة الاسكندرية في فصل عدنا إليه في كثير من الأحيان ، وكان على الدوام
ذا نفع لنا .

تدين بتكوينها إلى إنجازات مستمرة في عمليات الردم على سواحل مصر ، وبخاصة إلى هذا الطريق القديم الذى انشئ بقصد وصل القارة بهذه الجزيرة والذى اتخذ اسمه (الهبتاستاد) من طوله الذى يبلغ ٧ غلوات (ستاد تعنى غلوة) .

(ب) أن أرض المدينة القديمة التى نقل إلينا سترابون وصفاً لها لم تعد تشكل اليوم سوى أكوام من الانقاض ، وبعض بقايا شائمة للندشات التى صنعت ازدهار الاسكندرية وعظمتها فى ظل أمبراطورية البطالمة ثم أمبراطورية الرومان .

(ج) أن السور الحالى المسمى سور العرب لا يشكل سوى جزء من السور الذى كان لهذه المدينة فى عهد البطالمة والرومان ، ومع ذلك فلا يمكن أن نحدد نحن بدقة حدوده القديمة ، حيث لم يقدم لنا المؤلفون الذين نقلوا إلينا أوصافاً له ، سوى إشارات غامضة حول مختلف أنواع المقاييس التى تختلف أطوالها من إقليم لآخر ، على الرغم من أنها تحمل نفس التسمية ، على النحو الذى يتنوع نه الميل والفرسخ عند مختلف شعوب أوروبا .

١١٣ — وعندما يأسى كل الرحالة المحدثون فى كتاباتهم على ما آلت إليه هذه المدينة الرائعة ، التى سوف تنمحى وتزول أطلالها عما قريب من فوق أرضها ، وهو نفس المصير الذى آلت إليه منذ قرون كثيرة عابرة خرائب طروادة الإغريق ، وأطلال بابل وطيبة ومغيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما ، تلك الحاكمة القديمة للعالم وأطلال مدينة اليهود المقدسة ، وأطلال مدن أخرى اختفت من فوق الأرض ، فإننى أكرر مع هذا المؤلف المتميز الذى يبدو وكأنما أراد أن يبعث الحياة فى رماد كثير من مدن خربت بشكل تام فى مؤلفه : الخرائب ، أو تأملات حول سقوط الأمبراطوريات :

أكرر هذا النص الذى شكل تصديراً لدراستنا هذه :
 « لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية ؛
 وأضحت مذابح الآلهة مرتعاً للزواحف الدنسة .

آه ! كم من مجد أفل نجمه
 وكما اندثرت من روائع المنجزات ؛
 هكذا تنفى أعمال البشر ، وهكذا تزول الأمبراطوريات والدول ! »

ومع ذلك ، فلو قدر الاسكندرية أن تتول إلى حكم أمبراطورية أو دولة
 قوية متتورة كما كان شأنها فى عهد البطالمة ، فسوف يكون بمقدورها أن تجعل
 منها مركزاً لتجارة كل من أفريقيا والهند مع أوروبا .

وأنى فى هذا الصدد ، أحيل القارئ إلى الآراء التى قدمها مؤلف دراسة :
 القناة التى تربط بين البحرين ، وهو المسيولوير ، أخى الأكبر ، والذى كنت
 أنا واحداً من معاونيه ، وهى الآراء التى عرضها فى دراسته حول مشروعات
 إعادة ترميم هذه المدينة ، ومع ذلك ، فهل ياترى سيكون بمقدور هذه الآراء ،
 التى أحيل القارئ إليها ، أن تتحقق ذات يوم ، من أجل رفاهية سكان مصر
 ومن أجل ازدهار تجارة الأمم الأوربية .

ملحوظة : يحيل مؤلف هذه الدراسة على حديثه عن الطقس ودرجة
 الحرارة فى الاسكندرية ، الفقرة ١٦ وكذلك الفقرة ٥٠ ، إلى دراسته عن
 البحيرات البحرية فى مصر ، ومع ذلك فلا بد من ملاحظة أن هذا المؤلف لم
 يضمن دراسته هذه فى كتاب وصف مصر ، إلا على شكل ملخص (الدولة
 الحديثة ، المجلد الثانى ، ص ٤٦٩ إلى ٤٨٢) أما الدراسة بأكملها والتى تبلغ
 ٣٥ صفحة بحجم القوليو ، والتى طبعت فى شهر يونيه ١٨١٥ ، فقد نسخت منها
 ١٠٠ نسخة أودعت المكتبة الملكية ومكتبة المجمع العلمى ومكتبات أخرى عامة ،
 أو وزعت على عديد من العلماء ، ويستطيع من يشاء الاطلاع عليها كاملة ، أن
 يجدها فى الهيئات التى حددتها للتو .

استدراكات

فاتنا في ثانيا الدراسة الخاصة بالحدود القديمة للبحر الاحمر أن نبين أن مدينة قهيز القديمة يشغل مكانها اليوم مدينة كبريت .

وقد فاتنا أن نوضح - فيما يختص بالبلدان القديمة - أن طوا هي طنوب حالياً ، وأن نواكراتيس هي كوم جعيف ، وأن كباسا هي شباس الشهداء ، وأن كويس هي سخا ، وأن سكيديه أو شيديا هي الدشو البحري .

أما بخصوص فروع النيل القديمة ، فيلغى أن نذكر أن الفرع المنديسي هو ما يسمى حالياً بترعة البوهية ، وأن الفرع الثاني هو بحر مويس ، أما الفرع البيلوزي فهو الآن ترعة الشرقاوية ، كما أن ترعة الاسماعيلية الحالية هي نفس مجرى خليج تراجان (أو الترعة التي كانت تربط بين النيل والبحر الاحمر) ، أما الفرع الكانوبي فكان ينقسم عند منتصفه إلى فرعين الفرع البوليتيني (فرع رشيد حالياً) وكان ينتهي عند بولبتين (رشيد) وفرع آخر يمتد إلى كانوب (أبي قبر) ويسمى هذا الفرع حالياً ترعة أبي دياب ويسمى شمالاً ترعة المحمودية . ومن جهة أخرى تشغل ترعة البتاوية نفس مجرى الفرع الترموقي ، ويشغل بحر تيرة نفس مجرى الفرع السبيني ، كما أن البحر الاتريبي هو حالياً بحر شبين السكوم ويسمى شمالاً باسم بحر بسنديلة .

وقد استقيت هذه المعلومات من الخرائط التي رسمها جرجس القبرصي ، المؤرخ البيزنطي في أواخر القرن السابع الميلادي ، ويمكن اعتبار تاريخه وصفاً لحالة مصر منذ فتح العرب لها ، وقد وردت هذه الخرائط بكتاب جغرافية مصر ، تأليف الأمير عمر طوسون .

كما وقعت بعض أخطاء في الدراسة هن بحيرة المنزلة بخصوص « فتحنا دية وام فرج ، وصحتها « فتحنا قم الدية وأم فارج » .

كتب أخرى للمترجم

(أ) كتب أدبية :

المطاردون (١٩٧٠)، حكايات من عالم الحيوان (١٩٧٤)، المصيدة (١٩٧٤) ،
— مجموعات قصصية موتى بلا قبور (١٩٧٦) مسرحية مترجمة .

(ب) التاريخ (مترجمات) :

تطور مصر من ١٩٢٤ — ١٩٥٠ تأليف مارسيل كولومب (١٩٧٢) ،
فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، تأليف أندريه ريمون (١٩٧٤) ؛
مجلدات الترجمة السكالة لوصف مصر ، وقد صدر منها :

المجلد الأول : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحسدين ، تأليف
شابروول (١٩٧٦) .

المجلد الثانى : العرب فى ريف مصر وصحراوتها ، تأليف مجموعة من علماء
الحملة الفرنسية (١٩٧٨) .

المجلد القادم بإذن الله

موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر . الجزء الأول :
الزراعة — الصناعات والحرف — التجارة . تأليف ب . س . جيران

وبقية المجلدات تصدر تباعاً بإذن الله

مطبعة الجبلاوى
شارع الترمه البواقيته

رقم الإيداع ١٩٧٨/٤٣٦٤ الترقيم الدولى ٠ - ٩١ - ٧٠٤٧

